أوروپـا

في بعض

الأزمنة الحديثة والمعاصرة

أوروبا
في بعض
الأزمنة الحديثة والمعاصرة
١٤٥٣ - ١٨٤٨

الدكتور عبد المجيد نعنعي

١٩٨٣

دار النهضة العربية
للطباعة والنشر
بيروت ص.ب ٧٤٩

مقــدمة

أنه لمن التجاوز القول بأن هذا الكتاب يعرض ، ولو بأيجاز ، تاريخ أوروبا في الأزمنة الحديثة والمعاصرة كما قد يوحي بذلك عنوانه . أن ما أقدمه هو في الواقع مجموعــة من الدراسات والأبحاث حاولت فيها ، بقدر استطاعتي ، أن أعرض جوانب بعض الأحداث الكبيرة والأنجازات التي شكلت منعطفات أساسية في تاريخ القارة وأحدثت انعكاسات غيرت مجاري الحياة السياسية والدينية والفكريــة في أوروبــا كما في ما وراء حدودهــا .

وقد أجتهدت ، قدر الأمكــان ، أن أختار المواضيــع الهامة مــع المحافظة على الأبقــاء على ترابط الأحداث وتسلسل المراحل التاريخيــة البارزة .

وقد رأيت أن أركز بصورة هامة على مواضيع كانت في عصرهــا وفي نتائجها ومؤثراتها ذات ابعــاد شاملة وربما عالمية ، فعرضت لعصر النهضة ولمراحل الأصلاح الديني وما نتج عنــه من صراعات سياسيــة وعسكرية . وأيضا ابرزت مراحل بروز بعض القوى الكبيرة على مسرح الحياة السياسية الأوروبية في العصور الحديثة .

اما الثورة الفرنسية فقد أعطيتها مع ما نتج عنها من مؤثرات ونتائج كبرى في أوروبا مكانا ربما كان الأهم والأبرز في هذا الكتاب لما أعتقدته من أهميتها وصفتها العالمية . وما أهملت الأحداث التي ربما ظلت تنعكس

على مسرح السياسة الأوروبية تتيجة لها حتى منتصف القرن التاسع عشر .

وأرجو أن يكون الله قد وفقني لما أردت وأفدت القاريء .

المؤلف

العصور الحديثـــة

قد لا يكون أمرا ميسورا تحديد نهايـة مرحلة العصور الوسطى وبداية العصور الحديثة في أوروبا • فالتاريخ يرتبط أساسا بحركـة الأنسان وتطوره عبر العصور ، ولذا فهو لا يخضع لقواعد وحـدود ثابتة كما هي حال العلوم المادية مثل الكيميـاء أو الفيزياء • نحـن لا نستطيع ان نرسم خطا واضحا نجعل منه فاصلا يدلنا على مرحلتين من تاريخ الانسان في قارة كبيرة • فالأنتقال يتم عادة بشكل بطيء يصعب معه تمييز معالم التغيير بشكل واضح وفي فترة زمنية قصيرة • ثم أن الانتقـال من عصر الى آخر قد لا يتم في وقت واحد وفي كل البلدان • فالعصور الحديثة مثلا بدأت في فرنسا في وقت كانت فيه بلدان كثيرة في أوروبا ، كروسيا مثلا ، ما تزال تعيش بعقلية ومفاهيم العصـور الوسطى • بل يمكن القول أن بعض نظم وتقاليد هذه المرحلة بقيت حية فاعلة في روسيا وبعض بلدان شرق أوروبا حتى القرن التاسع عشر في وقت كان فيه الفرنسيون والانكليز قد تجاوزوا مرحلة العصور الحديثة ودخلوا ما اصطلح المؤرخون على تسميته بالتاريخ المعاصر • وربما كانت بعض مظاهر الحياة في العصور الوسطى وعاداتها ما تزال حية فاعلة في عواطف الناس وفي مشاعرهم وأساليب حياتهم حتى يومنا هذا في أكثر بلدان أوروبا تقدما ورقيا • فاليوم ونحـن نعيش عصرا امتاز بتطـور العلوم وتقدم التكنولوجيا ما زالوا كثيرين أولئك الناس الذين يؤمنون بالسحر ويطمئنون الى السحرة ودعاة العلـم بالغيب أكثر مما يلوذون بالعلماء الحقيقيين • والشعوذة نفسها ما زال لها زاوية مؤثرة في عقول وضمائر بعض السذج من الأوروبيين وغيرهم •

ومن جهة ثانية نجد أن الايطاليين قـد بدأوا بالتمرد على مفاهيـم

وفلسفة العصور الوسطى وتعرفوا الى الكثير من أفكار ونظم العصور الحديثة بأوضح أشكالها . فالشاعر الايطالي دانتي (١٢٦٥ - ١٣٢١) صاحب الكوميديا الآلهية ، المعروف بثورته على القديم ونزوعه للتغيير والتجديد ، وكذلك الشاعر والانساني بترارك(١٣٠٤ - ١٣٧٤)هما أكثر اتصالا بروح العصور الحديثة منهما بالعصور الوسطى التي عاشا خلالها .

وعلى كل ، ومع التأكيد على تداخل العصور التاريخية وصعوبة ايجاد الفواصل الواضحة بينها ، كان لا بد لتسهيل دراسة التاريخ من اعتماد بعض الأحداث العظيمة كمنعطفات أساسية تصلح لاعتبارها بداية أو نهاية مرحلة تاريخية . ويميل أكثر المؤرخين الأوروبيين لجعل سقوط القسطنطينية في سنة ١٤٥٣ بيد الأتراك العثمانيين منطلقا لبدء تاريخ أوروبا الحديث . ذلك أن أنهيار الأمبراطورية البيزنطية يعتبر حدثا خطيرا في تاريخ أوروبا من حيث أنه أنهى حياة تلك الدولة العظيمة التي بقيت طيلة عشرة قرون تحافظ على تراث الأمبراطورية الرومانية العظيمة التي زالت في القرن الخامس للميلاد . ثم أن زوال هذه الأمبراطورية قد هدم ذلك الحاجز القوي الذي طالما فصل بين دولة الاسلام في المشرق وبين جنوب وشرق أوروبا ومنع انتشار الاسلام والمسلمين في هذه المناطق. بل فوق ذلك فان انتصار الأتراك العثمانيين سنة ١٤٥٣ وتسلطهم على بعض أراضي أوروبا أوجد وفي مكان يشرف على قسم هام من مواصلاتها البرية والبحرية دولة ترفع راية الاسلام تحت زعامة بني عثمان في وقت اعتقدت فيه أوروبا أن اتجاه آخر معاقل دولة الاسلام في الأندلس ، مملكة غرناطة ، نحو الزوال قد أبعد عنها للأبد خطر المسلمين .

ثم أن هذا الحادث العظيم ساعد ، بمن هاجر من القسطنطينية من علماء بيزنطية وبما حملوه معهم من تراث المشارقة واليونان القدماء الى غرب أوروبا ، في دفع عجلة التقدم الحضاري والنهضة العلمية بشكل قوي حيث حطوا الرحال .

ومع أن المؤرخين الفرنسيين لا ينكرون أهمية هذا الحادث الا أنهم يفضلون اعتماد السنة ١٤٩٢ التي تم فيها اكتشاف القارة الأميركيـــة كبدايـــة لمرحلة التاريخ الحديث • أنه دون شك انجاز عظيم للانسانيـــة وللانسان الأوروبي بصورة خاصـــة حين اكتشف كولومبوس العالـــم الجديد • لقد أدرك الانسان يومذاك أن للعالم كل العالم صورة جغرافية أخرى غير تلك التي طالما عايشها وتعرف اليها منذ بدء الحضارة وان في العالم شعوبا وقارات غير قارات العالم القديم الثلاث وأممها • ومما كان يزيد في أهمية هذه السنة كونها شاهدت نزول علم الاسلام عن أسوار قصر الحمراء بعد أن ظل مرتفعا في سماء شبه الجزيرة الأسبانية طيلـــة قرون ثمانيـــة •

وسواءجنحنا نحو اعتماد سنة ١٤٥٣أو١٤٩٢ كنهايةللعصورالوسطى وبداية للعصور الحديثة فبين هاتين السنتين وحولهما تمت في أوروبـــا منجزات عظيمة أخرى تصلح بمجملها أو كل واحدة منها على انفراد لتكون حدا فاصلا بين مرحلتين تاريخيتين • ففي منتصف القرن الخامس عشر تقريبـــا انتهت حروب المائة سنة التي طالمـــا أعاقت تقدم غرب أوروبـــا وازدهارها بما أنتشر على طول الدروب التي كان يسلكها المحاربون من تخريب ودمار وما كانت تستنزفه من طاقات ودماء الأوروبيين • وفي نفس الحقبة الزمنية تقريبا تعرفت أوروبا الى الطباعة وهو الحدث الذي كان لا بد منه لجعل تقدم العلوم والآداب ميسورا بل وممكنا • وفي النصف الثاني من القرن الخامس عشر وأوائل السادس عشر وبعد أن تعرف سكان غرب أوروبا الى طريق رأس الرجاء الصالح واتصلوا بأنفسهم ومباشرة بسكان شرق أفريقيا وبلدان المحيط الهندي والمشرق الأقصى انتقلـــت السيادة على التجارة الدولية مـــن سكان المدن الايطاليـــة الى الاسبان والبرتغاليين ومن ثم الى أوروبيين آخرين مما أفقد البحر المتوسط أهميته التاريخية كعقدة للمواصلات البحرية والتجارة الدوليـــة بين سكـــــان القارات الثلاث •

هذه كلها أحداث عظيمة في تاريخ القارة توالت في فترات زمنيـــة

متقاربة بين منتصف القرن الخامس عشر ومطلع السادس عشر للميلاد فأحدثت في بلدان أوروبا تغييرات أساسية وهامة شملت جميع مظاهر الحياة مما جعل الناس يدركون أن مرحلة جديدة قد بدأت حقا في أوروبا. ولعل بإمكاننا تلمس أبلغ مظاهر التغيير في المجالات التالية :

ظهور الدولة الملكية القومية :

لعل الميزة الأساسية للحياة السياسية في العصور الوسطى كانت تفكك السلطان السياسي وغياب الحكومات المركزية القومية القوية . فأمبراطور الأمبراطورية الرومانية المقدسة الذي كان يمارس السيادة قانونيا على قسم كبير من سكان أوروبا كان ينازعه السلطان الفعلي عدد كبير من الحكومات الملكية والأميرية والمدن الأسقفية والمدن الحرة تتمتع كل منها بقسط وافر من السلطان والنفوذ مما كان يجعل في حالات كثيرة سيادة الأمبراطور أسمية . أما في غرب أوروبا وخاصة في أنكلترا وفرنسا فالسيادة كان يمارسها ملوك ضعاف ينازعهم النفوذ الفعلي اقطاعيون كبار لبعضهم من اتساع الأرض وكثرة المال ووفرة الأتباع ما يجعلهم أحيانا أقوى من الملك وأعز حالا . واذا كان للكنيسة الكاثوليكية نفوذ واسع على سكان أوروبا تمارسه من فوق الحدود والأنظمة السياسية والاقطاعية فانها قد أضاعت الكثير من طاقاتها بما كانت تبذله من محاولات لفرض سلطانها وسيادتها الزمنية ليس فقط على الشعوب بل وحتى على الملوك والأباطرة وخاصة في ذلك الصراع الطويل والمرير الذي خاضته البابوية ضد الأمبراطورية في القرون الأخيرة من العصور الوسطى والذي استنفذ الكثير الكثير من طاقاتها وقدراتها وحتى من سمعتها ومهابتها . ومع ظهور العصور الحديثة برزت في أوروبا ، وبصورة خاصة في مناطقها الغربية أشكال جديدة للحكم . فالحدود القومية أخذت تتوضح معالمها بصورة متزايدة وحلت في بلدان كثيرة محل الحواجز الطبقية التي كانت شائعة في ظل النظام الاقطاعي في العصور الوسطى . وبذا اتجهت شعوب اوروبية كثيرة نحو التجمع على أسس قومية وضمن حدود واضحة

في وحدات سياسية مستقرة . وكان يرافق ذلك ظهور الملكيات القوية باعتبارها أكثر الأنظمة ملائمة لأوضاع أوروبا آنذاك . ومع تزايد انتشار هذا الشكل الجديد للدولة صار الأوروبيون منذ مطلع القرن السادس عشر يتصرفون كامم ترتكز الى دعائم قومية ويلتزمون بولاء كبير لدولهم ولحكامهم . وفي هذا الوقت بدت ظاهرة الدولة الملكية القومية أوضح ما تكون في أنكلترا وفرنسا واسبانيا .

أنكلترا : امتاز الحكم في أنكلترا منذ صدور الماكناكرتا سنة ١٢١٥ باجماع الاقطاعيين والأكليروس والعامة على تأييد الملكية الانكليزية القوية . وخلال حروب المائة سنة الطويلة والدامية ازداد تعلق الانكليز بعرشهم وترسخت وحدتهم القومية وازداد شعورهم بوحدة المصير . وقد برزت وحدة الانكليز وتمسكهم بعرشهم واضحة المعالم خلال تلك الحرب الاقطاعية التي اجتاحت البلاد في النصف الثاني من القرن الخامس عشر (١٤٥٥ ــ ١٤٨٥) والمعروفة بحرب الوردتين . وكانت هذه الحرب واحدة من آخر الحروب الخاصة التي ميزت العصور الوسطى باعتبار انها وضعت وجها لوجه عائلة يورك وكان شعارها الوردة البيضاء وعائلة لانكستر وشعارها الوردة الحمراء في صراع مرير حول الزعامة تجسد في رغبة الفريقين في السيطرة على مجلس الملك . وقد بقيت الحرب محصورة بين العائلتين وأتباعهما بينما تابع الإنكليز العاديون في مدنهم كما في مزارعهم حياتهم العادية وتطورهم الاقتصادي والاجتماعي .

انتهى هذا الصراع لصالح عائلة ثالثة ــ قريبة لآل لانكستر ــ هي عائلة تودور . وفي سنة ١٤٨٥ نزل هنري تيدور على الشاطيء الانكليزي بدعم وتأييد من الملكية الفرنسية وأقام لعائلته ملكية جديدة واتخذ لنفسه اسم هنري السابع .

وقد ركز هنري السابع العظيم جهوده في القضاء على آخر مخلفات العصور الوسطى فنظم الادارة وأصلح القضاء وكانت ابرز أعماله التي ميزت مرحلة دخول انكلترا العصور الحديثة استكمال

وحدة الجزر البريطانية بعد أنضم اليها بموجب وثيقة سنة ١٥٣٥ بلاد الغال وكذلك وضع أول حجر في بناء الامبراطورية البريطانية لما وراء البحار حين ارسل البحار جون كابوت في بعثة استكشافية بحثا عن أرض جديدة .

فرنسا : منذ مطلع القرن الحادي عشر وفي قلب العصور الوسطى دخلت الملكية الفرنسية في صراع مرير ومستمر مع النبلاء الاقطاعيين وذلك من أجل العمل على توحيد المملكة فعليا وجعل سلطان الحكومة المركزية يمتد ، من فوق نفوذ الاقطاعيين الى جميع أنحاء البلاد . وحين صار عرش فرنسا الى آل فالوا Valois أضاف هؤلاء الى السعي المستمر لتقوية سلطان العرش والدولة في الداخل مهمة أخرى أشد تعقيدا وأكثر صعوبة وهي العمل لتحرير اجزاء كبيرة من الأرض الفرنسية آلت الى العرش الانكليزي عن طريق الوراثة أو الزواج . ومن أجل تحرير هذه الأراضي كانت تلك الحرب الطويلة : حرب المائة سنة التي خاضها الفرنسيون ضد الأنكليز وبانتهاء هذه الحرب سنة ١٤٥٣ كان الفرنسيون قد أخذوا كل أراضيهم — ما عدا مرفأ كاليه — من الانكليز . الا أن الانجاز الأهم والأعظم الذي تمخضت عنه هذه الحرب هو أنها صهرت الشعب الفرنسي ووثقت العلاقات بين أفراده من فوق ما كان قد بقي في فرنسا من حواجز اقطاعية وجعلته يتكتل ربما للمرة الاولى منذ قرون عديدة وراء ملوكه سعيا وراء قضية . وكان لكل هذا نتائج باهرة أهمها ابراز الوحدة القومية للأمة الفرنسية وتقوية الملك الفرنسي الذي كان يتصرف أثناء الحرب الطويلة كزعيم وقائد أول لكل الأمة ، وتوسيع نفوذه وتركيز سلطان دولته على حساب النبلاء .

وقد تأيد سلطان الملوك الفرنسيين في السنوات الأخيرة من هذه الحرب حينما حصل شارل السابع سنة ١٤٣٩ من مجلس الطبقات على مكسب دستوري عظيم يسمح له بانشاء جيش دائم وبجمع الضرائب من الشعب كل الشعب مباشرة ، وهذه حقوق كان النبلاء يتمسكون بها

لأنفسهم بحزم وعناد منذ ظهور الأقطاع .

الجيش الذي تركه شارل السابع وكذلك الخزينة الدائمة الموارد مكنا ابنه لويس الحادي عشر من متابعة الصراع ضد النبلاء لأنتزاع ما كان قد بقي لهم من امتيازات العصور الوسطى . وقد حقق الكثير في هذا المجال . كذلك تمكن هذا الملك خلال حكمه الطويل من ضم أراضي بورغنديا وبيكاردي حين توفي صاحبها شارل الجسور دون وريث سنة ١٤٧٧ . وكذلك ضم لفرنسا ، البروفانس سنة ١٤٨١ ، عند وفاة آخر ملوكها دون وريث مباشر .

وبذا حقق لويس الحادي عشر منجزات ضخمة ، على الصعيد الداخلي في مجال التمكين لسلطان العرش على حساب النبلاء ، وعلى الصعيد الخارجي عن طريق العمل على جعل فرنسا تستكمل وحدتها القومية . وعلى هذا فقد واجهت فرنسا بعد وفاته سنة ١٤٨٣ القرن السادس عشر وهي قوية متماسكة ذات نظام ملكي مركزي قوي يعمل بعناد واصرار على تخليصها من آخر ما علق بها من رواسب العصور الوسطى .

اسبانيا : واجهت هذه البلاد العصور الحديثة واحدة موحدة بعد أن ظلت طيلة العصور الوسطى مقسمة الى ممالك ودول ، للاسلام والمسلمين نصيب كبير من السيادة والسلطان فيها . ظهرت اسبانيا المسيحية موحدة سياسيا لأول مرة سنة ١٤٦٩ بعد زواج فرديناند الثاني ملك آراغون مع أيزابيلا ملكة قشتالة Castilla واتحاد بلديهما في ظل ملكية واحدة باسم « الملوك الكاثوليك » . ثم أن استيلاء الملوك الكاثوليك سنة ١٤٩٢ على مملكة غرناطة آخر معاقل المسلمين في شبه الجزيرة الأيبرية والقضاء على الوجود الاسلامي الذي استمر هناك ثمانية قرون ، اكمل وحدة الدولة الاسبانية ورفع من مهابة عرشها بدرجة كبيرة ساعدت على ترسيخ دعائم الملكية وجعلها مركزية قوية نافذة مستقرة .

وبذا واجهت اسبانيا العصور الحديثة وفيها حكم الملوك الكاثوليك القوي والذي يعتبر بحق أزهى عصور أسبانيا المسيحية وأحفلها بالأمجاد والانجازات الكبيرة • ذلك أنه كان نقطة الانطلاق لقيام حكم مركزي قوي لأول مرة منذ قرون كثيرة ولبدء مرحلة الاكتشافات فيما وراء البحار مما أدى الى بناء امبراطورية اسبانية مترامية الأطراف في أميركا وفي المشرق الأقصى •

تطور العلوم والثقافة :

كانت الكنيسة في العصور الوسطى تهيمن على الحياة العلمية والثقافية والأدبية وتحتكر لرجالها من الكهنة والرهبان المعرفة والتعليم من دون سائر الناس • فالمدارس والجامعات تقع تحت السيادة المباشرة لرجال الدين ينقلون العلوم والآداب لقلة نادرة من الناس هم في غالب الأحيان من الاكليروس ودائما وفق حاجة الكنيسة ولخدمة أغراضها • فثقافة العصور الوسطى كانت دينية صرفة تحوي ما تسلم به ويتوافق مع النصوص المقدسة والتقاليد المسيحية •• ومما كان يقوي من سيطرة الكنيسة على الحياة الفكرية كون اللغة اللاتينية كانت وحدها مقبولة ومتداولة في المدارس والجامعات من دون سائر اللغات القومية • ولما كانت اللغة اللاتينية صعبة الى حد ما ، وتعلمها يقتضي الكثير من الوقت والجهد مما كان لا يتيسر عادة لعامة الناس ، فقد كان رجال الدين وحدهم يجيدونها ويحتكرون لأنفسهم معرفتها وتعليمها • وقد حافظت الكنيسة بعناد شديد ولزمن طويل على سيادة اللاتينية على الحياةالعقلية باعتبار أن ذلك يسمح لها بفرض رقابة شديدة على تطور الثقافة فلا تنحو في اتجاهات لا تتوافق والمعتقدات المسلم بها في دوائرها • ومن هنا كانت محاربة الكنيسة ورجالها الشديدة للغات القومية « الدارجة » والمحكية من عامة الناس • كانت هذه اللغات متهمة بأنها متخلفة وغير قادرة على احتواء مضمون ثقافة انسانية متطورة وهذا ما كان يبقي أولئك الذين لا يجيدون غيرها ــ وهم عادة في كل بلد السواد الأعظم من الناس ــ

بمعزل عن الثقافة والعلم والأدب •

انما قدرة الكنيسة على محاربة اللغات القومية لصالح اللاتينيةكانت ترتبط الى حد كبير باستمرار نفوذها السياسي• ومع تراجع هذا السلطان في أواخر العصـور الوسطى ، على الحكومات كمـا في أوساط الناس العاديين أخذت اللغات الدارجة باعتبارها لغات الملايين من الناس تنتشر وتفرض نفسها كاداة تخاطب ونقل للثقافة والفكر وعلى نطاق واسع • وقد رافق ذلك عودة اللغتين القديمتين اليونانيـة والعبرانية اللتين كانتـا تحفظان آداب وعلوم الشعوب القديمة ، للظهور والانتشار بعد طـول احتجاب • ورافق ذلك حركة جدية تهدف لدراسة الكون والعالم فـي محاولة للتعرف الى أسراره وقوانينه بعد أن حالت الكنيسـة ولقرون طويلة دون ذلك فارضة على الناس الاكتفاء بما كانت تذيعه هي ويعلمه رجالها للناس من مبادىء المعرفة والعلم •

أعطت هذه الاتجاهات الجديدة في مطلع العصور الحديثة نتائج طيبة اذ بدأت تتكون في القرن السادس عشر معالم ثقافة علمانية جديدة وجدت طريقها بسرعـة الى عقـول وأفكار ملايين الناس وبتكاليف رخيصـة الثمن نسبيا بفضل تعرف أوروبا الى الطباعة •

وعلى هذا دخلت ملايين الناس في أوروبا عالم الثقافة والفكـر وحطمت احتكار اللاتينية للمعرفة وتخلصت من رقابة الكنيسة على عقول الناس • وما عادت الثقافة حقلا مخصصا لمن يتقنون اللاتينية وجلهم من الرهبان ورجال الكنيسة ولمن يملكون القدرة المالية على اقتناء المخطوطات الباهظة التكاليف وهم قلة نادرة زاهدة في العلم والعلماء ، كما كان عليه الوضع طيلة العصور الوسطى •

الاكتشافات الجغرافيـة :

كان الناس في العصور الوسطى يجهلون الكثير عن الأرض التي يعيشون عليها ، ويكتفون بعالمهم القديم الذي يضـم القارات الثـلاث المحيطة بالبحر الأبيض المتوسط عقدة الاتصال بين مناطق العالم المتمدن آنذاك . وخارج هذا الاطار كانوا يجهلون كل شيء تقريبا عن المحيطات الكبرى وعما فيها ووراءهـا . يكفي ان نسوق على سبيل المثال هنـا أن مسلمي الأندلس الذين حققـوا أزهى وأرقى حضارة في العصـور الوسطى كانوا يجهلون كل شيء تقريبا عن المحيط الأطلسي الذي كانت مياهه تبلل شطآنهم في اسبانيا حتى أن جغرافييهم كانوا يطلقون عليـه لقب « بحر الظلمات » . أيضا ضمن قارات العالم القديم الثلاث مناطق كثيرة كانت مجهولـة تقريبـا من العالم المتمدن مثـل وسط وغـرب أفريقيا وشرق أوروبا وشمـال شرق آسيـا . والقليـل من المعلومات التي أتصلت بالشعوب المتمدنة عن هذه المناطق يصعب الى حد كبير التمييز فيه بين الواقع والخيال وبين الحقيقة والخرافة . وكانت الكنيسة تقف عائقا أمام بحث الناس عن الحقيقة فارضة عليهـم مسلمات لا مجـال لمناقشتها أو رفضها والا حل غضب رجالها على من حاول التمرد ونال عقابا أقله الحرمان وربما الموت .

الا أن القرن الخامس عشر شاهد ، لضرورات اقتصادية وسياسية ملحة بداية حركـة تهدف للتعرف الى المجهول من الأرض . كان أول منجزاتها غزو البرتغاليين سنة ١٤١٥ لمدينة سبتة على الشاطيء المغربي مما اعتبر الخطوة الأولى في طريق اكتشـاف جغرافية العالـم والتعرف الى أقسامه وأبعاده . وتتابعت منجزات هذه الحركـة طيلـة القرنـين الخامس عشر والسادس عشر . نجح فاسكو دي غاما في الدوران حول أفريقيا ووصل بحرا الى الهند فأقـام أول اتصـال بحري مباشر بـين شطآن أوروبـا الغربيـة وبلاد الشرق الأقصى ، وهذا أدى الى تراجع نفوذ المسلمين والايطاليين على خط التجارة بين أوروبا والشرق ، والى

اقامة امبراطورية برتغالية عظيمة في المحيط الهندي • ثم أن رحلات كولومبوس ومن تبعه بعد ذلك من الرواد الاسبان كشفت لانسان العالم القديم انه ليس وحيدا على الكرة الأرضية ، وأن المحيط الأطلسي يخفي وراءه قارة عظيمة أطلقوا عليها اسم أميركا وأقام عليها الاسبان امبراطورية واسعة مترامية الأطراف • ثم كانت بعد هذا رحلة ماجلان التي أثبتت بالدليل المادي وبما لا يترك مجالا للمناقشة كروية الأرض ، تلك الفكرة التي حاربتها الكنيسة طيلة العصور الوسطى وناهضت القائلين بها مما أصاب سمعة الكنيسة ومؤسساتها العلمية بنكسة قوية •

وهكذا في مطلع العصور الحديثة صارت خريطة العالم تختلف بصورة أساسية عما كانت عليه من قبل • فقد انهارت تماما المعلومات الجغرافية التي ظلت تدرسها وتتمسك بها الجامعات والمدارس في ظل سيادة الكنيسة عن شكل العالم وأبعاده وقاراته وبحاره وطرق مواصلاته •

ومع تحقيق هذه الانجازات انتقل بصورة سريعة مركز الثقل في التجارة العالمية والمواصلات البحرية وبالتالي محور السياسة الأوروبية من البلدان الواقعة على شواطيء المتوسط ، وخاصة المدن الايطالية ، الى دول غرب أوروبا المطلة على المحيط الأطلسي وصاحبة الأمبراطوريات العالمية الجديدة فيما وراء البحار مثل اسبانيا والبرتغال ثم بعد فترة زمنية وجيزة انكلترا وفرنسا وهولندا •

الاقطاع والرأسمالية :

كان النظام الأقطاعي أساس التنظيم الاقتصادي في العصور الوسطى • في ظله كان الناس يقسمون الى طبقتين رئيسيتين : طبقة عليا قليلة العدد تملك الأرض ، كل الأرض ، فتستغل نتاجها وتتحكم بمصائر

سائر من يقيمون عليها وأخرى دنيا ، تضم السواد الأعظم من الناس ، تعمل في الأرض وتخضع لسلطان الأولى . ومالك الأرض ، وكان يسمى « النبيل » أو السيد الاقطاعي كان سيد الأرض المطلق ومن عليها من بشر وحيوان ونبات . وكان النبلاء يندرجون في سلسلة من المراتب يدين فيها الواحد لآخر أعلى منه مرتبة وفي قمة السلسلة كان يقف الملك باعتباره سيد السادة الاقطاعيين . انما رابطة الولاء للملك كانت في أكثر الأحيان واهية واسمية أكثر منها فعلية أذ لم يكن الملك في معظم الحالات أقوى الاقطاعيين أو أوفرهم مالا أو أكثرهم نفرا أو اعزهم جاها . وكانت بلدان أوروبا الغربية بصورة خاصة مقسمة الى آلاف الاقطاعات ترتبط مع بعضها البعض في غالب الأحيان برباط واه وتخضع لسادة اقطاعيين يستمدون قوتهم من ما يسيطرون عليه من أرض زراعية باعتبارها أساس الثروة ومصدر الانتاج وما عندهم من مزارعين وأتباع يعيشون في ظلهم ويدينون لهم بالطاعة والولاء .

ومع ظهور الثورة التجارية ونمو المدن المستقلة في القرون الأخيرة من العصور الوسطى أخذت تظهر فئة جديدة من الناس تعيش خارج اطار الحياة الاقطاعية وتستمد أسباب حياتها من غير طريق الأرض الزراعية وبمعزل عن نفوذ وتسلط النبلاء الاقطاعيين . كان ابناء هذه الفئة يمارسون التجارة والحرف الصغيرة الحرة في مدن ناشئة تقوم غالب الأحيان في الأراضي التابعة للكنيسة أو على طرق الملاحة النهرية ، أو على السواحل . وقد اصطلح الناس على تسمية هذه الفئة الجديدة باسم الطبقة المتوسطة . والواقع أن ظهور المدن وتطورها السريع في أواخر العصور الوسطى رافق ظهور هذه الطبقة الجديدة واعطى من يريد التحرر من قيود الاقطاع القدرة على ذلك كما أمن له أسباب العيش والبقاء .

ومع اكتشاف العالم الجديد تدفقت الفضة ثم الذهب وظهرت امكانيات هائلة في البلدان المكتشفة كان سكان المدن من تجار وحرفيين

الأقدر والأكثر استعدادا للافادة منها • وبسرعة تدفقت على المدن موارد وافرة وجمعت بأيدي بعض سكانها ثروات ضخمة مما أدى الى خلـق فئة جديدة من الناس هي فئة الرأسماليين • وبالطبع ما كانت مصالـح هذه الفئة تتناسب اطلاقا مع بقاء الاقطاع باعتبار أن الاقطاعيين بما كانوا يقيمونه حول أراضيهم من حدود وحواجز جمركية وبما كانوا يجبونه من ضرائب لأنفسهم يعرقلون نمو التجارة عبر بلدان أوروبـا مما يسيء لنمو مصالح التجار والرأسماليـة الناشئة • يضاف الى ذلك أن الأرض ما عادت وحدها مصدر الانتاج وأساس الثروة وبالتالي فانه ليس مـن المعقول أن يظل مالكوها وحدهم يحتكرون السلطان والنفوذ • وبذا رأت الطبقة المتوسطـة عامة أن تربط مصيرها بمصير الأنظمة الملكيـة وتساعدها بل وأحيانا تدفعهـا لاستعـادة النفوذ السياسي من أيـدي الاقطاعيين • فالطبقـة المتوسطة تبنت بقوة وعناد قضيـة النظام الملكي وأمدته في كل مكان بالهبات والقروض لتنظيـم الادارة واعداد الجيوش للقضـاء على ما تبقى للاقطاعيين من نفـوذ قديم ولترسيخ دعائم الملكية القومية القويـة •

وهكذا فان العصور الحديثة شاهدت ظهور طبقة جديدة هي الطبقة المتوسطـة ، مصدر رزقها التجـارة والحرف ، لعبت دورا أساسيا في تحطيم نفـوذ الاقطـاع لحساب الملكيـات ، وساعـدت في تثبيـت دعائـم الدولـة القومية ذات الحدود الواسعـة مما يضمن نمو واتساع مصالح الطبقة المتوسطة •

الاصـلاح الدينـي :

من المعروف أن الكنيسة قد تورطت كثيرا خلال العصور الوسطى وخاصة في قسمهـا الأخير في الحياة السياسية والاقتصادية وتصرفت في حالات كثيرة على أنها دولـة أو ربما على أنها دولة أسمى وفوق كـل الدول • وحصل رجالها في كل مكان على امتيازات واعفاءات لا حد لها جعلت منهم مواطنين من فئة ممتازة • وهذا كله أبعد الكنيسة ورجالها

كثيرا عن الصورة التي أرادها لكنيسته السيد المسيح • بل أن كثيرا من الشوائب والمعايب لحقت بالمؤسسات والنظم الكنسية مما أفقدها الكثير الكثير من طهارتها وصفائها • وفي حالات كثيرة امتد الفساد الى أعلى المراتب الكنسية وتعرض الكرسي البابوي نفسه لمساومات وتسويات وخلافات لا تليق اطلاقا بمن هو خليفة للرسول بطرس •

ومع ظهور العصور الحديثة وما رافقها من اكتشافات جغرافية وبروز أفكار جديدة تأكدت أصالتها بعد أن ظلت الكنيسة تناهضها زمنا طويلا مثل كروية الأرض ما عاد الناس يقبلون كل ما تقول به الكنيسة ورجالها على أنه لا مجال لمناقشته والبحث فيه ، بل تجرأ الناس عليها وارتفعت الأصوات من كل جهة تنادي بضرورة اصلاح المؤسسات والنظم الكنسية لتخليصها مما علق بها من زوائد وشوائب في العصور الوسطى • فكان أن ظهرت مع اطلالة العصور الحديثة دعوات الاصلاح الديني قوية جريئة فاعلة •

واذا كانت قد ارتفعت حتى في قلب العصور الوسطى أصوات تطالب بالاصلاح فأنها ظلت دون نتائج عملية فبقيت دعوات جونويكليف Wickliffe وصيحات هس دون استجابة • وكذلك لم تعط ثمارا يانعة مجامع كنسية كثيرة عقدت في أواخر العصور الوسطى من أجل الاصلاح •

الا أن فكرة الاصلاح لاقت استجابة أفضل في مطلع العصور الحديثة بسبب ما انتشر فيها من أفكار جديدة تعتمد العقل والمنطق والبحث العلمي المجرد أكثر مما ترتكز الى العاطفة والتمسك بالقديم •

المجتمعات الأوروبية :

في القرن السادس عشر صار الانسان الأوروبي يؤثر بشكل واضح على ظاهر الأرض في محاولة منه للتغلب على مصاعب الطبيعة للحصول

على مزيد من الدخل • اذ أخذ يعيد اعمار واستثمار الأراضي التي خربتها الحروب الاقطاعية وخلفتها متروكة ومهملة • واستتبع ذلك عمليات جريئة ومتزايدة الاتساع لتقطيع الغابات وتجفيف المستنقعات واستصلاح الأراضي البور • وأكثر ما كانت تجري هذه العمليات في الأراضي القريبة من المدن حيث كانت تقدم فئة التجار والحرفيين المتزايدة الثروة الرساميل الضرورية لمثل هذه العمليات وتستهلك وبأسعار مجزية نتاج الأراضي المستغلة • وكان من نتيجة هذه العملية ازدهار كثير من السهول في بورغنديا وجنوب المانيا وسواحل ايطاليا حتى أن بعضها عمر بالسكان • وكان العاملون في هذه الأراضي يأتون من الأرياف حيث عجز الأقطاع ، بسبب عدم قدرته على التطور وعجز عقول سادته وضيق الأرض عن استيعاب المواليد الجدد ، عن تأمين الكافي من أسباب العيش لهم • وآخرون كانوا يتركون أراضيهم ويأتون الى المدن للتمتع بما تؤمنه من أجواء الحرية وللتخلص من قيود الاقطاع فيعملون اما في الأراضي المستصلحة أو قريبا منها أو يحاولون تعلم مهنة أو حرفة أو يدخلون في خدمة التجارة والمواصلات •

ولقد أدت هذه الهجرات الى تسارع كبير في نمو المدن الناشئة فبلغ سكان بعضها أرقاما مدهشة بالنسبة لذلك الزمن هذا اذا صحت الاحصاآت أو بعبارة أصح التقديرات التي وصلتنا • فكان في نابولي ماية وخمسين الف شخص ، وفي كل من باريس وميلانو ماية ألف ، وفي مدن كثيرة مثل لندن وجنوى وأنفرس وليون ما يزيد على خمسين ألف • هذا التطور السكاني يتعارض الى حد كبير مع التركيبة السكانية للمجتمع الاقطاعي حيث السواد الأعظم من الناس كانوا يقطنون في الأرياف وما ضمت أكبر مدنه كباريس مثلا أكثر من عشرين ألف شخص •

ولعل مما دفع اعدادا كبيرة من الفلاحين الى اللجوء الى المدن للعيش فيها أو للعمل في المزارع القريبة منها الارتفاع السريع الذي حصل في أسعار المواد الغذائية مثل القمح بصورة خاصة وذلك بسبب ما تدفق

على المدن الناشئة منذ مطلع القرن السادس عشر من ذهب وفضة ، أما بسبب الاستغلال السريع للمناجم الأوروبيـة أو بسبب الاكتشافات الجغرافية وهذا العامل هو الأهم قطعا • ويضاف الى ذلك ان المدن كانت تستهلك بسهولة كبيرة تناج الأراضي المجاورة مما يجعل العمل فيها مجزيا •

ولم يكتف انسان القرن السادس عشر بمحاولته التأثير في المظهر الخارجي لأرضه وانما اندفع يعمل على التعرف الى ما في باطنها من ثروات • فالصناعات الناشئة كانت بحاجة ماسة للطاقة التي ما كان الحصول عليها من الغابات أمرا سهلا لأن النبلاء وكبار ملاكي الأرض كانوا يحرسونها بحذر كبير لتبقى مصدرا أساسيا للصيد يقضون فيها أوقات راحتهم وتسليتهم • ففي منتصف القرن السادس عشر صار الأوربيون يستخرجون سنويا مئات الألوف من الأطنان من الفحم الحجري •

وهكذا فان ظهور الدولة القومية القوية في أوروبا قد رافقه حدوث تحولات جذرية وواضحة في التركيب الأساسي لبنية المجتمعات الأوروبية الاقتصادية والاجتماعية ساعدتها الى حد كبير في التغلب على ما كان لا يزال بيديه الاقطاع من مقاومة لابقاء أوروبا مرتبطة بنظم العصور الوسطى • فالقرن السادس عشر اجمالا كان غنيا بدرجة كبيرة بأحداث جذرية شملت مختلف مظاهر الحياة بحيث جعلت منه شيئا آخر مختلفا عما سبقه من عصور ومنطلقا قويا لما اصطلح المؤرخون على تسميته بالعصور الحديثة •

عصر النهضة

أو

الانبعاث

عصر النهضة أو الانبعاث Renaissance ، الذي رافق ظهور العصور الحديثة كان ، الى حد كبير ، مرحلة انتقالية بين العصور الوسطى والعصور الحديثة • هذه المرحلة ما كانت في الواقع منفصلة تماما عـن الأزمنة السابقة واللاحقة لها ، باعتبار ان الكثير من جذورها تمتد عميقة في قلب العصور الوسطى ، كما أن بعض مظاهرها الهامة لا تظهر في بعض بلدان غرب أوروبا الا في زمن متأخر من العصور الحديثة • الا أنه كانت لها دوما ميزات وخصائص جعلت المؤرخين والباحثين يعطونها طابعا مميزا ويصنفونها على أنها حقبة تاريخية على شيء من الاستقلال عما سبقهـا ولحقها رغم التصاقها الى حد كبير بالأزمنة الحديثة •

كانت النهضة في هذه الفترة عامة شاملة بحيث ظهرت آثارهـا بما حدث من تغيير بارز في الحياة الفكرية والثقافية والفنية والاقتصاديـة والاجتماعية أبعدها عما كان حاصلا في العصور الوسطى • ولعل هذا ما جعل ، أبرز مؤرخي عصر النهضـة ، السويسري بوركهارد Burkhardt يعرفه بأنه الفترة التي اكتشف فيها الانسان ذاته وتعرف الى نظرة جديدة للحياة والكون ، الى جانب بعثه للعالم القديم بما كان فيه من حـضارة وآداب وفنون •

ولما كانت هذه النهضة قد ظهرت بصورة أساسية في المدن وبمساعي الطبقة البورجوازية وفي ظل الدولة القومية التي باتت الشكل الأمثل للحكم منذ مطلع العصور الحديثة ، فقد جاءت علمانية الطابع بعيدة بالقدر الذي سمحت به الظروف عن نفوذ الكنيسة الكاثوليكية وتوجيهاتها • ذلك أنه بانتقال مركز الثقل في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في أوروبا من الأرياف كما كان الوضع زمن الاقطاع الى المدن الناشئـة

حيث المكانة الأولى لبورجوازية المال والتجارة ، أضعف بشكل واضح من قدرة الكنيسة على السيطرة على عقول الناس وأفكارهم . وهذا سمح بأن يكون النتاج الفكري لعصر النهضة علماني الطابع ، وفي حالات كثيرة مخالفا لتوجيهات الكنيسة وسياستها .

لقد ظهرت أولى بوادر الانبعاث الحضاري ، في المدن الايطالية حيث ، أصلا ، ما كان التحول نحو الاقطاع في العصور الوسطى تاما وشاملا كما كان الأمر في فرنسا أو أنكلترا ، أو المانيا . مدن ايطالية عديدة مثل البندقية وجنوى وبيزا وفلورنسة حافظت خلال العصور الوسطى على بعض مظاهر الحياة المدينية ، فبقيت بعض مؤسساتها السياسية والبلدية الموروثة من أيام الرومان حية فاعلة فيها . ولعل قرب هذه المدن من الأمبراطورية البيزنطية ووقوعها على خطوط التجارة الدولية آنذاك أبقى لها بعض صناعتها ونشاط تجاري ملحوظ مما زاد في قدرتها على مقاومة التحول نحو الاقطاع . وعلى هذا فحين بدأت العصور الوسطى تلفظ أنفاسها كانت المدن الايطالية وحدها قادرة على حمل لواء نهضة جديدة في أوروبا يساعدها في ذلك عاملين هامين :

ـ أن الحضارة الرومانية القديمة ، ما انطفأت شعلتها تماما في شبه الجزيرة الايطالية أيام العصور الوسطى ، بل بقيت بعض آثارها من أبنية عظيمة ومنشآت وجسور وتماثيل بل ومخطوطات علمية وأدبية ، رغم ما تعرضت له البلاد من أهوال ونكبات وغزوات بعد انهيار امبراطورية روما .

ـ ان ما جمعه حكام وسكان المدن الأيطالية من مال وذهب بفضل ممارستهم التجارة وأعمال النقل البحري أيام الحروب الصليبية وبعدها جعل هذه المدن قادرة على القيام بمثل هذه الحركة .

ثم أن ما كان بين امراء المدن الأيطالية وبورجوازيتها من تنافس تجاري واقتصادي في أواخر العصور الوسطى خلق نوعا من التعصب

المحلي تجلى بصورة واضحة في مطلع عصر النهضة في التنافس في صرف المبالغ الضخمة لتشجيع الآداب والعلوم وانشاء المكتبات العامة والخاصة وأعمارها بالمخطوطات والنفائس ، وفي رعاية فنون النحت والتصوير والعمارة • واستفاد من هذا التنافس فنانون ورسامون وأدباء ومؤرخون كثيرون فحصلوا على رعاية الحكام والأثرياء المادية والمعنوية فأعطوا نتاجاً خيرا في مجالات الفكر والفن •

بدأت طلائع النهضة تظهر بشكل واضح في ايطاليا قبل نهاية العصور الوسطى ، أي في منتصف القرن الرابع عشر ومنها أخذت تمتد ولكن ببطء شديد الى بعض بلدان أوروبا المجاورة • وامتد عصر النهضة في ايطاليا حتى أواخر القرن الخامس عشر حين تعرضت للغزو على يد الملك الفرنسي شارل الثامن سنة ١٤٩٤ ، مما خلف فيها الكثير من الخراب والتدمير •

وبسبب انشغال انكلترا وفرنسا بحرب المائة سنة فان مظاهر النهضة ما ظهرت جديا في البلدين الا في أواخر القرن الخامس عشر ومطلع السادس عشر •

احياء التراث القديم :

كان أبرز ، وربما من أول مظاهر عصر الانبعاث ، محاولة العودة الى التراث الأوروبي القديم من يوناني وروماني لدراسته والتعرف الى ما فيه من كنوز العلم والمعرفة • ذلك أنه طيلة العصور الوسطى غلف النسيان والاهمال هذا التراث • فالكنيسة في هذه العصور ، ما كانت تجد في في تراث القدماء الا صورة لوثنيتهم وبالتالي فليس في أحيائه والمحافظة عليه فائدة ترتجي لعصر ، السيادة العقائدية فيه للنصرانية • فالكنيسة التي كان رجالها يجيدون اليونانية واللاتينية كانت تعرف التراث القديم وما يحويه ، بل أن بعضه كان يدرس من قبل الاكليروس ولكنها ما كانت ترضى بانتشاره وتعميم أفكاره على الناس لما فيه من قيم وفلسفات ومثل

لا تقرها المسيحية .

في أواخر العصور الوسطى ومع تكاثر المدارس والجامعات وظهور طبقة المتعلمين والمثقفين في المدن من العلمانيين صار هؤلاء يتجهون بصورة متزايدة نحو ما في التراثين اليوناني واللاتيني من كنوز فكرية وأدبية . وربما كان للعرب في الأندلس فضل كبير في توجيه هؤلاء بصورة خاصة نحو آثار اليونان القدماء بما نقلوه من تراثهم ، في وقت كان عارفو اليونانية قلة في اوروبا ، الى اللغات العربية والعبرانية واللاتينية .

في مطلع عصر النهضة ركز الباحثون جهودهم في جمع المخطوطات اليونانية واللاتينية اينما وجدوها ، في الأديرة والكنائس وكذلك في المكتبات الخاصة والعامة . وقد ساهم حكام المدن الايطالية الأثرياء في هذه الحركة بما دفعوه من أموال لجامعي تراث القدماء كما لدارسيه والباحثين فيه . كان اقبال الناس شديدا بصورة خاصة على التراث اليوناني اذ تنافست البيوتات الحاكمة في ايطاليا على اقتناء مخطوطاته والبحث عنها في الامبراطورية البيزنطية وفي كل أرض امتدت اليها الحضارة الهلينية .

كذلك أقبل ايطاليون كثيرون على الهجرة الى القسطنطينية للبحث عن المخطوطات القديمة أيضا لدراسة اللغة اليونانية والتعمق في فنونها وقواعدها . وكان أشهر هؤلاء فيليلفو (١٣٩٨ — ١٤٨١) الذي صار أعظم علماء اليونانية بين الايطاليين في عصره ، والذي جمع مكتبة كبيرة فيها ابرز مؤلفات أرسطو والمؤرخ والرحالة القديم هيرودوتس بنصوصها الأصلية القديمة .

وما وقف اهتمام الايطاليين بدراسة تراث اليونان عند هذا الحد بل صار من الشائع دعوة كبار العلماء البيزنطيين للتدريس في الجامعات والأكاديميات الايطالية . وكان للمعلم العظيم كريزولوراس Chrysolaras فضل يشكر في نشر تراث اليونان في ايطاليا وكذلك

في شرحه وتفسيره للناس • وعلى يديه تخرج تلاميذ كثر علموا في جميع أرجاء ايطاليا وعملوا على ترجمة الكثير من مؤلفات أفلاطون وأرسطو وسقراط • ونشطت هـذه الحركـة بصـورة خاصـة بعـد سقوط القسطنطينية سنة ١٤٥٣ بيد العثمانيين ، بمن وفـد على ايطاليـا مـن علماء بيزنطية فشاركوا بجد في حركة احياء ونشر التراث اليوناني فيها •

كذلك شمل اهتمـام الايطاليين بالقديـم تراث الرومان القدمـاء الفكري • فانكب العلماء على دراسة ما تقع عليه أيديهم من مخطوطات لاتينية قديمة • وما كان الحصول على مثل هذه المؤلفات امرا عسيرا • ذلك أن ايطاليا كانت مهد حضارة الرومان وبالتالي فمكتبات أديرتهـا وكنائسها وكذلك قصور ومنازل ثراتها عامرة غنية بنتائج الفكر الروماني القديـم •

والحدث البارز في عصر النهضة كان في تغير نظرة الناس الى نتاج الرومان القدماء وفي محاولاتهم المتزايدة لدراسته وفهمه وتذوقه • فقد صار الدارسون ينظرون اليه على انه تراث فكري قائم بذاته تجب دراسته من حيث الشكل والاسلوب والبلاغة في التصوير والابداع في التعبـير ليمكن فعلا تذوقه وفهمه • وكذلك امتد الاهتمام بهذا التراث من الشكل الى المحتوى وصار الناس يحاولون التعمق في دراسته للتعرف الى روح الأقدمين واكتشاف ما كان عندهم من أفكار ومعان انسانية بغض النظـر عما اذا كانت هذه الأفكار منسجمة مع المعتقدات الدينية لعصر النهضـة أم لا •

أمام تزايد الاقبال علـى دراسة تراث القدمـاء في ايطاليـا تخلت الكنيسة عن موقفها الذي طالما التزمت به خلال العصور الوسطى وأقبلت بمبادرة من البابوية نفسها على المشاركة في هذه الحركة من ناحية للسعي في جعل تأثير الفكرين اليوناني والروماني في الفكـر المسيحي المعاصر محدودا ، بحيث يظل في الأطار العلمي والأدبي ولا يتجاوزه الى الأطار العقائدي ، ومن ناحية ثانية لكي لا تصبح واحدة من المدن الأيطاليـة

عاصمة للفكر الحديث فتنافس بذلك روما على زعامتها ومكانتها في شبه الجزيرة الايطاليـة •

وقد برز بصورة خاصة في النصف الثاني من القرن الخامس عشر ومطلع السادس عشر باباوات كانوا روادا في هذا المجال فجمعوا حولهم في المدينة الخالدة رهطا من رجال العلم والأدب والفن انكبوا بحماس كبير على دراسة تراث القدماء وكشف كنوزه ومكنوناته •

الحركـة الانسانيـة : Lhumanisme

رافق حركة احياء التراث القديم ظهور نظرة جديدة ، عند رجـال النهضة للانسان وهـو ما اعتـاد الناس على تسميتـه بالانسانيـة أو Humanisme . تحرك علماء عصر النهضة من منطلق جديد يستهدف دراسة الانسان لذاته وبمعزل عن كل ما يحيط به من أفكار وعقائـد ومسلمات • وبذا ابتعد رجال عصر الانبعاث عن الموقف الذي طالما التزم به مفكرو العصور الوسطى والذي كان يفرض تجاوز انسانية الانسان ومتطلبات الجسد للاهتمام بالروح فقط وبعلاقة الانسان بالخالق واليوم الآخر • فعلاقة الانسان بالأرض والمحيط والمادة والحاضر كلهـا كانت امورا ثانويـة •

لقد ابرز مفكرو عصر النهضة افكارا جديـدة ونظـرة مستحبة للانسان فيها الكثير من الاعتداد بالنفس والثقة بصورته وأهميته ودوره الكبير في العالم والوجود • • وضع هؤلاء صورة جديدة للانسان كمـا تخيلوه أو كما أرادوه هم فجاء قويا مؤمنا بذاته واثقا من نفسه ، فنانا ، أديبا ، شاعرا ، متذوقا للفنون والآداب متعشقا للجمال أينما وجـد في الروح كما في الجسد ، متمسكا بمبادىء الأخلاق والخير • فهم في بحثهم ودراستهم للتراث القديم اجتهدوا في اظهار ما فيه من تأكيد لقيمة الانسان مما يتوافق مع نظرتهم الانسانية الجديدة •

ظهرت داخل الحركة الأنسانية اتجاهات فكرية مختلفة تنجت بصورة خاصة عن مدى تأثر الدارسين بأفكار وآراء القدماء وفلسفاتهم وفي نفس الوقت عن درجة ارتباطهم بالواقع الفكري والعقائدي لأوروبا في ذلك الحين وبصورة خاصة بالمسيحية • وأهم هذه الاتجاهات :

ـ التيار الانساني المسيحي : وقد برز بصورة أساسية عند أولئك المفكرين الذين كانوا أصلا شديدي الارتباط بالمسيحية وبالكنيسة ، ولكنهم كانوا من جهة أخرى قد أعجبوا بالآداب القديمة فعملوا على احيائها ونشرها ساعين للتوفيق بين ما فيها من مثل وأفكار وبين واقعهم العقائدي وتفكيرهم المسيحي • وكان فيسين Marsile Ficin أبرز ممثلي هذا التيار • فالهدف الأساسي لفلسفته كان الوصول الى الله انما عن طريق الفلسفة الافلاطونية وعلى الأغلب عن طريق الأفلوطينية الحديثة • وبالتالي يكون قد استهدف استغلال الفكر الأغريقي القديم لتحقيق هدف مسيحي بالدرجة الأولى هو الوصول الى الله •

ـ التيار الوثني : الذي كان بومبونازي Pomponazzi أوضح من عبروا عنه • وكان رجال هذا التيار قريبين جدا من تفكير فلاسفة المدرسة العقلانية الحديثة • لقد تشيع بومبونازي لأفكار آرسطو وتمسك بالتعرف اليها مباشرة عبر النصوص اليونانية القديمة رافضا كل ما أضافه الى الفكر الأرسطي الفيلسوف المسلم ابن رشد والقديس توما الأكويني •

ويعتبر فرانسيسكو بترارکا Francesco Petrarca المولود في مدينة تسكانة سنة ١٣٠٤ رائد الانسانيين في ايطاليا وأبرزهم لما كان له من فضل في بعث الفكر القديم وبصورة خاصة اللاتيني منه • فهو منذ أن درس تاريخ روما القديمة وتعرف الى آدابها وأجاد الكتابة بأسلوب قدمائها أحب عالم هؤلاء وما كانوا عليه من قوة وسؤدد وأمجاد • استأثر الأهتمام بدراسة الآداب اللاتينية القديمة بكل نشاطاته وجهوده فجمع

بهمة ونشاط وحماس كل ما وصلت اليه يده من مخطوطات وآثار ومخلفات رومانية .

ما كان يكتفي بدراسة كتب الرومان وفهمها وانما سعى دائما لأبراز ما فيها من قيم وأفكار انسانية . وكان يعرض آرائه بجرأة كبيرة حتى ولو أتت مخالفة لتعاليم الكنيسة وتوجيهاتها ، بعيدة عن معتقدات الجماهير . كان يرى أن على الانسان أن يهتم بحياته الحاضرة وبمتطلبات الجسد وحاجاته حتى قبل الاهتمام بأمور الروح والآخرة . ومن هنا رأيناه في حديثه عن معشوقته لورا Laura يخرج عن مألوف أهل زمانه فيعبر بصراحة وحرية عن عواطفه وأحاسيسه تجاهها وهي أمور ما كانت مقبولة كثيرا في أيامه .

الطباعة :

أهمية اكتشاف الطباعة في القرن الخامس عشر لا تكمن فقط في كونه ساهم في اخراج الناس من جمود مجتمعات العصور الوسطى ، وانما أيضا لكونه ساهم في عملية نشر التراث القديم والدراسات الجديدة حوله على نطاق واسع ، وجعل الكتب بمتناول مختلف فئات الناس بعد أن كانت ولقرون كثيرة احتكارا للحكام والأثرياء ورجال الدين . والواقع انه بسبب انتشار التجارة ونمو الصناعة وقيام المدن وتشابك الاتصالات بين الناس فقد كانت المجتمعات الأوروبية بحاجة ماسة لمثل هذا الانجاز يبسط عمليات الكتابة ويجعلها سهلة ورخيصة التكاليف .

وبفضل تضافر جهود أناس كثيرين ، بعضهم معروف وجاهم مغمور ، أمكن أخراج أول كتاب طبع على حروف منفصلة سنة ١٤٥٤ . وكان هذا الكتاب نسخة لاتينية من الكتاب المقدس خرجت على مطبعة يوحنا غوتنبرغ John Gotenburg في مدينة متز . ثم انتشرت الطباعة في أوروبا بسرعة مذهلة بعد ذلك خاصة وأنها خفضت تكاليف النشر مرة واحدة الى الخمس .

بادر الانسانيون بسرعة لاستغلال هذا الاكتشاف فنشروا تراث الأغريق بنصوصه الأصلية القديمة في أوروبا ، التي ما عرفت في السابق الا القليل منه ، وعبر ترجمات عقيمة ومشوهة . وكذلك نشروا وعلى نطاق واسع تراث الرومان القدماء .

ظهور اللغات القومية :

ذهب الانسانيون في اعجابهم بالتراث القديم حدا كبيرا جعلهم يسعون الى محاكاته في كل شيء ، في الأفكار والمضمون كما في الشكل وفي أساليب التعبير . فهم كانوا يصرون على تقليد الاسلوب اللاتيني القديم في كتاباتهم اعجابا منهم به . وما حاول أحد منهم في بدء عصر النهضة استعمال الايطالية ، لغة الجماهير السائدة ، باعتبارها لغة العوام ولكونها برأيهم متخلفة غير قادرة ، كاللاتينية القديمة ، على احتواء المعاني السامية والأفكار المعقدة .

انما مع انتشار العلم والمعرفة ، خاصة بعد اكتشاف الطباعة ، بين مختلف فئات الناس والاهتمام المتزايد الذي ابداه سكان المدن عامة تجاه العلوم والآداب والفنون وجد جماعة الانسانيين أنفسهم مسوقين بقوة الى استعمال العامية ــ الايطالية ــ اذا هم أرادوا لكتاباتهم رواجا وانتشارا . ذلك أن جماهير المدن ظلت في أغلبيتها تجهل اللاتينية لصعوبتها وتعقيد قواعدها . وبسرعة مدهشة فرضت اللغة الايطالية نفسها على أدباء عصر النهضة وشعرائها كبديلة او على الأقل كمساوية للغة اللاتينية تصلح للتعبير الأدبي والفلسفي والشعري ، فاستعملها وبرع في مداورتها كتاب وشعراء كثيرون .

وما تم في ايطاليا حدث مثله في فرنسا حيث فرضت الفرنسية في القرن السادس عشر وجودها كلغة أدب وثقافة واستعملها مفكرون كبار مثل مونتاني Montaigne وفي اسبانيا أكد سرفنتس في القرن السادس عشر وجود اللغة الاسبانية وأولويتها ومرونتها باعتماده اياها في كتابه دون كيشوت .

علم التاريخ :

نظرا لما صحب النهضة من حركة علمية أصيلة اعتمدت البحث العلمي والتفكير المنطقي والتحليل المتحرر من قيود ومسلمات العصور الوسطى، ما عاد بامكان الناس قبول علم التاريخ القائم على جمع الروايات وسردها. وأخذ عدد من الانسانيين على عاتقهم دراسة التاريخ بصورة جديدة وعلى أساس اخضاع الرواية للبحث والمناقشة والتحليل ورفض ما لا يقره العقل والمنطق السليم أيا كان مصدره . وكان فالا Valla أبرز رجال هذه المدرسة الجديدة في التاريخ. ذاع صيته بصورة خاصة حين تصدى بجرأة لقضية شائكة تتعلق بالكنيسة . فقد ناقش وثيقة « هبة قسطنطين » التي كان ينظر اليها على أنها السند القانوني والتاريخي الذي يقوم عليه سلطان الكنيسة الزمني . لقد درس هذه الوثيقة بعناية واعتمد على الفارق بين اسلوبها واسلوب معاصري قسطنطين في الكتابة فأثبت بطلانها . وتصدى كذلك لنصوص أخرى تتعلق بتاريخ المسيحية والكنيسة فدقق فيها وناقشها .

انتقد فالا بجرأة كبيرة مذاهب فكرية وعقائدية كانت شائعة ومسلما بها في عصره محاولا حمل أبناء زمنه على اعادة النظر في كثير من مسلماتهم . وكانت تبرز في كتاباته روحه الجريئة وميوله الماجنة ودعوته للتمتع بمباهج الحياة والاستفادة من ملذاتها وأطايبها . ورغم جرأته وروحه المتمردة ما أستطاعت الكنيسة زمن البابا نيقولا الخامس الا قبول ما توصل اليه هذا الرجل برحابة صدر وعينته في مركز رفيع تقديرا لعلمه ولما أوجده من منهج جديد في البحث التاريخي .

ومن رجال هذه المدرسة الجديدة البارزين ايضا مكيافيلي Mochiavelli القاضي والمؤرخ والديبلوماسي والكاتب الفلورنسي . ولد ونشأ في فلورنسة فتعرف الى علمائها وجامعاتها وحصل على ثقافة تاريخية وسياسية واسعة قبل ان يلتحق بخدمة الدولة بصفة أمين سر مجلسها الحاكم . وفي الفترة المضطربة من حياة ايطاليا السياسية التي اعقبت الغزو

الفرنسي لها في أواخر القرن الخامس عشر ذهب في بعثات سياسية بحكم عمله الى البلاط الفرنسي والى روما واكثر المدن الايطالية وأتصل بأعظم قادة ذلك العصر • وهذا سمح له بأن يجمع قدرا كبيرا ممن المعلومات عن أوضاع هذه البلاد وعن الحياة السياسيةفيزمنه وكذلك عن أصول الحكم المختلفة آنذاك وأطلع على أحوال الأنسان الاوروبي وعلى ظروفـــــه ومشاكله وتاريخه •

اعتزل بعد ذلك الحياة العامة وتفرغ لدراسة التاريخ الرومانـــي والنظم والمجتمعات القديمة عامة وقد خرج من دراساته وتأملاته بكتاب هام أسماه « الأمير » Le Prince حاول ان يجمع فيه كل ما يعرفه عــن أصول الحكم والادارة وأن يرسم صورة للحاكم المثالي في العصر الحديث كما تخيله هو معتمدا على تجاربه في الحياة السياسية وعلى فهمه العميق للفكرين الأغريقي واللاتيني القديم •

أرتبطت صورة الحاكم ــ أو الامير ــ في ذهنه بأستيائه الشديــد من أوضاع أيطاليا وتمزقها الىدول كثيرة متنابذةمتنافرة • فهو يريد لهذه البلاد حاكما قويا مستبدا يخرج شبه الجزيرة الأيطالية من تمزقها ويعيد للايطاليين وحدتهم القديمة وينقذهم من الاحتلال الاجنبي • وربما لهذه الأعتبارات ، ولتأثره أيضا بواقع انظمة الحكم السائدةفيأيطاليا والقائمة على الأستبداد ، اراد ان يعطي للامير امكانات واسعة للعمل وأن يحرره من كثير من القيود ذات المصدر الخلقي أو الديني • فالأمير في نظــره يجب أن يرتفع فوق كل المقاييس الاخلاقية طالما كان يضع نصب عينيه المصلحة العليا للدولة والأمة • وكان بذلك متأثرا بنجاح النظم القائمــة آنذاك في كل من اسبانيا وانكلترا وفرنسا لأنها كما كان يظن كانت تنهج هذا الأسلوب في العمل السياسي •فالحاكم الصالح في نظره هو القادر على أتباع كل الطرق والأساليب لتحقيق ما يعتقده الخير العام • فهــو من هذه الزاوية يرفض أن يخضع السياسة لمقاييس الأخلاق • يجب ان لا يفهم من هذا ان ماكيافيلي كان لا أخلاقيا بل أنه كان لا يرى ضررا من أن يلتزم الحاكم أحيانا بمقاييس الأخلاق طالما كانت لا تقيد عملـــــه

السياسي • فهو بصورة عامة يفصل فصلا تاما بين الاخـلاق والسياسة ويضع المصلحة العامة فوق كل الاعتبارات •

ويرى مكيافيلي أن الحاكم الصالح يجب ان يعرف كيف يكـون مخادعا ، منافقا ، خبيثا متى اقتضت مصلحة الأمة ذلـك • وعليه أن لا يجهل كيف يتحلل من العهود والمواثيق متى شعر بأن مبرراتها قد زالت ، خاصة أذا راى بأن دوام احترامها قد لا يكون موآتيا لمصالح الدولة • وعلى الحاكم بالمقابل أن يعرف كيف يمارس الفضائل التي يحبها الناس أذا لم يجد ضررا في ذلك كأن يكون مخلصا امينا وفيا • أنما في كـل الحالات عليه أن يعرف كيف يتظاهر بتمسكه بهذه الفضائل امام الناس لان التظاهر شي هام بالنسبة للحاكم • أنما مكيافيلي لا يطلب قطعـا من « الامير » أن يلتزم بصورة دائمة بالفضائـل لانه سيجـد نفسه في حالات كثيرة مكرها لتخطيها أو تجاهلها •

ويرى مكيافيلي أن مـن الانسب للامـير أن يكـون قويا بطاشا مرهوب الجانب من الجماهير من أن يكون محبوبا منها •

ولقد وجهت لهذا الكتاب ، وفي عصر ظهوره بالذات كما بعد ذلك أنتقادات عنيفة لانه تخطى قواعد الاخلاق وتجاهل الفضائل المسيحيـة وأيضا لكونه رآى في الجماهير فقط وسيلة لتنفيذ أغراض الحاكم • الا أن الشيء المؤكد هو أن هذه النظريات كانت في عصر النهضة المرتكزات الحقيقية لأنظمة الحكم في أكثر بلدان أوروبا ، بل وربما في عصور أخرى وامكنة كثيرة • ولتقييم كتاب « الأمير » يجب النظر اليه من خلال كونه كان يصور الى حد كبير وبمنتهى الدقة واقع الحياة السياسية الأوروبية في مطلع العصور الحديثة •

النهضة الفنيـة :

من المؤكد أن حركة فنية ناشطة بدأت في قلب العصور الوسطى وبصورة خاصة منذ مطلع القرن الثاني عشر للميلاد وحققت تطورا عظيما في بعض الفنون كالنحت والعمارة • فالطراز القوطي في البناء كان قـد

بلغ قبل ظهور العصور الحديثة مرحلة مدهشة من التقدم والازدهار • وبقي هذا الطراز حيا فاعلا حتى اوائل القرن السادس عشر وبرز في الكاتدرائيات الهامة التي أنجزت في مطلع عصر النهضة في أوروبا مثل كاتدرائيات فينا وميلانو وكولون •

أنما منذ أواخر القرن الرابع عشر ومطلع الخامس عشر ، ومع موجة أحياء التراث القديم ، بدأت تظهر في فن العمارة بالذات أتجاهات جديدة•وقد برز هذا النهج بصورة خاصة مع برونللسكي Brunelleschi الذي درس فنون العمارة الرومانية القديمة والمطبقة بصورة خاصة في المسارح والمعابد وحاول ان يحي بعضها في أبنية فلونسة مبتعدا عن الطراز القوطي • وبرز هذا المنحى بصورة واضحة في كاتدرائية المدينة التي بنيت آنذاك • وتبع رهط من المعماريين الأيطاليين بدعة برونللسكي وتهافتوا على دراسة مخلفات الرومان العمرانية وأساليب عمارتهم • وما كان ما خلفه الرومان من منشآت ، قليلا آنذاك في شبه الجزيرة الايطالية على ان الظاهرة الهامة هي أن هؤلاء في أقبالهم على التأثر بالقديم ما جعلوا من العمارة الجديدة في عصر النهضة تقليدا جامدا للفنون الرومانية وأنما حافظ كل منهم على طابع خاص به كما التزموا بمؤثرات البيئة والمكان والعصر • وبذا فان عمارة عصر النهضة أقتبست من القديم وتأثرت به مع احتفاظها بكيانها الخاص ومميزاتها •

ولقد تجاوب حكام أيطاليا وكذلك الباباوات مع المعماريين الايطاليين فوضعوا بين أيديهم كل ما احتاجوه من الامكانيات والاموال ليبدعوا• وما عارضت البابوية حتى في التأثر بالأبنية الرومانية ذات الطابع الوثني مما اعطى الفنانين آنذاك حرية مطلقة في العمل والأبداع • ولم تتردد الكنيسة في قبول الشكل الذي اقترحه برامانت Bramante لكنيسة القديس بطرس مع أنه جاء متأثرا بشكل واضح بفنون العمارة الرومانية واليونانية ، بعيدا عن الطراز القوطي الذي كان ما يزال حيا تحافظ عليه الكنيسة وتتمسك به •

وكذلك اتخذ فن النحت منذ أوائل عصر النهضة في تطوره نهجا جديدا • فقد برزت عند النحاتين آنذاك رغبة جامحة بالتزود من معين تراث القدماء من رومان ويونان • وقد أدخل دوناتيللو Donatéllo ، بصورة خاصة ، منهجا جديدا حين اعتبر في أعماله الطبيعة كمصدر أساسي من مصادر الالهام•وهو كانالى حد كبير رائد المدرسةالطبيعيةفي النحت • أبرز في اعماله جمال الطبيعة وتناسق الاجساد وتعابير الوجه وسعى دوما لجعل تماثيله طبيعية ، عادية ، بعيدة عن التكلف •

وتأثر سيد نحاتي عصر النهضة ميكال أنجيلو Michel - Angelo بالمدرسة الطبيعية الا أنه تلقى من ناحية أخرى مؤثرات المدارس الاغريقية والفلسفة اليونانية ونظرتها للانسان • لقد حاول ميكال أنجيلو دوما أن يبرز في اعماله القوة والعظمة ، مؤكدا في تصويره للجسد على العضلات موضحا تقاطيع الجسم محاولا تذويقها واعطاء الاشخاص تعابير جمالية مثالية وفلسفية أحيانا • وأبرز منجزاته في هذا المجال تمثال داوود في فلورنسة ١٥٠٤ وتمثال موسى (١٥١٢ — ١٥١٦) ونقوش مدافن آل مديتشي •

وبلغ فن التصوير مرحلة كبيرة من التقدم والتطور حتى ليمكن أعتباره بسهولة فن عصر النهضة بالدرجة الأولى • ومع أن التصوير كان قدبلغ مرحلة ممتازة من التقدمفي أواخر العصور الوسطى الا أنه كان حبيس اتجاهات الكنيسة وفي خدمة أغراضها • وكان التصوير يتم على جدران الكنائس والقصور او على الخشب • وفي مطلع عصر النهضة تعلم الايطاليون فن الرسم الزيتي واساليب تحضير الاصباغ ومزجها بالزيت عن الفنانين الهولنديين • وفي نفس الفترة الزمنية بدأ الرسامون يعالجون مواضيع جديدة متزايدة البعد عن الروح الدينية • صاروا يستمدون مواضيعهم وافكارهم من الطبيعة والحياة والانسان والجسد ويعبرون في رسومهم عن العواطف والمشاعر والغرائز والأحاسيس • وأقترب التصوير بصورة سريعة من روح العصر ليصبح صورة عنه وتعبيرا عن افكاره وآرائه الفلسفية • وأتخذ المصورون من الانسان

موضوعا لذاته فابرزوا قوته وركزوا على النواحي الجمالية في الجسد • وتحرر بعضهم من قيود العصور الوسطى فصوروا الجسد عاريا ، جميلا قويا • ولعل في هذا يبرز تأثير المفكرين الانسانيين الذين دعوا لدراسة الأنسان لذاته بمعزل عن الاعتبارات الأجتماعية والدينية •

ومن ابرز رسامي عصر النهضة ميكال أنجلو الذي أبـدع في رسم سقف كنيسة السكستين sixtine • وهو عمل أستغرق أنجازه اربع سنوات ونصف السنة وصور في هذه اللوحة الله وعملية الخلق وخروج آدم وحواء من الجنة • كما صور أيضا الطوفان ومواضيع أخـــرى استمدها كلها من العهد القديم •

وكذلك برع في التصوير في عصر النهضة ليونـــاردو دي فنشي Leonardo de Vincci' الـذي بلغ قمة الأبداع في رسمه لوحة العشاء الأخير الشهيرة التي أظهر فيها أدراكا عميقا للنفس البشرية وقـــدرة فائقة على تصوير أحاسيسها ومشاعرها • وقد أبرز على وجه السيـــد المسيح صفاء روحيا وأطمئنانا لا حد لهما ، بينما برزت مشاعر الاضطراب والوجوم على وجوه حوارييه • وفي لوحتـه الجوكوندا LaGaconde التي رسمها حوالي سنة ١٥٠٠ أظهر تعبيرا غامضا على وجه حسنائـه ، ذات الجمال الهادىء الحزين ، ما زال حتى اليوم موضع نقاش النقـاد الفنيين • انما المؤكد أن الرسام قد وضع كل فنه وكل عبقريته في تصوير مشاعر تلك المرأة وعواطفها المكبوتة •

ويعتبر رفائيللو Raphael بحق أحد أبرز رسامي عصر النهضـة بلغ معه فن التصوير أعلى مراتب ازدهاره وتكامله • فهو تعلم الكثير من ليوناردو دي فينشي وتأثر بميكال أنجيلو ، خاصة في اسلوبه في تصويـر جسد الأنسان • الا أنه جعل لنفسه منهجا خاصا برزت فيه شخصيتـه وروحه • كان يحاول دوما أن يرسم الطبيعة والانسان من خلال نظرته اليهما وأفكاره الشخصية حولهما • وقد أبدع خاصة في رسمه « مدرسة

أثينا » في الفاتيكان التي حاول ان يلخص فيها تاريخ الفلسفة . وكذلك اشتهر بصوره العديدة والرائعة للسيدة العذراء .

النهضة في غرب اوروبـا :

في النصف الثاني من القرن الخامس عشر وفي وقت كانت النهضة ما تزال حية فاعلة في ايطاليا رأيناها ترسل رياحها الى بلدان غرب أوروبا كلما سمحت الظروف الداخليـة لهذه الأقطـار بتقبـل المؤثـرات الحضارية . ذلك ان عوامل كثيرة جعلت انتشار حركة النهضة الى خارج ايطاليا آمرا ليس فقط ميسورا بل ومحتما . فاختراع الطباعة سهـل ويسر عملية توزيع المؤلفات العلمية والأدبية على جماهير عريضة . وما قصر ناشرو الكتب الايطاليون فيطباعة تراث القدماء ومؤلفات علماء عصر النهضة وكذلك في توزيعه في أيطاليا كما في خارجها . ثم أن تـردد الباحثين وطلبة العلم من بلدان غرب اوروبا على جامعات ايطاليـا وأكاديمياتها يستمعون لاساتذتها فـي مدناوروبا الكبيرةروادا لفكر النهضة معجبين بالتراث القديم شديدي التأثر بعقلية الأنسانيين .وكذلك كان الأنسانيون الأيطاليون في تجوالهم في الخارج ينشرون افكار النهضة ويعلمون الناس تذوق آداب القدماء وفنونهم . وما ترددت جامعـات أوروبية كثيرة في استدعاء اساتذة ومحاضرين ايطاليين يدرسون طلبتها فنون وآداب النهضة الأيطالية .

على أنه الى جانب كل ذلك يبقى لأرازم فضل كبير في نشر افكـار النهضة ليس فقط في بلده وبين قومه الهولنديين انما في كل بلاد أوروبا حيث عمت شهرته وسمت مكانته وكثر طلابه ومريدوه . كـان أرازم انسانيا درس علوم القدماء من يونان ولاتين ومشارقه وبرع فيها وعلـم الناس خارج ايطاليا ضرورة دراستها وتذوقها . الا انه أوجد لنفسه نهجا خاصا ميزه عن الأنسانيين الأوروبيين . لقد اراد ان يجعل من الدراسات الأنسانية وسيلة لتقويم المجتمع وتخليصه من شروره وشوائبه وأصلاح الكنيسة ورفع مستوى رجالها لأنه اولا واخيرا كان مسيحيا شديـد

الولاء لتعاليم السيد المسيح • ولذا فهو حين نشر الكتاب المقدس باللغة اليونانية مع ترجمة اعدها بلغة لاتينية مبسطة انما كان يقصد من ذلـك أقامة صلة مباشرة بين عامة الناس والكتاب المقدس تعيدهم الى ينابيـع المسيحية الأولى بما فيها من بساطة وسهولة وأنسانية ورحمة • زار اكثر الجامعات الأوروبية وحاضر فيها وصار له في كل حاضرة علميـــة تلاميذ واتباع ومحبين يعملون مثله على الأهتمام بالدراسات الأنسانية ليس لذاتها كما كان يفعل الأيطاليون وانما لأستغلالها من اجل اصـلاح الكنيسة ، وتقويم المجتمع • فقد كان رائد مدرسة خاصـة بـه في الدراسات الأنسانية ميزته عن غيره وجعلت له مريدين كثر في انكلترا وفرنسا والمانيا وهولندا •

ففرنسا التي شغلتها طيلة قرن تقريبا حروب المائة سنة ثم مشاكـل العرش الداخلية ما بدأت تظهر فيها الدراسات الأنسانية الا مع مطلـع القرن السادس عشر وبعد غزو الفرنسيين لأيطاليا • في هذا الوقـت انتشر تدريس اليونانية في الأكاديميات الفرنسية وخاصة في باريس حيث حاضر اساتذة انسانيون في اليونانية والعبرانية واللاتينية القديمة • وقد نمت الدراسات اليونانية بصورة خاصة في فرنسـا مع بودي Bude والياندر Aléandre وما تخلف الملوك الفرنسيون عن محاكاة حكـام ايطاليا في رعاية حركة احياء التراث القديم ففتحوا قصورهم للعاملين في هذا المجال وامدوهم بالمال والرعاية وأقاموا اكثر من مركز وأكاديميـة للدراسات الأنسانية مثل الكلية الملكية في باريس التي اقامهـا فرانسوا الأول سنة ١٥٣٠ •

وعند عودة شارل الثامن من ايطاليا حمل معه عددا من فناني النهضة الأيطاليين • وما كان من السهل على هؤلاء تطبيق اساليب الفن الأيطالي في وقت كانت جذور الفن القوطي ما تزال قوية راسخة • ومع هذا ، فقد قامت في مطلع القرن السادس عشر منشآت أخذت من فنون النهضة خطوطها العامة وحافظت في التفاصيل والنقوش على التراث القوطـي فقامت قصور عظيمة ذات طـراز مختلط في حوض نهر اللوار مثل قصر شامبور Chambord وقصر بلوا Blois • أنما استمر التفاعـل

وصار للفرنسيين في اواخر القرن فن يتسم بطابع النهضة الفرنسية تجلى بصورة خاصة في اساليب ليسكو مخطط قصر اللوفر •

ولعل الميزة الأساسية التي اتصف بها الفرنسيون هي أنهم فـــي اقبالهم على دراسة تراث القدماء ونشره ما تخلوا عن شخصيتهم القومية وثقافتهم الفرنسية فجاء عصر النهضة في فرنسا أصيلا بعيدا عن تقليـــد القدماء في الأدب كما في الفن كما في الفلسفة •

كان اتصال اسبانيا بالدراسات الأنسانية في ايطاليا قديما الى حـــد ما بسبب ما للاسبان من وجود سياسي في ايطاليا يتمثل بعرش الفونسو الخامس الأراغوني في ميلانو وكذلك بالكلية الاسبانية في بولونيـــا • ونشطت هذه الأتصالات ايام اثنين من الباباوات الأسبـــان كاليكست الثالث والأسكندر السادس • وتمثل هذا الاتصال خاصة بمن وفـــدوا على بلاط الملوك الكاثوليك من الأنسانيين الأيطاليين ينشرون افكارهم ومعارفهم بين الأسبان • ونشطت في اواخر القرن الخامس عشر الدراسات اليونانية واللاتينية القديمة بل والعبرانية ايضا في جامعات هامة مثـــل جامعة أشبيلية وشلمنقة والكالا Alcala التي برزت في وقت مـــن الأوقات بصفتها واحدا من ابرز مراكز الدراسات الأنسانية في غـــرب اوروبا • الا ان الحركة الأنسانية ما لبثت ، أثر قيام حركة الأصـــلاح الديني ووقوف اسبانيا بقوة الى جانب الكنيسة الكاثوليكية،ان تعرضت لمعارضة قوية من جانب الدولة والكنيسة أوقفت تقدمها وتطورها •

وفي زمن الملوك الكاثوليك لاقت فنون العمارة الأيطالية اقبـــالا كبيرا من الأسبان دون ان يتخلى هؤلاء عن تمسكهم بالفن القوطـــي • فبرزت المؤثرات الأيطالية بقوة في كلية القديس غريغوار في فالا دوليـــد وكذلك في واجهة بلدية أشبيلية • انما في منتصف القرن السادس عشر كان الأسبان قد كونوا لأنفسهم طرازا في العمارة والنحت خاصا بعصر النهضة تبرز فيه أصالتهم ظهر في قصر شارل الخامس في قصر الحمراء بغرناطة •

وكذلك اعاقت حروب المائة سنة وحرب الوردتين أنكلترا عن تقبـل افكار النهضة ومسايرة ركبها • وقد أتت اولى رياح الحركة الأنسانيـة الى بلاد الأنكليز على يد ذلك النفر القليل من الطلاب والدارسين الذين بهرت عقولهم أنوار عصر الأنبعاث الأيطالي فقصدوا جامعات ايطاليـا يستمعون لمحاضريها فيتعلمون على أيديهم اللغات القديمة وينهلون مـن معارف القدماء ومن أبرز هؤلاء كوليت Colet الذيأخذ يحاضر منذ سنة ١٤٩٦ في علم اللاهوت مطبقا اساليب فالا في النقد التاريخي بصورة خاصة على رسائل القديس بولس مما ادهش معاصريه آنذاك • وكذلك برع في الدراسات الانسانية في الجزر البريطانية توماس مور More ابن البورجوازية البريطانية ورفيق وصديق أرازم •

وقد تمركزت الدراسات الأنسانية اول الأمر في جامعة اكسفورد ثم انتشرت منها الى جامعة كمبريدج حيث صارت منذ منتصف القـرن السادس عشر تدرس بصورة مستمرة اليونانية والعبرانية والقانـون الروماني وعلوم الطبيعة •

وكان تغلغل مؤثرات عصر النهضة في مجال الفنون بطيئا في بريطانيا وانما واضحـا • وقد ظهـرت اولى هـذه المؤثرات في قصر هامتـون Hampton Court ثم تزايدت كثيرا وأخذت تبرز بصورة أوضح في مجال التصور الزيتي مع نزول الرسام الألماني هولبين Holbein الذي اشتهر بتصويره كبار شخصيات ذلك العصر •

والواقع ان دور الأنكليز في احياء الدراسات الأنسانية ما كـان على كل حال ، قويا شديد الأهمية خاصة طيلة القرن السادس عشر ، انما هناك ظاهرة هامة ميزت النهضة في بريطانيا هي انها كانت واضحة فـي مجال اللاهوت والدراسات الدينية •

الاصلاح الديني
في أوروبـــا

الاصلاح الديني

عندما خرجت البابوية منتصرة من صراعها الطويل والدامي مع الأمبراطورية التي كانت تمثل السلطان الزمني في نهاية القرن الثالث عشر بدى البابوات وكأنهم سادة اوروبا الدينيين والزمنيين دون منازع وواجهت الكنيسة الغربية القرن الرابع عشر للميلاد ، في الظاهر على الأقل واحدة موحدة ، قوية ، نافذة ، اكثر من اي وقت مضى • الا ان الواقع أثبت ان صراع البابوية مع الأمبراطورية وظهور فشل الحروب الصليبية في تحقيق الأهداف التي حددتها لها الكنيسة في الأساس قد أفقدها الكثير الكثير من قدراتها وطاقاتها وأمكانياتها • يضاف الى ذلك ان حمى الرغبة في الأستفادة من النفوذ والسطان التي أصابت بعض كبار رجال الدين والبابوات احيانا واهتمام هؤلاء بمظاهر الجاه والسلطان الدنيوي اكثر من تركيزهم على تحقيق اغراض كنيسة المسيح الحقيقية كان يفقد هذه المؤسسة الدينية بعض مهابتها وأحترامها لدى الجماهير الأوروبية التي ظلت في القرنين الأخيرين من العصور الوسطى شديدة التعلق بالعقيدة النصرانية •

هذه الأعتبارات افقدت الكنيسة الكثير من مرونتها التي طالما أمتازت بها وجعلتها ، حين كانت تبدوفي الظاهر في قمة سؤددها وعظمتها، أضعف من أن تتغلب على الصعاب التي واجهتها في القرن الرابع عشر • فقد فشلت في كبح جماح بعض ملوك اوروبا وعجزت عن التصدي لمحاولات العرش الفرنسي التدخل في شؤون البابوية مما ادى في سنة ١٣٠٥ الى انتخاب فرنسي هو كليمنت الخامس لمركز بابا الذي نقل فورا مقر البابوية من روما الى مدينة افينيون الفرنسية الصغيرة

حيث بقيت مدة أثنين وسبعين سنة • لم ترق هذه الخطوة لأكثر شعوب أوروبا وحكامها ، من جهة لأن الحكام اعتبروا ذلك بمثابة اخضاع قسري لأعلى مركز ديني لنفوذ العرش الفرنسي وفي هذا اخلال بميزان القوى السياسية في غربي القارة ومن جهة ثانية لأن الجماهير الأوروبية المتدينة هالها ان تغادر خليفة القديس بطرس المدينة الخالدة عاصمة المسيحية الغربية منذ نشأتها •

ومن هنا اطلق الأوروبيون على هذه الحقبة من تاريخ البابوية أسم « الأسر البابلي » أشارة الى اعتبارهم البابا أسيرا لقوى وثنية غاشمة • والواقع ان الكنيسة كلها أصيبت بضربة قوية أصابت مهابتها وسمعتها كما غاب تأثيرها الفعلي عن مسرح الأحداث في القارة فترة الأسر •

وحين تصدى الكرادلة لمشكلة الأسر هذه في محاولة اصلاحية وقعوا في خطيئة كانت امر وأدهى أذ انقسموا في سنة ١٣٧٨ بين موالين لعرش فرنسا ومناهضين لنفوذه في الكنيسة فانتخبوا بابوين أحدهما أستقر في فرنسا والآخر في روما • وقد زاد هذا الخلاف الذي يعرف بأسم الأنقسام العظيم في متاعب الكنيسة وادى الى غياب سلطانها الواحد مما جعل عوامل الفرقة والأنحلال تتسرب بصورة متزايدة الى جميع مؤسساتها ومنظماتها •

وأذا كان مجمع كونستانس الذي عقد سنة ١٤١٤ وتمثلت فيه جميع بلدان غرب أوروبا قد وفق في القضاء على الأنقسام واختار بابا واحد مرتين الخامس ليشغل السدة البابوية في روما دون شريك أو مزاحم فان هذا الأمر قد حدث بفضل ما مارسته فئات المتدينين من الناس والمثقفين واساتذة الجامعات وبعض الأمراء المتنورين وقليل من الأساقفة الذين كانوا على علم واسع وعلى ادراك فعلي لما قد يجره مثل هذا الأنقسام من شرور تهدد ليس فقط الكنيسة كمؤسسة وانما ايضا ودون شك النصرانية كدين وعقيدة •

الا أن مجمع كونستانس على ما قدمه من خدمة جليلة لاعادة وحدة كنيسة المسيح لم يتمكن من وقف الضعف الذي كان قد امتد كثيرا في جسم الكنيسة وأصاب الكثير من مؤسساتها كما من رجالها خصوصا وان البابوات ظلوا ولفترة طويلة بعد المجمع المذكور حريصين على سلطانهم ونفوذهم وبالتالي على ما كان يجره عليهم ذلك من مكاسب ومنافع • وقد فشلت جميع المحاولات لتقليص سلطان البابوات ولاعطاء المجامع الكنسية باعتبارهـا ممثلة للجماعـة المسيحية كلها حصة أكبر في ادارة شؤون كنيسـة المسيح •

وهكذا في القرن الخامس عشر أي حين كانت العصور الوسطى في أوروبا تلفظ أنفاسها كانت كنيسة المسيح تجتاز مصاعب كبيرة تجعلها تبدو في نظر المسيحيين الغيورين المتدينين في صورة مغايرة تماما لما يجب أن تكون عليه • فالأموال تتدفق على روما بكثرة عظيمة خاصة منذ ان استحدثت أيام الأسر البابلي ضريبة الواردات للسنة الأولى والتي تفرض على كل أسقف أو رئيس دير أن يرسل في السنة الأولى لولايته أكبـر قسم من واردات ديره أو أسقفيته الى روما • ومن هنا شاع الترف والأبهة والبذخ في البلاط البابوي وبين كبار رجال الدين وبالتالي كثر الاقبال على الدنيا والأعراض عن ما تفرضه المسيحية على رجالها من فقر وعفة وطهارة• وأخذت تنتشر الرشوة بين رجال الدين وشاع بيع المناصب الكنسية على نطاق واسع أصاب حتى الكبيرة منها ، وتهافت رجال الدين على الحيـاة الدنيا ولم يعد من غير المألوف أن يعيش رجل الدين وأحيانـا بصورة علنية مع زوجته وربما أيضا مع عدد وافر من العشيقات والمحظيات • وقد تورط كثير من هؤلاء في السعي للاهتمام بأولاد لهـم بعضهم شرعيين وبعضهم غير شرعيين والعمل على تأمين الثروة لهم وأحيانا المناصب الهامة في الدولة كما في الكنيسة متى أمكن ذلك •

اما الغفران الذي كانت تمنحه الكنيسة للتائبين المستغفرين من خطاة المؤمنين ، فصار محل تجارة مشينة يعطى اتقاء المال والمال فقط للأحياء من

نادمين وغير نادمين • كما وما كان يمنع حتى عن الأموات اذا كان بين خلفائهم من له القدرة والاستعداد لدفع الوافر من المال •

وامتد الفساد في أواخر العصور الوسطى في جسم الكنيسة بحيث شمل بابوات عرفوا بالعلم وقوة الشخصية والعزيمة والشكيمة • لقد أقبل البابا أنوسنت الثاني بشكل علني ظاهر على الحياة الاجتماعية كواحد من الأمراء الزمنيين • وكرس اسكندر بورجيا المعروف بالاسكندر السادس وافر وقته وجل اهتمامه لشؤون اولاده الدنيوية • وانغمس يوليوس الثاني في شؤون السياسة الايطالية بما أبعده عن شؤون البابوية • وكذلك أخذت العمارة والفنون من وقت البابا ليو العاشر أكثر بكثير مما صرف على الاهتمام بأمور الكنيسة البابوية •

هذا الوضع الذي آلت اليه الكنيسة في أواخر العصور الوسطى ماكان يرضي تقاة النصارى ولا الغيورين على عقيدة المسيح • ارتفعت الصيحات والدعوات الاصلاحية من كل جانب ضعيفة خافتة خجولة في البداية ثم تقوى وتشتد بالقدر الذي كانت تزداد فيه أوضاع الكنيسة تدهورا ومساويء رجالها بروزا • والميزة الأساسية في أوائل دعاة الاصلاح هي حرصهم الشديد على كيان الكنيسة ورغبتهم في جعلها تقوم بالاصلاح من داخلها •

لقد برز من أوائل دعاة الاصلاح الانكليزي ويكليف الذي ساءه كثيرا ما بلغته في القرن الرابع عشر أوضاع الأكليروس من تردي وخاصة منهم الانكليز الذين عم بينهم الجهل فدعا للعودة بكنيسة المسيح الى ما في الينابيع الأولى للنصرانية من نقاوة وبساطة وصفاء • وأمام أحجام المسؤولين عن سماع دعوته لم يتردد في حث الناس عامة الناس على فرض الاصلاح على الجميع وحتى على البابا نفسه • وقد تطرف في دعوته هذه الى حد الاعتقاد بأن الانسان يستطيع الحصول على الغفران والرحمة بالعودة مباشرة ودون واسطة الى الكتاب المقدس • والواقع أن هذه النظرية الخطرة على كيان الكنيسة ستصبح فيما بعد واحدة من الأسس

التي سيقوم عليها الاصلاح الكبير في مطلع العصور الحديثة • ولقيت دعوات ويكليف استجابة واسعة لدى جماهير الانكليز المتدينين • وفي بوهيميا (تشيكوسلوفاكيا) نادى هس Huss (١٣٧٠ — ١٤٥٠) بالعودة للكتاب المقدس باعتباره المصدر الأساسي للنصرانية انما دون أن يتمرد على سلطان روما أو ينكر سيادتها • وقد لاقت دعوات هس استجابة عظيمة لدى التشيكيين واندمجت في حركتهم الوطنية في مواجهة الألمان المتسلطين على شؤونهم •

وكان أكثر دعاة الاصلاح شهرة وأشدهم نفوذا العالم والأديب أرازم Erasme (١٤٦٦ — ١٥٣٦) • لقد عاصر أولئك البابوات الأقوياء والذين شغلتهم أمور الدنيا عن مستلزمات الدين فأدرك مكمن الداء وطريق الدواء • كان بطبعه مسالما معتدلا ابتعد عن الثورية وركز على ضرورة دعوة المثقفين والمتعلمين الى تفهم حقيقة المسيحية وادراك واقع الكنيسة • انتقد الكنيسة ولكن باعتدال ، ودعا لاصلاح رجالها ولكن بحلم ورفق • كشف عن مساوىء الأكليروس وانحراف المؤسسات الكنسية بواقعية وروح علمية بعيدا عن العنف والحقد والتهويش فأرضى دعاة الاصلاح وما أغضب رجال الكنيسة • وكانت أعظم انجازاته ترجمته للكتاب المقدس عن نص يوناني قديم بلغة سهلة • كما أنه لم يتردد في دعوة الناس لقراءته باللغات الدارجة • وكان يقصد من ذلك اقامة صلة مباشرة بين المؤمنين وكتابهم المقدس باعتباره المصدر الأساسي وليس الوحيد للعقيدة المسيحية • وبالرغم من أن دعوته كانت تتسم بالاعتدال والتسامح واللين فانه أثار موجة قوية من الدعوة للأصلاح الكنسي في أوساط المتعلمين والمثقفين شملت أكثر بلدان غربي أوروبا •

أنما ما أظهرته الكنيسة من جمود وعدم قدرة على التحرك مع هذه الدعوات الاصلاحية المعتدلة في أواخر العصور الوسطى جعل في مطلع العصور الحديثة الاصلاح الديني أمرا ملحا أكثر من أي يوم مضى ومطلبا يتفق حوله مثقفو النصارى وجها لهم على السواء • فالكل بات

يريد أن يضع حدا لما كان يمارسه البابا من سلطان زمني لا يتناسب اطلاقا مع سمو مركزه وان يقضي على ما كان يتمتع به الأكليروس من امتيازات وثروات لا تتناسب اطلاقا مع تعاليم المسيحية .

ولقد اتخذت فكرة الاصلاح الديني ابعادا ومرامي جديدة ابتعدت بها كثيرا عن اعتدال دعاة الاصلاح في أواخر العصور الوسطى . ذلك أن القرن السادس عشر بما شاهده من تحولات عميقة في المجتمعات الأوروبية أوجدتها الأحداث العظيمة المستجدة مثل الاكتشافات الجغرافية ونشوء الطبقة البورجوازية وانتشار الطباعة واطلاع الناس على فلسفة وعلوم اليونان والرومان القدماء جعل دعاة الاصلاح ينطلقون من مواقع جديدة اتسمت أحيانا بالعنف والتطرف .

نضيف الى ذلك أن انتشار الحركة الصوفية في شمال ايطاليا وخاصة في المانيا أوجد منحى جديدا في التعبد يساعد الانسان على التوجهمباشرة وعن طريق التجربة والمعاناة الشخصية والتأمل الى الخالق دون واسطة المؤسسات أو رجال الدين . طبعا ما كان متصوفو نصارى هذا الوقت معادين للكنيسة انما أوجدوا مفهوما للعبادة فيه الكثير من الاستقلالية. ثم أن انتشار الطباعة على نطاق واسع وترجمة الكتاب المقدس الى اللغات الدارجة وضعتا مباديء المسيحية بين أيدي الجميع مثقفين وجهلة بصورة مباشرة . وكانت صدمة للمسيحي العادي حينما اكتشف أن في المسيحية من البساطة والسهولة والطهارة الشيء الكثير وان الكنيسة عبر مسيرتها الطويلة في العصور الوسطى قد ابتعدت عن هذه القيم السامية مما عزز دعوات أولئك المصلحين الذين طالما نادوا بضرورة اعتماد الكتاب المقدس وحده كمصدر أساسي للعقيدة . وبذا بدأت تتركز العلاقات المباشرة بين الانسان والعقيدة في داخله ومن داخله . وكان يعزز هذا الميل ما كانت عليه الكنيسة آنذاك من وضع متردي .

ومن هنا التأكيد بأن انسان العصور الحديثة الذي صنع الثورة على الكنيسة ما كان أقل تدينا من انسان القرون الوسطى بل كان بصورة عامة

مسيحيا متدينا شديد التمسك بأخلاقية ومناقبية المسيحية الأصيلة • وهو بعد أن اطلع على الكتاب المقدس ـــ العهد القديم والعهد الجديد ـــ بترجماته الحديثة وبالنصوص اليونانية والعبرانية القديمة أخذ يشعر بأنه بات شديد الصلة بالينابيع الأصيلة للنصرانية وأكثر قربا من الله •

ثم أن العقلية العلمية وروح البحث والرغبة في النقد التي شاعت بتأثير انتشار الفلسفة اليونانية قد جعلت الناس وخاصة المثقفين منهم أشد ميلاً للمناقشة والتساؤل وعدم التسليم بسهولة بكل ما كان يقول به رجال الدين في وقت أدرك فيه الناس كم ابتعد هؤلاء عن تعاليم الرسل وعن الصورة التي أرادها القديسان بطرس وبولس لكنيسة المسيح •

وهنا تجدر الاشارة الى أن الاعتبارات الدينية والخلقية لم تكن وحدها وراء حركة الاصلاح الديني • بل أن اعتبارات أخرى سياسية واقتصادية شاركت في ذلك وربما كانت مسؤولة بعض الشيء عما آل اليه الأصلاح من عنف انتهى بانقسام المسيحية الغربية •

فنشأة المدن وظهور طبقة التجار الأغنياء وما تدفق من مال بفضل التجارة والاكتشافات أبرز الفوارق الاجتماعية بين المدن والأرياف الفقيرة والبائسة في وقت كانت فيه الكنيسة تبالغ في جمع الضرائب من المؤمنين وفي استغلال صكوك الغفران • ثم أن عدم استفادة بعض مناطق أوروبا كالمانيا مثلا من عوائد وواردات الأراضي المكتشفة أوجد بعض المرارة عند طبقة الفرسان الذين كانوا يعيشون على حافة الفقر وكذلك عند فئات الفلاحين الألمان المستثمرين من رجال الدين كما من حكامهم العلمانيين • نضيف الى ذلك أن وجود عدد كبير من المدن الاسقفية المستقلة في المانيا حيث كان الأساقفة يمارسون الحكم المدني ويجنون الفوائد العظيمة كان يثير منافسة جيرانهم من الحكام والأمراء المدنيين • هذه المشاكل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وجدت لها متنفسا في حالات كثيرة بصورة واعية أو لا شعورية في التمرد على سلطان الكنيسة وفي السير في ركاب حركة الاصلاح الديني •

البروتستانتية

لقد انطلقت حركة الاصلاح الكنيسي في القرن السادس عشر قوية عنيفة مدمرة من المانيا أول الأمر • اذ ربما ساعدت الأوضاع السياسية والاقتصادية في هذه البلاد على دفع حركة الثورة بقوة • كانت المانيا آنذاك تتألف من مئات الأمارات والولايات الصغيرة والمدن المستقلة والأسقفيات تتمتع كلها باستقلال شبه كامل ويجمعها ولاء مشترك للأمبراطورية الرومانية المقدسة التي كانت آنذاك قد فقدت الكثير من القوة العسكرية واتساع الأرض والنفوذ السياسي الذي كان لها في العصور الوسطى • وكانت البلاد فوق ذلك تعاني من أزمة اقتصادية واجتماعية تشكو منها بصورة خاصة الطبقة المتوسطة التي تعطلت مصالحها الاقتصادية كثيرا بسبب انتقال مركز الثقل في التجارة الأوروبية الى غربي القارة اثر اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح • وكانت هذه الفئة تستفيد في العصور الوسطى من خط التجارة البري الذي يربط المدن الايطالية الشمالية بشمال غرب أوروبا • وكذلك فقدت طبقة الفرسان الكثير من مواردها المالية وأهميتها السياسية باستقرار الأوضاع نسبيا وزوال الحروب الاقطاعية الخاصة •

مارتن لوثر :

لوثر كان أول الثائرين على كنيسة روما في العصور الحديثة وأبرز من حمل بوجه البابا لواء العصيان في القرن السادس عشر • ولد في مقاطعة سكسونيا الالمانية سنة ١٤٨٣ في عائلة على شيء من اليسار مما أمن له طفولة هادئة مستقرة وتعليما أوصله الى الجامعة حيث بدأ بدراسة الحقوق ولكن لم ينهها اذ عدل عنها وانتظم في سلك الرهبنة سنة ١٥٠٥ • في أحد أديرة القديس أغسطينوس تفرغ مدة ثلاث سنوات للزهد والعبادة والتأمل ؛ حصل بعدها على شهادة الدكتوراه في علم اللاهوت ثم على كرسي الاستاذية في جامعة فتنبرغ Wittenburg يدرس لطلابه الفلسفة واللاهوت • كان ذا شخصية مستقلة ، شديد الحساسية ، مضطرب

النفس ، شديد الخوف من الله ، يعيش في قلق وخوف دائم من أن لا يغفر الله له خطاياه . وظلت هذه المخاوف والشكوك ترافقه حتى وصـل في سنة ١٥١٥ الى صخرة الأمان بتعرفه الى قول بولس الرسول (رسالة بولس الى رومية ــ الأصحاح الأول ، ١٧) « أما البار فبالايمان يحيا ». هذه الفكرة كانت الأساس الذي ارتكز اليه تفكيره فيما بعد والذي جعله يضع الايمان في المقام الأول وقبل الأعمال باعتباره طريق الانسان الوحيد للخلاص . لقد هدأت نفسه وارتاح من شكوكه ومخاوفه حين توصل الى أن « الانسان اذا كان مؤمنا فانه يستطيع الخلاص بالرغم مما استقر في ذاته من شرور مهلكة . أما الأعمال فلا جدوى منها . فالحج والاحتفالات الدينية والهمس في المسابح وايقاد الشموع وعبادة المخلفات الدينية لاتعدو جميعا أن تكون عقبات في طريق الخلاص . فالايمان هو شرط الغفران والغفران هو الثواب على الايمان وهما معا كل ما يهم في الحياة المظلمـة للانسان الذي قدر له مصيره » . لقد توصل لوثر من خلال دراستـه الطويلة للكتاب المقدس ولسير الرسل ولكتابات القديس أغسطينوس لهذه الأفكار الجريئة التي هي في أساس الفكرة اللوثرية . فالأيمان برأيه منحة وعطية من الله والأعمـال هي نتيجة ولاحقـة للايمان وليست سببا أو أساسا لـه .

ولم تشعر الكنيسة بخطورة هذه الأفكار الا حين تصدى لوثر سنة ١٥١٧ لراهب ارسلته البابوية الى المانيا لبيع صكوك الغفران يدعى يوحنا تتزل John Tetzel . وكانت آنذاك بحاجة للمال تصرفه في أعمال اصلاح كنيسة القديس بطرس .

أصلا ما كانت هذه العملية مستساغـة من قبل حكـام المانيا أو مثقفيها الذين كانوا ينظرون اليها من زاوية سياسية وقومية . اذ كانوا يرون في عملية بيع صكوك الغفران نزيفـا مستمرا للثـروة القوميـة الالمانية لصالح روما والايطاليين في وقت تحتاج فيه المانيا لهذا المـال لمعالجة مشاكلها الاجتماعية والاقتصادية الكثيرة .

أما لوثر فقد نظر للموضوع من زاوية عقائدية بحتة . كان يعتقد أن الغفران لا يأتي الا عن طريق الايمان برحمة الله وليس للكنيسة أو رجال الدين أن يمنحونه للناس لأنه هبة من الله يمنحه للتائبين فعلا والمؤمنين حقا . لهذا استنكر بشدة وبصورة علنية عملية بيع صكوك الغفران في المانيا واستغل فرصة اجتماع الناس في كنيسة فتنبرغ سنة ١٥١٧ وعلق على باب الكنيسة اعلانا يتألف من ٩٥ بندا ضمنه آرائه وموقفه من هذه القضية ومن قضايا أخرى كثيرة . وكان ذلك بمثابة بداية الثورة اللوثرية الاصلاحية ومنطلقا لصراع لوثر مع الكنيسة الكاثوليكية .

ومع الانتشار السريع لآراء لوثر بين المثقفين الألمان خاصة أخذت أفكاره تتوضح بصورة متزايدة لتأخذ شكل عقيدة واحدة متكاملة . وأمام أصرار البابوية على التمسك بحقها في بيع صكوك الغفران اتجه لوثر نحو الامراء الالمان يطلب منهم تزعم حركة الاصلاح كل في بلاده داعيا اياهم الى اقامة كنائس وطنية ذات استقلال ذاتي . وقد صرح بأن على رجال الدين الخضوع للسلطة المدنية وكذلك نادى بضرورة السماح لرجال الدين بالزواج وبعدم ضرورة الحج الى روما . وكان أخطر ما نادى به لوثر آنذاك هو انه ليس من حق البابا احتكار سلطة تفسير الكتاب المقدس لأن كل انسان مدرك عاقل باستطاعته بل ومن حقه قراءة نصوص الكتاب وتفسيرها وفق مداركه وفهمه .

ولم يتردد الأمراء الالمان كثيرا في وقت كانت اوروبا تسير فيه في طريق اقامة الملكيات القوية في الاستجابة بل والترحيب بدعوة لوثر لاقامة كنائس وطنية متحررة من سلطة سيد أجنبي يقيم في بلد أجنبي هو روما .

أمام مواقف لوثر المتزايدة التشدد والتي تمس الكنيسة الكاثوليكية في وحدتها ومعتقداتها ومؤسساتها بادر البابا ليو العاشر لاصدار اعلان يندد فيه بأفكار لوثر ويهدده بالحرمان . الا أن لوثر رد بحرق المنشور

البابوي علنا يوم عيد الميلاد من سنــة ١٥٢٠ مما أدى الى صدور قرار بابوي بالحرمان •

في هذا الوقت كان قد صار للوثر اتباع وأنصار كثيرون بينهم امراء أقوياء أعطوه الحماية السياسية اللازمة • وكان في مقدمة هؤلاء منتخب سكسونيا صاحب النفوذ الواسع الذي رعى الحركة الجديدة في أراضيه ومنع تنفيذ القرار البابوي فيها •

امام اتساع الحركة اللوثرية مـــن جهة ومطالبة البابا المستمرة للأمبراطور شارل الخامس بأعتقال لوثر وتنفيذ مقتضيات عقوبة الحرمــان بادر لعقد مجمع ديني في سنة ١٢٥١ في مدينة ورمز warms يحضره لوثر ليبرر تصرفاته وأفكاره •

غير ان هذا أصر على مواقفة كلها وتمسك بها طالما كانت كما قال مطابقة للكتاب المقدس والمنطق السليم • عندئذ اصدر المجمع قرارا بوضع لوثر خارج القانون في الأمبراطورية وأهدار دمه • وقد نجا من المـــوت بمساعدة صديقه فريدريك سيد سكسونيا الذي أعطاه الحماية سرا في قلعة وارتبرغ Wartburg حيث ظل مختبئا مدة سنة تفرغ خلالها لوضـــع ترجمة جديدة للكتاب المقدس الى اللغة الألمانية •

لم يحل أختفاء لوثر وملاحقة الكنيسة لأفكاره دون انتشار المبادىء اللوثرية بشكل سريع وواسع على يد الكثيرين من مريديه واتباعه فـــي واسع الأرض الألمانية • وحدث في هذه الفترة ان تلاحمت افكار لوثـــر الأصلاحية الدينية وتفاعلت معدعوات أصلاحية اخرى ذات طابع سياسي واجتماعي واقتصادي فأدت الى أحداث تجاوزت الأبعاد العقائدية وهــذا ما لم يكن يريده او يسعى اليه لوثر •

لقد فهم بعض الفرسان من صغار النبلاء افكار لوثر على أنها دعوة للثورةالعامةفهاجموا بعض الدويلاتالتابعة للكنيسة سنة١٥٢٣ واستولوا على اراضيها وقسموا بعضها على صغار الفلاحين •

وفي سنة ١٥٢٤ قامت في المانيا حركة ثوريه اخرى أكثر تطرفا وأشدعنفا على يد الفلاحين الذين ، عند اعتناقهم لأفكار لوثر الجديدة ، فهموا ما فيها من دعوة للحرية ولأخاء والأنسانية على أنها الطريق لأصلاح اوضاعهم الأجتماعية والأقتصادية الشديدة السؤ فسعوا للتخلص من سلطة كبار ملاكي الارض •

لم يوافق لوثر على هذه التحركات بل انه ذهب الى حد مقاومة ثورة الفلاحين بشدة ، حين تصلبوا في مطالبهم الأجتماعية والأقتصادية ، ولقبهم بالخنازير القذرين وطلب قمع حركاتهم بأقسى الشدة والعنف • لقد كان واضحا في أصراره على ابقاء دعوته دينية أصلاحية فقط ووقف بشكل حازم بجانب السلطة والنظام والأمراء وكبار ملاكي الأرض وهذا طبعا افقد الحركة اللوثرية تأييد فئآت من الفلاحين ورجال الطبقة المتوسطة • لقد فضل ان يعتمد في نشر دعوته على الأمراء والحكومات والسلطات الزمنية بصورة عامة •

والواقع ان هذه الحوادث كان لها أثر بارز في توجيه اللوثرية نحو ارتباط اوثق بالحكومات الوطنية •

والواقع ان الأمبراطور شارل الخامس ظل ولسنوات عديدة يتخذ موقفا معتدلا يتسم بشيء من الليونة والتسامح حيال اللوثريين بالرغم من الضغوط الشديدة التي يتعرض لها من جانب الكاثوليك المتدينين والبابوية للقضاء على الحركة الجديدة وخاصة لتنفيذ مقررات مجمع ورمز بحق لوثر وذلك للأهتمام بمقارعة الخطر العثماني الزاحف وبقوة بأتجاه قلب أوروبا • وقد سار في تساهله هذا ، ربما طمعا بما كان يرجوه من مساعدة عسكرية من كل الأمراء والحكام الألمان الى درجة جعلت المجلس الأمبراطوري المنعقد في سبير Speier يعتبر أن كل حكومة يجب عليها ان تعيش وتحكم وتسلك المسلك الذي سوف تسأل عنه امام الله وأمام الأمبراطور • وهذا يعني حق كل أمير الماني في اختيار المذهب الذي يريده في أرضه لأتباعه ، مما وضع اتباع لوثر في وضع قانوني • وحين أضطر الامبراطور

تحت ضغط الكاثوليك لعقد مجمع امبراطوري آخر سنة ١٥٢٩ الغى فيه ما منحه للأمراء من حرية أختيار المذهب الذي يريدونه وأعلن تمسكه بمقررات ورمز لم يقبل اللوثريون بهذه القرارات وأحتجوا عليها فاعتاد الناس أن يطلقوا عليهم منذ ذلك الوقت لقب المحتجين Les Protestants (البروتستانت) .

في هذا الوقت كانت كثير من الولايات والمدن الألمانية المستقلة تخشى ان يتجه شارل الخامس تحت ضغط العناصر الكاثوليكية المتصلبة الى تشديد سلطانه عليها وتجاوز بعض حرياتها في سبيل القضاء على لوثر ودعوته فتمسكت وخاصة الشمالية منها بحقها في اختيار المذهب الذي تريده وانحازت لجانب اللوثرية وعينت أساقفة لوثريين وطبقت في كنائسها الطقوس اللوثرية . ومثل هذا التحول كان يرافقه استيلاء هذه الحكومات على ممتلكات الكنيسة وهي في اكثر الحالات عظيمة القيمة مما يعطي الحكام ثروات هامة تزيد في قوتهم . ولم يقف التحول هذا عند حدود الحكومات العلمانية بل ان حكومات دينية فعلت مثل ذلك نذكر على سبيل المثال بروسيا الشرقية التي كانت تابعة لاحدى المنظمات الكنيسية والتي اقدم سيدها الأمير البرت على اعتناق اللوثرية في سنة ١٥٢٥ وتحويل دولته الى دولة علمانية يدين رعاياها كما حكامها بالديانة الجديدة .

وفي سنة ١٥٢٩ وأمام تزايد الخطر العثماني رغب الأمبراطور في رأب الصدع الذي اصاب الألمان في وحدتهم الكنيسة والسياسية فدعا لعقد مجلس أمبراطوري في أوغسبورغ Augsburg يحضره الأمراء الكاثوليك والبروتستانت بقصد حسم النزاع على الصعيد العقائدي .

وفي هذا الأجتماع عرض المفكر اللوثري ميلانكتون Melanckton مبادىء البروتستانتية ـ وهذا ما عرف فيما بعد بأسم اعترف أوغسبورغ ـ بصورة معتدلة متجاوزا بعض القضايا الشائكة في محاولة للألتقاء مع الكاثوليك . واهم هذه المبادىء .

ـ الكتاب المقدس وحده هو المرجع في قضايا الأيمان والعقيدة دون البابا والسنة ٠

ـ رفض عبادة العذراء والقديسين ورفض فكرة المطهر ٠

ـ السماح لرجال الدين بالزواج ٠

ولم يكن بأمكان الأمبراطور وهو الكاثوليكي المتدين قبول هـذه الأفكار لمخالفتها جملة وتفصيلا ما كانت تقول به الكنيسة الكاثوليكية ٠ وهدد البروتستانت طالبا اليهم العودة عن هذه المبادىء ٠ ولم يظهر لوثر آنذاك اقل تمسكا بآرائه ومعتقداته مـن الأمبراطور مما أدى الى فشل اللقـــاء ٠

لم يتردد الأمراء البروتستانت اثر ذلك في تصعيد خلافهم مع البابوية والأمبراطور وأتخاذ مواقف ذات بعد وطبع سياسي ٠ فقد الف الأمـــراء والحكام البروتستانت وكانوا كثرا آنذاك تحالفا فيما بينهـم سنة ١٥٣١ عرف بأسم حلف شمالكالدي Smalkalde ٠ ولأعطاء هذا التحالف فعالية عسكرية وسياسية لم يترددوا في التحالف مع خصم الأمبراطور ملك فرنسا فرنسوا الأول ٠

وقد رد الأمراء الكاثوليك بأن عقدوا فيما بينهم حلفا يعـرف باسم حلف نورمبرغ للدفاع عن مصالحهم ٠ ولما كان الأمبراطور في حاجة دائمة لمساعدات البروتستانت الألمان لمواجهة الخطر العثماني واعدائه الفرنسيين على السواء فقد ظل لمدة طويلة يجنح للمسالمة ويبحث عن اساس لأعـادة وحدة الألمان سياسيا ان لم يكن دينيا ٠

في سنة ١٥٤٤ كان قد تصالح مع الفرنسيين وخفت حدة الهجمات العثمانية فقرر حل مشكلة المانيا بشكل حاسم خاصة وان اربعة من أهـم واكبر الولايات الألمانية هي : بادن ، هس ، براندبورغ ووارتبرغ قـد أنضمت الى الفريق البروتستاني مما زاد في قوته وخطرة ٠

وامام تعنت البروتستانت ورفضهم اية تسوية على حساب معتقداتهم قرر نهائيا أستعمال القوة ضدهم وأخذ يستعد لذلك عسكريا • وفي نفس السنة التي توفي فيها لوثر سنة ١٥٤٦ صارت المانيا فعلا مسرحا لصراع دموي بين الكاثوليك والبروتستانت أدى الى انتصار الأمبراطور عسكريا في سنة ١٥٤٧ • ومع هذا فانه لم يستغل انتصاره لفرض حل عقائدي وظل يسعى لأيجاد تسوية يرضى بها البروتستانت •

بعد وفاة الأمبراطور وفي ايام خلفه شقيقه فرديناند انعقد مجلس امبراطوري في أوغسبورغ سنة ١٥٥٥ وضع شروطا لتسوية سلمية بين البرتستانت والكاثوليك تم فيه الأتفاق على بنود أبرزها •

ـ أعطاء كل أمير الحق في اختيار المذهب الذي يريده في امارته ومن لا يريد من اتباعه قبول هذا المذهب وجب عليه مغادرة البلاد •

ـ أن أملاك الكنيسة الكاثوليكية التي اخذت منها قبل سنة ١٥٥٢ على يد البروتستانت تبقى بيد هؤلاء •

ـ ان أي رجل دين كاثوليكي دخل اللوثرية بعد سنة ١٥٥٢ او سيعتنقها في المستقبل عليه ان يغادر الأراضي التي يقيم عليها ويمنع عليه الطلب الى اتباعه ترك الكاثوليكية •

في الواقع جاء صلح أغسبورغ نهاية لمسيرة طويلة مشتها الثورة على الكنيسة في المانيا منذ ان حمل لوثر لواء التمرد والعصيان ، وتتويجا لجهود كبيرة بذلها اتباعه ومريدوه • لقد اعترف الأمبراطور في هذا الصلح بالبروتستانتية كديانة لها حق الحياة في العالم الألماني بعد ان كان نصف الألمان تقريبا قد اعتنقوا أفكار لوثر • لقد انتشرت اللوثرية بصورة خاصة في النصف الشمالي من المانيا وفي مناطق صغيرة متفرقة من الجنوب الذي بقي في أغلبيته الساحقة يدين بالكثلكة • وبهذا يكون الصلح المذكور قد كرس انقسام المانيا دينيا مع ما قد يستتبع ذلك من مضاعفات سياسية في المستقبل •

ومع ان صلح اوغسبورغ قد امكنه صيانة السلام في المانيا لمدة تزيد

عن نصف القرن فان انتقادات كثيرة وجهت اليه • لقد جاء الصلح المذكور بمثابة تسوية أغضبت الكاثوليك لأنها أعترفت بالبروتستانتية بصورة رسمية ديانة للألمان على قدم المساواة مع الكاثوليك ولم ترض البروتستانت لأن بعض بنود الصلح حدت من حرية تحول الجنوبيين الى اللوثرية • ثم ان هذا الصلح عقد بين الأمبراطور واللوثريين واهمل شأن اتباع متمرد آخر على الكنيسة هو كالفن وكان انصاره قد تكاثر عددهم بين الألمان • وكذلك استبعد من التسوية أنصار مصلح ديني سويسري الاصل يدعى زوينفلي •

وفوق هذا وذاك فان صلح اوغسبورغ قد أعطى الأمراء وحدهم حرية اختيار الدين وحرم عامة الناس هذه الحرية وفرض عليهم اتباع مذهب حكامهم وهو امر ظالم دون شك •

ومما يجدر ذكره انالبروتستانتية اللوثريةقد أمتدت من شمالالمانيا الى البلاد السكندينافية والسواحل الشرقية لبحر البلطيق • انما الشيء البارز في تحول هذه البلدان نحو البروتستانتية ان الأعتبارات الدينية والعقائدية كان اثرها في ذلك محدودا للغاية بالنسبة للأعتبارات السياسية والأقليمية والمحلية وايضا الأقتصادية •

أعتنق سنة ١٥٢٣ غوستاف فاسا Vasa زعيم السويد اللوثرية بسبب الحاجة للمال فأستولى على الممتلكات الكنسية في أراضيه وكانت كبيرة القيمة وكذلكصادر ممتلكات الأديرة واقامكنيسة وطنيةلوثريةتابعة للدولة وعمل على نشر الديانة الجديدة في فنلندة واراضي شرقي البطليق التابعة للسويد •

وأيضا لأعتبارات اقتصادية بالدرجة الأولى وطمعا بثروة الكنيسة استدعى كريستيان ملك الدانمرك سنة ١٥٢٦ واعظا من سكسونيا لتلقين شعبه مبادىء اللوثرية وفرض المذهب الجديد في بلاد النروج وايسلندا التابعتين لسيادته •

أما خارج المانيا والعالم الأسكندينافي فان الشكل اللوثري للأصلاح

الديني كان أمتداده محدودا جدا بحيث نظر البعض الى هذا المذهب وكانه تراث جرماني • بينما نلاحظ ان مذاهب اصلاحية اخرى كانت أقدر على حمل لواء معارضة الكثلكة في مناطق اخرى وعلى نطاق اوسع مثـــل الكالفينية •

لماكانت الظروف الدينية والأجتماعية فيذلك الوقت متشابهة بعض الشيء في بلدان وسط وغرب أوروبا ولما كانت الشكوى مما انتشر في صفوف رجال الدين من أنحراف وتعلق بالأمور الدنيوية ورغبة في جمع المال ، عامة شاملة ، فلم يكن من المعقول ان لا يتجاوب الناس فيها مـع دعوة لوثر الأصلاحية بشكل أو بآخر • وقد جاءت ردود الفعل في كـــل بلد أوروبي متأثرة بظروفه الداخليـــة وبأوضاعه الأجتماعية والسياسية والقومية •

كالفن والكالفينية :

كان لفرنسا في القرن السادس عشر وضع يميزها عن المانيا فهـي دولة واحدة موحدة خاضعة لنفوذ ملكية قوية قادرة على حماية الكنيسة الفرنسية من مبالغة البابوية في تدخلاتها • يضاف الى ذلـــك ان كنيسة فرنسا كانت منذ سنة ١٥١٦ تتبع وبموافقة البابا من الناحية التنظيميـــة العرش الفرنسي •

من هنا أذا نستنتج ان الأصلاح الديني في فرنسا ما كان يمكنه ان يتحقق بسهولة اذا كان الملك الفرنسي غير راض • والواقع انملك فرنسا آنذاك كان شديد التأثر بافكار رجال النهضة وكذلك بافكار المصلـــح الديني أرازم المتسمة بالأعتدال والتسامح وحاول القيام بأصـــلاح بعض النظم الكنسية في أطار ضيق ومن داخل الكنيسة الكاثوليكية •

في نفس الوقت تـــوزع بعض دعاة اللوثريـــة في البـــلاد الفرنسية ينشرون افكار لوثر • ومع ان كلية السوربون ذات المكانة العلمية الرفيعة لم تتردد في مهاجمة اللوثرية والتنديد بها في سنة ١٥٢١ بصورة علنية فان

هذه الأفكار قد وجدت لها بعض المرتكزات في مدن فرنسية كبيرة مثل باريس وليون وآمن بالبروتستانتية تجار ومثقفون وأصحاب مصارف وأساتذة جامعات •

أمام تزايد المد البروتستانتي في فرنسا بسرعة ومجاهرة اللوثريين الفرنسيين بافكارهم التي كانت مخالفة لمعتقدات الأغلبية الساحقة من الفرنسيين الموالين للكثلكة تحول الملك فرانسوا الاول منذ سنة ١٥٢٨ وبصورة متزايدة لضرب الحركة الجديدة بمنتهى الشدة والعنف وذلك لأعتبارات فرضتها السياسة الخارجية بالدرجة الاولى فأعدم حرقا بعض الدعاة المتطرفين وأجبر كثيرين اخرين على الفرار •

خلال هذه المحنة برزت في فرنسا وفي معرض الدفاع عن البروتستانت المنكوبين شخصية كالفن القوية للمرة الأولى • لقد اصدر كتابه «تعاليم الديانة المسيحية » L'I nstitution Chré tienne أبرز فيه مفاهيم جديدة لحركة الأصلاح الديني •

جون كالفن John Calvin فرنسي من مواليد سنة ١٥٠٩ • ولد في عائلة ميسورة سهلت له طفولة مستقرة وساعدته على دراسة القانون والعلوم الأنسانية في معاهد باريس وأورليان وتعمق في دراسة تاريخ الكنيسة وسير رجالها وتعرف الى قوانينها ومنظماتها كما درس بعناية الكتاب المقدس وأتقن اللاتينية واليونانية والعبرانية •

وهو في الرابعة والعشرين أنضم الى مسيرة المصلحين الدينيين ولكن بفهم أنساني أوسع واشمل من نظرة لوثر • ففي حين توجه هذا الأخير الى قومه الألمان في دعواته الأصلاحية اتجه كلفن نحو كل البشر • لقد وجه كتابه تعاليم الديانة المسيحية الذي ضمنه آرائه وأفكاره في هدف الاصلاح الديني كما في طرقه وأساليبه الى كل الناس من فوق الحواجز السياسية والقومية • لقد دعا الى قيام كنيسة جديدة منفصلة عن كنيسة روما على

غرار ما فعله لوثر في المانيا ولكنه اختلف مع اللوثرين في اكثر من قضية هـامـة •

التقى كالفن لوثر من حيث اعتبار الكتاب المقدس وحده ، من دون البابا والسنة ، المرجع لقضايا العقيدة والأيمان ، وكذلك وافقه علـى ضرورة السماح لرجال الدين بالزواج وفي رفض تقديس العذراء والقديسين وكذلك وافقه على ان الغفران يكون بالأيمان الصحيح قبل الأعمال • الا أنه في موضوع الغفران تطرف اكثر من لوثر ووصل الى ما يشبه الجبرية يرى كالفن ان الغفران هو هبة من الله يقدرها لعباده منذ الأزل بغض النظر عن أعمالهم وفضائلهم • فالثواب والعقاب هي أمور مقدرة علـى الأنسان منذ الأزل • لقد علـم الله ، حسب رأي كلفـن ، بـل وشاء منذ الأزل ان يصيب الخلاص بعضا وأن تحل اللعنة بآخريـن • وأولئك المؤمنين العابدين الصامدين الزاهدين في ترف العيش ومغرياته هم الصفوة التي اختارها الله منذ الأزل واراد لها الخلاص •

وأختلف ايضا كلفن مع لوثر في موضوع خضوع الكنيسة للدولة • فالكالفينية رأت ان تخضع الدولة والسلطات لتلك القلة التقية الورعة العاملة في سبيل المسيحية •

استهوت نظرية كالفن انصار الأصلاح الذين تميزوا بالتدين الشديد وقوة الشخصية وشدة العزيمة والرغبة في الجهاد فاقبلوا عليه والتفوا حوله في مدينة جنيف السويسرية حين لجأ اليها هاربا من اضطهاد ملك فرنسا واخذ يسعى لتنظيم كنيسة المدينة وفق معتقداته خاصة وان دعواته الأصلاحية لقيت تجاوبا كبيرا من اهلها •

لقد تمكن بمساعدة تلك النخبة المختارة من دعاة الأصلاح الذين اتوا اليه من مختلف البلدان الأوروبية ان يقيم في مدينة جنيف حكومة دينية تشددت كثيرا مع الناس في امور الدين والعقيدة والأخلاق وفرضت رقابة شديدة على حياة الناس الخاصة والعامة للتأكد من تقيدهم بنظم الكنيسة

الجديدة • اقام في المدينة مجلسا خاصا من رجال الدين والمتدينين لمعاقبة المهملين لقواعد الدين والأخلاق • كان الموت عقوبة الزاني والسجن للعابثين ومثيري الضوضاء في الشارع أو لمن يدخنون في مظاهر عيشهم والحرق لمن يخرج عن قواعد الأيمان •

وقد بقي حتى نهاية حياته فيسنة ١٥٦٤ ، عدا انقطاع قصير دام ثلاث سنوات ، يعيش في هذه المدينة يرأس حكومتها ويعمل بجد وحماس على تثبيت اركان كنيستها الجديدة التي كانت منفصلة عن الكاثوليكية غير معترفة بسلطان روما •

وقد اتخذ كالفن من جنيف مركزا ثقافيا هاما لحركة الأصلاح الديني في غرب اوروبا كما اسس فيها سنة ١٥٥٨ الجامعة لتكون مركزا لتخريج الدعاة والقسس البروتستانت •

لقد شحنت الفكرة الكالفينية انصارها ودعاتها بدفقة عظيمة من الحماس والرغبة في العمل من أجل اعلاء كلمة الله وتحقيق مجده على الأرض كما في السماء • وحمل رواد هذه الفكرة الأوائل دعوتهم الى كل مكان في اوروبا فأقبل الناس بكثرة على قبول المذهب الكلفيني في هولندا وبلجيكا وفي أسكوتلندا وبعض انكلترا وحتى في مستعمراتها في اميركا وايضا شاعت آراء كالفن في المانيا نفسها وفي بوهيميا والمجر وفي بلدان مغرقة في ولائها للبابوية مثل اسبانيا وأيطاليا •

وفي فرنسا حققت الكاليفينية انتشارا سريعا بين عامة الناس • اذ في مطلع النصف الثاني من القرن الخامس عشر ألتحق حوالي خمس عامة الفرنسيين بركب الكالفينية وترتفع هذه النسبة الى حوالي النصف عند البورجوازية وطبقة النبلاء حتى انها وجدت مؤيدين وانصارا لها بين افراد العائلة الحاكمة • وبذا امكن للكالفينيين الانتقال من مرحلة السرية وأقاموا أول مجمع لكنيستهم الكالفينية الفرنسية في باريس سنة ١٥٥٩ تحددت فيه بصورة علنية واضحة معتقداتهم وفق افكار وتصورات كالفن •

زوينغلي :

ظهرت حركة للأصلاح في مدينة زيوريخ،في سويسرا منذ سنة١٥١٩ بزعامة رجل أسمه زوينغلي ، Zwingly ، كانت منطلقاتها ليس فقط دينية وأنما ايضا أخلاقية ووطنية •

من المعروف ان سويسرا بدأت تناضل منذ القرن الثالث عشر للتخلص من سلطان الأمبراطورية الرومانية المقدسة حتى أمكنها ذلك تماما في القرن الخامس عشر وصارت مقاطعاتها الخمس عشرة تشكل اتحادا يدبر اموره مجلس أعلى • الا ان البلاد السويسرية ظلت على علاقة وثيقة بالألمان وبالأمبراطورية ، كانت دوما فيها تمثل الطرف المستضعف • كانت تمد جيوش الأمراء الألمان ، كما جيوش الأمبراطور وأيضا جيوش البابا بالمرتزقة طمعا ببعض المال • وايضا كانت صكوك الغفران سببا لتدفق قسم هام من الثروة القومية باتجاه ايطاليا • هذه الأمور كانت تثير غضب العناصر الوطنية والمثقفة في البلاد مما جعلها تتجه في طريق الأصلاح الديني عله يرفع عنها بعض الظلم •

في سنة ١٥١٩ تصدى لعملية بيع صكوك الغفران في زيوريخ مثقف أصلاحي كان شديد التأثر كلوثير بالكتاب المقدس يدعى زوينفلي • لقد حارب بيع صكوك الغفران من زاوية دينية وفي نفس الوقت ركز على القضايا الوطنية والقومية داعيا الناس لعدم الألتحاق بالجيوش الأجنبية طالبا اليهم ا نلا يعملوا الا لصالح الاتحاد السويسري وانلا يكونوا خاضعين لسيطرة روما وسلطانها لانها الى حدما سبب نكباتهم •

ادى تعرضه لصكوك الغفران ومهاجمته بعض معتقدات المدينة الى أنفصاله عن البابوية في روما سنة ١٥٢٥ ولم تأت سنة ١٥٢٩ حتى كانت ست مقاطعات سويسرية وبعض المدن في جنوب المانيا قد أخذت بافكاره •

هاجم في دعواته الاصلاحية نظام الرهبنة وطلب السماح للرهبان بالزواج كما حرم استعمال اللغة اللاتينية في الصلاة • ولكنه أختلف مع

لوثر حول فكرة علاقة الكنيسة بالدولة فقد رفض اخضاع كنيسته لأية سلطة عليا ورآى ان يؤلف المسيحيون كلهم هيئة منهم تشرف على شؤون الكنيسة وعلى الوظائف الدينية فكان بذلك اكثر ايمانا بالديموقراطية من لوثر وكالفن • واختلف زوينفلي مع لوثر ايضا في انه لم يتردد في استعمال العنف لنشر دعوته بينما آثر اللوثريون العمل السلمي •

الا ان هذه الدعوة فشلت في السيطرة على سويسرا كلها وقتل زوينفلي سنة ١٥٣١ في صراعه مع المقاطعات الكاثوليكية • انتهى الصراع بين انصاره والكاثوليك بالأتفاق على ترك كل واحدة من المقاطعات السويسرية تختار بواسطة مجالسها الدينية المذهب الذي تريد •

الانكليكانية :

ما كانت في الواقع منطلقات الاصلاح الديني في انكلترا عقائدية وانما هي السياسة والمصالح الخاصة جعلت الانكليز ينفصلون عن روما ويؤسسون كنيسة خاصة بهم هي الكنيسة الأنكليكانية • بعد زواج دام طويلا لم تعط الأميرة الأسبانية كاترين الآراغونية زوجها هنري الثامن ولدا ذكرا يرث عرشه ويضمن استمرارية عائلة تودور في الحكم• هذا الأمر جعل الملك الأنكليزي يطلب الى قداسة البابا الغاء زواجه ليتمكن من الزواج ثانية عله ينجب وليا لعهده • طبعا لم يكن بأمكان البابا تحقيق رغبة الملك الأنكليزي لأن في هذا مخالفة صريحة لقواعد الديانة الكاثوليكية التي تحرم الطلاق • ثم ان الأقدام على مثل التصرف قد يثير للبابوية على الصعيد السياسي متاعب قوية باعتبار ان الملكة الأنكليزية هي عمة الأمبراطور شارل الخامس اعظم ملوك اوروبا الكاثوليك واقواهم واوثقهم صلة بالبابوية •

ولم يكن هنري الثامن ممن يقبلون ان ترفض طلباتهم على هذه الصورة فأستدعى أسقف كنتر بوري وأجبره على تطليقه من زوجته

وتزويجه من آن بولين Anne Boleyn وهي امرأة جميلة لعوب من سيدات البلاط الأنكليزي كانت منذ امد على علاقة بالملك ، وكان ذلك سنة١٥٣٣ • ورد البابا بأن اعتبر زواج الملك باطلا واصدر بحقه حرمانا كنسيا مما جعل العلاقة بين الفريقين تسير في طريق التأزم المتزايد •

وكرد على التدبير البابوي أتجه الملك نحو تقليد الأمراء الألمان فيتخلص نهائيا من سلطان البابوية على الكنيسة الأنكليزية ليجعلها ذات طابع وطني تحت رئاسة العرش الأنكليزي • وقد شجعه على هذه الخطوة عاملان رئيسيان •

ـ كانت الكنيسة الأنكليزية منذ أمد بعيد تتبع البابوية مباشرة التي كانت تديرها بكثير من الشدة والحزم • وبالتالي فان قسما كبيرا من واردات املاكها الواسعة ومن حاصلات الضرائب الكنسية كانت تذهب الى روما • وهذا يعني انه متى آلت السيادة على الكنيسة الأنكليزية الى العرش تحولت هذه الأموال الوفيرة الى الخزانة الملكية •

ما كان الشعب الأنكليزي كثير التعلق بالبابوية بسبب ارهاقه بالضرائب ولكثرة تدخلات البابا في الشؤون الأنكليزية • ثم ان الكنيسة الأنكليزية نفسها ما كانت حسنة السمعة عند الشعب لأنعدام الشعور الديني الحقيقي عند رجالها ولأنتشار الجهل والأستغلال ولأنحطاط المستوى الفكري والخلقي بين رجال الأديرة والأسقفيات •

والواقع ان الجو كان مهيئا في انكلترا منذ ايام المصلح الأنكليزي ويكليف لتقبل فكرة اصلاح ديني معتدل حتى ان الملك نفسه كان دوما يرى ضرورة القيام بأصلاح معقول في أجهزة الكنيسة ومؤسساتها •

أنما يجب ان لا يعني هذا ان الملك كان على استعداد لقبول آراء لوثير او كلفن لأنه رغم كل شيء يظل كاثوليكيا متدينا • وليس أدل على ذلك من كونه وضع بنفسه سنة١٥٢٠ كتابا يرد فيه على لوثير ويفند افكاره مما جعل البابا يمنحه آنذاك لقب « حامي الأيمان » •

اكتفى هنري الثامن بأن استصدر من البرلمان قانون السيادة الذي يجعل منه « الرئيس الأعلى الوحيد للكنيسة الأنكليزية والحامي لها ولطبقة الكهنة » • وقداتبع قانون السيادة هذا الذي كرس انفصال الكنيسة الأنكليزية عن روما بالغاء الرهبنات ومصادرة املاكها الواسعة وأعطاء او بيع بعضها لفئة ملاكي الارض ليربطهم بالعرش ويجبرهم على تأييد تدابيره •

ولم تلاق هذه التدابير اية معارضة من جانب المتدينين الأنكليز لأنها لم تتعرض أطلاقا لقضايا العقيدة والأيمان مما ابقى للأنفصال عن روما طابعه السياسي والنفعي البحت •

الا أن هذا ما منع انتشار افكار المصلحين الأوروبيين بين الأنكليز وجنوح بعض هؤلاء نحو اعتناق البروتستانتية اللوثرية في اكثر الأحيان كمذهب ثابت • وعند وفاة هنري الثامن سنة ١٥٤٧ كان عدد هؤلاء قد ازداد كثيرا • وفي ايام ابنه الطفل ادوار السادس (١٥٤٧ ــ ١٥٥٣) تكاثر أنصار الكالفينية لأن المشرفين على الملك الصغير ومديري أموره كانوا ميالين لهذا المذهب •

وفي أيام ماري تيدور ابنة هنري الثامن من زوجته الأولى الأسبانية ١٥٥٣ ــ ١٥٥٨ حدث تحول جديد نحو الكاثوليك باعتبار ان الملكة الجديدة كانت شديدة التعلق بكنيسة روما وبسلطان البابا خاصة وانها تزوجت ملك اسبانيا فيليب الثاني المتطرف في ولائه للكاثوليكية ، فالغت سنة ١٥٥٥ قانون السيادة واعادت كنيستها الى حظيرة البابوية وفوق هذا تعرض انصار مذاهب الأصلاح لمحن رهيبة في ايامها اذ شرد كثيرون واحرق آخرون •

والاصلاح الديني الحقيقي في انكلترا يرتبط بعهد الملكة اليزابيت (١٥٥٨ ــ ١٦٠٣) ابنة هنري الثامن من زوجته آن بولين لم يكن لأليزابيت شخصيا موقف عقائدي ثابت من الفريقين انما على كل حال

ما كان باستطاعتها موالاة الكاثوليكية لأن روما كانت تصر على اعتبارها أبنة زواج غير شرعي •

ولهذا فقد اتخذت موقفا معتدلا من الخلاف واعتمدت على البرلمان لأيجاد حل يتسم بطابع التسوية والتوفيق •

وفي سنة ١٥٥٩ اعاد البرلمان قانون السيادة وبالتالي رجعت الكنيسة الأنكليزية الى الوضع الذي كانت عليه ايام هنري الثامن بالنسبة لعلاقتها بالبابوية وبالعرش •

ثم في سنة ١٥٦٣ صدر قانون جديد ينظم الأسس العقائدية للكنيسة الأنكليزية يتألف من ٣٩ مادة جاءت بروتستانتية الروح والعقيدة يغلب عليها الطابع الكلفيني ، الا انها من جهة ثانية احتفظت بالتنظيمات والطقوس والعادات الكاثوليكية الموروثة من العصور الوسطى •

وبهذا بات للأنكليز ، منذ ايام الملكة اليزابيت ، كنيسة ذات طابع خاص يطلق عليها اسم الكنيسة الأنكليكانية ، بروتستانتية الروح والعقيدة كاثوليكية المظاهر والطقوس • وقد منع آنذاك على الأنكليز ممارسة اية عبادة أخرى في البلاد •

الكاثوليك رفضوا بشكل قاطع هذه الكنيسة لان جوهرها كلفيني ولكونها تنكر سلطةالبابا عليها•وكذلكغلاة البروتستانت طالبوا بتطهيرها من مظاهر الكثلكة مع قبولهم الخضوع لهـــا ويعـرف هـؤلاء بأسم البيوريتانيين أو الطهريين • ومن رفضوها من البروتستانت بشكل قاطع صاروا يعرفون بأسم الأنفصاليين Separatistes •

الاصلاح الكاثوليكي

ما كان الأصلاح الديني ودعوات المصلحين شيئا جديدا بالنسبة للكنيسةالكاثوليكية بأعتبارانهاعرفت خلال العصور الوسطى دعوات كثيرة مماثلة وانتهى بعضها بأصلاحات داخل الكنيسة تمت بمبادرات من داخلها وعلى يد رجال منها بعضهم باباوات وبعضهم كرادلةوأساقفة ورؤساءاديرة. انما الظاهرة الجديدة في الأصلاح الذي تم في مطلع العصور الحديثة أنه تم من خارج الكنيسة وبدونها بل ورغما عنها فأنتهى الى ابعاد غاية في الخطورة ليس أقلها انقسام اوروبا الغربية نهائيا الى مسيحيتين واحدة كاثوليكية خاضعة لنفوذ البابا واخرى بروتستانتية ترفض بعناد واصرار سلطانه .

في الوقت الذي كانت تتم فيه هذه التحولات كانت تتشكل عند كثيرين من آباء الكنيسةمنأصحابالنوايا الطيبة قناعة يقينية بأنه اذا اريد فعلا المحافظة على وحدة كنيسة القديس بطرس وعلى سلطانها الروحي فلا بد من القيام بحركة اصلاح داخلي واسعة تتناول تصرفات رجال الدين ونظم حياتهم وتحدد بوضوح موقف الكنيسة من القضايا العقائدية التي أثارها المصلحون البروتستانت . وقد التقت هذه الرغبة مع الدعوات المستمرة والملحة التي كان يوجهها شارل الخامس امبراطور الأمبراطورية الرومانية المقدسة للبابا لحل القضايا الدينية التي قسمت الشعب الألماني دينيا وذهبت بوحدته السياسية .

مجمع ترانت :

وصار التحرك فيهذا الأتجاه ممكنا بلوواقعا معبابويةبولسالثالث (١٥٣٤ ــ ١٥٤٩) الذي دعا في سنة ١٥٣٦ لعقد مجمع كنسي عالمي يبدأ أعماله سنة ١٥٤٢ في مدينة ترانت الصغيرة الواقعة على الحدودالأيطالية

الألمانية .ولما كان البابا المذكور شديد الأيمان بضرورة تحقيق أصلاح داخل الكنيسة فقد اقام حوله مجموعة من اعظم رجال الكاثوليكية واكثرهم تدينا وأغزرهم علما اوكل اليهم مهمة تحضير اعمال المؤتمر وتحديد غاياته وأهدافه وأيجاد أسباب النجاح له .

طالت اعمال المجمع كثيرا وعقدت اجتماعاته على فترات متقطعة امتدت حتى سنة ١٥٦٣ . وبرز بين المجتمعين منذ البداية تياران اساسيان: التيار الأول ويتمثل في مندوبي بعض الملوك والأمراء الذين انتشر الأصلاح في أراضيهم وكذلك بعض اساقفة البلدان البعيدة عن روما ، ويهدف لأعطاء المجالس الكنسية العالمية سلطات قوية على كنائسهم تحد بعض الشيء من نفوذ البابا وصلاحياته ، لأظهار شيء من الاعتدال يسمح بالأقتراب من مواقف البروتستانت اما التيار الثاني فكان يتمثل بمندوبي البابا والمقربين من الكرادلة . كان هؤلاء يعتبرون ان الأنقسام قد وقع فعلا وانه لا مجال لتقديم اية تنازلات تمس جوهر بل حتى ومظهر العقيدة ويرون ان هدف كل أصلاح يجب ان يكون قبل كل شيء تأكيد سلطان البابا على كل الكنيسة .

أنتصر في النهاية الأتجاه الثاني وظهر في التصلب الذي سيطر على مقررات وتوصيات المجمع الصادرة سنة ١٥٦٣ . وتقسم مقررات المؤتمر الى قسمين رئيسين عمل احدهما على تحديد مواقف ثابتة ونهائية من القضايا العقائدية التي اثارها المصلحون واتجه الثاني نحو اصلاح المؤسسات والنظم الكنسية .

ـ على الصعيد العقائدي رفض المجمع بصورة قاطعة مواقف كالفن المتطرفة من القضاء والقدر وكذلك الأفكار التي تقول بأن «طريق الخلاص هي الأيمان قبل الأعمال » واصر على موقف الكنيسة التقليدي الذي يتلخص بان خلاص المؤمن هو في عمل صالح يرافقة طبعا ايمان صحيح . وأيضا تمسك المجمع بان المرجع الصالح في قضايا الأيمان والعقيدة ليس الكتاب المقدس وحده كما يقول البروتستانت وأنما الكتاب المقدس

والتقاليد الكنسية (السنة) وأجتهادات الكنيسة • وايضا أصر علـــى التمسك بان النسخة المعتمدة من الكتاب المقدس هي الترجمة اللاتينية القديمة التي وضعت في القرن الرابع الميلادي • وآخيرا لقد رفض المجمع بصورة قاطعة قبول حق الأفراد في تفسير الكتاب المقدس وفهمه حسب عقولهم ومداركهم •

ـ فيما يتعلق بنظام الكنيسة تمسك المجمع بمبدأ منع زواج رجال الدين وأصر على أستعمال اللغة اللاتينية في الصلاة وليصلح من أوضـــاع الأكليروس أمر الأساقفة بالأقامة دوما في ابرشياتهم وسط اتباعهم مـــن المؤمنين ومنع جمع اكثر من اسقفية واحدة بيد رجل واحد ووضع المبادىء التي تحد من أستغلال رجال الدين للغفران • وكذلك امر بفتح المدارس والمعاهد لتعليم رجال الدين وتثقيفهم ورفع مستواهم الديني والخلقـــي والفكري • أما فيما يتعلق بالبابا فبأعتباره خليفة المسيح والرسل فقـــد تأكدت سلطته مطلقة على الكنيسة الكاثوليكية •

وهكذا أمكن لمجمع ترانت الكبير ان يحدد بوضوح موقف الكنيسة من القضايا المطروحة وان يدخل الأصلاح الجذري على نظم الأكليروس الكاثوليكي مما اعاد للكنيسة وضعها كقوة واضحة الأهداف قادرة علـــى مجابهة الحركات الأصلاحية الأنفصالية والتكيف مع مفاهيم العصـــور الحديثـــــة •

وقد انتقلت الكنيسة مباشرة لمرحلة العمل الحازم واضعة موضــــع لتنفيذ مقررات المجمع الأصلاحية للمحافظة على مواقعها بين الكاثوليك ولاعادة من خرج على سلطانها كلما امكن ذلك • ولقد وفقت الكنيســـة آنذاك الى اجيال من رجال الدين عملوا بجد واخلاص لا حد لهما علـــى أعلاء شأن الكنيسة والبابوية وذلك عبر عدد من المؤسسات والهيئـــات نذكر منها •

الجزويت (اليسوعيون) :

أنياس دي ليولا Ignace de Loyola ١٤٩١ ــ ١٥٥٦ ضابط

اسباني شاب من عائلة عريقة الاصل التحـــق فـــي مطلـــع شبابــه بجيوش ملك آراغون وقاتل الى جانبه واصيب بجرح في قدمه تسبب لــه بعرج دائم • اثناء مرضه واستشفائه انكب على قراءة الكتـاب المقدس وسير الرسل والقديسين وبالغ في انصرافه للزهد والتقشف والتأمل•كانت السنة ١٥٢١ فاصلة في حياته اذ خرج من مرضه الطويل عازما على وضع سيفه في خدمة الله والكنيسة بدل ان يضعه في خدمة الملوك • زار مدينة بيت المقدس وحج الى قبر السيد المسيح ثم عاد بعد ذلك والتحق بجامعة باريس حيث تفرغ للدراسة على أساتذتها • هناك جمع حوله بعض رفاق الدراسة يمارسون معا التمارين الروحية ويقضون اوقاتا طويلة في التعبد والتأمل • كان اقواهم شخصية وأوفرهم علما واشدهم عزيمة فكون منهم جماعة فرضت على نفسها نبذ الثروة والعيش في الفقر والعفة والطهـارة وتميزت بشكل خاص بالتزامها بالطاعة الشديدة لقداسة البابا •

في روما اقسم ليولا ورفاقه على الطاعة وأطلقوا على أنفسهم اسم جماعة المسيح أصدر البابا سنة ١٥٤٠ قرارا بالموافقة على تأسيس هــذه الجماعة التي صارت تعرف بالآباء اليسوعيين (الجيزويت) كما وافق على نظامها • كذلك أعفاهم من الضرائب ومن الخضوع لأية رئاسة أو سلطة غير سلطة البابا وسمح بان يكون لهم قضاؤهم الخاص فـــلا يخضعون لقضاء غيره •

وصار لليسوعيين تنظيم شبه عسكري اذ صار رئيسهم يسمى قائــد (جنرال) ينتخب لمدى الحياة ويتبع البابا مباشرة • وهذا جعل للجماعة حصانة ، فلا تخضع لأية سلطة كنسية أو علمانية أخرى • فولاء اليسوعي للكنيسة كان لا حد له وصلته بها وثيقة وطاعته للبابا مطلقة ، وكذلك لنظام الجماعة • فاليسوعي كما كان يقول ليولا « يرى أن الكنيسة لو قالت عن شيء ما أنه أسود ــ ولو كان يبدو أبيض ــ فما عليه الا أن يقر في الحال أنه أسود » •

وقد نحت المؤسسة اليسوعية منحى جديدا اذ ابتعدت عن حياة العزلة

وندرت رهبانها للعمل مع الناس في حياتهم العامة • لقد جعلت من التعليم والمدارس وسيلة لتحقيق أهداف وغايات الكنيسة • والواقع أن الشروط القاسية التي وضعها ليولا لدخول الجماعة جعلت أفرادها على درجة متميزة من التدين وقوة الشخصية والقدرة على مجابهة الصعاب واتساع الثقافة والالتزام بالأخلاق المسيحية وبنظم الجزويت الصارمة •

وانتشر اليسوعيون ودعاتهم في المانيا كما في النمسا وفي اسبانيا وفرنسا وكل مكان من أوروبا يعملون بعزيمة وحماس لا حد لهما ليس فقط لوقف انتشار المذاهب الجديدة وانما أيضا لاعادة من جحدوا الكثلكة الى حظيرة الكنيسة الأم كلما كان ذلك ممكنا • ولقد كان نجاحهم مدهشا وباهرا في النمسا وفي ايطاليا واسبانيا وكذلك في بوهيميا وبولونيا • وكان من نتاج ذلك العدد الكبير من المدارس والمعاهد العليا التي أقاموها في كل صقع وصلوا اليه خلق أجيال جديدة من الكاثوليك المثقفين الناشطين يوالون روما وكنيستها • ولعل هذا الانجاز كان أفضل ما تم من ضمن الخطة الاصلاحية التي انبثقت عن مجمع ترانت •

محاكم التفتيش :

كانت البابوية تدرك أن الخطة الاصلاحية ، وان كانت هامة وأساسية ، الا أنها تعطي نتاجها على المدى البعيد والكنيسة بحاجة لتدابير عاجلة ولو أتت عنيفة قمعية ، لوقف انتشار البروتستانية على الأقل داخل البلدان التي ما زالت خاضعة لحكومات كاثوليكية • رأت الكنيسة أن محاكم التفتيش ، التي أقيمت قبل ذلك في اسبانيا للقضاء على بقايا الحضارة الاسلامية قد نجحت في مهمتها ، وبالتالي يمكن اعتمادها وسيلة لحماية العقيدة الكاثوليكية في كل مكان • وفعلا صدر سنة ١٥٤٢ أثناء انعقاد مجمع ترانت قرار بانشاء محكمة للكنيسة العالمية في روما • ومن صلاحيات هذه المحكمة النظر في القضايا التي تعرض عليها ، وأيضا ارسال مفتشين الى المناطق لمكافحة نشاط الخارجين على الكنيسة الكاثوليكية • والواقع أن هذه المحكمة ، مع أنها كانت في الأساس ذات طابع عالمي ،

ما استطاعت أن تمارس سلطاتها بحرية تامة خارج ايطاليا واسبانيا لما كانت تواجهه من معارضة شديدة من السلطات المحلية • الا أنها في هذين البلدين وفقت فعلا ، بما لجأت اليه من تطرف في استعمال أساليب الارهاب والقتل والتعذيب ، في القضاء على آثار المذاهب الجديدة •

الفهرس (Index) :

واتخذت الكنيسة أيضا الارهاب الفكري وسيلة لمراقبة الكتب الصادرة والتي لا تتوافق مع أفكارها • فكانت البابوية تصدر بين الحين والآخر قوائم تتضمن أسماء كتب ومطبوعات يحرم على الكاثوليك الاطلاع عليها وتداولها وبيعها • هذه الرقابة الصارمة ، وان كانت قد حفظت للعقيدة الكاثوليكية وحدتها ووجودها الا أنها حرمت البلدان التي التزمت بها فعلا مثل اسبانيا وايطاليا والبرتغال من مرافقة حركة تطور العلوم والآداب والفنون التي نشطت كثيرا في العصور الحديثة في بلدان أخذ سكانها بالبروتستانية •

وأذا نحن أخيرا حاولنا تقييم النتائج الفعلية لحركة الاصلاح الكاثوليكي نجد أنها قد وفقت الى حد كبير في تجديد مؤسسات الكنيسة وفي جعلها قادرة على مواجهة التغييرات المستمرة التي اتصفت بها العصور الحديثة • الا أن هذا النجاح ما غير من واقع انقسام أوروبا الغربية الى عالمين : أحدهما ويضم كبرى دولها أسبانيا وفرنسا والنمسا بقي على ولائه للكاثوليكية والبابوية ، والثاني ويضم شمال وشرق المانيا والممالك الاسكندينافية والجزر البريطانية ، ما عدا ايرلندا ، وقد انفصل نهائيا عن روما وأخذ بالبروتستانتية بمذاهبها المختلفة •

وعلى كل فان هذا ما كان نهاية المطاف وما استقرت الأوضاع العقائدية على هذه الصورة خاصة وأن بلدانا كثيرة كانت ما تزال مسرحا لتنافس الدعاة والمبشرين مثل البلدان الواطئة وسويسرا وبوهيميا والمجر وفرنسا • وكان على أوروبا أن تعرف بعد عهود الاصلاح الديني سلسلة رهيبة من الحروب ستدمي شعوبها قبل أن تصل الى استقرار فعلي على الصعيد الديني والمذهبي •

الاصلاح الديني في فرنسا

لم يكن هناك في القرن السادس عشر ما يحول دون عبور تيارات الاصلاح الديني من المانيا وسويسرا وانتشار أفكار ودعوات لوثر وغيره من المصلحين الدينيين بين الفرنسيين • فحال رجال الدين في فرنسا وما كان للفرنسيين على بعضهم من مآخذ كان مشابها لحال اخوانهم في سائر بلدان غرب أوروبا • وما كانت أيضا حاجة الكنيسة في فرنسا للاصلاح في بعض نظمها ومؤسساتها بأقل من حاجة الكنائس الالمانية • ثم أن ما طبع المثقفين الأوروبيين منذ أواخر العصور الوسطى من روح علمية ناشطة ورغبة في البحث والمناقشة ومن تفكير عقلاني وذهنية جديدة ، كان واضحا وبدرجة قوية عند المثقفين الفرنسيين •

في زمن الملك فرنسيس الأول (١٥١٥ — ١٥٤٧) تسربت الى فرنسا مؤلفات لوثر وأخذ الناس يتناقلون أفكاره الاصلاحية ويتداولون آراءه • والواقع أن الملك الفرنسي ما كان له في بداية الأمر موقف حازم من الأفكار الجديدة • فهو كان راغبا في اصلاح أوضاع الكنيسة وتطوير نظمها متقبلا ولو بصورة ضمنية لبعض أفكار لوثر وانتقاداته • الا أنه بسبب ما كانت تتمتع به الكنيسة الفرنسية من استقلالية عن روما في بعض نظمها ، كتعيين الأساقفة مثلا الذي كان يمارسه الملك الفرنسي منذ سنة ١٥١٦ كان الشعور بوطأة البابوية أخف مما كان عليه في المانيا أو سويسرا • يضاف الى ذلك أن مشاغل الملك الخارجية الكثيرة وعدم تقدير مدى تجاوب الفرنسيين مع دعوات الاصلاح جعل السلطات الفرنسية تقف من الأفكار الجديدة موقفا محايدا حتى أواخر العقد الثالث من القرن السادس عشر •

الا أن الاعتبارات السياسية العليا ما لبثت أن تدخلت في الأمر وجعلت

الملك فرنسيس الأول يتحول عن سلبيته ليتخذ موقفا عدائيا من اللوثرية ومن انصارها من الفرنسيين ، فحرص الملكية الفرنسية على اقامة علاقات حسنة مع الدولة البابويــة ذات النفوذ الواسع في أوروبا جعلها تلجأ الى العنف فتصدر منذ سنة ١٥٢٨ سلسلة من القرارات والمراسيم لمكافحــة الأفكار الاصلاحية وجذبتهم لدراسة ومناقشة المسائل الدينية الا أنها مــا الكنيسة الكاثوليكية •

والواقع ان الشدة والعنف ما كانا في يوم من الأيام اداة كافية للقضاء على الأفكار والعقائد متى وجد من آمن بها ودافع عنها باخلاص وتصميم • فتطبيق هذه القرارات واعدام الكثيرين من رواد حركة الاصلاح الديني في فرنسا آنذاك ما قضى على هذه الحركة ولا قلل من ايمان رجالها بها • بل ربما على العكس من ذلك أوجد موجة من العطف على هؤلاء ساهمت في زيادة عدد المؤمنين بأفكار لوثر •

ومع ظهور دعوة كالفن وانتشار أفكاره بين الفرنسيين تحولت حركة الاصلاح الديني الى تيار قوي اتخذ شكل طائفة دينية ذات عقيدة واضحة وتنظيم قوي • والواقع أن دعوة لوثر مع أنها نبهت عقول الفرنسيين الى الأفكار الاصلاحية وجذبتهم لدراسة ومناقشة المسائل الدينية الا أنها ما نجحت في اقامة قواعد ثابتة لها في فرنسا • ربما كان سبب نجاح كالفن يعود لكونه فرنسي اللسان والقومية فكان في اسلوبــه وطريقة تفكيره أقرب الى قلوب الفرنسيين • وربما أضيف الى ذلك أن الكالفينية كانت أكثر تطرفا في دعواها الاصلاحية وأشد في مقارعتها لاخصامها مما يتلائم مع طبيعة الفرنسيين العنيفة أحيانا •

نجح أوائل الدعاة الكالفنيين بين أبناء طبقة النبلاء في جنوب وجنوب غرب فرنسا ربمــا لكونهم وجدوا فيها اداة تقف بوجه اتجاه الملكيــة الفرنسية منذ أواخر العصور الوسطى نحو زيادة سلطانها على حســاب امتيازاتهم ومصالحهم الاقطاعية • وأيضا لعل بعضهم وجد في ركوب موجة البروتستانتية طريقا نحو الزعامة والريادة • وطبعا انتشر المذهب الجديد

بين الفلاحين من اتبـاع هؤلاء ، أما عن قناعة أو لاضطرارهم لمسايـرة سادتهم باعتبار ان هؤلاء كانوا يفرضون في الكنائس الخاضعة لنفوذهـم قسسا من البروتستانت • وكذلك انتشرت البروتستانتية بين بورجوازيـة المدن والحرفيين والمثقفين لانتشار التعليم بين هؤلاء • ولعل كثيرين مـن هؤلاء وجدوا في المذهب الجديد طريقا يعبرون فيه عن نقمتهم علىالأوضاع الاقتصاديـة المتردية بسبب عجز الخزينة المزمن وكثرة الضرائب وارتفاع الأسعار المتزايـد •

ومع انتشار المذهب الجديد وتحول ثلث النبلاء ان لم يكن أكثر من ذلك الى البروتستانتية في النصف الثاني مـن القرن السادس عشر بدت الحركة الجديدة وكأنها دعوة للعصيان والتمرد على سلطان الملكية ممـا جعل هذه تحزم أمرها وتجابه دعاة المذهب الجديد بكل الوسائل •

لم يتردد الملك هنري الثاني الذي خلف أباه فرنسيس الأول سنـة ١٤٥٧ على عرش فرنسا في ملاحقة دعـاة البروتستانتية وقتل مفكريهـا وأحراقهم • الا أنه على كل حال ما كان قادرا على التفرغ لمقارعـة هؤلاء لانشغاله في متابعة الحرب مع اسبانيا التي بدأها أبوه والتي كان محورها الصراع على النفوذ والزعامة في أوروبا •

بعد انتهاء الحرب مع الاسبان وتوقيـع صلح (كاتو كامبريزيس) Cateau Combrésis سنة ١٥٥٩ الذي كرس نفوذ اسبانيا علـى ايطاليـا ، أراد هنري الثاني أن يتفرغ لمحاربة البروتستانت الفرنسيين أو الهوغونوت Huguenots (والكلمـة ربما كانت مشتقـة من كلمـة Eidgenossen الألمانيـة والتي كانت تطلق عليهـم في سويسرا) ، غير أنه توفي فجأة في حفلة للمبارزة كانت تجري احتفالا بانتهاء الصراع القديم مع اسبانيـا •

في الواقع جميع المسؤولين في فرنسا كانوا يشعرون بأنه يجب مجابهة دعاة البروتستانتية بصورة حازمة وقاطعة • ذلك أن الطائفة الجديدة قـد

قويت واشتد ساعدها وبات لها مراكز قوى في الجيش كما في البرلمان وأنصار كثيرون في المدن كما في الأرياف • وصار عدد أفراد هذه الفئة يزيد عن أربعماية ألف شخص يمارسون عباداتهم في أكثر من مايتي معبد موزعة في بعض كبريات المدن الفرنسية يقوم بالصلاة والتبشير فيها قسس كالفينون • ونظرا لكون البروتستانتية كما أسلفنا قد انتشرت بصورة خاصة بين النبلاء وبورجوازية المدن فان الطائفة الجديدة بدت آنذاك قوية وقادرة على الدفاع عن وجودها وكيانها بوجه الملكية وكذلك بوجه الكنيسة الكاثوليكية في فرنسا •

لقد طرح ظهور الطائفة البروتستانتية كطائفة وكقوة فاعلة مشكلة وحدة الأمة الفرنسية على بساط البحث في وقت كان الدين يلعب فيه دورا أساسيا في حياة الأمم • ذلك ان انقسام فرنسا بين عقيدتين يضعف من مركزها السياسي وربما العسكري في المدى الطويل وهو أمر ما كانت الدولة في فرنسا على استعداد للتساهل فيه • فاذا كان التقسيم قد حصل فعلا على صعيد القارة الأوروبية فان ما يبرر ذلك أن أوروبا ما كانت في يوم من الأيام أمة واحدة موحدة سياسيا • وحتى المانيا التي بات فيها وجود طائفتين كاثوليكية وبروتستانتية أمرا واقعا بل ومسلما به فانها كانت دوما مؤلفة من مئات الممالك والامارات المستقلة لا يجمعها الا الولاء لعرش الامبراطور المقيم في فينا • أما في فرنسا الدولة الواحدة الموحدة سياسيا وجغرافيا وعسكريا في ظل عرش جعل شعاره « دين واحد ، شرع واحد ، ملك واحد » ، فان الوحدة على الصعيد العقائدي تبقى ضرورة ماسة لا يجوز التفريط بها • وبالتالي فان مباديء التسامح والحرية تبقى بمثابة ترف لا يمكن القبول به وتظل وحدة الدين بمثابة ضمانة لوحدة الأمة وسلامتها سياسيا وعسكريا •

ولم تكن الكنيسة الكاثوليكية في فرنسا أقل ادراكا من العرش الفرنسي للاخطار التي قد تتعرض لها وحدة الأمة الدينية والعقائدية من جراء تزايد انتشار المذهب الجديد • وعلى هذا تحالفت القوى التقليدية

للكاثوليكية الفرنسية : العرش الملكي والكنيسة الفرنسية تدعمهما من الداخل جماهير الشعب الفرنسي وبصورة خاصة عوام باريس ومن الخارج نفوذ اسبانيا أشد دول أوروبا الكاثوليكية عداء آنذاك لحركات الاصلاح الديني ، للوقوف بوجه المد البروتستانتي والقضاء على أنصاره ومؤيديه .

وخلال حكم الملك فرانسوا الثاني القصير (١٥٥٩ ــ ١٥٦٠) تسلط على شؤون الدولة ، الى جانب الملكة الأم ، فرانسوا دي غيز زعيم أكبر وأقوى عائلة كاثوليكية في فرنسا ، وذلك بسبب صغر سن الملك وقلة خبرته في شؤون الحكم . وقد أغضب هذا الأمر سائر العائلات المنافسة من كاثوليكية وبروتستانتية . تمادى آل غيز كثيرا في محاربة البروتستانت . أحرقوا كثيرين منهم وطردوا بعض نبلائهم من وظائفهم الكبرى وألقوا بالألوف من سوادهم في السجون . وهذا جعل بعض زعمائهم يعدون مؤآمرة لأختطاف الملك من قصره في أمبواز Amboise بقصد انقاذه من سطوة آل غيز . الا أن المؤآمرة انكشفت وتبعتها حركة قمع عنيفة قتل فيها كل من شارك في المؤآمرة من قريب أو بعيد . وكذلك حكم بالاعدام على أحد أكبر زعماء البروتستانتية لويس أمير كوندي . غير أن أعمال العنف هذه توقفت فجأة بسبب الوفاة غير المنتظرة للملك فرانسوا الثاني . في ربيع سنة ١٥٦٠ . ولم يكن شارل التاسع الملك الجديد يتجاوز العاشرة من عمره .

كاترين دي مديتشي : Catherine de Médiçis

شاءت ظروف فرنسا آنذاك أن يؤول السلطان الفعلي الى الملكة الأم ماري دي مديتشي ذات الثلاثين ربيعا . كانت ايطالية الأصل ذات شخصية قوية ، ربيبة بيت اشتهر في عالم المال والتجارة وعرف ابناؤه بخبرتهم أيضا في امور الحكم والدولة وبراعتهم في الديبلوماسية وما كان يرافقها من فنون الدهاء والمكر . جعلتها نشأتها ذات ثقافة واسعة وعقلية عملية مع شيء من الوصولية كان يجعلها لا تتورع عن عمل لتحقيق أغراضها . ترك لها زوجها عند وفاته أربعة أولاد ارتقى العرش ثلاثة

منهم : فرانسوا الثاني وشارل التاسع وهنري الثالث • أكبرهم كان في الخامسة عشرة عند وفاة أبيهم الملك فأشرفت هي على تربيتهم ومارست سلطانا لا حد له على شؤون الدولة سواء بصفتها وصية أو الملكة الأم •

لقد وضعت لها منذ وفاة زوجها هدفين أساسيين الحفاظ على مصالح أولادها والمحافظة على حقوق العرش وتقاليده وسط الصراع الرهيب بين الكاثوليكية والبروتستانتية • ومع أنها كانت كاثوليكية الايمان والعقيدة فانها ما كانت في أعماقها شديدة التدين مما جعلها دوما تغلب اعتبارات مصلحة الدولة والعرش على كل اعتبار • وسعت وبوصولية لا حد لها الى اقامة نوع من التوازن والتعايش بين الطائفتين المتنازعتين لتظل دائما قادرة على أن تكون الطرف الأقوى والحكم الأخير • وعلى كل ، ففي حالات عديدة شذت عن هذه القاعدة وأخذت جانب أحد الفريقين حين قضت مصلحة العرش بذلك • ولتكون قادرة على تطبيق سياستها هذه أبعدت آل غيز عن شؤون الحكم وعينت دي لوبيتال Michel de L'hospital المعروف بحكمته واعتداله ودعوته للتعايش والتسامح بين الطائفتين في مركز الوزارة تعتمده في شؤون الحكم والديبلوماسية كما في الشؤون العسكرية •

الا أنها على كل حال ما كانت وحدها الفاعلة والمؤثرة في أحداث تلك الفترة الصعبة من تاريخ فرنسا • فالفئآت الكاثوليكية المحافظة كان لها هي أيضا رأيها ونظرتها ومخططها تجاه الحكم وبصورة خاصة تجاه السياسة التي يجب أن تتبعها الدولة حيال البروتستانت • وكان أبرز من يمثل هذه الفئآت فرانسوا دي غيز الذي عرفنا منهجه أيام الملك فرانسوا الثاني ، سيد عائلة De Guise الكاثوليكية الأرستوقراطية العريقة يدعمه ويؤيده على الصعيد الاكليريكي شقيقه شارل كاردينال اللورين وأحد أمراء الكنيسة الكاثوليكية الفرنسية • وأضافة لما تتمتع به هذه العائلة من نفوذ واسع ، كان يبدو أحيانا أكثر سناء واشعاعا من سلطان

التاج ، فقد كانت تشدها رابطة قرابة الى العرش الاسكوتلندي وتحالف وثيق مع اسبانيا والبابوية •

بالمقابل ما كانت زعامة البروتستانت أقل عراقة وأبهت سناء فزعيمهم هو أنطوان ملك مقاطعة نافار من عائلة بوربون العريقة والتي تشدها رابطة قرابة وثيقة الى العائلة المالكة • وكان يساعده ويشد عضده في زعامتـه شقيقه القوي لويس أمير كوندي • ونظرا لما كان لعائلة بوربون من نفوذ عريض في جنوب وجنوب غرب فرنسا فقد نشطت بنفوذها وبكثرة اتباعها قوى البروتستانتية • وكذلك كان يدعم الزعامة البروتستانتية بقوة وفعالية أميرال فرنسا وابرز قادتها العسكريين غسبار دي كوليني Gaspard de Coligny من عائلة مونمورانسي Montmorency ذات النفوذ الواسع والشهرة العريضـة •

الحروب الدينية

أثر وفاة الملك فرانسوا الثاني في ربيع سنة ١٦٥٠ بدت فرنسـا منقسمة على نفسها بشكل رهيب • فالفئآت الكاثوليكية كانت مصرة أكثر من أي وقت مضى على القضاء على المذاهب الجديدة ودعاتها • وانصار البروتستانتية لهم من القوة المادية والنفوذ والأيمان بمعتقداتهم ما يجعلهم مصممين بل وقادرين على مواجهة اخصامهم في كل الميادين • والوصية على العرش يهمها فوق كل الاعتبارات المحافظة على حقوق أولادها وصيانـة مصالحهم وهذا لم يكن يساعد اطلاقا على حسم الامور بل أنها فعلا ما كانت راغبة في حسم الأمور بصورة جذرية • هذا الوضع المعقد جعـل فرنسا تنشغل طيلة العقود الأربعة الأخيرة من القرن السادس عشر بسلسلة طويلة ومتشابكة من الحروب الدينية بلغ عددها ثمانية أو تسعة حروب واجهت فيها جيوش كاثوليكية أخرى بروتستانتية ورافقتها حوادث قتل واغتيال

وثأر وارهاب عمت مدن فرنسا واريافها ؛ وكانت الملكة الام في أكثر الحالات تقف منتظرة ، ككل الفرقاء المتقاتلين لتقطف ثمار صراعهم ولتفرض عليهم من المصالحات ما يتناسب فقط مع مصالحها ؛ وكذلك زاد في هول هذه الحروب انها ما بقيت فرنسية بعناصرها وقواها أذ استنجد الفريقان بالمرتزقة من الجنود الأجانب واستقدما قوى اجنبية نظامية في بعض مراحل هذه الحروب للمساعدة فزادت في رزايا الفرنسيين ؛ تدخل الأسبان بجيوشهم اكثر من مرة الى جانب الكاثوليك الفرنسيين وبناء لطلب زعمائهم ، وساعد الأنكليز ولو بصورة أضعف بروتستانت فرنسا ؛

حاولت كاترين دي مديتشي بصفتها الوصية على أبنها الملك شارل التاسع ابن السنوات العشر أن تبقي على الطائفتين المتنافستين تحت سيطرة التاج ؛ أطلقت سراح لويس أمير كوندي زعيم البروتستانت المحكوم بالأعدام وحررت مساجينهم من المعتقلات وسعت عبثا للتوفيق بين الطائفتين ؛

تمادت كاترين في التساهل مع البروتستانت وأستصدرت مرسوم سنة ١٥٦٢ الذي اعترف بحقهم في ممارسة شعائرهم الدينية خارج المدن المسورة وفي قصور نبلائهم في الأرياف ؛ هذا المرسوم أغضب الكاثوليك لأنه منح حرية العبادة ولو بشكل محدد لمن يعتبرونهم بمثابة كفار وهراطقة دون ان يرضي البروتستانت الذين وجدوه دون ما يريدونه وما يحق لهم من حرية كمواطنين فرنسيين ؛ وعلى هذا تجاهلوا المرسوم وظلوا يمارسون عباداتهم حيث يشكلون اغلبية السكان داخل أسوار المدن وحتى في كنائس قديمة جردوها من الصور والتماثيل ؛ بل فوق ذلك أخذوا يتحدون في بعض مناطق جنوب غرب فرنسا في تجمعات مسلحة ؛

وحدث أن كان الزعيم الكاثوليكي فرانسوا دي غيز في أول آذار (مارس) سنة ١٥٦٠ يمر مع بعض أتباعه في بلدة فاسي Wassy فلقي بعض الهيغنوت يمارسون عباداتهم داخل أسوار المدينة مخالفين بذلك

احكام مرسوم التسامح • ثار لذلك وأمر جنوده فأعملوا فيهم القتل • وعرفت هذه الحادثة بأسم مذبحة فاسي • أمتد العنف الى كثير من المناطق الفرنسية حيث نكل الكاثوليك بأخصامهم • وبالمقابل حمل الهيفونوت السلاح تحت زعامة لويس كوندي فهاجموا كنائس الكاثوليك ونكلوا بالرهبان والكهنة وحطموا الصور والتماثيل والأيقونات • أستولى الهيفونوت بسرعة مذهلة على كبريات المدن الفرنسية عدا باريس ونهبوا ثروات الكنائس وتحفها • الا أن الكاثوليك ما لبثوا ان استعادوا المبادرة بما حصلوا عليه من مساعدات من اسبانيا ومن العرش الفرنسي وهذا أدى الى استطالة الحرب•فسقط فيها فرانسوا دي غيز زعيم الفئات الكاثوليكية المحاربة وكذلك كبير زعماء الهيفونوت أنطوان بوربون وأنتقلت الزعامة الى أبنة هنري (الذي سيصبح فيما بعد الملك هنري الرابع) • غياب الزعيمين أطلق يد الملكة فحالتدون أنتصار احد الفريقين واصدرت مرسوم أمواز سنة ١٥٦٣ الذي يعدل مرسوم التسامح السابق ،فيسمح للبروتستانت بالعبادة بصورة علنية فقط حيث هم متواجدون آنذاك وأيضا يخصص في كل أقليم ضاحية واحدة لتنظيم أحتفالاتهم • وبذا يكون الهيفونوت قد خسروا شيئا من مكاسبهم السابقة أثر هذه الحرب •

أعطت سياسة التسامح والأعتدال النسبية هذه فرنسا فترة من الهدوء استمرت حتى سنة ١٥٦٨ •

وبسبب أتصالات ماري دي مديتشي الكثيرة مع العرش الأسباني المغالي في ملاحقة البروتستانت في كل مكان وخاصة في البلدان المنخفضة التابعة لنفوذه آنذاك وأثر اجتماعها بزوجة الملك الأسباني في مدينة بايون سنة ١٥٦٨ لبحث قضية مصاهرة بين العائلتين ارتاب زعماء الهيفونوت بنواياها ونظموا موآمرة لأختطاف الملك شارل التاسع • أستؤنف القتال أثر ذلك على فترات متقطعة حتى سنة ١٥٧٠ أنتهت بمرسوم سان جرمان سنة ١٥٧٠ الذي أكد حرية الهيفونوت في ممارسة شعائرهم وفق مرسوم سنة١٦٥٣ •وتأكيدا لنوايا العرش الحسنة تجاههم أعطتهم أربعة مدن هامة

بينها لاروشال La Rochelle يمكنهم ان يقيموا فيها حاميــات لهم لمدة عامين •

بعد ذلك سعت الملكة الأم لتزويج أبنتها مرغريت من هنري بوربون زعيم الهيفونوت وذلك لتأكيد الصلح بين الفريقين وربما لوضع الهيفونوت بصورة أوثق تحت سلطانها •

في هذا الوقت الذي كانت فيه سياسة الملكة الأم المرتكزة ولو جزئيا الى مبدأ التسامح بلغ الملك شارل التاسع العشرين من عمره فأخذ يبعد أمه بصورة متزايدة عن شؤون الحكم • لم يكن الملك الشاب الذي تربى في أحضان مربية بروتستانتية راضيا عن نفوذ اسبانيا الواسع في اوروبا عامة وفرنسا خاصة فقرب اليه الزعيم البروتستانتي غاسبار دي كوليني وأخذ يتصل بالأمراء الألمان البروتستانت •

تزايد تأثير الأميرال دي كوليني بشكل واضح وسريع على الملــك الشاب وظهر ذلك فيمجال السياسة الداخلية وكذلك في مجال العلاقات مع أسبانيا مما جعل الملكة الخائفة على نفوذها من الضياع والحريصة علــى سياسة التعاون مع العرش الأسباني تحقد على الهيفونوت وتنظم موآمرة لتصفية زعمائهم • أستغلت مناسبة الأحتفالات بزواج ابنتها من هنــري بور بون في ١٨ آب (أغسطس) سنة ١٥٧٢ وتواجد كــل الهوغونوت البارزين في باريس ونظمت مع آل غيز في فجر ٢٤ منه يوم عيد القديس برتلمي Saint - Barthelemy مذبحة أستهدفت هؤلاء • ومن باريس امتدت اعمال العنف الى سائر انحاء فرنسا فمات مابين ثمانية آلاف وعشرة جلهم من النبلاء والبرجوازيين • والواقع ان الملكة الأم ما كانت تستهدف سوى الزعماء وخاصة الأميرال كوليني الا أن الدهماء خضعت لغرائزها واستفاقت فيها النزعات الوحشية فاعملت القتل فيمن وصلت اليه يدها من الهيفونوت دون تمييز بين مستهدف أو غير مستهدف • ولعل بامكاننا ان تتميز هنــا بعض الدوافع الأجتماعية والطبقية من خـــلال الوحشية التي استهدفت

بصورة خاصة النبلاء وكبار البرجوازيين •

لم ينج من زعماء الهيفونوت المتواجدين في باريس آنذاك غير هنري بوربون • هذه المذبحة ، المأساه ، استقبلت بفرح عظيم في روما كما في أسبانيا وسائر بلدان الكاثوليكية ، • لكنها بالمقابل أدت الى زيادة تصميم الهيفونوت على الدفاع عن حقوقهم فقاوموا العرش والكاثوليك وأعتصم زعمائهم في قلعة لاروشيل مدة ثمانية أشهر فشل خلالها الكاثوليك في أخضاعهم مما أضطر العرش ومن وراءه الملكة الأم لمصالحتهم سنة ١٥٧٣ واعادة ما أخذ منهم منذ المذبحة من املاك وأمتيازات ووظائف كبيرة •

برزت بعد المذبحة وما تلاها من احداث وقائع هامة على مسرح السياسة الفرنسية • فالملكة الأم اثبتت انها ما تزال صاحبة السلطان الفعلي في وجه محاولات ابنها شارل التاسع ممارسة الملك فعلا وهذا قوي بوجهها بصورة خاصة المعارضة السياسية احكمها • ثم أن تحولا هاما طرأ على تفكير بعض الهيفونوت الذين ايقنوا استحالة تحويل فرنسا كلها الى معتقداتهم فمالوا نحو الأكتفاء بالمطالبة بحقوقهم الدينية الكاملة بصفتهم مواطنين في دولة كاثوليكية وكذلك ظهر فريق من معتدلي الكاثوليك ومن الكارهين لتسلط الملكة الأم واستبدادها في أمور الحكم والدولة يطالب بأعطاء البروتستانت الحريات الدينية كوسيلة لأنقاذ فرنسا من الأنقسام المذهبي والمذابح الأهلية • وكذلك طالب هؤلاء بضرورة تأكيد سلطان الدولة وسيادتها على من يعيش على أرضها من فوق كل الفروقات وخاصة المذهبية منها • برز هؤلاء كتجمع مستقل عن الفريقين المتصارعين وأطلقوا على أنفسهم أسم « السياسيون » Le Politiques كما أخذوا يلعبون دورا متزايد الأهمية في أحداث الحروب الدينية الفرنسية •

في سنة ١٥٧٤ عندما توفي الملك الشاب شارل التاسع في أيار (مايو) كانت اوضاع فرنسا على درجة كبيرة من التردي • حرب ضارية كانت بدأت منذ شهر شباط (فبراير) بين الهيفونوت الذين يتزعمهم هنري دي بوربون يعاونه فريق السياسيين الناقمين على سياسة العرش

والكارهين لتسلط الملكة الأم من غير مسوغ قانوني او دستوري على الشؤون العامة . ثم ان توالي الحروب الدينية اضعف وحدة فرنسا وبعث الدفين من انقساماتها الحزبية والأقليمية وأحيا التنابذ بين المدن والتنافر والتحاسد بين الحواجز والأرياف كما ساد الأضطراب وفقدان الأمن ارجائها . وفوق هذا وذاك ادخل السياسيون ونظرياتهم حول سيادة الدولة وحقوق المواطنين الطبيعية في الحريات العامة مشكلة سياسية ودستورية اضيفت الى مشاكل فرنسا التي لا تحصى .

لقد شاء سوء طالع الفرنسيين آنذاك ان لا يكون هنري الثالث ألذي آل اليه عرش باريس أهلا لمواجهة اوضاع على هذه الدرجة من التعقيد . يضاف الى ذلك انه ما كان اقل من اخيه وسلفه انصياعا لسياسة الملكة الأم . كان عليه اول الامر ان يتصدى للحرب المعلنة ضد الكاثوليك والعرش ايضا ففادها بكثير من عدم الكفاية وتلقى الفشل تلو الفشل حتى واجه حصارا ضربه السياسيون والهيفونوت على باريس في سنة ١٥٧٦ . أنتهت هذه الحرب بتدخل كاترين دي مديتشي شخصيا اذ فاوضت المحاصرين وجعلت الملك يصالحهم على أساس اعطاء الهيفونوت حق العبادة في كل مكان عدا باريس والبلاط الملكي . وبذا يكون الهيفونوت قد سجلوا ضد العرش الفرنسي وكذلك ضد الكاثوليك المحافظين احد أهم أنتصاراتهم في الحروب الدينية الفرنسية . وعلى كل فان هذا الصلح ما كان في الواقع اكثر من هدنة وأستونف القتال بعد توقيعه وحتى سنة ١٥٨٤ اكثر من مرة .

على أن الشيء الهام هو أن ما حصل عليه الهيفونوت من مكاسب في سنة ١٥٧٦ أثار حفيظة غلاة الكاثوليك بدرجة عظيمة . تألف من اليسوعيين ومن هنري دي غيز زعيم عائلته حلف عرف بأسم « العصبة الكاثوليكية » أخذ على عاتقه من جهة النضال لأعادة كل الفرنسيين دون أستثناء الى حظيرة الكاثوليكية وكذلك مقارعة الملك والبلاط لسياستها المتهاونة والمهادنة احيانا مع الهيفونوت خاصة وان هؤلاء فقدوا بعض عطف المحايدين لظهور تعاونهم المتزايد مع الأجانب (الأنكليز والألمان) .

في سنة ١٥٨٤ طرأ عنصر جديد زاد في أضطراب الوضع السياسي في باريس • لقد توفي فجأة دوق دانجو الشقيق الأصغر للملــك الفرنسي هنري الثالث دون ان يترك وريثا • ولم يكن الملك نفسه قد أنجب حتى ذلك الوقت وريثا لعرشه وما كان متنظرا أن ينجب مثل ذلك الوريث • وعلى هذا بات مــن المعروف ان العرش الفرنسي سيؤول الـــى هنري بوربون اكبر زعماء الهيفونوت بأعتباره أقرب الفرنسيين الى الملك • الا أن أمكانية جلوس ملك بروتستانتي علىعرش فرنسا العريقة في كاثوليكتها كان ابعد مما يمكن لعامة الفرنسيين وحتى للمعتدلين منهم أن يتصوره أو يقبلوا به •

ومن ذلك اخذت الحروب الدينية ابعادا جديدة شديدة الخطــورة وأدخلت الأحداث المتشابكة الفرنسيين في متاهات مظلمة لا يعرف لهــا قرار • فالملك هنري الثالث أظهر خلال سنوات حكمه المنصرمنة ، الكثير من الضعف والتردد والجهل فيمعالجته قضايا السياسة الخارجية والداخلية كما أنه تطرف في ألأنجراف في مجاري الأنحــلال الخلقي وفساد المعشر والميل نحو اللهو والتخنث والتشبه بالنساء مما أفقده كل محبة واحتــرام عند رعاياه وجعلهم يفقدون كل أمل في الخلاص على يديه • ومما زاد في سوء طالعه أنه في الوقت الذي بات فيه أشد ما يكون حاجة لنصائـــح امه وخبرتها في شؤون فرنسا أقعد المرض هذه وأفقدتها الشيخوخـــة الرؤية الواضحة والرأي البصير •

أمام هذا الفراغ الرهيب في قمة الهرم الحكومي الفرنسي أتجهت أنظار معظم الفرنسيين الكاثوليك نحو هنري دي غيز ، زعيم العصبـــة الكاثوليكية ، المصمم بعناد على استئصال شأفة البروتستانتية من فرنسا بأعتبارها سبب كل ما حل بها من رزايا منذ سنين عديدة • وكان هذا قد اشتد عضده باتفاقه على التعاون والمساعدة مع فيليب الثاني ملك أسبانيــا الذي ما كان اقل منه عداء للبروتستانتية ، وكذلك بما أخذ يحلم به من أمكانية ارتقاء عرش فرنسا أذا ما نجح في ابعاد هنري دي نافار (بوربون) عنه •

وقد برز تأييد الفرنسيين له والتفافهم حول زعامته بأنضمام كل شمال ووسط فرنسا الى مؤيدي العصبة الكاثوليكية • وازداد موقف العصبة قوة حين اصدر قداسة البابا قرارا بحرمان هنري بوربون من حقه بوراثة العرش نظرا لهرطقته • وكان الملك هنري الثالث قد أضطر قبل ذلك تحت تأثير قوى العصبة المتزايدة لأصدار مرسوم سحب بموجبه كل ما سبق وحصل عليه الهيفونوت خلال الحروب الدينية من حقوق وامتيازات ومكاسب مما أدى الى عودة القتال مجددا وكان ذلك في صيف سنة ١٥٨٥ •

ولعل الظاهرة الهامة التي برزت آنذاك هي أنكاس الأوضاع الأقتصادية بقوة على الأحداث وتأثيرها الظاهر في مجراها • فسنوات الحرب الطويلة ارهقت البورجوازية الصغيرة في المدن وخاصة اصحاب الدكاكين والحرفيين والعاملين في المهن الحرة وأظهرت التناقض بين مصالحهم ومصالح كبار النبلاء المتعاطفين في اكثريتهم مع قضية الأصلاح الديني • ولذا أنضوى هؤلاء تحت لواء العصبة وقدموا لها عونا عظيما في المال والرجال وما ترددوا في جلب المرتزقة لها من خارج البلاد • وأزدادت العصبة بذلك قوة وعضدا •

أظهرت الحرب منذ بدايتها مدى تسلط هنري دي غيز على مقدرات الفرنسيين كما على عواطفهم وأدرك الناس وخاصة اخصامه قوة زعامته في اليوم المعروف بيوم المتاريس في ١٢ أيار (مايو) سنة ١٥٨٨ La journée des Parricades حين رفضت العاصمة الفرنسية تأييدا منها لزعامته وأظهارا لكرهها للملك وسياسته أن تسمح لقوات ملكية أستقدمها هذا الاخير بالقضاء على أضطرابات واعمال شغب قامت في المدينة ضد العرش بسبب انتصارات عسكرية كان قد حققها الهيفونوت• وتبع ذلك سلسلة من الأهانات الحقت بهنري الثالث جعلته يهرب خارج باريس •

وكنتيجة لذلك وفي لحظة يأس وقنوط أعتقد أن هنري دي غيز هو

وحده يحول بينه وبين سلطانه على الفرنسيين فتآمر مع بعض اتباعه وأغتال زعيم العصبة • هذا الأغتيال افقده كل ما كان ربما قد بقي له من رصيد عند الكاثوليك الفرنسيين • اعلنت العصبة خلعه عن العرش ووافق قداسة البابا على حرمانه من حقوقه في الملك ثم تشكلت حكومة مؤقته في باريس بزعامة مايان Mayenne شقيق هنري دي غيز حصرت بيدها كل سلطات العرش والحكم •

وما تردد الملك بعد ذلك في متابعة السير وراء أحقاده فالتحق بزعيم الهيغونوت وضم اليه من بقي على ولائه من جنود الملكية وشاركه في محاصرة باريس في شهر تموز (يوليو) سنة ١٥٨٩ • ولكن بعد أسابيع قليلة نفذت عليه كلمة الحق الواردة في الكتاب المقدس « الذي بالحديد يقتل ، بالحديد يقتل » فأغتاله راهب جزويتي • وبذا مات آخر ملك فرنسي من آل فالوا « Valois » تاركا العرش من غير وريث كاثوليكي ترضى كل البلاد عنه •

هنري الرابع

وفاة هنري الثالث جعلت هنري دي نافار سليل عائلة بوربون العريقة ملكا شرعيا ، وفق التقاليد الدستورية الفرنسية • أتخذ لنفسه أسم هنري الرابع مؤسسا بذلك ملكية آل بوربون التي قــدر لها أن تحكم فرنسا بصورة متواصلة حتى الثورة الفرنسية • أنما اعلان ملكية هنري الرابع شي وجعل الفرنسيين يقرون بذلك ويقبلون به شيء كان ما تزال دونــه موانع كثيرة •

الفرنسيون وأغلبيتهم كانت كاثوليكية ما كانوا على أستعداد بحال من الأحوال للقبول ببروتستانتي ملكا على عرش كلوفيس • ثم فوق ذالك فأن هنري الرابع محروم من قبل قداسة البابا وهذا يحول بين الفرنسيين وبين التعامل معه • وهناك العصبة الكاثوليكية ، القوية كانت تعارض الملك الجديد بقوة وزعيمها مايان كان الحاكم الفعلي للعاصمة باريس بدعــم وتأييد لا حد لهما من أسبانيا • وسيد هذه الدولة فيليب الثاني كان منذ أمــد بعيد يتدخل الى جانب الكاثوليك أثناء الحروب الدينية الفرنسية ويعارض هنري الرابع خاصة وأنه بات يسعى منــذ وفاة هنــري الثالث لتنصيب ابنته ملكة على عرش فرنسا بأعتبارها قريبة من جهة أمها للملك المتوفي •

تعددت المعارك بين هنري الرابع والعصبة الكاثوليكية وأقترب من الأنتصار خاصة حين آنزل الهزيمة بجيوش العصبة قرب باريس سنة ١٥٩٠ مما جعل طريق العاصمة سالكة بالنسبة لجيوشه • غير ان وصول جيش اسباني قوي حال دون دخوله باريس • امام استطالة نزاعه مع العصبــة الكاثوليكية وحلفائهم الأسبان بدأت تبدو عقيدته وكأنها المانع الأساسي دون جعل ملكيته فعلية • وبأعتباره سياسيا عريقا وبروح وصولية مرنة

ويمكيافيلية أيجابية التجأ الى كنيسة سان دنيس القريبة من باريس وأعلن تقبله للعقيدة الكاثوليكية • هذه المبادرة قربت اليه كل انصار الشرعيــة ومؤيدي الملكية التقليدية وكذلك المعتدلين من كل الجهات الباحثين عــن السلام بعد أن طال غيابه عن فرنسا • في مارس (آذار) سنة ١٥٩٤ دخل العاصمة باريس وأخذت تتلاشى المعارضة لشخصه وخاصة معارضـــة العصبة الكاثوليكية بعد ان تقبل الحبر الأعظم توبته واعترف به ملكا على فرنسا مما جعل زعماء العصبة يضطرون لقبول الأمر الواقع •

وتبع ذلك ميل عند فيليب الثاني للسلام بعد ان وطد هنري الرابع دعائم عرشه وأظهر رغبة جدية في مجابهة اسبانيا كسيد لفرنسا الموحدة ، فاعترف به ملكا للفرنسيين ووقع معه صلح فرفان الشهير سنة ١٥٩٨ الذي جــاء تأكيدا للصلح الموقع بين الدولتين سنة ١٥٥٩ •

وكان على هنري الرابع بعد ان اصبح ملك الفرنسيين وحصل على اعتراف بشرعية ملكه من داخل فرنسا ومن الدول الأجنبية المناوئة له ان يعمل الكثير لأزالة ماخلفته الحروب الدينية الطويلة وما تركه الصراع على العرش من دمار وخراب في فرنسا •

مرسوم نانت سنة ١٥٩٨ : Edit de Nantes

كان على هنري الرابع أن يواجه بشجاعة مشكلة حقوق الهيفونوت كطائفة مستقلة ووضع أفرادها اتجاه الدولة والقانون والأغلبية الكاثوليكية • فالحروب الدينية اكدت ان الهيفنوت اقوياء وشجعان متمسكون بحقوقهم وحرياتهم الى أقصى الحدود وهم دوما على أستعداد لحمل السلاح دفاعا عن عقائدهم • فأذا اريد حقا صيانة السلام في فرنسا والحفاظ على وحدة الأمة فلا بد من الاعتراف بحقوقهم ووجودهم ثم هــم فوق هذا وذاك رفاق نضال وأخوة سلاح بالنسبة لهنري الرابع وهذا يفرض عليه واجب الرعاية والحماية • بعد مفاوضات طويلة وشائكة مع زعمائهم أصـــدر الملك مرسوم نانت الشهير في نيسان (أبريل) سنة ١٥٩٨ الذي أنهـــى

الصراع الطويل مع الكالفينية في فرنسا • أعترف هذا المرسوم للهيفونوت بحقهم في أن يكونوا طائفة مستقلة وان يمارسوا شعائرهم الدينية في قلاع النبلاء وفي مدن واقاليم كثيرة جرى ذكرها كما حصلوا على المساواة التامة في الحقوق المدنية والسياسية وفي تولي المناصب المدنية والعسكرية وسمح لهم بأن تكون لهم غرفة قضائية خاصة بهم في باريس وبأن يعقدوا مجلسا تمثيليا للبحث في شؤونهم الطائفية ومطالبهم مرة كل ثلاث سنوات وايضا منحوا حوالي ماية بلدة وحصنا يقيمون فيها ويكون لهم فيها جيش صغير يدفع نفقاته الملك •

وهكذا اعطى مرسوم نانت الهيفونوت المساواة التامة مع سائر الفرنسيين ومنحهم أيضا مكاسب ستجعل البعض ينظر اليهم في المستقبل وكأنهم أصحاب دولة ضمن الدولة الفرنسية • وعلى كل فمن المؤكد أن هذا المرسوم وضع أسس التسامح الديني الذي سيصبح فيما بعد القاعدة في الدساتير الفرنسية •

سياسة هنري الرابع :

الحروب الدينية الطويلة خلفت للفرنسيين اوضاعا مالية مترديه وفسادا بين الموظفين والقابا تباع وتشرى وضرائب ، رغم كثرتها ، ما كان يصل منها الخزانة العامة الا القليل القليل • أما الدين العام فكان قد بلغ أرقاما مخيفة تعجز عن تحملها موازنة تشكو من عجز مزمن • ولما كان على هنري الرابع ان يواجه بحزم هذا الوضع المتأزم فقد أعتمد على دوق سوللي Sully البروتستانتي صديقه ورفيق نضاله والخبير المالي البارع فأوكل اليه مهام الوزارة • عالج سوللي الوضع بسرعة وجرأة فالغى كثيرا من الوظائف وطرد الموظفين المرتشين وحارب الأسراف وتبذير الأموال العامة وأصلح نظم جباية الضرائب وما تردد في الحد من مصاريف البلاط• ولتنمية واردات الدولة فرض على كل نبيل أن يثبت صحة لقبه والا فانه يفقد حقه في استغلال الأراضي التي يمنحه أياها اللقب • بموجب هذا القانون أسترجعت الدولة أراضي كثيرة كان

النبلاء قد أستولوا عليها دون وجه حق .

اذا كانت هذه الأساليب قد أعطت نتائج باهرة وسريعة فخفضت الدين العام وجعلت موازنة البلاد متوازنة فأن فرنسا كانت بحاجة ماسة لما هو اكثر من ذلك . كانت تحتاج لخطة انمائية واسعة تصلح ما خربته الحروب وتنمي موارد الأفراد . لقد كان سوللي مدركا لذلك وكانت عنده في هذا المجال نظرية خاصة تعتبر الزراعة وتربية المواشي الركنين الأساسيين للثروة القومية . لذا أولى هذين القطاعين جل أهتمامه لقد خفض الضرائب عن المزارعين ومنع الصيد في الكروم وحقول القمح لحماية المزروعات وشجع النبلاء على ترك البلاط والعيش في الأرياف لأعمار مزارعهم وأستقدم الخبراء من هولندا لتجفيف المستنقعات وعمل على التوسع في زراعة الأرز والتوت لأنتاج دودة الحرير .

وما كان هنري الرابع اقل اهتماما من وزيره بالزراعة والمزارعين وهو الذي كان يردد دوما انه يسعى لان يجعل كل فلاح في يوم الأحد « يضع دجاجة في قدره .» الا انه ايضا كان مدركا اكثر من وزيره لأهمية قطاعي التجارة والصناعة ولكونهما لازمين ومتممين للزراعة وتربية المواشي ، كان الملك يتمنى ان يرى فرنسا تنتج كل او على الأقل ، بعض ما كانت تستورده من السلع المصنوعة لتوفر ما تدفعه ثمنها من ذهب وفضة لذا فقد كان صاحب فضل يشكر في قيام وتطوير صناعة السجاد والزجاجيات والجلود المذهبة ، والمنسوجات الرقيقة وبصورة خاصة الحريرية منها التي كان استيرادها يستنزف سنويا الكثير من ذهب فرنسا وفضتها . ولعله بذلك كان رائد نظام الحماية الأقتصادية الذي ستأخذ به دول أوروبية كثيرة في القرن السابع عشر .

ورغبة من هنري الرابع ووزيره في تيسير نقل نتاج المزارعين وتوزيعه في سائر أسواق فرنسا كما في خارجها وأيضا تنشيطا للتجارة فقد شقت طرقات ونصبت جسور وأصلحت مرافيء وشقت اقنية مائية كثيرة من ضمن مخطط كان في الواقع آنذاك خيالي الرؤية يقضي بشق سلسلة من الطرق المائية تربط البحر المتوسط بالمحيط الأطلسي وتشد مرافيء فرنسا ومناطق

الأنتاج الى بعضها البعض لتغني التجار والملاحين الفرنسيين عن عبـــور جبل طارق والدوران حول شواطيء أسبانيا • وأذا كان هنري الرابــــع ما أفلح خلال حكمه الطويل في تنفيذ هكذا عمل أسطوري فيكفيه فضلا انه أعطى فرنسا ربما افضل شبكة مواصلات متكاملة في عصره •

ومما يذكر له أنه ما نسي ، رغم مشاكل فرنسا في ايامه ، أن يرسي حجر الأساس في بناء أمبراطورية فرنسا الأستعمارية بعث الرحالة والمغامر شامبلـــين Champlain في رحلة كشف الى شمالي القارة الأميركيـــة وصلت في اوائل سنوات القرن السابع عشر الى مصب نهر السان لورانت في كندا الحالية حيث قامت اول مستعمرة ترفع علم فرنسا في العالـــم الجديــد •

على صعيد السياسة الخارجية كان لهنري الرابع طيلة حكمه مخطط تسير عليـــه الديبلوماسيـــة الفرنسية بشكـــل ثابت الأساس مستقـــر المنطلقات يتحرك وفق مصلحة سياسة الدولة الفرنسية العليا اكثر مما ينفعل بالاعتبارات الدينية التي كانت عادة في ذلك العصر تلعب دورا رئيسيا في سياسات دول أوروبا الكبرى • كان هذا الملك يتصور ان الخطـــــر الأساسي الذي يتهدد مصالح فرنسا في المدى الطويـــل ينبعث مـــن اي تحالف وثيق او مجرد تعاون وتفاهم يقوم بين اسرة هابسبورغ الحاكمة في النمسا وأسبانيا فيضع فرنسا بين فكي كماشة • لذا تصور بأن علـــى فرنسا ان تجمع كل القوى المناوئة لهاتين الدولتين في أوروبا في تحالف قوي تكون فيه هي حجر الزاوية • وما تردد لتحقيق ذلك في السعي للتعاون مع الأمراء البروتستانت في المانيا كما في البلدان المنخفضة هادفا لأقامة نوع مـــن توازن القوى في غرب أوروبا فلا تطغي فيها وتهيمن على سياستها قـــوة واحدة • وأنطلاقا من هذه السياسة بالذات تراه عندما طرحت على بساط السياسية الأوروبية أزمة وراثة دوقية كليف سنة ١٦٠٩ يقف في الصف المعادي لاسبانيـــا والنمسا الكاثوليكيتين ويتحالف مع انكلترا وهولندا والبروتستانت الألمان •

وأذا كان هنري الرابع قد وضع مصلحة فرنسا العليا فوق كـــل

الأعتبارات فان كثيرين من رعاياه ، الكاثوليك خاصة ، كانوا ما يزالون اكثر أرتباطا بالكثلكة واقل ادراكا للأعتبارات القومية فما تقبلوا سياسته وهذا جعل أحد متطرفي الكاثوليك ويدعى رافاياك Ravillac يقدم على اغتياله في سنة ١٦١٠ معتقدا انه بذلك ينقذ الكاثوليكية الفرنسية •

معاصروه وأهل زمانه يذكرون عنه أنه ما أستطاع في وقت من الأوقات أن يقرأ كتابا ، أي كتاب ، حتى آخر صفحة فيه •وآخرون يقولون أنه أحب المرأة ، كل أمرأة جميلة ، أكثر من اي شي آخر واعطاها من وقته وعقله وخياله ما أستطاع • ومع هذا فان الفرنسيين ربما ما أحبوا ملكا من ملوكهم في العصور الحديثة فوق ما أحبوا هنري الرابع • قد يكون ذلك لأن هذا الرجل كان عنده كل ما أتصف به الفرنسيون من الفضائل وايضا من النواقص • الا انه فوق هذا كان دون شك ملكا عظيما • عمل منذ دانت له الأمور واستقامت الأسباب على أقالة فرنسامن عثرتها ورفعها من مهاوي الخراب والدمار الذي وضعتها فيه الحروب الدينية الطويلة • اتصف في محاولته أعادة اعمار فرنسا وتطويرها برؤية شمولية ونظرة واسعة ما تركت ، كما رأينا سابقا ، قطاعا من قطاعات الأقتصاد الا وعملت على تطويره واغناء العاملين فيه وفي مجالات كثيرة في التجارة ، كما في الأستعمار وفي الصناعة كما في المواصلات كان رائدا وسابقا لعصره وزمنه •

على أن اهم ما يذكر من انجازاته ذلك الحل الأنساني العظيم الذي اوجده لمشكلة الأقلية البزوتستانتية • تجاوز مواقف أسبانيا والنمسا التعصبية وحلول الألمان والسويسريين التقسيمية ليوجد ماهو اسمى وابقى فخلق مبدأ التعايش بين الطوائف في ظل سيادة دولة واحدة وولاء لعرش واحد • لقد أعطى في مرسوم نانت الهيفونوت كل ما لهم من حقوق اساسية وما يحتاجونه من ضمانات للأطمئنان الى مستقبلهم دون انيتجاوز بذلك حقوق الأغلبية الكاثوليكية وأيضا دون أن يتنازل عن حق من حقوق العرش • ذلك أنه في هذا المجال كان شديد الحرص على حقوق التاج فما تنازل عن جزء من سلطانه لصالح الكنيسة او أية مؤسسة اخرى

ما جمع مجلس الطبقات مرة واحدة طيلة حكمه لأنه كان في اعماقه يؤمن بالحكم المطلق الا انه مارسه بحكمة دوما وعدل فما جعل الفرنسيين يشعرون بوطأته • فهو في نظرته الى الحكم والسلطان ما ابتعد كثيرا عن نظرته الملكية المطلقة التي بشر بها وشرحها سيد فلاسفة السياسة في عصره جان بودان Bodin في كتابه الجمهورية • كان بودان يرى أن سلطان الملك لا يحده الا الشرع السماوي والقوانين الطبيعية بما تفرضه من احترام اشخاص رعاياه واموالهم وعلائلاتهم • وعلى هذا كان هنري الرابع رائد الملكية المطلقة التي ستبلغ قمة أشعاعها مع لويس الرابع عشر •

حرب الثلاثين سنة

أدى ظهور حركات الأصلاح الديني في القرن السادس عشر الى انتشار البروتستانتية على نطاق واسع بين الألمان . وقبل ان يغيب هذا القرن كان اكثر من نصف الألمان وخاصة في المناطق الشمالية قد ترك الكاثوليكية وأخذ بمذاهب المصلحين لوثير وكالفن . وأذا كان صلح أوغسبورغ الذي وقع في سنة ١٥٥٥ قد اوقف النزاع المسلح بين انصار الكنيسة الكاثوليكية ودعاة البروتستانتية لفترة طويلة فأنه ماكان قادرا على وضع اسس سليمة ودائمة للتعايش بين الشمال البروتستانتي في أغلبيته والجنوب الكاثوليكي بأكثرية سكانه . ذلك ان هذا الصلح كان يحمل في كيانه ، بسبب ما كان يعتري نصوصه من غموض ونقص ، أسبابا وأسباب للخلاف . لقد اعترف بمذهب لوثير واهمل الكالفينية رغم نشاط دعاتها وسرعة انتشارها . وأيضا اعطى حرية اختيار العقيدة للأمراء والحكام وحجبها عن المواطنين العاديين . وفوق هذا وذاك ضمن سلامة ممتلكات كنسية كاثوليكية كثيرة في أراضي بات اكثر سكانهما من البروتستانت مما او جد سببا دائما للأحتكاك في هذه المناطق .

الواقع أن أيا من الفريقين الكاثوليكي والبروتستانتي ما نظر الى هذا الصلح الا على أنه هدنة تتيح له العمل بهمة ونشاط لتحسين مواقعه على حساب الفريق الآخر . البروتستانت عملوا منذ توقيع الصلح المذكور وحتى مطلع القرن السابع عشر على تثبيت مواقعهم بين سكان الشمال الألماني وكذلك نشروا مذاهبهم في مناطق جنوبية مثل النمسا . على أن ما كان يضعف موقف هؤلاء الى حد كبير بالنسبة للكنيسة الكاثوليكية هو انقسامهم الى لوثريين وكالفينيين وصل الخلاف بينهم في حالات كثيرة الى حد العداء المكشوف .

والكنيسة الكاثوليكية استغلت على أفضل وجـــه فترة السلام الطويلة التي اعقبت صلح أوغسبورغ لتأكيد الوجود الكاثوليكي فـي المانيا شمالها كما جنوبها كما في خارج حدودها • اعتمد الكاثوليك فـي عملهم من جهة على نفحة التجديد التي أشاعها مجمع ترانت في المؤسسات الكنسية ومن جهة ثانية على نشاط وحيوية الآباء اليسوعيين • لقد اعتبر الآباء اليسوعيون ان عليهم اعادة كل المسيحيين الـذي أخذوا بالمذاهب الجديدة الى حظيرة الكنيسة الأم في كل مكان من اوروبا وخاصة فـي المانيا • أتخذوا من مدينتي فينا وميونيخ العريقتين في كاثوليكيتهمـا مراكز انطلاق لحركتهم وجعلوا التعليم طريقهم الى عقول الشبان والمثقفين• أقاموا الكثير من المعاهد والكليات في طـول البلاد الألمانية لتعليـم الناشئة من أكليريكيين وعلمانيين وفق التعاليم الكاثوليكية • وما ترددوا في استعمال العنف كلما أمكنهم ذلك عبر السلطات الحاكمة لدعم مواقفهم ونشر عقائدهم • والواقع ان نجاح اليسوعيين عبر مدارسهم ومعاهدهم التبشيرية كان ظاهرا بحيث أعادوا نسبة كبيرة من البروتستانت الى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية وبنوا لأنفسهم نفوذا سياسيا في كثير من الدويلات الألمانية •

وكان يساعد هؤلاء في مهمتهم كون حكومة فينا الأمبراطورية كانت راغبة في اعادة وحدة الالمان الدينية باعتبارها ضرورة لا غنى عنها للوحدة السياسية والقومية ومن هنا ما ترددت مرة في تقديم كل الدعم وكل المدد لأنجاح مهمة اليسوعيين •

نجاح الكاثوليك في وقف انتشار البروتستانتية وأعادة الكثيرين من المؤمنين بها الى كنيسة روما جعل بعض الامراء البروتستانت يشعرون بضرورة تجاوز خلافاتهم المذهبية والانضواء في مؤسسة واحدة دفاعـا عن كيانهم ووجودهم•وعلى هذا ظهر في سنة١٦٠٨اتحاد يضم بعض الأمراء البروتستانت بزعامة منتخب البلاتين الذي طالما جعل من جامعة عاصمته الجميلة هيدلبرغ مركزا للدعوة للمذهب الكالفيني ولتخريج الدعـاة والمبشرين • ومع كل ما كان يتهدد المذاهب الجديدة من اخطـار فان

الأتحاد المذكور ما ضم الدويلات البروتستانتية بسبب حدة الخلاف بين دعاة كالفن وأنصار لوثير ولأن هؤلاء الأخيرين ما كانوا مؤمنين بضرورة اللجوء الى المقاومة المسلحة ولا كانوا شاعرين بالحاجة لحريات ضمنها لهم منذ أمد طويل صلح أوغسبورغ •

ما تردد الكاثوليك كثيرا في سلوك السبيل نفسه ورأينا في السنة التالية ١٦٠٩ ولادة اتحاد كاثوليكي سمي « العصبة الكاثوليكية » بزعامة الأمير مكسيميليان دوق بافاريا الشديد التدين • كان الاتحاد المذكور يضم عددا من الدول الكاثوليكية الصغيرة • ولما لم يبد الأمبراطور كبير حماس لهذا الاتحاد اتجهت أنظار موجهيه نحو اسبانيا آملين منها العون والمساعدة • وكذلك تطلع زعماء الاتحاد البروتستانتي صوب انكلترا والبلدان الواطئة ينتظرون منها الدعم والتأييد •

هكذا بدا السلام في المانيا في مطلع القرن السابع عشر هشا ضعيفا ينتظر أزمة ، أي أزمة ، مهما كانت صغيرة تضع الفريقين المتخاصمين البروتستانت والكاثوليك والمستعدين للقتال وجها لوجه وتطيح بذلك التفاهم الذي أوجده صلح أوغسبورغ •

والواقع أن انتظار المراقبين ما طال كثيرا اذ اندلعت في المانيا الحرب المعروفة في التاريخ باسم ــ حرب الثلاثين سنة ــ والتي نتجت عن الخلاف المزمن بين البروتستانت والكاثوليك الا أنها ما تأخرت كثيرا في الخروج من الاطار الديني لتتحول الى حرب سياسية أوروبية شاركت فيها أكثر دول القارة بصورة مباشرة أو غير مباشرة مدفوعة بمصالح وأطماع سياسية وقومية •

الثورة في بوهيميا :

انطلقت مقدمات الحرب ــ حرب الثلاثين سنة ــ من بوهيميا وهي مملكة المانية مستقلة يحكمها منذ سنة ١٥٢٦ بصفة ملك أمبراطور النمسا • هذا الوضع الدستوري أعطى سكان بوهيميا ــ وهم خليط من الألمان

والتشيك والسلاف ـ وضعا مميزا خاصة وأن الأباطرة اعتادوا أن يقضوا فترة طويلة كل سنة في براغ العاصمة ، لطيب مناخها وجمال طبيعتها ، فبادل سكانها ملوكهم حبا بحب وولاء بولاء • الا أن هذه العلاقة الخاصة ما حالت دون انتشار المذاهب الجديدة بين البوهيميين وبات الكاثوليك رغم تأييد الدولة والملك لهم أقلية منذ مطلع القرن السابع عشر • والواقع أنه منذ ارتقى عرش الأمبراطورية وكذلك عرش بوهيميا رودولف الثاني سنة ١٥٧٦ بدأ يتعرض دعاة البروتستانتية لكثير من العنت والأذى دون أن يؤدي ذلك الى وقف انتشار المذاهب الجديدة • صمد سكان بوهيميا بصبر وقاوموا بعناد ولفترة طويلة أجبروا بعدها ملكهم الأمبراطور على اعطائهم « عهد التسامح » الذي اعترف لهم بحقهم في اختيار المذهب الذي يريدون وبحريتهم في ممارسة الطقوس التي يختارون •

انكشاف غمة التعصب هذه ما طالت كثيرا اذ خلف ماتياس Mathias شقيقه رودلف على العرش بعد وفاته سنة ١٦١٢ فعادت الدولة معه لممارسة الضغط على البروتستانت متجاهلة عهد التسامح • وكذلك أوكلت ادارة امور بوهيميا لوزيرين معروفين بكونهما من غلاة المتعصبين للكاثوليكية • وبذ بات اضطهاد البروتستانت في بوهيميا سياسة ثابتة ودائمة • وزاد في حنق هؤلاء وخوفهم سنة ١٦١٧ما صار شائعا من أن فرديناند الثاني المعروف بولائه لليسوعيين والذي اشتهر بعدائه واضطهاده للبروتستانت سيخلف الأمبراطور على عرش فينا وكذلك على عرش براغ • استمد البوهيميون من ضعفهم تصميما ومن خوفهم صمودا والتفوا حول الكونت ثورن ، أحد الزعماء الكالفينيين ، ولجأوا الى التمرد والعصيان • هاجموا في أيار (مايو) سنة ١٦١٨ دار الحكومة في العاصمة براغ وألقوا بالموظفين الأمبراطوريين من النافذة وفق التقليد الشائع في بوهيميا كتعبير عن معارضة ما يمثلانه من سلطة أمبراطورية غاشمة متعصبة وأقاموا بعد ذلك حكومة منهم • وحين ارتقى فردينا ند الثاني فعلا عرش الامبراطورية رفضوا الاعتراف به وعرضوا عرش بوهيميا على الكالفيني فريدريك الخامس كونت البلاتين ، زعيم الاتحاد البروتستانتي وزوج الأميرة الرائعة

الجمال اليزابيث ابنة ملك الانكليز • كان فريدريك الخامس ما يزال شابا في العشرين من عمره حلو الشمائل ، قويا شجاعا ولكن تعوزه الكثير من خصائص الزعامة والحكم فأسرع بقبول عرش بوهيميا متجاهلا نصائح حميه المعاكسة •

وبذا باتت بوهيميا في نزاع مع العرش الامبراطوري وانتقلت من اطار الثورة والتمرد الى اطار الحرب المكشوفة وكا نذلك ايذانا ببداية حرب الثلاثين سنة •

استهل فريدريك الخامس حكمه في بوهيميا بحملة ارهاب وتخريب استهدفت معابد الكاثوليك ومقدساتهم مما زاد في تدهور علاقاته مع الأمبراطور الذي بادر لطلب المدد والعون من العصبة الكاثوليكية • لم يتردد زعيم العصبة مكسيمليان دوق بافاريا في ارسال جيش بزعامة تللي لمساعدة الأمبراطور في القضاء على التمرد في براغ • فعل ذلك مدفوعا من جهة بحماسه للكاثوليكية ومن جهة ثانية لكونه كان لا يريد رؤية فريدريك الخامس على رأس حكومة بوهيميا فيصبح له بذلك وهو البروتستانتي المتشدد صوتين في انتخاب الأمبراطور •

في آب (أغسطس) سنة ١٦٢٠ أطبقت جيوش الامبراطور وجيوش العصبة بزعامة الكونت تللي على مدينة براغ وأنزلت بفريدريك الخامس وأنصاره البروتستانت هزيمة منكرة في معركة « التل الأبيض » وكان ذلك في ٨ تشرين ثاني (نوفمبر) • بسرعة أنهارت مقاومة المتمردين البروتستانت في براغ وهرب زعيمهم فريدريك مع زوجته الى هولندة • وباتت بوهيميا بكاملها تحت أقدام العصبة الكاثوليكية والأمبراطور • ولقد كان أنتقام هذا الأخير رهيبا • لاحق زعماء التمرد بشدة وأعدم كثيرين منهم كما صادر اموال آخرين • وباتت سياسة الدولة استئصال شأفة البروتستانتية ودعامتها القومية التشيكية ولهذا أعطت اليسوعيين سلطة كاملة للاشراف على التعليم والمدارس وفرضت الكثوليكية بقوة القانون على الجميع في سنة ١٦٢٧ • أما فريدريك الخامس فقد وضع خارج القانون وأعطيت

أراضيه الواسعة في البلاتين ، والممتدة من بوهيميا الى نهر الرايــن ، في قسمها الشمالي الى دوق بافاريا ، زعيم العصبة ، بصورة مؤقتة ثمنا لعونه القيم • والقسم الباقي صار تحت أدارة الجيوش الأسبانية التي أتت هي أيضا لنجدة الأمبراطور •

الدور الدانمركي :

أعباء القضاء على حركة التمرد في بوهيميا وقعت بنسبة كبيرة على عاتق العصبة الكاثوليكية وبالتالي أليها عادت بعض ثمرات الأنتصار وصار لزعيمها مكسيميليان مكانة كبيرة في أوساط الكاثوليك مما لـم يعجب الأمبراطور كثيرا فأراد أن يكون له دور اكبر في ساحات القتال وتوجيه أبرز في الأحداث السياسية • لذا رآى أن يكون له ، وبصورة مباشرة ، جيش خاص يكون الأقوى والأفعل بالنسبة للكاثوليك في المانيا • مــن هذه الرغبة برزت شخصية غريبة مغامرة ، غامضة هي : والنشتاين • أنـه نبيل تشيكي من بوهيما ، في مقتبل العمر ، ورث عن زوجته ثروة عظيمة ضاعفها أضعافا بما أستولى عليه من أملاك البروتستانت في بوهيميا بعد نكبتهم على يد الأمبراطور مما جعله اكبر ملاك عقاري فيها • كــان ذا مطامع واسعة لا تعادلها الا قدرته الفائقة في التدبير والتنظيم • وبسبب أتصاله بأوساط الأمبراطور عرف حاجته الماسة للجيش القوي ففاجــأ حكومة فينا بعرض هأستعداده لأنشاء جيش كبير يعمل في خدمة الأمبراطور دون أن يكلف الخزينة شيئا من المال على أساس أن تتكفل الجهات التي ينزل فيها بتموينه وتأمين مصاريفه • بسرعة قبل الأمبراطور العرض وفــي وقت قصير صار لوالنشتاين جيش من المرتزقة الأشداء أتوه من كل حدب وصوب طمعاً بما وعد به من أسلاب وغنائم • بالهبات الكثيرة ، ولكــن أيضا بالنظام القاسي والعقوبات الصارمة جعل جيشه على درجة بالغة من القوةوالأنضباط والفعالية ووضعه تحت علم الأمبراطور وفي خدمة أغراضه في الظاهر على الأقل ، يقاتل الى جانب جيوش العصبة الكاثوليكية أعداء الكنيسة والأمبراطور •

ما أصاب البروتستانت الألمان من هزيمة في بوهيميا على يد جيوش العصبة الكاثوليكية وما نزل بالبوهيميين وبأهالي البالاتين من اذى وعنت ومظالم كان لا بد أن يحرك ضمائر أخوانهم في الدين داخل المانيا كما في خارجها • وأذا كان اللوثريون الألمان ما تحمسوا في الأساس لمغامـرة فريدريك الخامس الفاشلة الا أنهم ما أستطاعوا أن يصموا آذانهم عـن سماع أنين أخوانهم في الدين وشكاواهم تتصاعد من كل مكان نزلتـه جيوش الكاثوليك • وخارج المانيا اثارت مأساة أهالي بوهيميا والبالاتين بصورة خاصة أنتباه ملكالسويد رغم مشاغله الكثيرة آنذاك بسبب حروبه مع البولونيين • وأيضا ما تردد دوق سافواي في امداد البروتستانـت الألمان بما وسعه من مال ومرتزقة •

الا أن كريستيان الرابع ، ملك الدنمرك ، كان أشد زعماء أوروبـا تأثرا بما جرى وتحمسا بابعاده السياسية والعسكرية الى جانب الدينية لقد كان لوثريا متدينا ، عميق الأيمان ، فتأثر كثيرا بما حل بأخوان له في الدين في المانيا • ولكنه ايضا ادرك ان أنتصار الكاثوليك الألمان يهـدد مصالحه بأعتبار انه بصفته دوق مقاطعة الهولشتاين يعتبر في عداد الأمراء الألمان • هذه الأعتبارات جعلته يتحرك للتدخل في الحرب بين الألمان مما جعل الصراع يبتعد بعض الشيء عن الأطار الديني ليأخذ طابعا تبرز فيه الأعتبارات السياسية بصورة متزايدة • ثم ان تدخل الدانمرك جعل محور الأحداث ينتقل من جنوبي المانيا الى مناطقها الشمالية •

وهنا تجدر الاشارة الى أن دولا بروتستانتية مثل هولندا وانكلترا تأثرت لمصير أهالي بوهيميا وأيضا لاعتبارات سياسية خاصة بها حرضت ملك الدانمرك على التدخل ووعدته بالمال والسـلاح • وحتى فرنسـا الكاثوليكية ما ترددت في تحريضـه ووعـده بالمساعدة لأن انتصارات امبراطور فينا زادت في قوتـه بشكـل هـدد موازيـن القـوى في أوروبـا •

بدأ ملك الدانمرك تدخله في حرب الثلاثين سنة انطلاقا من امكانيات

عسكرية واقتصادية متواضعة خاصة وأن الوعود التي أغدقتها عليه الدول الأوروبية اقتصرت على التأييد المعنوي وبعض المال مما لا يغني ولا يمنح نصرا • ولذا فقد انهزم في معركة لوتر في شهر آب (أغسطس) سنة ١٦٢٦ ثم توالت على جيوشه الهزائم يحرزها جيش والنشتاين الذي احتل في شمال المانيا ولايات مكلنبورغ والشلزويغ والهولشتاين وبات قادرا ، متى حصل على عدد كاف من السفن ، على احتلال أراضي الدانمرك ذاتها •

انتصارات والنشتاين السريعة والحاسمة جعلت كل المانيا الشمالية، معقل البروتستانتية تحت سلطان الكاثوليك بفضل شجاعته وريادته الحكيمة • انما على صعيد آخر هذه الانتصارات السريعة وما رافقها من تكريم الامبراطور لقائده الشاب أثارت طبقة النبلاء الالمان وحركت بصورة خاصة مخاوف العصبة الكاثوليكية وشكوكها من نوايا وأطماع القائد المنتصر •

وفي اطار العلاقات الدولية فان هذه الانتصارات الى جانب كونها ما أنهت الحروب الدينية فانها أثارت مضاعفات خطيرة من حيث أنها طرحت مشكلة السيادة في بحر البلطيق من زاوية جديدة أحدثت ثورة في علاقات الدول البحرية •

بعد انتصارات والنشتاين ورفع العلم الأمبراطوري عاليا على امتداد مساحات واسعة من شاطيء بحر البلطيق التقت نوايا القائد المنتصر مع رغبات الامبراطور في أن تكون له قوة بحرية فعالة في هذا البحر • وبالفعل صدر مرسوم امبراطوري عين بموجبه والنشتاين قائدا للاسطول الامبراطوري في البلطيق والمحيطات • ومع أن هذا القرار ما كان يرتكز الى معطيات واقعية • فقد أثار بصورة خاصة حفيظة الدول السكندينافية ذات المصالح الحيوية في البلطيق • تناست السويد والدانمرك خلافاتهما واتفقتا على مقاومة هذه الخطط • كما أن دولا بحرية أخرى مثل فرنسا وانكلترا وهولندا عارضت تحول الألمان الى أمة بحرية ستكون منافسة

لها وستكــون عونا للاسبــان في البحــار بسبب التحالــف الوثيــق بين الأمتين •

بواقعية مدهشة وبوصولية واضحة تهرب والنشتاين من مواجهــة ردود الفعل الخارجية هذهوالغير متوقعة وبادر يسعى لمصالحة ملكالدنمرك لمنعه من التحالف مع السويديين الأقوياء • وفعلا وقع معه في سنة ١٦٢٩ معاهدة لوبيك Lubeck تسترد بموجبها الدانمرك ما فقدته من أراضي أثر هزيمتها وتتعهــد بالمقابل بعــدم التدخــل في المستقبــل بالشؤون الالمانيــــة •

معارضة الأمراء والنبلاء الألمان لوالنشتاين كانت تتزايد بتكاثــر انتصاراته وتزايد نفوذه في البلاد وتكريم الامبراطور له • وتجدر الاشارة هنا الى أنه كانت لهذا الرجل آراء خاصة في الشؤون الألمانية تتعارض مع مصالح الأمراء • كا نيدعو لانشاء دولة مركزية قوية على حسابحكومات الأمراء • وقد أوجز آراءه هذه بقوله : « أن الامبراطور يجب أن يكون صاحب السيادة في المانيا كما هو حال ملك فرنسا وملــــك اسبانيا وأن البلاد ليست في حاجة الى ناخبين أو أمراء وليس انتخاب الامبراطور الا حفلة صورية لا قيمة لها وابن الامبراطور يجب أن يكون امبراطورا بعد أبيه بحق الوراثة » •

النبلاء والأمراء الألمان الخائفون على مصالحهم واستقلالهم ما تركوا وسيلة لاجبار الامبراطور على التخلي عن قائده • وكان أخشى ما يخشاه هؤلاء ان يستعمل الامبراطور جيش والنشتاين الذي بات أكبر قــــوة عسكرية في المانيا للقضاء على حقوقهم التقليدية وامتيازاتهم التاريخيــة • وكانت أقوى حجة بأيدي هؤلاء الصيحات المرتفعة في كل مكان في شمال المانيا من تصرفات هــذا الجيش ومن أساليب النهب والغــزو التي كان يمارسها في كل أرض يحل فيها •

وفي سنة ١٦٣٠ وبعد أن توالت الضغوط على الامبراطور من كــل صوب وخاصة من زعماء العصبة الكاثوليكية وافق مكرهــا على عزل

والنشتاين وابعاده وعين كونت تيللي قائد جيوش العصبة على جيشه الأمبراطوري • بصمت مهيب وثقة قوية بالنفس وبالمستقبل انسحب والنشتاين ليعتزل في قصره في بوهيميا منتظرا ما ستجود به الأقدار عليه •

وكان الامبراطور في السنة السابقة ١٦٢٩ قد اتخذ قرارا مشابها من حيث بعده عن الحكمة والواقعية مستغلا انتصار جيوشه في شمال المانيا فأصدر مرسوما أعاد بموجبه للكنيسة الكاثوليكية الممتلكات الكنسية التي آلت الى البروتستانت بعد صلح أوغسبورغ • هذا القرار دفع كل اللوثريين الذين التزموا الحياد حتى ذلك الوقت الى الصف المعادي للأمبراطور وللكنيسة الكاثوليكة ، وحرك رياح الحرب مجددا بعد أن اتجهت نحو الجمود أثر مصالحة الدانمرك •

الدور السويدي :

في الوقت الذي كان الامبراطور يتخلى فيه عن قائده العظيم كانت موجة من العداء للأمبراطورية تتكون بعيدا في السويد وراء مياه البلطيق الداكنة • والواقع أن السويديين وملكهم الشاب غوستاف أدولف ذا اللحية الشقراء والمعروف بتمسكه بالبروتستانتية ما كانوا في نظر الأوروبيين عامة والألمان خاصة على درجة من القوة العسكرية والامكانات الاقتصادية والمستوى الحضاري بحيث ينظر اليهم على أنهم أعداء يخشى باسهم • لقد أبعد الامبراطور والنشتاين معتقدا أن قائد العصبة الكاثوليكي تيللي المعروف بتدينه ونزاهته وطهارة كفه والذي جعله قائدا لكل الجيوش الكاثوليكية الألمانية على درجة كافية من المقدرة لمواجهة احتمالات التدخل السويدي • والواقع أن تباشير تدخل السويد في الحرب الالمانية كانت قد ظهرت منذ سنة ١٦٢١ حين أرسل غوستاف أدولف العون العسكري والمادي لمدينة سترالسوند Stralsund الالمانية الهامة على بحر البلطيق حين القى الحصار عليها والنشتاين •

وهنا لا بد من التساؤل هل كانت الاعتبارات الدينية وحدها وراء

تدخل السويديين في حرب تجري أحداثها بعيدا عن أراضيهم ؟ العامل الديني لا يمكن استبعاده . ذلك ان غوستاف ادولف ، كان مؤمنا بالبروتستانتية بكل ما يعطيه الشباب من زخم واندفاع متشددا في الدفاع عن مبادئها وأهلها . ساءه كثيرا ما تعرض له بروتستانت المانيا من نكبات على أيدي الجيوش الامبراطورية وآلمه أكثر أن يرى شمال المانيا البروتستانتي مرتعا لخيول جيوش الامبراطور المتعصب للكثلكة .

الا أننا في الواقع اذا دققنا في تطورات الأحداث نجد اعتبارات أخرى لا تقل أهمية عن الدين وراء تحركات السويديين . فخضوع الشمال الالماني لجيوش الامبراطور رسم أمام السويديين احتمال قيام اتحاد الماني قوي في ظل الكاثوليكية مما يعني خطر قيام دولة قوية على شاطيءالبلطيق الجنوبي لن تكون في المستقبل الا مزاحما خطرا في مجالات التجارة والملاحة للسويديين الذين كانوا آنذاك حريصين جدا على تسلطهم على خطوط المواصلات في هذا البحر . ولعل محاولات فالنشتاين تأسيس قوة بحرية المانية قد زادت في مخاوف السويديين . وربما كان هذا الاعتبار بالذات هو الذي جعل السويد تسعى للاسراع في احتلال الساحل الجنوبي لبحر البلطيق عبر تدخلها في الحرب الدينية الالمانية . والواقع ان انتقال مسرح النزاع في الحرب الدينية الالمانية الى شمال المانيا طرح احتمالات كثيرة هددت كلها مصالح السويد في البلطيق وبالتالي تجارتها البحرية مصدر قوتها وشريان حياة مواطنيها آنذاك .

وأيضا اعتبارات التوازن الأوروبي دفعت الملك السويدي للتدخل في حرب دينية لا علاقة له فيها في الظاهر على الأقل . أخصام آل هابسبورغ العائلة الامبراطورية في المانيا ساءهم كثيرا ما حققته الجيوش الامبراطورية من انتصارات ومكاسب في المانيا ستجعلها أقدر على التدخل في المستقبل في شؤون أوروبا . وقد بدا هذا الخطر بشكل واضح في التعاون الذي تبادله فرع العائلة الحاكم في المانيا مع الفرع الآخر المالك في اسبانيا . وقد برز هذا التعاون في الجيوش الاسبانية التي أتت تشارك في الحروب الالمانية وكذلك في تعاون الدولتين في ايطاليا وفي أماكن أخرى من أوروبا .

هذا الواقع جعل دول أوروبا غير الكاثوليكية والكاثوليكية أيضا تخشى امكانية هيمنة آل هابسبورغ على شؤون القارة مما يهدد التوازن الدولي فيها . وانطلاقا من هذا الخطر اندفع الوزير الفرنسي ريشيليو الكاثوليكي وصاحب رتبة الكاردينال يغلب اعتبارات السياسة العليا على الاعتبارات الدينية ويدفع غوستاف أدولف الى الحرب . ولم يتردد في هذا السبيل في توقيع معاهدة تعاون مع السويد سنة ١٦٣١ في باروالد Barwralde يقدم لها بموجبها مساعدة مالية سنوية في سبيل « المحافظة على حرية البلطيق والبحر المحيط » وكذلك جاءتها في أكثر من مناسبة مساعدات من بولونيا واسكوتلندا وهي أيضا دول كاثوليكية رأت في تدخل السويديين مسعى للابقاء على الامن والتوازن في أوروبا . والواقع أن التدخل السويدي أضاف الى طابع حرب الثلاثين سنة الديني طابعا جديدا هو أقرب الى الصراع الدولي على النفوذ والزعامة .

في حزيران (يونيو) سنة ١٦٣٠ أحتلت جيوش ملك السويد أراضي بوميرانيا Pomeranie . حاول في البداية أن يضم اليه زعماء البروتستانت الألمان للأفادة من جيوشهم العسكرية الا أن هؤلاء ترددوا أول الأمر خشية أنتقام الجيوش الأمبراطورية . غير ان تجاوزات جيوش العصبة الكاثوليكية في مدينة مجدبورغ Magdebourg البروتستانتية قضت على هذا التردد وأنضم الى ملك السويد ناخب سكسونيا وناخب البراندبورغ مما فتح امام جيوش غوستاف أدولف امكانية التقدم بسهولة عبر أراضي المانيا . في أيلول (سبتمبر) سنة ١٦٣١ حقق السويديون وحلفائهم الألمان أنتصارا ساحقا على الجيوش الأمبراطورية ، هو أول أنتصار حقيقي للبروتستانت في حرب الثلاثين سنة ، بالقرب من مدينة ليبزيغ Leipzig مما جعل كل المانيا تحت رحمة الملك السويدي وحلفاءه الألمان . تقدم الملك المنتصر حتى وصل الى نهري الدانوب والراين وأستولى حلفاؤه الساكسونيون على بوهيميا .

وقوع المانيا بهذه الصورة المهينة تحت سيادة البروتستانت قضى

على أمكانية الأختيار بالنسبة للأمبراطور وأجبره على أستدعاء قائـــده العظيم ولنشتين الذي اشترط اعطاءه سلطات كاملة مطلقة على الجيوش الكاثوليكية • استعاد والنشتاين بلاد بوهيميا ونازل في معركة لوتزن الشهيرة في تشرين ثاني (نوفمبر) سنة ١٦٣٢ السويديين • أنتصر هؤلاء ولكنهم فقدوا في ساحة القتال قائدهم ومبدع انتصاراتهم الملك غوستاف أدولف • الطفلة كريستينا خلفت الملك المتوفي فآلت السلطة فعلا الـى وصي على العرش • غياب الملك القائد اشاع في صفوف جنده وحلفائه بلبلةواضطرابا ما عرفوالنشتاينأو ما أراد ،كما ادعىأخصامه،استغلالهما ثم أن أتصالات كثيرة سرية ومشبوهة لهذا الأخير بالسويد وبالفرنسيين سابقة لأستدعائه ولاحقة له جعلت الجميع وخاصة زعمـاء العصبـــة الكاثوليكية واليسوعيين يرون ضرورة الأستغناء عن خدماته •

ولم يتردد الأمبراطور كثيرا هذه المرة ، لأنه بات بالفعل يخشى بحق أو بغير حق مطامع قائده فاوعز لبعض اعوانه من الضباط المرتزقـــة الأيرلنديين فأغتالوه في شباط (فبراير) سنة ١٦٣٤ • وبذا اعتقـــد ألأمبراطور ان جيشه قد عاد امبراطوري القيادة والولاء فاعطى قيادتـه لأبنه وولي عهده فرديناند •

أراد الوصي على العرش السويدي الأحتفاظ بما حققه الملك الراحل من مكاسب وفتوحات في المانيا وكذلك سعى للأحتفاظ لبلاده بالزعامة والنفوذ في المانيا البروتستانية • الا أن غياب الزعامة القوية المدبرة وبروز الخلافات بين السويديين وحلفائهم الألمان أضعف من مقدرتهم العسكرية مما سمح للجيوش الأمبراطورية بالأنتصار في معركـة نـوردلنجـــن Nordlingen في أيلول (سبتمبر) ١٦٣٤ مما انقذ الكاثوليكية الألمانية من هيمنة بروتستانتية قوية ودائمة •

التدخل الفرنسي :

هزيمة السويد هذه جعلت البروتستانت الألمان في وضع ردىء للغاية فقد باتوا في الولاياتالألمانية الجنوبية يخافون جيوشالأمبراطور والعصبة

الكاثوليكية وحليفتهما أسبانيا ، دون كبير أمل في الحصول على مدد أو مساعدة • ثم ان غياب ملك السويد جعل ريشيليو الوزير الفرنسي الكاثوليكي الزعيم الحقيقي والموجه والمحرك للتحالف السويدي الألماني وهذا أمر لم يكن يرضي الزعماء البرتستانت الألمان •من هذه الأعتبارات وبسبب ما تركته سنوات الحرب الطويلة من خراب ودمار ولما أرتكبه المقاتلون وجلهم من المرتزقة من شرور وموبقات وجرائم بحق الناس الآمنين في الولايات البروتستانتية الشمالية بصورة خاصة باعتبار أنها صارت مسرحا رئيسيا للقتال منذ تدخلت الدانمرك في النزاع،جنح بعض الأمراء البروتستانت وفي مقدمتهم ناخب سكسونيا نحو مصالحة الأمبراطور • وبالفعل توصل الفريقان بعد مفاوضات طويلة الى اتفاق حول تعديل مرسوم سنة ١٦٢٩ والقاضي بسرد ممتلكات الكنيسة الكاثوليكية • وقد وقع الفريقان اتفاقية السلام فعلا في براغ وهي تقضي بتأخير تنفيذ احكام هذا المرسوم مدة أربعين سنة يجري خلالها البحث عن حل لهذه المشكلة بالأساليب القانونية او الودية • ولم يتردد اكثر الزعماء البروتستانت الألمان كثيرا حتى وقعوا اتفاقية براغ مما ادى الى تفكك تحالف القوى البروتستانتية ووضع القوى العسكرية السويدية المقاتلة في إلمانيا في عزلة محرجة •

استاء ريشيليو كثيرا لوقوع هذه التطورات التي جاءت في مصلحة الأمبراطور مما قد يؤدي الى خروج آل هابسبورغ في النمسا وأسبانيا بنصيب كبير من النفوذ والقوة في المانيا وخارجها وهذا أشد ما كان يخشاه الوزير الفرنسي • لقد ادرك ان تقديم العون المادي للسويد وحده لا يكفي لجعلها تواصل القتال فبادر في نيسان (ابريل) سنة١٦٣٥ لتوقيع معاهدة تحالف مع الدولتين البروتستانتيتين السويد والمقاطعات المتحدة (هولندا) ضد الامبراطورية النمساوية وحليفتها اسبانيا • وقد تورطت فرنسا بالفعل بعد ذلك عسكريا في المانيا وفي ايطاليا وهولندا ضد الجيوش الأسبانية •

منذ حدثت هذه التحولات فقدت حرب الثلاثين سنة نهائيا طابعها الديني والألماني وتحولت الى حرب أوروبية محورها الأساسي الصراع

على الزعامة في القارة بين فرنسا من جهة وآل هابسبورغ المالكين في المانيا وأسبانية أنما مع بقاء الأراضي الألمانية المسرح الأساسي للمعارك والقتال وبات الشعب في المانيا على أختلاف طوائفه يدرك ان مصلحته تقضي بانهاء النزاع باي شكل كان • وعلى هذا لم يتردد بعض زعماء البروتستانت في مساعدة الأمبراطور على طرد الجيوش الأجنبية من المانيا مما اعطى هـذه الحرب في بعض ايامها الأخيرة طابع حرب التحرر القومي •

حصلت جيوش الأمبراطور في سنة ١٦٣٦ على انتصـارات بارزة فاجبرت جيوش السويد على التراجع حتى حدود بلادها كما جعلـت الفرنسيين يتراجعون عن الاراضي التي احتلوهـا في اللورين ولحقت بهم داخل أراضيهم •

الا أن الوضع تغير بعد ذلك وطرد الفرنسيون أعدائهم من أراضيهم كما احرز السويديون سلسلة متواصلة من الأنتصارات •

في سنة ١٦٣٧ أرتقى عرش الامبراطورية في فينا فرديناند الثالث بعد وفاة ابيه • كان الأمبراطور الجديد شابا اديبا مثقفا محبا للفسلفة والآداب مولعا بالموسيقى والفنون وما كانت تنقصه الشجاعة في ساحات القتال الا أنه مع ذلك كان أقل خبرة ودراية من أبيه في مواجهة امور الحكم والمشاكل الأوروبية • يضاف الى ذلك انه وجد خزينة الدولة على درجة مريعة مـن الفراغ المزمن مما كان يعتبر عائقا اساسيا في طريق مواصلة الحرب • في سنوات حكمه الأولى توالت عليه الهزائم فبات الفرنسيون منذ سـنة ١٦٣٩ سادة الألزاس كما احتلوا بعض مناطق الراين الأعلى • وكذلك حقق لسويديون أنتصارات عديدة بين سنتي ١٦٤٢ و١٦٤٥ وهددت جيوشهم عاصمة فينا ذاتها انما الشيء البارز أنه في كل الحالات ما كان أحد الفرقاء ريبا من تحقيق نصر حازم ينهي الصراع بشكل أو بآخر •

تشكلت عند جميع الفرقاء تدريجيا وبصورة خاصة عند الأمبراطور الشاب ، قناعة بأستحالة تحقيق نصر قاطع وبرزت بصورة متزايدة عنـد رجال السياسة رغبة في البحث عن حل سلمي • ومما زاد في قوة هـذا

الأتجاه سأم الجماهير في كل مكان من الحرب الطويلة المدمرة في المانيا كما في خارجها • ففي اسبانيا قامت أكثر من حركة تمرد خاصة وان نـزاع أسبانيا مع هولندا والذي يعود الى ثمانين سنة خلت قد اربك اقتصاد البلاد بشكل بارز• وكذلك ريشيليو رغم قوة نظامه تعرض لمتاعب داخلية بسبب استطالة الحرب •

صلح وستفاليا :

وعلى هذا اتفق مندوبون من فرنسا والسويد والأمبراطورية أجتمعوا في ميونخ في سنة ١٦٤١ على بدء المفاوضات سعيا للسلام وأتفق على ان يجتمع المؤتمرون في وستفاليا على ان تكون مدينة مونستر Munster مركز المفاوضين الكاثوليك وأسنابروك Osnabrück مقرا للمندوبين البروتستانت • الا أن بدء المفاوضات لم يوقف الأعمال الحربيـة التي بقيت ناشطة حتى نهاية المؤتمر في سنة ١٦٤٨ تؤثر في توجيه المناقشات والمساومات فيه وتتأثر بما يحدث بين المفاوضين من تسويات وترتيبات أو خلافات •

طالت المباحثات كثيرا بين السياسيين وكثرت الوساطات والمساومات مما أعاق امكانية الوصول الى نتيجة ايجابية•الا ان الانتصار الحاسم الذي حققته الجيوش الفرنسية والسويدية متعاونتين على جيوش زعيم العصبة الكاثوليكية مكسيميليان البافاري في أيار (مايو) سنة ١٦٤٨ جعل الامبراطور أكثر ميلا للتساهل • وأخيرا في تشرين اول (أوكتوبر) سنة ١٦٤٨ تمكن المؤتمرون من الاتفاق على بنود معاهدة للسلام أنهت حرب الثلاثين سنة وفتحت بذلك عهدا جديدا في تاريخ اوروبا الحديث • وبحق تعتبـر معاهدة وستغاليا من الاتفاقات الدولية الكبيرة الشأن بالنسبة لأهميـة المواضيع التي عالجتها وللحلول التي أوجدتها • ويمكن اعتبارها الى حد كبير الأساس الذي قامت عليه العلاقات الدولية في اوروبا طيلة الفتـرة الممتدة من توقيع الصلح حتى قيام الثورة الفرنسية • وسنحاول ان نعرض هنا بأنجاز اهم الحلول التي أوجدتها هذه المعاهدة •

١ ــ لقد وضعت معاهدة فينا حلولا جذرية للمشكلة الدينية فـي

المانيا بالاعتراف بالمذهب الكالفيني بصورة نهائية وبحق معتنقيه بممارسة شعائرهم بحرية تامة • وفيما يتعلق بالممتلكات الكنسية التي كانت أحد أسباب حرب الثلاثين سنة فقد تقرر ان تحتفظ كل طائفة بأملاك الكنيسة التي كانت في يدها سنة ١٦٤٢ مما يجعل عمليا املاك الكنيسة في الجنوب كلها من حق الكاثوليك بينما تصبح من حق البروتستانت بصورة نهائية الأملاك الكنسية القائمة في المانيا الشمالية حيث سادت المذاهب الجديدة • وحافظت هذه المعاهدة على المبدأ القديم الذي يعطي الحكام وليس محكوميهم حق أختيار المذهب بمعنى ان على سكان مقاطعة المانيا اعتناق المذهب الذي يختاره الحاكم او الأمير • وعملا بهذا المبدأ اعترف للأمبراطور بما قام به عمليا من القضاء على المذاهب الجديدة في أراضي النمسا وبوهيميا بأعتباره سيدها المباشر •

ومع أن هذه التسوية قد حلت المشكلة الدينية في المانيا بصورة جذرية الا أنها كرست الأعتراف بأنقسام البلاد دينيا الى جنوب كاثوليكي وشمال بروتستانتي • وكذلك أعطت الدويلات البروتستانتية حقوقا سياسية كاملة وصار المجلس الأمبراطوري يتألف من أعضاء يتساوون في العدد من البروتستانت والكاثوليك •

٢ ــ خرجت الأمبراطورية كمؤسسة سياسية من مؤتمر وستغاليا بهزيمة كبيرة • ذلك ان سنوات الحرب الطويلة ، وما رافقها من مآسي ودمار اقتصادي وعمراني وكذلك شروط المعاهدة القاسية قضت على المساعي المستمرة منذ أيام شارل الخامس لتوحيد المانيا سياسيا ودينيا في ظل حكم أمبراطوري مركزي قوي • وخرج الأمراء والحكام الألمان ، بتأييد ودعم قويين من فرنسا والسويد ، من مؤتمر وستغاليا وبموجب احكام المعاهدة بقسط وافر من السيادة والأستقلال بالنسبة للأمبراطورية تصل الى حد السماح لهم بعقد المعاهدات مع بعضهم البعض أو مع دول أجنبية • وقد باتت الولايات الألمانية (وكان عددها يجاوز الثلاثمائة وخمسين) اكثر قدرة على الدفاع عن سيادتها وامتيازاتها وعلى مقاومة اية نزعة اتحادية كما بات ارتباطها بالعرش الأمبراطوري في فينا أسميا الى حد

كبير مما أضعف نفوذ آل هابسبورغ في المانيا وأيضا في آوروبا وهو أمر موآت للمصالح الفرنسية بدرجة عظيمة •

وعلى صعيد التغييرات الاقليمية حصل دوق بافاريا وزعيم العصبة المقدسة على ترضيات هامة أذ ضم الى ممتلكاته نهائيا أراضي البلاتـين العليا أما البلاتين السفلى فقد اعيدت الى شارل لويس ابن ملكها السابق فريدريك الخامس ترضية لجده ملك الأنكليز •

وأعطت المعاهدة حاكم البراندربورغ أراضي بوميرانيا الشرقيـة وكذلك اسقفيات مجدبورغ وهيلبرشتاد وميندن وكامين •

Magdebourg , Helberstadt , Minden , Camin .

وعلى هذا صار ناخب البراندبورغ من آل هوهنزلرن أعظم الأمراء الألمان على الأطلاق نفوذا مما يجعله يأتي في مرتبة ثانية بعد الأمبراطور • ثم ان الأراضي التي ضمها الى أملاكه ستمكنه في المستقبل من تحويل ممتلكاته الى مملكة قوية (بروسيا) منافسة للأمبراطورية على زعامة العالـم الألمانـي •

٣ ـ حصلت السويـد على مكاسب هامة ثبتت دعائم نفوذهـا ووجودها وباعتراف دولي في المانيا • أعطتها معاهدة وستغاليا أراضي بوميرانيا الغربية وأسقفيات برمن **Bremen** وفردن **Verden** مما جعلهـا واحدة من الدول الالمانية لها حق الجلوس في مجلس الديات وهـذا سيسمح لها بالتدخل بصورة قانونية في الشؤون الالمانية • ثم أن هذه المكاسب الأقليمية ساعدتها في تأكيد تسلطها على مواصلات بحر البطليق وهو الأمر الذي خاض غوستاف أدولف حرب الثلاثين سنة من أجله •

٤ ـ حصلت فرنسا على أراضي الألزاس ما عدا مدينة ستراسبورغ الهامة وكذلك أستحصلت على اعتراف رسمي بسيادتها على ثلاثة أسقفيات في بلاد اللورين كانت قد أغتصبتها منذ سنة ١٥٥٢ • على ان اهم مـا حصلت عليه فرنسا هو ان احكام المعاهدة بمجملها اتت موآتية للمصالح الفرنسية بدرجة عظيمة كرست وجودها في أوروبا كدولة قوية وكبيرة •

ومما زاد في قوة مركز فرنسا ان تحالف الأمبراطورية مع أسبانيا الذي طالما اعاق نمو النفوذ الفرنسي أصيب أثناء هذه الحرب وكذلك في كواليس المؤتمر بضربات أضعفت وشائجه .

ـ حصلت سويسرا على اعتراف دولي ورسمي باستقلال مقاطعاتها عن الأمبراطورية وهو امر كانت تعمل على تحقيقه منذ القرن الثالث عشر .

٦ ـ وضعت معاهدة وستغاليا حدا نهائيا لذلك الصراع الدامي بين أسبانيا والبلاد المنخفضة والذي يعود لثمانيين حولا خلت بان استصدرت اعترافا رسميا بأستقلال هولندا وسيادتها ليس من أسبانيا فقط وأنما من الجماعة الدولية . والواقع ان هولندا كانت قد حصلت على أستقلالها قبل ذلك بقوة سلاحها وبدماء ابنائها الا ان معاهدة وستغاليا منحتها أعترافا دوليا بذلك الواقع . وكذلك نظمت علاقاتها مع مستعمرتها السابقةاسبانيا بشكل فتح امامها باب التعامل البحري مع مرافيء هذه الأخيرة وكذلك مع مستعمراتها فتحولت بسرعة مدهشة وفي سنين قليلة الى سوق مالية دولية والى دولة تجارية وبحرية عظيمة .

عصر الملكية المطلقة

في

فرنســـا

فرنسا في القرن السابع عشر

عندما أغتال كاثوليكي متعصب في سنة ١٦١٠ الملك هنري الرابع آل العرش الى طفله الصغير لويس الثالث عشر . وصار تدبير أمور الدولة وتصريف شؤونها الى الملكة الأم ماري مديتشي الأيطالية الأصل ،تفردت الملكة الأم بادارة امور الدولة وأوجدت منهجا جديدا في السياسة الخارجية معاكسا لما سار عليه زوجها الراحل فتقربت من حكومة مدريد وتعاونت معملكها كما أحاطت نفسها بمجموعةمن المساعدين والمستشارين منأبناء قومها.وكان من نتيجة تفردها واستبدادها بامور الدولة والحكم أن استاء منها كبار البلاد ونقم عليها النبلاء الأرستوقراطيون الذين كانوا يريدون أستغلال وفاة زوجها لأستعادة ما سلبه منهم في ظل حكمه من نفوذ وأمتيازات . وأيضا أخذ عليها الهوغونوت تقربها من البيت المالك الأسباني المعروف بشدة عدائه للبروتستانتية في كل مكان ، وتوجسوا خيفة من نواياها فحصنوا مدنهم وقراهم وتحصنوا وراء ما أعطتهم براءة نانت من امتيازات ، فباتوا بحق دولة في قلب دولة فرنسا . وعلى هذا أنتهت سياسة الملكة الأم الى اضطراب متزايد في أوضاع البلاد السياسية والى بروز نزعات معارضة للحكم على مختلف الأصعدة .

تنبه الملكالصغير لويس الثالث عشر،أو أن بعض المخلصين من المقربين اليه نبهوه الى تردي الأوضاع والى نقمة الفرنسيين عامة على تزايد نفوذ مستشاري الملكة الأم من الأيطاليين وكذلك الى الأتجاهات الأنفصالية عند الهوغونوت . ومع انه كان ما يزال ابن ثلاثة عشر ربيعا الا أنه ما تردد في أقدام وجرأة وحزم على ابعاد امه الوصية عن الحكم ومعها مستشاريها الغرباء . وكذلك حارب الهوغونوت بجرأة وعناد وفرض عليهم سنة ١٦٢٢

صلحا يعــرف بأسم صلــح مونبليــه Montpellier عدل بموجبــه نصوص براءة نانت وأخذ منهم حقهم في عقد الأجتماعات السياسية وكذلك لم يترك لهم من مدنهم المحصنة ســوى اثنتان : مونتوبان Montauban ولاروشيل La Rochelle • وبذا يكون قد ابقى للهوغونوت حقهم الكامل في ممارسة شعائرهم وفق امتيازاتهم السابقة الا أنه أضعف كثيرا من قدرتهم السياسية وشل جل طاقتهم العسكرية •

ومع أن الملك الشاب لويس الثالث عشر تصرف منذ أستلامه الحكم بكياسة وحزم وأظهر من المقدرة اكثر مما كان يفترض فيه ، الا أن معارضة النبلاء والارستوقراطيين كانت ما تزال تغرق البلاد في جو من الفوضى والمتاعب الداخلية لما كانوا يثيرونه من موآمرات ودسائس تهدف اولا وأخيرا للمحافظة على ما كان لهم من نفوذ وأمتيازات ورثوها من ايــــام الاقطاع وانتزع جلها منهم هنري الرابع •

ومع الوقت أخذ الملك الشاب يدرك أنه لن يستطيع أن يسير منفردا في حكم الدولة مع الاعامة الشعب الفرنسي باكثريتها الساحقة رحبت بذلك وبالتالي بدأ يشعر بالحاجة لمساعد قوي حكيم مدبر خبير ، بامور فرنسا ، عريق بمداراةامورها الخارجية قادر على مواجهة دسائس النبلاء ومكائدهم • وفي سنة ١٦٢٤ أدرك ان رجله هذا موجود فعلاً بين من كانوا حول أمــه وهو الكاردينال ريشيليو ، فاستدعاه وجعل منه وزيره الأول •

رينشيليو Richelieu :

فرنسي نبيل من مواليد سنة ١٥٨٥ التحق بسلـــــك الأكيروس لأعتبارات مادية على الأرجح • ترقى بسرعة كبيرة وصار أسقفا وهو في سن الثالثة والعشرين • أطل على الحياة السياسية عبر مجلس الطبقات الذي كان فيه أحد ممثلي الأكليروس • جذوره الأرستقراطية ودعـــم الكنيسة له قرباه من الحكم فصار وزيرا في سنة ١٦١٦ بمساعي الملكة الأم فلم يبخل عليها بما كان عنده من ذكاء ومقدرة وأخلاص في العمل وحــين

أبعدت ماري مديتشي عن شؤون الحكم أعتزل هو في أسقفيته وتفرغ للصلاة والتأمل مما لم يكن يتلاءم كثيرا مع طبيعته وحيويته • الا أن نجمه ما لبث أن ارتفع كثيرا في سماء السياسة الفرنسية حين نجح في التوفيق بين الملك وأمه ومصالحتهما •

وحين اصبح وزيرا اولا صار اليه بصورة متزايدة الأشراف على امور الدولة ، كل أمورها ،دون استثناء وظل في منصبه هذا حتى مماته في سنة ١٦٤٢ • لم يكن وزيرا عاديا صرف أمور الدولة كما يفعل أي وزير وأنما كان ، وربما هنا يكمن نجاحه وعظمته صاحب نظرية متكاملة في الحكم والادارة ، انطبقت الى حد كبير على حاجات فرنسا آنذاك • ما تصرف في يوم من الأيام بصورة ارتجالية ولا عالج أمرا من أمور الحكم بعفوية أو أنفعال أو آنية وأنما كان ينطلق في كل ما فعله من خط عام للسياسة الفرنسية سار عليه طوال حياته • وبذا بدا في عصره عملاق السياسيين ومعلم الحكام وقدوة الوزراء والمستشارين •

ريشيليو آمن بأن اول واجباته هو تحقيق عظمة فرنسا وقوتها وجعل الملكية الفرنسية قوية مطلقة في الداخل وسيدة مهيمنة في الخارج•
وللوصول الى ذلك اعتقد ان مركزية السلطة هي امر لا بد منه لتحقيق وحدة فرنسا وعظمة تاجها • ومن هنا اعتبر ان ما ورثه النبلاء والأرستقراطيون من امتيازات ونفوذ من أيام الاقطاع ان هي الا معوقات في طريق تحقيق قوة الدولة والحكم فذهب في محاربتهم كل مذهب فهدم قصورهم ودمر قلاعهم الأقطاعية ، مصدر نفوذهم ومستقر موآمراتهم • ولم يتراجع امام ما حاكوه ضده من موآمرات وما حصلوا عليه من دعم في بعض الأحيان من اوساط شديدة النفوذ مثل الملكة الأم التي نقمت عليه تفرده في السلطان والحكم من دونها بعد ان كانت هي طريقه للحكم والسلطان • وفي نهاية المطاف انتصر عليهم وأضعف نفوذهم بفضل ايمانه الشديد بفكرة الملكية المطلقة وتأييد الملك الدائم له •

وكذلك رآى في ما بقي للهوغنوت من قوة عسكرية عقبه طريق اقامة الملكية المطلقة• لم يكن رغم صفته الكهنوتية متعصبا ضد البروتستانت بل

على العكس من ذلك كان معجبا بمنجزاتهم ونجاحهم في ميادين التجارة والأقتصاد • كان يهمه امر واحد هو القضاء على امتيازاتهم وازالــة «دولتهم» كما كان يقول ، خاصة وان كثرة أتصالاتهم بالأنكليز ما كانت ترضيه • حاصر معقلهم الاساسي لاروشيل واستولى عليه وعلى حصنهم الآخر مونتوبان فقضى بذلك على آخر ما كان لهم من امتيازات عسكرية وسياسية في فرنسا • ثم وتأكيدا لحسن نواياه تجاه الهوغونوت وأحترامه لمعتقداتهم وحرياتهم فقد أبقى لهم كل حقوقهم الدينية وحريتهم في العبادة وجعلهم متساويين في الحقوق والواجبات مع الفرنسيين الكاثوليك وأستمر في توظيفهم دون استثناء في وظائف الجيش والادارة العامة والقضاء •

ولم يغفل قضايا الاقتصاد اذ اعتبر قوة فرنسا الاقتصادية متممة بل ومتلازمة مع قوتها السياسية والعسكرية • كان ذا نظرة اقتصادية شاملة جعلته يهتم بجميع مظاهر الحياة الاقتصادية ويدفعها فيطريقالنمو والتطور انما ضمن أطار الحرية الأقتصادية مما يجعله أحد رواد المذهب المركنتيلي في اوروبا • اهتم بالتجارة فشجع النبلاء علىممارستها وكافأ البورجوازيين الناجحين بما منحهم من رعاية وأعفاءآت اذ كان يتمنى لو ينجح هـؤلاء فيزيلوا بعض تسلط الأنكليز والهولنديين على التجارة الدوليه • ومـــا تردد في هذا السبيل فيتطوير أسطول فرنسا التجاري • وكذلك رآى في فرنسا كل الأمكانيات لقيام صناعة متطورة تغني الفرنسيين عن بضائع الأنكليز والأسبان بل وتنافس أنتاجهم • والأزدهار العظيم الذي عرفته صناعة الحرير والبروكار في القرن السابع عشر في فرنسا يعود الفضل فيه لريشيليو •

وأيضا لم يهمل شؤون الثقافة والفكر فرعى صحافة عصره على قلتها وهزالها وكان مؤسس الأكاديمية الفرنسية وحاميها والمدافع عن رجالها طيلة حياته •

على صعيد السياسةالخارجية رآىان مصلحة فرنسا الأساسية تقضي بأضعاف قوة بيت هابسبورغ المالك في النمسا وفي اسبانيا • ذلك انوجود عائلة واحدة متعاونةفيالسياسةالخارجيةتحكمفي فينا ومدريد يطوقفرنسا

ويشل قدراتها السياسية والعسكرية • وعلى هذا فانه خاصم في سبيل تحقيق قوة العرش الفرنسي ، وهو الأكليريكي الكاثوليكي اكبر دولتين كاثوليكيتين في أوروبا • في سنة ١٦٢٩ لم يتردد في محاربة اسبانيا لفرض مرشح فرنسي لدوقية مانتوا Montua في ايطاليا وقد انتصر وحصل لفرنسا علىموطيء قدم في شبه الجزيرةالايطالية • وأيضا لم يتردد أثناء حرب الثلاثين سنة في محاربة الأمبراطور متحالفا مع ملك السويـــد البروتستانتي وذلك بقصد فتح الطريــق لتصاعد قوة العرش الفرنسي ونفوذه في أوروبا •

هكذا عمل ريشيليو طيلة حياته ونجح الى حد كبير في ازالة كل العقبات التي كانت تحول داخل فرنسا بين الملكية والسلطان المركــزي المطلق • وفي هذا السبيل ما تردد في الحد من نفوذ البرلمان ولا في أهمال مجلس الطبقات بصورة تامة • سياسته هذه كانت موضع انتقاد شديد في مختلف العصور الا ان ما كان يبرر تصرفات هذا الرجل كونه كـان يعتقد بأخلاص ان تحقيق قوة العرش في الداخل هي ضرورة لا غنى عنها لتحقيق نفوذ فرنسا في الخارج • ثم ان الشعب في ذلك الحين كان شديد الولاء لشخص الملك وما كان يفكر بحكومة ديموقراطية •

مازاران Mazarin :

عند وفاة ريشيليو في سنة ١٦٤٢ أوصى بأن تؤول رئاسة الوزراء من بعده الى صديقه وتلميذه وربيبه ، الايطالي الاصل ، الكاردينـال مازاران رغبة منه في استمرار سياسته الداخلية والخارجية • وبعد أشهر عدة توفي الملك لويس الثالث عشر تاركا العرش لأبنـه الصغير لويس الرابع عشر • تسلمت الملكة الأم آن الأسبانية الأصل الوصاية على العرش فتعاونت وتفاهمت مع مازاران واعطته كامل ثقتها وتأييدها •

مع الأختلاف الواضح في أساليب ريشيليو ومازاران في الحكـم والأدارة الا أنهما كانا متفقان على ضرورة تقوية الملكية وزيادة سلطانها

وكذلك على نشر نفوذ العرش الفرنسي وقوته في الخارج •

كانت اولى المهمات التي واجهها الوزير الجديد وربما أصعبها متابعة الحرب في المانيا بنجاح • ثم عمل على توقيع معاهدات صلح وستغاليا التي حملت نصرا باهرا للديبلوماسية الفرنسية • ذلك أنها رسمت خريطة سياسية للقارة الأوروبية ملائمة للمصالح الفرنسية • وبذا تكون فرنسا قد خرجت ، في ظل حكم مازاران ، من حرب الثلاثين سنة بمكاسب هامة مما وطد سلطان الوزير داخل فرنسا • الا انه كان عليه ان يتابع الحرب ضد أسبانيا التي رفضت توقيع الصلح مع فرنسا •

اما على صعيد السياسة الداخلية فكان عليه ان يجابه وضعا معقدا ومترديا • كانت خزينة الدولة خالية بسبب ما تكلفته حروب ريشيليو من اموال وأيضا بسبب اسراف الملكة الأم • والنبلاء ما انفكوا يطالبون في كل مناسبة بأستعادة ما سلبهم هنري الرابع ثم ريشيليو من نفوذ وأمتيازات • وقد زاد في نقمة هؤلاء وحقدهم رؤيتهم امور فرنسا كلها تؤول الى أمرأة أسبانية ووزير أيطالي ما كان اقل من سلفه اصرارا على تأكيد سلطان العرش ومركزية الحكم على حساب نفوذهم وأمتيازاتهم • وما خفف من معارضة هؤلاء كون معاملة مازاران لهم كانت مغلفة بغطاء من الكياسة واللياقة والديبلوماسية •

ما كان مازاران خبيرا كسلفه في امور الأقتصاد والمال ، وفوق ذلك ما كان عفيف الكف •ولذا فقد أتت تدابيره لمعالجة الأزمة المالية المستفحلة ارتجالية وملتوية• كان بحاجة للمال لتسديد الديون العامة وايضا لمواصلة القتال ضد أسبانيا وكذلك لدفع مرتبات الموظفين ومصاريف البلاط • أستدان بفوائد باهظة وباع الوظائف العامة والقاب الشرف وفرض القروض القسرية على المواطنين وأبتدع ضرائب جديدة • سياسته هذه زادت في حدة الأزمة الأقتصادية ونفرت من حكمه سكان فرنسا وخاصة الباريسيين منهم •

فئة البورجوازيين ورجال الأعمال والمال تضررت كثيرا من سياستههذه

ونقمت عليه أيضا تفرده بأمور الحكم والدولة وأخذت تبدي معارضتها لعهده عبر البرلمانات وخاصة برلمان باريس ـ هيئة قضائية تتولى تسجيل القوانين والأوامر الملكية ـ • رفض هذا البرلمان أكثر من مرة الموافقةعلى تسجيل ضرائب جديدة مما جعله يحظى بتأييد واسع من عامة الشعب في باريس وكذلك أيده ودعم مواقفه نبلاء فرنسا • وبذا تكونت معارضة شديدة لحكم مازاران ومن ورائه الملكة تستند الى تأييد كبار النبلاء ورجال البورجوازية وكذلك لدعم واسع من الجماهير الشعبية في المدن والأرياف •

ما لبثت هذه المعارضة أن تحولت الى ثورة شعبية تزعمها برلمان باريس تهدف لأصلاح الأوضاع المالية ولزيادة دور البرلمان في الحياة السياسية ، عرفت بأسم ثورة الفروند الأولى • وكان ذلك سنة ١٦٤٩ • هرب مازاران ومعه الملك الصغير والملكة الأم من العاصمة بعد أن أنتصبت فيها المتاريس وأرسل جيشا ملكيا ضرب عليها حصارا شديدا حتى أنتشرت المجاعة فيها • لم تحتمل جماهير باريس كثيرا المجاعة والحصار فدفعت برلمانها لمفاوضة مندوبي الملك مما ادى لأنهاء التمرد مقابل أعطاء بعض السطات في المجال المالي فقط للبرلمان • عاد عندها مازاران الى باريس ومعه الملك الصغير اكثر أطمئنانا الى قوته من السابق وأشد اصرارا على التمسك بالملكية المطلقة •

عاد النبلاء بعد ذلك فتمردوا ورفعوا لواء العصيان ضد الحكم المطلق في سنة ١٦٥٢ وما تردد بعضهم هذه المرة في التحالف مع أسبانيا عدوة فرنسا وأستقدموا جيشا أسبانيا لمهاجمة باريس • هذه الخطوة ابعدت عنهم البرلمان ورجال البورجوازية • كما نفرت منهم جماهير الفرنسيين وبذا ما وجد مازاران كبير صعوبة ، مع أنه شخصيا ما كان محبوبا من الفرنسيين أطلاقا ، في القضاء على ثورتهم وأنزال الهزيمة بالجيوش الأسبانية التي استقدموها •

على هذه الصورة أنتهت ثورة الفروند الثانية التي قادها النبلاء

لأنقاذ نفوذهم من الضياع ولعرقلة مسيرة فرنسا في طريق تأكيد الحكم الملكي المطلق •

كان من أبرز نتائج ثورتي الفروند ما تركته من تأثير في ضمير الملك الصغير الأهانات التي الحقت به وبأمه اثناء فرارهما من باريس • وكذلك ما أستطاع طيلة ايام حكمه الطويل ان ينسى ان النبلاء ما ترددوا للدفاع عن مصالحهم في الذهاب الى حد التعاون مع دولة معادية وأطلاق رصاصهم على الجيش الملكي • وربما أنطلاقا من هذه الأعتبارات تكونت في ذهنه فكرة حاجة فرنسا لحكم مستبد قوي حازم مركزي قادر على ضبط كل القوى المعارضة ومنعها من الأضرار بمصالح الأمة الفرنسية •

وكذلك كان لهاتين الثورتين تأثيرات بارزة عند الفرنسيين • فكل الفرنسيين الكارهين لتسلط مازاران على شؤون الدولة رأوا في ملكهم الشاب باب الخلاص الوحيد وكذلك تطلعت اليه ملايين الفلاحين وجماهير المدن لانقاذهم من امتيازات وغطرسة النبلاء وكذلك من استغلال وجشع بورجوازية المال والصناعة • لقد برز لويس الرابع‌عشر بعد حروب‌الفروند وكأنه خشبة الخلاص لكل المعذبين في فرنسا مما رفع من قدر الملكية ودعم أركانها بدرجة كبيرة •

ومع هذا استمر مازران في الحكم عدة سنوات لأن الملك كان ما يزال يافعا ولأن فرنسا كانت ما تزال بحاجة ليده الخبيرة الحازمة• تفرغ لمتابعة الحرب مع اسبانيا وتحالف من أجل ذلك مع انكلترا • وبسبب ماليتها المنهارة ، وأكثر من هزيمة نزلت بها ، جنحت اسبانيا بصورة متزايدة نحو السلم • وبالفعل وقعت مع فرنسا صلح البيرنيه **Le Pyrénées** في سنة ١٦٥٩ قبلت بموجبه نصوص معاهدات وستفاليا وأعطت فرنسا السيادة في روسيون وسردينيا وبعض أراضي آرتوا وعدة مدن وحصون على حدودها الشمالية الشرقية • وتكمن أهمية هذا الصلح في كونه أنهى صراعا طويلا ضد بيت هابسبورغ بفرعيه في النمسا واسبانيا لصالح فرنسا التي صار لها بعد ذلك مركز متفوق ممتاز في اوروبا •

وعند وفاة مازاران سنة ١٦٦١ كان متأكدا .. أنه تابـع باخلاص سياسة سلفه ريشيليو وأعطى فرنسا سلطانا قويا في الخارج ووطد دعائم الحكم الملكي المطلق في الداخل مما ساعد في تحضير ذلك العصر الذي بلغت فيه فرنسا قمة عزها وعظيم بهائها في ظل الملك لويس الرابع عشر . ولم يفته قبل أن يلفظ نفسه الأخير أن يوصي الملك الشاب بأن يحكم فرنسا حكما مباشرا دون وزير أول .

لويس الرابع عشر

حتى وفاة مازاران ما كان لويس الرابع عشر قد شارك في أعمال الدولة ومسؤولياتها . مع هذا فاجأ الفرنسيين عقب موت وزيره مباشرة بعزمه على أن يحكم فرنسا حكما مباشرا ودون رئيس للوزراء . بدا هذا الأمر غير معقول بالنسبة لمستشاريه والمقربين منه وكذلك بالنسبة لعامة الفرنسيين نظرا لافتقار الملك الشاب للتجارب السياسية ولجسامة المهام التي تولاها الوزيران السابقان . أظهر لويس الرابع عشر منذ الوهلة الأولى مقدرة فائقة على تنفيذ رغبته وأثبت بالممارسة العملية قدرته على القيام بوظيفة الملك لوحده والتي كان يقول عنها انها « حرفة عظيمة نبيلة » . وبالتالي لا يريد أن يشاركه فيها أحد . بل أكثر من هذا فقد صار للفرنسيين بعد فترة وجيزة ملك عظيم الصلاحيات مطلق السلطات حكم بقوة وحزم كما لم يفعل أي من ملوك فرنسا الذين سبقوه أو الذين جاؤوا بعده ، بل كما لم يفعل أي عظيم من عظماء عصره . لقد صار في طريقة حكمه واسلوب ملكه وسياسة رعيته صاحب مدرسة في أصول الحكم . والواقع ان شخصيته واسلوبه في الحكم قد طبعا عصره بطابع مميز مستمد من سناء ملكه حتى صارت الفترة الممتدة من سنة ١٦٦١ حتى سنة وفاته ١٧١٥ تعرف باسم « عصر لويس الرابع عشر » . وكثيرا ما تجاوز المؤرخون ذلك فاعتبروا القرن السابع عشر كله « قرن لويس الرابع عشر » أو قرن الملكية المطلقة التي كان أفضل من مثلها وأعظم من مارسها ودافع عنها ونظر لها . لقد كان لويس الرابع عشر في عصره أعظم العظماء في أوروبا مارس فيها نفوذا باهرا كسف طيلة حكمه كل الملوك والأباطرة المعاصرين ، وبات أشعاع عرشه قويا مشيرا بحيث يحجب كل سلطة سياسية في القارة .

ما كان لويس الرابع عشر الانسان شخصا استثنائيا من حيث الذكاء والمقدرة العقلية ، ولا أتاحت له تربيته ثقافة عالية وتنشأة خاصة . انما كانت له طاقات وقدرات على العمل لا حد لها . وكان نظاميا بدرجة كبيرة في كل أعماله وحتى في حياته الخاصة ، وكان ذا شخصية مهيبة تفرض نفسها بقوة على الآخرين . كان قادرا على الاستماع والاصغاء بتركيز وصفاء ذهني يسمحان له باستيعاب الموضوعات واستنتاج الحلول المناسبة ووضعها في طريق التنفيذ . فقد كا نبطبعه أقرب الى المنفذ منه الى المخطط المبدع . مع أن هذه الصفات البارزة في شخصية الملك الشمس ليست نادرة ولا استثنائية بين الملوك كما بين سائر العباد انما بقي له شيء آخر انفرد به وميزه عن سائر عظماء عصره وهو اسلوبه الشخصي والخاص في ممارسة السلطات الملكية بشكل جعل منه النموذج الأكمل والأفضل للملك المطلق السلطان .

الملكية المطلقة في فرنسا :

ما كانت استبدادية لويس الرابع عشر تنيجة لمزاج شخصي ينزع نحو الديكتاتورية والتملص من قيود المراقبة الشعبية ، ولا كانت تنيجة انقلاب عسكري ، أو تسلط حزب سياسي على السلطان . أنها أتت تنيجة تطور طبيعي سارت في طريقه الأجهزة السياسية في فرنسا ، منذ انتهاء الحروب الدينية ، وأوصلها بشكل بطيء الى ملكية مطلقة مع لويس الرابع عشر ، مما جعل الشعب الفرنسي ليس فقط يقبل بها وانما يعتبرها طبيعية ومنقذة له من شرور ومهالك .

كانت فرنسا في منتصف القرن السابع عشر أكثر بلدان أوروبا سكانا اذ كان فيها ١٩ مليونا جلهم على درجة وافرة من الحيوية والنشاط عمروا بلدهم بتجارة ناشطة وصناعة مزدهرة ، وزراعة تدر على البلاد نتاجا عظيما يؤمن لمدن فرنسا الكثيرة حاجاتها الغذائية ويسمح بتصدير فائض وافر للبلدان الأجنبية مما يعود على البلاد سنويا بدخل عظيم من الذهب والفضة . بالمقابل كانت النظم السياسية والأدارية تحمل الكثير من

رواسب العصور الوسطى مما كان يعرقل تطور البلاد ويؤخر تكامل وحدة الأمة الفرنسية • كان في فرنسا أثنا عشر برلمانا ــ محكمة عليا ــ ورثت من أيام العصور الوسطى سلطات وامتيازات دستورية تعرقـل عمـل الحكومات والملوك • وكذلك كان هناك مجالس للمقاطعات لها من النفوذ الموروث ما يعرقل فعلا وحدة الأمة الفرنسية ومركزية الحكم • ويكفي أن نذكر على سبيل المثال ما كان لهذه المجالس مـن سلطات في فرض ضرائب اقليمية واقامة حواجز جمركية وضرب العملات ووضع الموازين والمكاييل • كانت صلاحيات هذه المجالس تتسع في بعض الأحيان لتشابه الحكم الذاتي • وهناك أيضا البلديات والمدن ذوات الامتياز • واذا علمنا بأن هذه الهيئات والمجالس كانت في أكثر الحالات مراكز نفوذ يتحصن فيها النبلاء ويعملون عبرها على المحافظة على سلطاتهم وامتيازاتهم القديمـة أدركنا أنها كانت في الواقع عقبات في طريق تحقيق وحدة فرنسا من فوق الحواجز التي تركها عصر الاقطاع • وهي أيضا فوق ذلك موانع في طريق تحقيق مركزية الحكم والسلطة في وقت كانت كل بلدان أوروبا تسير في هذا الطريق •

وكان آل بوربون مدركون تماما لهذا الوضع ولذا رأينا منذ أيام مؤسس ملكيتهم هنري الرابع خطا واضحا في السياسة الفرنسية يقوم على التخلص من رواسب الاقطـاع واضعاف نفوذ الارستقراطية وتجميـع السلطات بيد العرش الفرنسي • وقد سار الوزيران ريشيليو ومازاران على نفس النهج وربما بصورة أقوى وأوضح • ولم تكـن ثورتي الفروند الأولى والثانية الا الرد الأخير للارستوقراطية الفرنسية على جنوح الملكية نحو الحكم المركزي • ولم يكن السير نحو الحكم المطلق يشكـل فقط سياسة عليا للدولة وانما كان في الواقـع يتماشى مع رغبـة عامة عند الفرنسيين بالقضاء على امتيازات النبلاء خاصة بعد ما أثاروه في فرنسا من اضطراب وفوضى أيام الوزير مازران • كان الفلاحون في الأرياف وكذلك البسطاء من سكان المدن ينظرون الى شخص الملك على أنه المنقذ الوحيد

من استبدادية النبلاء وأنانيتهم وامتيازاتهم وربما أيضا من جشع واستغلال رجال البورجوازية التجارية •

وعلى هذا يمكن القول أن جنوح لويس الرابع عشر نحو الحكم المطلق ما كان في الواقع،سوى الانسجام مع الخط الذي سارت عليه ملكية آل بوربون منذ نشأتها ، ولو أن هذا النظام بدا معه بشكله الأكمل والأوضح ، وأيضا الاستجابة لأماني مخلصة عند عامة الفرنسيين •

وهنا لا بد من الاشارة الى أن للملكية المطلقة في فرنسا ، الى جانب هذه المرتكزات التاريخية قواعد وأسناد عقائدية وفكرية شاعت في أوروبا منذ مطلع العصور الحديثة • في أثناء الحروب الدينية وعبرها برزت في فرنسا كما في خارجها نزعة نحو تركيز السلطة في يد واحدة قوية تعلو على الأحزاب والطوائف وتقوى على حماية المواطنين العاديين • وبالطبع اتجهت الأنظار نحو ملك يستمد سلطانه من الله فقط دون تأييد أو مراقبة من البشر • سارت أوساط الكاثوليك في هذا الطريق وتبنت فكرة كون سلطة الملوك مستمدة من الله • وما شذ البروتستانت على اختلاف نزعاتهم عن قبول هذه الفكرة خاصة وأنهم كانوا ينزعون دوما نحو التسليم بالسلطات القائمة والتعاون معها •

وأيضا رآى مكيافيلي بالملكية المطلقة النظام الأفضل لاصلاح مجتمعات العصور الحديثة • فقد اعتبر ان المجتمعات ـ مجتمعات ذلك الزمن ـ المريضة تحتاج لشفائها لمشرع مستبد • وكذلك رآي الفيلسوف بودان في السلطة العنصر الموحد والجامع للمجتمع • ولا بد للسلطة في نظره أن تكون واحدة ، دائمة ومطلقة • وقد ذهب الى أن هذه السلطة اذا ما اتخذت شكل الملكية فلا بد أن تكون متحررة من كل قيد أو رقابة أو وصاية عدا ما تفرضه القوانين الطبيعية من صون وحماية «للملكية» • وجدير بالذكر أنه كان للرجلين أثر بارز في توجيه الأفكار في ذلك العصر •

على أن الشيء الجديد والبارز مع لويس الرابع عشر هو أنه ما اكتفى بممارسة الحكم المطلق وانما أراد أن يجعل من ممارساته نهجا سياسيا يرتكز الى مضمون عقائدي ديني • كان يرى ويقول أن الملك يمارس

سلطان الله على الأرض وهو انما يستمد سيادته من الاله ، وبالتالي فهو لا يرى بأنه ملزم بأن يقدم حسابا عن أعماله الا لصاحب السيادة الذي هو الله ذاته • فالشعب ليس له الحق ، مباشرة أو عبر ممثليه ، أن يشارك الملك في سلطانه أو أن يراقبه لأنهذا السلطانالمستمد من الله هو وحدةلا تتجزأ ولا يمكن التنازل عنه ، أو تحويله لشخص آخر • وانطلاقا من هذه القناعة ما كان يميل للهيئات التمثيلية ولا جمع مجلس الطبقات مرة واحدة في حياته • ولم يكن يجد أي فارق بين الدولة والملك ولذا فانه في سعيه لتحقيق أمجاد لنفسه كان يعتبر أنه يقوم بواجب الملك الأساسي الذي هو خدمة الدولة والأمة •

وقد تولى في عصره الأديب الفرنسي الأسقف بوسيه Bossuet توضح أفكار الملك وآراءه في الحكم المطلق وتنظيرها واعطائها مرتكزات مسيحية كلما أمكن ذلك • والواقع أن الكنيسة ما كانت بعيدة آنذاك عن هذا الاتجاه فقد علمت دوما الناس بأن للملوك حقا آلهيا بالحكم مما يجعل طاعتهم واجبة الا في عصيان الله • ألم يقل القديس بولس بأن الله قد فوض سلطانه منذ القدم للشعب بكامله الذي سلمه مرة واحدة ونهائية للحكم أيا كان شكله مما يجعل طاعته واجبا لا خلاص منه •

والواقع أن الشعب نفسه كان قد ألف هذه الآراء واعتبر الحكم المطلق حقا من حقوق الملك • فالانتقادات التي وجهت لحكم مازران من الشعب ومن رجال القانون هدفت كلها الى اعادة السلطة لشخص الملك وحده باعتباره صاحب السلطان الشرعي • فاستبدادية الملك وحدها شرعية ومقبولة بل ومرغوبة • ألم يقل رئيس محكمة باريس العليا للويس الرابع عشر بعد وفاة أبيه « أن عرش جلالتكم يمثل في أعيننا عرش الله »• على أن الشيء البارز في تأييد الكنيسة للحكم المطلق هو أنها كانت تحاول أن تعطيه طابعا أبويا مما يجعل الملك يسعى لأسعاد رعاياه وتحقيق رغباتهم كلما أمكنه ذلك • وأيضا حاولت أن تربطها بفكرة الصالح العام المسيحية وهو أمر كان يؤمن به لويس الرابع عشر الذي كان يعتبر أنه يسعى دوما لتحقيق « الخير العام » الذي هو ارادة الله صاحب السلطان الأصلي ،

وبالتالي عليه دوما أن يسوس رعيته بما يرضي الخالق وضمن مبادىء الحق والعدل والرحمة •

الادارة والسياسة الداخلية :

وانطلاقا من رغبته في حكم البلاد حكما مطلقا فقد اكتفى بالاستعانة بمجموعة من الوزراء والمعاونين يساعدونه في ادارة شؤون البلاد ويقدمون النصح له كلما طلب اليهم ذلك • وسار على خطى ريشيليو فاختار معاونيه من أبناء الطبقات الوسطى باعتبارهم في نظره أكثر ولاء لشخصه وأقل طموحا • أبعد النبلاء تماما عن المناصب الكبرى وما استعان بواحد منهم الا في حالات نادرة وفي مهمات استثنائية • دعى في أول عهده لمساعدته في شؤون الحكم ثلاثة وزراء اختارهم من فريق العمل الذي خلفه الوزير العظيم مازاران وهم كولبير Golbert لوتلييه Le Tellier, ودي ليون De Lionne • نظرا لبراعة هذا الثلاثي الفائقة وخبراتهم الواسعة وقدراتهم على العمل المتواصل وحبهم العظيم لفرنسا ولعرشها فقد قدموا خدمات كبرى لبلدهم وطبعوا القسم الأول من عهد لويس الرابع عشر بطابعهم • الا انه بعد سنة ١٦٩٠ ومع جنوح الملك المتزايد نحو الاستبدادية صار يختار معاونيه من بين أشخاص أدنى مستوى وأقل خبرة وكفاية وذلك ليكونوا أكثر طواعية وأقل طموحا •

أما في الأقاليم ، بعيدا عن العاصمة فقد اعتمد على تلك الفئة من المأمورين الملكيين Intendant ــ وظيفة أوجدها ريشيليو لمراقبة النبلاء ــ الذين كان يختارهم بنفسه من الأكفاء المخلصين له شخصيا ومن أبناء الطبقة الوسطى ويعطيهم سلطات واسعة ليكونوا قادرين على تنفيذ سياسته في الأقاليم وخاصة لضبط ممارسات النبلاء ومراقبتهم، وابقائهم تحت نفوذ العرش وسيادته •

ولو أنه كان يميل دوما الى عدم تخصيص شخص معين بشؤون وزارة واحدة ويعطي من يشاء من معاونيه من الوظائف على اختلاف

اختصاصاتها ما يريده هو شخصيا الا أن بعض وزرائه برعوا في قطاع معين عملوا فيه بعض الوقت وأظهروا فيه مقدرة خاصة • لقد انطبع الاصلاح الداخلي الذي تم في أوائل عهد لويس الرابع عشر بطابع الوزير المشرف على شؤون المال والاقتصاد كولبير الذي قام في هذا المجال بأعمال مجيدة جعلته بين المصلحين العظام في تاريخ فرنسا •

كان على كولبير ، بعد أستلام لويس الرابع عشر الحكم أن يتصدى لمشكلة فرنسا المزمنة والملحة وهي فراغ خزانة الدولة • ليس هذا فقط بل أنه كان ، بصفته خادم الملك الأمين، يعتبر ان عليه أن يجعل خزانته عامرة وقد أعتبر أن حل مشكلة حاجة الخزينة للمال يكون بجعل الفرنسيين أغنياء ، وهذا يكون بتطوير زراعتهم وصناعتهم ووسائل انتاجهم مما يجعلهم يبيعون كثيرا للخارج وهذا ما يؤدي الى تدفق الذهب والفضة رمز الثروة في ذلك العصر الى البلاد •

حاول أن يبدأ بتخفيف اعباء الخزينة القديمة فخفض بتدابير حازمة وأحيانا مرتجلة الفوائد على ديون الدولة ، والغى كثيرا من الوظائف غير المجدية وفرض ضرائب جديدة خاصة على بعض السلع الأستهلاكية مما جلب له نقمة الجماهير • وبالرغم من أنه أصلح أمر الخزانة بسرعة كبيرة وجعل مواردها في سنة ١٦٦٧ تتضاعف الا أن الوضع المالي بقي سيئا وظلت الحاجة قائمة لفرض ضرائب أضافية من جهة بسبب مصاريف الملك العسكرية والشخصية الكثيرة ومن جهة ثانية لأن النبلاء وهم الفئة الأغنى والأقدر على الدفع ظلت معفاة من الضرائب الا في حالات قليلة • وقد تعمد لويس الرابع عشر ذلك ليس خوفا منهم أو أحتراما لأمتيازاتهم وانما لابقاء تأثيرهم على الدولة ضعيفا وبالتالي مطامعهم محدودة • يضاف الى ذلك ان البورجوازية وهي أيضا غنية كانت بارعة دوما في ابتكار اساليب التهرب من الضرائب•هذه الأعتبارات جعلت عبء الضرائب دوما على عاتق عامة الشعب وهي الفئة الأفقر ، فكان المردود دوما محدودا •

ولهذا فرغم جهود كولبير العظيمة لاصلاح الوضع المالي كانت مصاريف الخزانة العامة في سنة ١٦٨٠ تزيد بأثنين وعشرين مليونا عن وارداتها •

أدراكا منهلأهمية الصناعة فقدعمل علىتطوير القائمةمنها كصناعات الأقمشة والسجاد والحرير وأجتهد في خلق صناعات أخرى للحد من الأستيراد مثل صناعة المرايا والحديد والصلب • وكان يقصد من وراء ذلك ليس فقط أكفاء الأستهلاك المحلي وانما جعل فرنسا قادرة على التصدير والحصول على الذهب والفضة من الخارج • وقد حصن صناعة فرنسا بسياج قوي من الرسوم الجمركية المرتفعة على البضائع المستوردة مما ادى الى قيام حرب جمركية شرسة مع هولندا •

وما أكتفى بتشجيع الصناعة والصناعيين وأنما أقحم الدولة في هذا المجال وأقام بعض الصناعات باموال الخزينة وأعطى بعضها امتيازات أحتكارية لتتمكن من التوسع والأزدهار •

في مجال التجارة كانت مطامحه واسعة أذ اراد أن تكون لفرنسا أمبراطورية بحرية تجارية كتلك التي لأنكلترا وهولندا • لهذا أسس شركة الهند الشرقية الفرنسية واعطاها حق أحتكار التجارة مع الشرق الأقصى وجعل الملك وكبار الدولة يساهمون فيها كما أسس شركات أخرى للمتاجرة مع أفريقيا وأميركا • وربما كان من أوائل من فكروا بشق قناة السويس لتنشيط التجارة العالمية • وأجتهد في تأسيس أسطول بحري لفرنسا فأشترى سفنا جاهزة من الخارج وأقام ترسانات بحرية ، وبنى عدة مرافىء حديثة • وأذا كانت بعض شركاته ما أفلحت كثيرا لأعتبارات خارجة عن سلطانهالا أنها وفقت في أقامة مراكز للتجارة الفرنسية في الهند ومدغسكر •

أراد كولبير أن يبني لفرنسا أمبراطوريةً وراء البحار • ومع ان الملك الفرنسي ما كان يشجع هجرة رعاياه ولا كان هؤلاء بطبعهم يحبون المغامرة في البحار الا ان الوزير ساعد حركة التوسع في كندا وفي حوض الميسيسيبي وفي أيامه أعلن امتلاك حوض هذا النهر (لويزيانا) باسم ملك فرنسا •

ولحماية بحرية فرنسا التجارية الناشئة وخطوط مواصلاتها مع المستعمرات الجديدة عمل على جعل أسطولها الحربي قويا بحيث باتت ثالث دولة بحرية في الاطلسي وصار لها مائتا قطعة بحرية حربية كبيرة •

ومشاغلة المالية والأقتصادية الكثيرة ماشغلته عن قضايا الفن والأدب والعمران فأسس أكاديميات فرنسية للرقص والموسيقى والعلوم والفنون•

سياسة لويس الرابع عشر الخارجية :

مارس لويس الرابع عشر طيلة حياته سلطانا شاملا على سياسة فرنسا الخارجية • وأذا كان قد تأثر في بعض الفترات والمواقف بتوجيهات ونصائح كولبير فأن هذا ما ارتقى أبدا الى رتبة وزير للخارجية وظل الملك الفرنسي يرسم لوحده أهداف السياسة الخارجية الفرنسية ويتحكم عبرها بمقدرات القارة الأوروبية • ومن المؤكد ان جميع من عاونوه في الشؤون الخارجية ما كانوا سوى منفذين لرغباته وأوامره • لقد أنطلق منذ بداية حكمه في التعامل مع الدول الأخرى الكبيرة والصغيرة منها من مركز القوة • ذلك ان حرب الثلاثين سنة كانت قد أضعفت من قوة امبراطورية آل هابسبورغ في المانيا وأزالت هيمنتها على الشؤون الأوروبية ثم جاء صلح البيرنيه ليؤكد تراجع قوة الأسبان وعلى هذا فلم يعد هناك ما يمكن ان يحول دون تسلط فرنسا وهيمنتها على أوروبا • هذا وكان يعتقد في أعماقه ، ويشاركه في ذلك شعب فرنسا كله بأن على دول أوروبا التي قبلت في القرن السادس عشر هيمنة أسبانيا أن تقبل في أيامه بزعامة فرنسا خاصة وأنها ، آنذاك اكثر دول أوروبا تقدما وتطورا وأوفرها سكانا وأعظمها مدنية وثقافة واشعاعا •

أعتمد منذ البداية سياسة خارجية تقوم على تحقيق مجد فرنسا وعظمتها وكان يصر دوما على اظهار ذلك بصورة علنية وحيال الجميع • جعل لفرنسا في أيامه ممثلين دائمين في كل الدول الكبرى وهو أمر ما فعلته دولة غير فرنسا • وكان أيضا يصر على أن يكون لمندوبيه مكان متقدم على أي مندوب آخر ، وأثار لتحقيق ذلك اكثر من أزمة دولية • وكان

سفراؤه يعلمونه دوما وبصورة متواصلة بما يصلهم من معلومات ممـا كان يجعله أوفر ملوك أوروبا علما بالأوضاع السياسية وهذا كان يعطي ديبلوماسيته مرونة وقدرة فائقة على التحرك • ولم يكن يكتفي للحصول على المعلومات بمندوبيه وديبلوماسيه بل كانت له شبكة واسعة مـن العملاء والمخبرين ينتشرون في كل الدول ويعملون على جميع المستويات• وكانت الخزانة الفرنسية تدفع بسخاء لهؤلاء العملاء والمؤيدين للسياسة الفرنسية مما سمح بأن يكون بينهم أمراء وملوك وسفراء وأساقفـة ورؤساء أساقفة عملوا كلهم على تحقيق أغراض لويس الرابع عشر •

وهنا لا بد من التساؤل هل كان لهذا الرجل الذي تحكم بمصير قارة باكملها مدة نصف قرن تقريبا سياسة خارجية ثابتة • وبعبارة أوضح هل كان ينطلق في تصرفاته حيال الدول الأخرى من خطة ثابتة وأهداف واضحة المعالم • هذا الموضوع أثار اهتماما واسعا بين المؤرخين • لقـد ذهب بعضهم الى أنعقدة وراثة العرش الأسباني تحكمت بمعظم منجزات حكمه الخارجية • آخرون أعتقدوا أنه كان يريد احياء امجاد شارلمان وأعادة حدود فرنسا الى ما كانت عليه في أيام الكارولانجيين • كثيرون ، وخاصة بعض الألمان ، ذهبوا الى أن لويس الرابع عشر كان ينطلـق دائما من رغبته في مد رقعة فرنسا حتى تصل الى ما يسمى بالحدود الطبيعية : البيرنية ، المحيط الأطلسي ، نهر الراين وجبال الألب •

الواقع يثبت أنه ما كان للويس الرابع عشر سياسة خارجية ثابتة • بل ان الأحداث أثبتت أنه ما كان قادرا على مثل ذلك • لقد دلت الأحداث التي وقعت في عصره وهي كثيرة على أن سياسته الخارجية كانت تتحرك من رغبة في التوسع وحب للتسلط لا حد لهما • كان يريد دوما أن يؤكد سلطانه بوجه الجميع وفي كل المجالات السياسية وغير السياسية • كـان هدف سياسته الخارجية الوحيد والدائم هو تحقيق المجد والعظمـة لشخصه ولعرشه مما يعني في ذهنه المجد والعظمة لفرنسا أذ نادرا ما كان يفرق بين الأثنين • وأذا كان قد أعتمد الديبلوماسية والمفاوضات وأحيانا التهديد والرشوة لتحقيق مجده بالأستيلاء على بلـدان أو ضم أراضي

أخرى فأن الحرب بقيت وسيلته المفضلة للحصول على المكاسب الأقليمية ومع انه كان يفاخر دوما بانه ملك عادل وبأن الحق كان يرافقه في حروبه فقد أغرق أوروبا بسلسلة طويلة من الحروب كان هدفهـا أولا وأخيرا الغزو والتوسع الأقليمي •

لهذه الأعتبارات أهتم الملك الشمس بصورة خاصة بتكوين جيش فرنسي حديث خاضع لسطانه مباشرة • نزع من النبلاء ما بقي لهم مـن نفوذ في الجيش وكان هؤلاء اعتادوا قيادة فرقهم المسلحة بصورة مستقلة يقاتلون مع الملك متى طلب اليهم ذلك ، ووضع مهمة الأشراف علـى التجنيد وتجهيز القوات بالأسلحة والملابس والغذاء بيد الدولة كمـا أسكن الجند في ثكنات حكومية • وبذا صار لفرنسا جيش حديث يدين بالولاء فقط للملك والدولة كان جنوده في تزايد مستمر • لقد أرتفـع عددهم من أثنين وسبعين الفا في سنة ١٦٦٧ الى أربعماية الف سنة ١٧٠٣ مما أعتبر في مطلع القرن الثامن عشر في اوروبا أمرا مذهلا •

حروب لويس الرابع عشر

هذه السياسة التوسعية الطموحة قادت فرنسا زمن ملكها العظيم الى سلسلة من الحروب الكبيرة واجهت فيها اكثر دول اوروبا وكانت أولاها حرب الأستحقاق :

حرب الاستحقاق :

مع أن قوة أسبانيا تراجعت كثيرا في النصف الثاني من القرن السابع عشر بالنسبة لما كانت عليه في السابق الا أنه بقيت لها مناطق نفوذ واسعة وكثيرةفي أوروبا مما كان يجعلها تطوق فرنسا تقريبا من الجنوب والشرق (مقاطعة فرانش كونتيه) والشمال الشرقي (البلدان الواطئة الأسبانية أي بلجيكا الحالية) . ما كان هذا الوضع ليرضي لويس الرابع عشر أو ليتلائم مع رغبته في التوسع والهيمنة وأنما كان عليه أن ينتظر ظرفا موآتيا .

عند وفاة فيليب الرابع ملك أسبانيا ، والد زوجة لويس الرابع عشر ، سنة ١٦٦٥ أنتقل عرشه الى أبنه شارل الثاني من زواج آخر . بادر عندها الملك الفرنسي للمطالبة بالأراضي المنخفضة لزوجته متذرعا بقانون للأرث قديم العهد كان لا يزال ساري المفعول في احدى مناطق هذه المقاطعة يحرم أبناء الزواج الثاني من الوراثة وبالتالي يمنع شارل الثاني من وراثة عرش أبيه . رفض الأسبان هذا الطلب بالطبع وتذرعوا بأن ماريا ترايزا زوجة الملك الفرنسي كانت قبل زواجها قد تنازلت عن حقها في وراثة عرش أبيها .

في أيار (مايو) ١٦٦٧ تقدمت جيوش لويس الرابع عشر دون أعلان

حرب وأستولت على أراضي الفلاندر ومقاطعة الفرانش كونتيه • أنتصار الفرنسيين السريع والمقاومة الأسبانية الهزيلة أثارتا الرعب في دول إوروبا الكبيرة التي بادرت لتشكيل تحالف ثلاثي ضم هولندا والسويد وأنكلترا التي أثارها بصورة خاصة تقدم الفرنسيين في الأراضي الواطئة • قابل الملك المنتصر تكوين التحالف الثلاثي بواقعية ففاوض الاسبان ووقع معهم صلح أكس لا شابيل Aix - la - Chapelle في سنة ١٦٦٨ أعاد بموجبه مقاطعة الفرانش كونتيه وأحتفظ بشريط من المدن الحصينة على طول الحدود مع الأراضي الواطئة الأسبانية أهمها مدينة ليل الجيدة التحصين • على أنه لا بد من الأشارة الى أن هذه النتيجة تركت مرارة في نفس الملك الفرنسي ضد الهولنديين الذين أعتبرهم ركيزة التحالف الثلاثي كما ترك عند هؤلاء خوفا من الوجود الفرنسي قريبا منهم في الأراضي الواطئة •

الحرب الهولندية :

صمم لويس الرابع عشر بعد ذلك على محاربة هولندا وتحطيمها والانتقام من زعيمها جون دي ويت John de Witt المسؤول عن تشكيل التحالف الثلاثي ضد فرنسا • وكان للملك الفرنسي أصلا مآخذ كثيرة على هولندا • هي في تسلطها على البحار ، كانت تعرقل نمو المصالح الفرنسية ، ثم هي ملجأ لأعداء حكمه الاستبدادي المطلق من الفرنسيين يتآمرون على عرشه وينشرون منها الكتب والمؤلفات والمنشورات ضد حكمه ونظامه ، وهي فوق هذا وذاك مأوى البروتستانت الفرنسيين الهاربين من الكثلكة •

خلال سنوات أربع عمل مع وزيره كولبير على اعداد اسباب الانتصار ساعيا لتطويق هولندا وعزلها • لقد دفع شارل الثاني ملك انكلترا للتحالف معه ضد الهولنديين كما اتفق مع السويد وبعض الامراء الألمان واشترى بالذهب الفرنسي حياد امبراطور فينا • سنة ١٦٦٨ بدأ الانكليز الهجوم وتبعهم الفرنسيون فالحق الفريقان سلسلة من الهزائم

بالهولنديين الذين كانـوا أكثر اهتماما في شؤون التجـارة والبحر منهم بشؤون الحرب البرية • هذه الهزائم اثارت الهولنديين فأطاحوا بزعيمهم جون دي ويت وحملوا الى الحكم وليمأورانج المعروف بعدائه التقليدي لفرنسا والذي سيصبح فيما بعد ملك انكلترا •

لعرقلة تقدم الفرنسيين ولكسب الوقت نسف وليم السدود في بلاده وأغرق سهولهـا ودروبها بالميـاه مما شل قدرة الجيوش المحاربة على الحركة والتقدم فطالت الحرب ست سنوات بعد ذلك • وقد عزز موقف الهولنديين العسكري والسياسي صمـود اسطولهم بوجه الاسطـول الانكليزي • وأيضا تحرك وليم بسرعة على الصعيد الديبلوماسي فكسر طوق المحالفات التي أقامها الفرنسيون ووفق في سنة ١٦٧٣ لتشكيـل تحالف قوي من النمسا والدانمرك واسبانيا وبعض الدويلات الالمانيـة التي شجعها صمود الهولنديين على دخول الحرب • وفي السنة التاليـة أجبر البرلمـان الانكليزي شارل الثاني على تغيير موقفـه ومصالحـة الهولنديين مما أبقى فرنسا وحيدة بوجه أقوى دول القارة •

ومع هذا استمر تقدم الفرنسيين في الجبهات فاحتلوا مقاطعةالفرانش كونتيه من اسبانيا واستولوا على أراضي الألزاس التابعة للامبراطـور وانتصروا في البحر المتوسط على الاسطول الهولندي مما كرس وجود فرنسا ولأول مرة كدولة بحرية كبرى في أوروبا •

هذه الانتصارات عجلت في توقيـع صلـح نيماغ Nimègue (١٦٧٨ ـ ١٦٧٩) نالتفرنسا بموجبه أراضي الفرانشكونتيه وعدة مدن حصينة عند حدودها الشمالية الشرقية • وكذلك أبقيت أراضي الألزاس واللورين بيد الفرنسيين •

يعتبر هذا الصلح القمة التي وصلت اليها فرنسا في انتصاراتهـا وأمجادها أيام الملك الشمس اذ خرجت منتصرة من حرب واجهت فيهـا أوروبا مجتمعة • الا أن ظاهرة العظمة هذه كانت تخفي في البنية الداخلية للدولة الفرنسية أسباب ضعف نبه اليها كولبير كثيرا لكن الملك لم يلق

بالا لها . فاستمرار الحروب أربك أوضاع الخزانة العامة وعرقل مشاريع كولبير الاصلاحيــة مما جعله يتخلى عن الواحد منها بعد الآخر . بل أن حاجة الدولة للمال اضطرتها لأن تلجأ لأقسى الأساليب في جباية الضرائب مما ذهب ببريق الانتصارات وأثار سخط الناس .

محاكم الضم « Les Réunions » :

من المعروف عن لويس الرابع عشر أنه ما كان حريصا على التقيد بنصوص المعاهدات ولا كان أمينا في تنفيذ اتفاقاته مع الدول الأخرى . وكان يصرح دوما بأن أي معاهدة لا بد ان تقبل التأويل والتفسير بحيث تفهم على أكثر من وجه واحد . وقد برز ميله هذا بصورة جلية حــين ذهب في سنة ١٦٧٩ مدفوعا بنشوة انتصاراته ومعتمدا على القوة التي لجيش فرنسا الذي بات أقوى جيوش أوروبا وأحسنها تنظيما ، يفسر المعاهدات الدولية وفق مصالحه . لقد شكل محاكم أقليمية أسماهــا محاكم الضم « Les Reunions » وعهد اليها بتقرير ما لفرنسا من حقوق في أراضي الألزاس واللورين والفرانش كونتيه ومقاطعاتصغيرة أخرى وهي كلها مناطق وضعت في ظروف مختلفــة وبموجب معاهدات تحت الادارة الفرنسية ولم يبت بمصيرها بشكل نهائي . فسرت هذه المحاكم المعاهدات الدولية في سنة ١٦٨١ لصالح فرنسا وأعطتها السيادة الكاملة على الألزاس بما فيهــا مدينة ستراسبورغ الحــرة التي بادرت جيوش فرنسة لاحتلالها فورا وكذلك بعض الحصــون والقــلاع في الفلاندر واللوكسمبورغ . ما كانت أوروبا آنذاك على استعداد لدخول حرب جديدة ولذا فقد واجهت دعوى الفرنسيين بواقعية واعتدال وقبلت كل من هولندا واسبانيا وامبراطورية النمسا ضم هذه الأراضي لفرنسا لمدة عشرين عاما مما اعتبر بمثابة هدنة سياسية وعسكريــة لنفس المدة دون أن يعني ذلك اعترافا بما أقدم عليه الملك الفرنسي من خرق للمعاهدات الدوليــة .

حرب عصبة أوغسبورغ :

كانت موجة الاستياء من فرنسا والعداء لملكها في أوروبا تتزايد منذ انتهاء الحرب الهولندية . تفسيرات فرنسا للمعاهدات الدولية عبر محاكم الضم بما يتناسب مع مصالحها التوسعية أثار اعتراضات واسعة في القارة عامة وبين الدويلات الالمانية خاصة التي أفزعها الاستيلاء على مدينة ستراسبورغ الحرة ذات الاستقلال العريق .

ما أظهر الملك الفرنسي بعد ذلك ميلا للتهدئة وانما ظل يعمل لمزيد من التوسع على حساب الدويلات الالمانية خاصة في حوض الراين الأوسط مما جمع أكثر الامراء الالمان على ما بينهم من خلافات وتناقضات في جبهة واحدة حول امبراطور فينا . ثم أن ملاحقته للبروتستانت في بلاده ونقضه لبراءة نانت سنة ١٦٨٥ زاد في عداء الدول البروتستانتية له . هذه الامور وغيرها سهلت مهمة وليم أورانج سيد هولندا وعدو فرنسا اللدود في تشكيل تحالف دولي سنة ١٦٨٦ عرف باسم عصبة أوغسبورغ وضم اسبانيا وهولندا والسويد والامبراطورية الرومانية المقدسة والبالاتين . وقد استهدف هذا التحالف أجبار فرنسا على العودة الى التقيد بمعاهدات وستفاليا ونيماغ والتخلي عن كل ما استولت عليه من مكاسب اقليمية خلافا لأحكامها . وانضم سرا في السنة التالية لهذه العصبة قداسة البابا .

بدأت حرب عصبة أوغسبورغ سنة ١٦٨٨ بانتصارات عديدة حققتها القوات الفرنسية التي عبرت نهر الراين بسهولة ويسر . الا أن ما أنزلته هذه القوات من تدمير بمدن رينانية عديدة وخاصة هايدلبرغ زاد في حقد الالمان على الملك الفرنسي وجعل امراء المان وقفوا دوما بجانب ملك فرنسا عن قناعة أو بسبب هباته المالية الوفيرة ، مثل دوق بافاريا يتحولون الى الصف المعادي لفرنسا .

وتدعمت قواعد العصبة بصورة غير منتظرة حين أطاح الانكليز بملكهم جيمس الثاني صديق لويس الرابع عشر سنة ١٦٨٨ ونصبوا

ملكا عليهم سيد هولندا وزعيم العصبة البروتستانتي المتدين وليـــم أورانج تحت اسم وليم الثالث • كان رد فعل الملك الفرنسي على أحداث انكلترا انفعاليا وعنيفا اذ أعلن تأييده الملك المخلــوع وتصميمه على اعادته الى عرشه مما دفع الانكليز للانضمام الى العصبة التي صارت بعد ذلك تعرف باسم المحالفة العظيمة •

أظهرت فرنسا في هذه الحرب مقدرة حربية عظيمة في العمليات البرية كما في البحــار الا أنه ما كان سهلا مواجهة أعداء بهذه الكثرة وبهذه القوة ولذا اتسعت جبهات القتال واستطالت الحرب سنوات عشرة مــا استطاع خلالها أحد الفريقين حسم الموقف • لهذا تدهورت اقتصاديات أكثر الدول وعانت بعضها مصاعب مالية مستعصية • فتجارة الانكليــز تضررت لحد كبير مما أدى لتأسيس بنك انكلتــرا في محاولة لمعالجــة الوضع المالي السيىء • وفرنسا ، التي غاب عنها وزيرها كولبير ، مدبر امورها في الأزمات عرفت أزمة مالية خانقــة عالجها لويس الرابع عشر بمزيد من الضرائب على الطبقات الفقيرة وبضرائب على النبلاء وهو الامر الذي طالما تحاشى اللجوء اليه •

هذه الاعتبارات الاقتصادية والمالية ، وغيرها أيضا ، جعلت الجميع ينزعون نحو السلام حتى قبل الحصول على النصر الحاسم •

في تشرين أول (أوكتوبر) وقعت فرنسا معاهدات الصلح في مدينة ريزويــك Riswick الهولندية • بسوجب هذا الصلح اعترفت بوليم الثالث البروتستانتي ملكا على الانكليز وتعهدت بعدم التدخل في شؤونهم الداخلية • وأيضا قبلت بالتخلي عن الأراضي التي استولت عليها بموجب قرارات محاكم الضم عدا بلاد الألزاس ومدينة ستراسبورغ • وأيضــا وافقت على أن تحتل هولندا سلسلة من القلاع والحصون المتقدمة في الأراضي الواطئة الاسبانية لتكون حدودا آمنة بين فرنسا وهولندا • لقد أظهر الجميع أثناء المفاوضات من الواقعية والمرونة ما سهل الوصول الى تسوية فجاء صلح اللاغالب واللامغلوب •

حرب الوراثة الاسبانية :

اذا كان لويس الرابع عشر قد قبل صلح اللا غالب واللا مغلوب فان قوة فرنسا العسكريـة قد بقيت الأعظم في أوروبـا وهيمنة لويس الرابع عشر على الشؤون الأوروبية ما كسفت بالرغم مما كانت تعانيـه فرنسا من مصاعب مالية واقتصادية حادة ٠ الواقع أنه الى جانب ما ذكرنا من اسباب جعلت الفرنسيين يوقفون حربهم كانت هناك مشكلة وراثـة عرش اسبانيا التي طرحت بشكل عنيف وملح في السنوات الأخيرة مـن القرن السابع عشر ٠ لقد شغلت هذه القضية بالذات تفكير ملك فرنسا ومعه الديبلوماسية الفرنسية سنوات طويلـة ووجهت سياسة فرنسـا الخارجية بدرجة جعلت بعض المؤرخين يعتقدون أنها كانت الأساس في السياسة الخارجية الفرنسية منذ سنة ١٦٦٥ ٠

كان معروفا أن شارل الثاني الذي تسلم عرش مدريد سنة ١٦٦٥ لم ينجب طفـلا وما كان ينتظر أن ينجب في المستقبل وليـا لعهده ٠ كان ضعيف البنية هزيلا بحيث أن الناس ما كانوا يظنون أنه سيعيش ويحكم الامبراطورية الاسبانية سنين طويلة ٠ الا أن الملك الاسباني الضعيف ، وبعكس كل التقديرات عاش حتى نهاية القرن السابع عشر وصان وحدة بلاده من أطماع دول أوروبا ٠

في أواخر القرن السابع عشر وخاصة خلال سنوات حرب عصبـة أوغسبورغ وكانت قد تقدمت السنون بالملك الاسباني وتفاقمت علتـه وبات أجله ينتظر بين يوم وآخر طرحت مشكلة وراثة عرشه وتحكمت بالسياسة الدولية في أوروبا وانعكست على مجريات الحرب من قتالية أو دبلوماسية ٠ ويعود اهتمام الجميع بهذه القضية لكون اسبانيا مـا كانت دولة عادية وانما كانت تمتلك امبراطوريـة واسعـة الأرجاء في أوروبا : اسبانيا والأراضي المنخفضة الاسبانية (بلجيكا) وجزر سردينيا والباليار ولها في شبه الجزيرة الايطاليـة مراكز نفوذ هامـة في ميلانو ونابولي ٠ وتضم فيما وراء البحـار جزر الفيليبين والكناري وكوبـا

والمكسيك وفلوريدا وكاليفورنيا وبناما وسائر أميركا الجنوبية عـــدا البرازيـــل وغوياتا •

ولما لم يكن للملك الاسباني ورثة مباشرين من عائلته فقد كثر من الخارج المطالبون بوراثة عرش تلك الامبراطورية العظيمة ، وكان هناك :

١ ــ لويس الرابع عشر يطالب بالوراثة لنفسه أو لأحد أقاربه على اعتبار أنه كان زوجا لماريا تريزا شقيقة شارل الثاني الكبرى •

٢ ــ امبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة الذي كان زوجـا لأحدى شقيقات الملك الاسباني •

٣ ــ امير بافاريا وهو قريب للملك الاسباني من جهة امه

اهتمت بصورة خاصة بهذه القضية كل من انكلترا وهولندا لان انتقال املاك التاج الاسباني للامبراطور يعيـد الى الأذهـان ذكريات امبراطوريـة شارلكان وهيمنتها على أوروبـا • وكذلك ذهاب هـذه الامبراطورية الى فرنسا يجعل الملكية الفرنسية عالمية النفوذ • وفي الحالين تغيير جذري للأوضاع السياسيـة في أوروبا وقضاء على مبدأ توازن القوى الذي كرسته معاهدات وستفاليا • وقد مال أكثر الناس في اوروبا لجعل امير بافاريا نظـرا لصغر أراضيه وضعف نفـوذه وريثـا لعرش مدريـد •

ونظرا لاتفاق مصالح كل من انكلترا وهولندا على ضرورة ابعـاد الفرنسيين لكونهم قد صاروا أمة بحرية ، عن ممتلكات اسبانيا في بلجيكا كما في اميركا ، فان الدولتين قامتا بنشاط سياسي وديبلوماسي عظيـم انتهى الى اتفاق سري وقع في لاهاي سنة ١٦٩٨ بين انكلترا وهولنـدا وفرنسا التي قبلت علـى مضض أن تؤول اسبانيا ومستعمراتها للامـير البافاري مقابل ترضيات ثمينة لها وللامبراطور في أوروبا • الا أن وفاة الامير البافاري المفاجئـة في السنة التالية طرحت المشكلة مجددا الى أن اتفقت الدول الكبرى على توزيع جديد للتركة يعطي فرنسا مركزا ممتازا

في ايطاليا ويترك سائر التركة للامبراطور النمساوي مما اعتبر تساهلا كبيرا من جانب الفرنسيين •

وهنا لا بد من الاشارة الى أن أخبار هذه المساومات والمؤآمرات كانت تثير غضب الملك الاسباني واشمئزازه • كان رغم مرضه حريصا على مستقبل الامبراطورية ضنينا بوحدتها • ولذا فقد خلف عند وفاته سنة ١٧٠٠ وصية تعود بموجبها أملاكه كلها كوحدة غير مجزأة الى حفيد لويس الرابع عشر دوق دانجو Duc d Anjou • فعل ذلك لأنه اعتقد أن الدوق الشاب سيكون بنفوذ جده وقوة فرنسا العسكرية أقدر الناس على صيانة وحدة الامبراطورية الاسبانية وحمايتها من مطامع الدول •

عند اعلان الوصية ما كان بامكان الملك الفرنسي أن يعترض عليها أو يبدل شروطها لأن ذلك يؤدي وفق نصها الى انتقال الامبراطورية لأمير نمساوي • قبل لويس الرابع عشر علنا الوصية ، مع ما ستجره على فرنسا من متاعب ، فبات حامي وحدة اسبانيا بعد أن كان الساعي لتقسيمها • وقد أعلن حفيده ملكا على اسبانيا باسم فيليب الخامس كما نادى به ملكا في بروكسل وميلانو ونابولي وهي ممتلكات اسبانية •

قبلت للوهلة الاولى انكلترا وهولندا الامر الواقع واعترفت بالملك الجديد • غير ان الملك الفرنسي بادر لاتخاذ سلسلة من الخطوات المتهورة جعلت ليس فقط هاتين الدولتين وانما أوروبا بأسرها تقف في وجهه • لقد سارع الى الاعلان بان ارتقاء حفيده عرش اسبانيا لن يفقده حقه في وراثة عرش فرنسا وهو أخشى ما تخشاه كل أوروبا لأنه يقضي على توازن القوى في القارة • ثم أمر باحتلال القواعد والحصون الهولندية في بلجيكا والتي أقيمت بموجب صلح ريزويك مما هدد حدود هولندا مباشرة وكذلك استحصل لفرنسا على امتيازات تجارية في مرفأ قادش الاسباني وفي ممتلكات اسبانيا وراء البحار •

والواقع ان الدولتين ما كانتا تنتظران أكثر من ذلك لتعودا للعمل باصرار على انقاذ توازن القوى في القارة الذي ما تهدد قبل الآن على مثل هذه الصورة • وكان ان ظهر للوجود في سنة ١٧٠١ بمساعي وليم الثالث التحالف العظيم يضم انكلترا وهولندا والامبراطورية الرومانية المقدسة • ثم انضمت اليه فيما بعد البرتغال ودوقية سافواي •

في آذار (مارس) سنة ١٧٠٢ بدأت حرب الوراثة الاسبانية فكانت طويلة شاقة كثيرة المآسي ، شديدة الأهوال امتدت حتى سنة ١٧١٣ • كان على فرنسا أن تقاتل دفاعا عن أراضيها وأراضي حليفتها الجديدة اسبانيا فتوزعت ساحات القتال في ايطاليا والأراضي المنخفضة والمانيا والعالم الجديد وهذا أعطاها طابع الحرب العالمية • وقد برزت فيها الى جانب الاعتبارات السياسية المؤثرات الاقتصادية والتنافس على المستعمرات والصراع في البحار وحول خطوط المواصلات العالمية مما عقدها وزاد في أهوالها • كشفت هذه الحرب مكامن الضعف في كيان الدولة الفرنسية المختفية وراء أشعاع الملك الشمس السياسي وقوة جيوشه العسكرية • لقد برزت أزمة فرنسا المالية المزمنة التي طالما نبه اليها الوزير كولبير حين كان لا يزال على قيد الحياة قوية حادة وخطيرة • كذلك افتقدت فرنسا غياب تلك الطبقة من الرجال الاكفاء المخلصين الذين رافقوا لويس الرابع عشر في النصف الأول من ملكه •

مع أن الفرنسيين حققوا بعض الأنتصارات في سنتي الحرب الأولين وخاصة في أيطاليا الا أن الهزائم العسكرية توالت عليهم بعد ذلك خاصة على أيدي أبرع عسكريي أوروبا آنذاك الأمير يوجين قائد الجيوش النمساوية والانكليزي دوق مارلبورو •

لقدَ أخرج الفرنسيون من أيطاليا ومن أراضي الفلاندر الفرنسية ومن الأراضي الواطئة ومن بعض القلاع والحصون الهامة على حدودهم وتحرج موقفهم كثيرا بعد هزيمتهم الشنيعة في معركة مالباكية سنة ١٧٠٩ Malpaquet • وفي اسبانيا كانت الأوضاع اكثر صعوبة

بالنسبة للفرنسيين • فقد أستولى الأنكليز على جبل طارق ونـــزل النمساويون بالتعـاون مع البرتغاليين في كاتالونيا واحتلـوا عاصمتهـا برشلونة وحرضوا السكان على الثورة ضد حكومة مدريد مما أوقـع البلاد في حرب أهلية • وفي شتاء ١٧٠٩ ــ ١٧١٠ عـــرف الفرنسيون أصعب الظروف أذ توالت عليهمالهزائم وأشتدت بهم الضائقة الأقتصادية وعم بينهم البؤس والشقاء وعرف بعضهم الجوع فمال لويس الرابع عشر للحصول على السلام لولا أن الشروط التي قدمها أخصامه كانت مذلة لفرنسا مما جعله يواصل القتال معتمدا على وطنية الفرنسيين وشعورهم القومي •

بذل الفرنسيون فعلا تضحيات كبيرة مكنت فرنسا في سنة ١٧١٢ من الأنتصار في معركة دانين Danain على الجيوش الأمبراطورية الزاحفة عبر الأراضي الفرنسية مما عزز موقف الفرنسيين وقرب أمكانية السلام • ثم ان الأسبان أستبسلوا في القتال حفاظا ليس فقط علـــى أمبراطوريتهم وراء البحار وأنما أيضا على وحدة التراب الأسبانـــي المهددة بثورة كاتالونيا •

في هذا الوقت كان في الجانب الآخر قد حدث تغيير جـذري في المواقف السياسية أذ توفي الأمبراطور النمساوي جوزيف الأول سنـة ١٧١١ وخلفه على العرش الأرشيدوق شارل الذي كان مرشحا للعرش الأسباني والذي كان ما يزال طامعا بالحصول عليه • هذا الأمر أحـدث تغييرا في موقف الأنكليز • لقـد ذهب ساسة لندن حتـى الحـرب في معارضتهم لجمع أسبانيا وفرنسا تحت عرش واحد وهم بنفس الاصرار يعارضون جمع امبراطوريتي النمسا واسبانيا الكبيرتين تحت زعامـة تاج واحد • لهذا الأعتبار بالدرجة الأولـى جنح الأنكليز نحو السلام فأنسحبوا سنة ١٧١٢ من التحالف العظيم واتجهوا نحو التفاهم مـع الفرنسيين • ولما كان ذهب الأنكليز واموالهم الوفيرة قـد لعبا دورا أساسيا في تمويل العمليات الحربية في البحار كما في أوروبا فقد بات

حلفاؤهم أقل تصلبا وأمكن بدء مفاوضات بين فرنسا وأسبانيا من جهة وأخصامهما من جهة ثانية أنتهت بالوصول الى بنود صلح او ترخت سنة ١٧١٣ الذي أنهى حرب الوراثة الأسبانية وأعطى في مطلع القرن الثامن عشر لأوروبا خريطة سياسية بديلة لتلك التي عرفتها بعد صلح وستفاليا • وأهم منجزات الصلح الجديد :

١ ـ أعترف الجميع بفيليب الخامس ، حفيد لويس الرابع عشر ، ملكا على أسبانيا ليؤسس فيها ملكية بوربونية ما تزال قائمة حتى يومنا هذا • وابقيت تحت سيادته المستعمرات الاسبانية وراء البحار وبالمقابل تنازل عن حقوقه بالعرش الفرنسي • غير أن هذا ما منع قيام تحالف وثيق بين الدولتين في القرن الثامن عشر •

٢ ـ أخذت الأمبراطورية النمساوية الأراضي المنخفضة الأسبانية (بلجيكا) وأراضي نابولي وميلانو وسردينيا • وهذا أعطى نفوذا كبيرا للأمبراطورية في أيطاليا ظلت تحتفظ به حتى منتصف القرن التاسع عشر مما عرقل قيام وحدة الأمة الأيطالية • يضاف الى ذلك ان أعطاء الأراضي الواطئة للنمسا كان موافقا لحد كبير للمصالح التجارية والبحرية لكل من أنكلترا وهولندا لكون النمسا ما كانت أمة بحرية يخشى نفوذها ومزاحمتها في بحر الشمال والأطلسي ولكونها كانت قادرة على منع الفرنسيين من التوسع عبر حدودهم الشمالية في المستقبل •

٣ ـ تنازلت أسبانيا لأنكلترا عن جبل طارق الموقع البحري الهام الذي ما يزال تحت نفوذها حتى اليوم وكذلك أعطتها جزيرة مينورقة في المتوسط وبعض الأمتيازات التجارية في أميركا الجنوبية •

٤ ـ تنازلت فرنسا للانكليز عن أراضي نيوفوندلاند ونوفاسكوسيا ومنطقة خليج الهدسون وهي المدخل الى المستعمرات الفرنسية في كنداء

٥ ـ أعيد امراء كولون وبافاريا الى حكم اراضيهما كما وسعت أراضي بروسيا وأعترف بها مملكة تحت عرش آل هوهنزلرن • وهذا سيجعل القرن الثامن عشر يجد بين دول اوروبا القوية دولة بروسيا

المنافسة على الزعامة بين الدول الألمانية للأمبراطورية النمساوية •

٦ ـ اعترف نهائيا بحق البروتستانت في وراثة العرش الأنكليزي •

لقد خرج الأنكليز من حرب الوراثة الأسبانية بنصر عظيم أذ حققوا الأغراض التي حددها ملكهم وليم الثالث عند تكوين التحالف العظيم • وحققوا نصرا آخر أهم واكثر بقاء هو أنهم بأشتراكهم في هذه الحرب جعلوا القتال في البحار مجالهم الخاص وهذا أدى الى تطور الأسطول الأنكليزي بشكل سريع وصار لأنكلترا قبل نهاية الحرب تفوق اساسي على الجميع في شؤون البحر •

وفاة لويس الرابع عشر :

في شهر آب (أغسطس) سنة ١٧١٥ وكان قد ادرك السابعة والسبعين من عمره توفي الملك العظيم الذي كان يلقب بالملك الشمس تاركا العرش لحفيده الصغير لويس الخامس عشر ومنهيا بذلك عهدا من أعظم عهود فرنسا الملكية وأطولها وأحفلها بالأحداث العظام وبالمآسي أيضا •.

روسيا دولــة كبرى

مع وصول عائلة روما نوف الى الحكم في روسيا بدأت عملية أقتحام هذه البلاد للعصور الحديثة وأخذها بأسباب الحضارة والمدنية . ذلك أن تلك الشعوب الكثيرة ذا ت اللغات السلافية الأصل والمنشرة في السهول الواسعة الممتدة من البحر الأبيض في الشمال حتى بحر قزوين في الجنوب بقيت طيلة العصور الوسطى تعيش في عزلة تامة عن العالم المتحضر وبصورة خاصة عن أوروبا الغربية . لقد خضعت ، وربما أخضعت ، لعزلة رهيبة وطويلة . وأذا كان الروس قد أخذوا بالنصرانية فانهم قد اعتنقوها على المذهب الأرثوذكسي مما لم يقربهم من أوروبا الغربية الشديدة الولاء لكنيسة روما . ثم أن خضوع هذه الشعوب في الأزمنة الأخيرة من العصور الوسطى لحكم قبائل التتار الذي أمتد من سنة ١٢٤٠ الى سنة ١٤٨٠ ميلادية أورثهم مؤثرات حضارية أسيوية زادت في بعدهم عن الحضارة الغربية . وهم فوق هذا وذاك ، حين بدأت العصور الحديثة ، وجدوا أنفسهم مطوقين بأمم قوية عظيمة تسد عليهم المنافذ وتطمع بأراضيهم وثرواتهم . في الجنوب كانت الأمبراطورية العثمانية القوية تسيطر على كل الأراضي المحيطة بالبحر الاسود . ومن الغرب كانت دولة بولونيا القوية ، ليس فقط تقف حاجزا بين الروس والشعوب المتمدنة ، وأنما لا تترك فرصة تمر لا تستغلها في التوسع في أراضيهم . ومن جهة بحر البطليق كانت دولة السويد العظيمة تسيطر على شواطئ هذا البحر كما وعلى طرق الملاحة فيه . وما كانت روسيا آنذاك تتصل بالملاحة الدولية ، الا عن طريق مرفأ أركانجال على البحر الأبيض الشمالي الذي تتجمد مياهه في أكثر فصول السنة .

كان الروس يدركون خطورة عزلتهم وقد حاولوا اكثر من مرة في أواخر العصور الوسطى ومطلع العصور الحديثةالأتصال بالعالم الخارجي بشكل أو بآخرولكنهم كانوا يواجهون الى جانب ما ذكرنا من مصاعب نوعا من الأتفاق الضمني بين الدول الكبرى على أبقائهم على وضعهم • اما قضت السويد في سنتي ١٥٥٦ — ١٥٥٧ على محاولة قام بها أيفان الرابع الرهيب للتوسع باتجاه فنلندا ؟ كان السويديون يرون آنــذاك « أن الروس قد يصبح لهم في يوم من الايام من القوة في أوروبا مـــا للترك في آسيا » • وكذلك تصدى امبراطور النمسا شارل الخامس لمحاولة سلمية قام بها ايفان الرهيب فمنع على رعاياه من المهندسين والعلمـــاء والفنانين العمل في خدمة الملك الروسي أو حتى الهجرة الى بلاده •

في سنة ١٥٨٤ مات سيد روسيا القوي ايفان الرابع الرهيب فتلت وفاته مرحلة من الأضطراب والفوضى والحروب الأهلية دامت حتى سنة ١٦١٣ برزت فيها كل معايب المجتمع الروسي وما كان يحتويه من مشاكل قومية ووطنية وأجتماعية • وزاد في تعقيد الأزمة سنة ١٥٩١ وفاة ديمتري أبن ايفان الرابع آخر حكام عائلة روريك Ruric التي ملكت علــى الشعوب الروسية عشرة قروندون أن يخلف وريثا ذكرا • وهــذا ترك المجال واسعا لتدخلات سياسية وعسكرية من جانب السويد وبولونيــا للأستيلاء على العرش الخالي • وزادت السماء في مآسي هذه الشعوب في سنة ١٦٠١ أذ أنتشر بينها البؤس وقلت المحاصيل وشاعت المجاعات وعمت الفوضى والأنحلال الخلقي •

الخروج من هذا الوضع الصعب بات أمل الجميع ورجاء الواعين من الروس الراغبين في الخلاص من أخطار التدخلات الخارجية • وعلى هذا أجتمع مندوبون يمثلون المدن الروسية الرئيسية في جمعية وطنيــة وأنتخبوا ميشال رومانوف ، القريب من العائلة المالكة القديمة قيصرا للروسيا • لقي القيصر الجديد من شعبه كل تأييد وعون لأنه أعتبر نجاحه طريق الخلاص من الفوضى والأضطراب ووسيلة التحرر من التدخــلات

والمطامع الأجنبية وربما الجنوح الأكيد نحو تحطيم العزلة المزمنة .

لم يكن ميشال روما نوف ذا صفات أستثنائية ولكنه كان طيبا ، تقيا ، نشيطا محبا لشعبه وبلده فتصدى بشجاعة لمشكلة اعادة السلام الى روسيا وأزالة ما خلفته فترة الأضطرابات من خراب ودمار . تعاون في سبيل ذلك مع والده بطريرك الكنيسة الروسية واعتمد عليه . كان هذا رجلا وافر الخبرة والمعرفة ملما بأساليب الحكم والأدارة ، حازما فنظم مالية الدولة وشجع الصناعة الناشئة وأهتم بالتجارة وأضعف بصورة خاصة من حكومات الأقاليم حيث كان لكبار ملاكي الارض نفوذ واسع

خلف القيصر ميشال على عرش الروسيا أبنه الكسي سنة ١٦٤٥ وكان هذا ذكيا ، متعلما ، ذا نزعة أنسانية ومولعا باعمال البر . قاتل البولونيين وأستعاد منهم ما أستولوا عليه من قلاع وحصون في أوكرانيا الشرقية أثناء فترة الحروب الأهلية وأيضا نشر سلطان روسيا وبصورة نهائية على سائر أراضي أوكرانيا الغنية . وبذا يكون أول من بدأ سياسة التوسع باتجاه الغرب . وفي أيامه أنهى الرواد الروس مرحلة التوسع في سيبريا فوصلوا الى مضيق بيرينغ سنة ١٦٤٨ واتصلوا بعد ذلك بحدود الصين وبالمحيط الهادىء .

كان مدركا لوضع روسيا المتخلف وراغبا في أقامة أتصال بين بلاده وبين حضارة غرب أوروبا . وبدأت روسيا فعلا في عهده ثم في عهد أبنه فيدور (١٦٧٦ ــ ١٦٨٢) تطلع على بعض ما كتبه الغربيون كما صار يتوافد على البلاد عدد من الضباط والتجار والأطباء والمغامرين الأوروبيين يستقرون في ضاحية بالقرب من العاصمة موسكو يطلق عليها اسم الحي الالماني وبذا تكون قطعة من الغرب المتحضر قد أنتصبت في قلب الروسيا لترشد الناس الى مدى تخلفهم وهمجيتهم . لم يكن نزلاء هذه الضاحية من الألمان فقط وأنما كان منهم أنكليز وأسكوتلنديون وهولنديون . ولم يتأخر كثيرا ظهور المؤثرات الأوروبية في الجيش الروسي لكثرة من التحقوا به من المرتزقة الأوروبيين وخاصة الأسكوتلنديين . وقد أكثر

الكسي من أرسال البعثات والسفارات الى بلدان الغرب بقصد التعرف الى أسباب تقدمها والأستفادة من مظاهر حضارتها وكان يفعل ذلـــك بالرغم مما كانت تبديه الكنيسة الروسية من معارضة لهذا الأتجاه • لقد اعتاد رجال الدين النظر بكثير من الريبة والحذر لتصرفات الأوروبيين والغربيين واعتبروا أحيانا مجرد الأتصال بهم نوعا من الهرطقة •

سعى الكسي كأبيه الى الحد من سلطان النبلاء وكبار ملاكي الأرض في الجمعيات التمثيلية القديمة على قلة ما لها من تأثير ونفوذ ، في خطـة لجعل سلطان عرشه قويا مركزيا مطلقا على ما كان شائعا في أوروبـا المتحضرة آنذاك • الا أن ملوك آل روما نوف الأوائل في محاولتهـــم أشتراع نظم ضرائبية جديدة وأدارة أشد فعالية زادوا من تعاسة الفلاحين والعمال ووسعوا في سلطان ملاكي الأرض عليهم• لقد جعل تسديـــد الضرائب الحكومية مسؤولية الجماعات في الأرياف كما في المدن • وعلى هذا سجل الفلاحون في الأرياف في سجلات رسمية وصاروا في كـــل قرية مسؤولين جماعيا عن دفع الضرائب مما زاد في قيود قنيتهم وربطهم أكثر بالأرض عن طريق جعل الجماعة رقيبا على الفرد•وبذا فقد الفلاحون المساكين ذلك المخرج الى الحرية الذي طالما مارسوه قبل ذلك حين كـان الفلاح يهجر أرض السيد الى أراضي سيبيريا المكتشفة حديثا أو الـى الالتحاق بقبائل القوزاق ــ قبائل أقرب الى البداوة منها الى حياة الحضر كثيرة التحرر شديدة التعلق بحريتها تمارس رعاية المواشي في أراضـي الحدود الجنوبية الشرقية ــ • واكثر من ذلك وبقصد الحد من هـذه الهجرة بالذات أعطى ملوك روسيا ملاكي الأرض ترضيات أقتصاديـة هامة عن طريق أشتراع قوانين تسمح بأسترداد الأقنان الهاربين ولو بعد حين كما صار بالأمكان بيع الأقنان دون الأرض ونقلهم من أرض لأخرى دون موافقتهم •

هذه التشريعات ولو أنها أستهدفت من جهة المحافظة على مداخيل ثابتة للدولة ومن جهة أخرى المحافظة على الأنتاج الزراعي الذي هـو المصدر الأساسي للثروة القومية الا أن عبئها وقع على العاملين وبصورة

خاصة الفلاحين مما جعل أوضاعهم تتدهور دون أي أحترام للأعتبارات الأنسانية وباتوا في وضع أسوأ بكثير مما كان خلال عصور الأقطاع •

بطرس الاكبر

الا أن السعي الجدي الفعال لأخراج روسيا منعزلتها ولجعلها دولة أوروبية تعيش وفق نظم العصر ومقاييسه لم يبدأ بصورة جدية وحازمة الا في زمن بطرس ـ الأبن الثاني للقيصر الكسي • صار بطرس قيصرا على الروسيا بعد وفاة شقيقه سنة ١٦٨٢ • كان آنذاك طفلا في العاشرة من عمره فآلت الوصاية على العرش الى شقيقته صوفيا وصارت أليها أمور الحكم والدولة • في هذا الوقت كان القيصر الصغير يتردد على الضاحية الألمانية يصاحب أبناء الجاليات الأجنبية المقيمين فيها • وهناك بدأ أتصاله المباشر بالحضارة الأوروبية فأحبها وتعلق بها الى حد كبير • وكان من أكثر سكان هذه الضاحية تأثيرا عليه ضابط أسكتلندي في سلاح الهندسة وخبير في شؤون المدفعية أسمه غوردون **Gordon** ، وتاجر سويسري خدم في الجيش الفرنسي ثم هاجر الى روسيا في مطلع شبابه • وظل هذان الرجلان على أتصال به ومن أقرب معاونيه حتى نهاية حياتهما •

في آب أغسطس سنة ١٦٨٩ أنتزع الحكم من شقيقته صوفيا وأرسلها الى أحد الاديرة • ذلك انها كانت أثناء وصايتها قد أستبدت بأمور البلاد مع معاونيها وجرت روسيا الى هزيمتين عسكريتين في شبه جزيرة القرم وأهملت تربية القيصر الصغير • ولما لم يكن يعتقد أنه بات قادرا على مباشرة الحكم بنفسه فانه فوض امور الدولة الى أمه وأنصرف هو الى متابعة حياته في الضاحية الألمانية • وفي سن الحادية والعشرين زار مرفأ أركانجال وشاهد البحر لأول مرة فأحبه • وظل هناك طيلة صيف ذلك العام يتعرف الى السفن الهولندية والأنكليزية والالمانية الراسية فيه فأدهشته وأثارت فضوله بدرجة لا توصف حتى باتت فكرة بناء اسطول كبير لروسيا راسخة في ذهنه طيلة حياته • وربما

مع بداية اهتمامه بالبحر والأسطول بدأ يدرك مدى عزلة روسيا الجغرافية وحاجتها الماسة لمرفأ لا تتجلد مياهه في فصل الشتاء .

ماتت أمه سنة ١٦٩٤ فكان عليه أن يباشر أمور الحكم وقد فعل ذلك بصورة قوية وفعالة وحازمة ومارس سياسة واضحة لم يحد عنها طيلة حكمه الطويل تقوم على دعائم ثلاث : أيصال السيادة الروسية الى المياه الدافئة في البحر الأسود والبلطيق ، أقامة حكم ملكي مطلق ، وفتح أبواب الروسيا أمام الحضارة الغربية .

سياسة بطرس التوسعية :

تبنى في بداية حكمه سياسة توسعية حيال جارتيه الكبيرتين السويد والدولة العثمانية منبثقة من قناعته بأن مستقبل روسيا السياسي وتطور أقتصادها يفرضان عليه بالضرورة أيصال حدودها حتى البحار الدافئة ليقيم اتصالا دائما بينها وبين العالم الخارجي . في سنة ١٦٩٥ أستغل فرصة انشغال العثمانيين في حرب مع الأمبراطورية النمساوية فالقى حصارا على قلعة آزوف الحصينة الواقعة على البحر الأسود عند مصب نهر الدون . وبفضل ما كان يتلقاه الأتراك المحاصرون من امدادات عن طريق البحر قاوموا بضراوة وصمدوا . فعمد بطرس بنصيحة ومساعدة بعض مستشاريه الأجانب لبناء أسطول صغير يتألف من ثلاثين مركبا عبر نهر الدون وحاصر الحصن من جهة البحر قاطعا عنه الامدادات والاغذية . استسلم الحصن المحاصر في حزيران (يونيو) ١٦٩٦ وأدرك بطرس في أول أنتصار عسكري له على دولة عظمى دور الأسطول والحرب البحرية في الحروب الحديثة . وقد سهل له هذا الأنتصار الأستيلاء على كل السهول المحيطة بنهر الدون .

عرف القيصر الروسي بواقعيته ورغم أنتصاره أن الدولة العثمانية قوية وغنية وليس من السهل التغلب عليها دوما كذلك ادرك صعوبة العمل في البحر الأسود والدفاع عن الوجود الروسي فيه . لذا قرر أن يسافر لأوروبا بحثا عن حليف له يساعده في صراعه مع العثمانيين . وكان

له في سفره مآرب أخرى ، أذ احب التعرف الى الحضارة التي طالما احبها وسمع عنها في مواطنها وعند أهلها •

شكل بعثة كبيرة تضم كبار مساعديه لتسافر الى دول أوروبا الكبيرة وانضم هو اليها بصورة متخفية لأنه أحب ان يدرس دقائق الحياة الأوروبية بعيدا عن القيود الرسمية والبروتوكول • وقد أثارت رحلته هذه مقاومة عنيفة من جانب القوى المحافظة في روسيا لأنه كان بذلك اول قيصر روسي يغادر تراب الوطن • دامت غربته سنة ونصف السنة زار فيها المانيا وهولندا وأنكلترا والنمسا • حاول أثناء أقامته في الغرب أن يتفهم أساليب الحضارة الغربية ونظمها وأن يكتشف مصادر قوة امم غرب أوروبا ومنبع ثرواتها • زار المصانع والمعامل والمطابع وتعرف الى العمال والفنيين وشارك عمال احواض السفن في هولندا وأنكلترا أعمالهم أياما طويلة حاول أن يتعرف خلالها الى اسرار المهنة مبديا حماسا كبيرا لكل ما يتصل بصناعة البحر • وقبل عودته تعاقد مع اكثر من الف خبير في مختلف الأختصاصا للعمل في بلاده •

من الناحية السياسية كان رصيد رحلته هذه سلبيا اذ لم تبد أي من الحكومات التي اتصل بها استعدادا للتورط في محاربة العثمانيين الأقوياء جدا آنذاك • ولما كان يعرف استحالة مواصلة الحرب دون حليف قوي فاوض العثمانيين ووقع معهم صلحا في سنة ١٧٠٠ ترك لروسيا قلعة آزوف مما أعتبر بمثابة موطيء قدم على البحر الأسود •

وبوصوله الى فينا عرف بأنباء الثورة التي قامت في بلاده على أيدي الحرس الوطني سترالسي Streltsi بالتعاون مع شقيقته صوفيا والفئآت المحافظة من نبلاء ورجال دين كانوا ينقمون عليه سياسته الأصلاحية وتقربه من بلدان غرب أوروبا • وكان لرجال الحرس الوطني نفوذ كبير في روسيا وقد بدأوا يخافون على سلطانهم بسبب الجيش الحديث التدريب الذي أخذ بطرس يكونه بمساعدة الخبراء الأجانب • الا أن غوردون ألأسكتلندي صديق بطرس ومعه جنود الجيش الحديث قضوا على التمرد وحفظوا الأمن والنظام وصانوا عرش البلاد قبل عودة القيصر •

ومع هذا فقد انتقم منهم عند عودته لروسيا بصورة رهيبة واعتقل مؤيديهم وأنصارهم من النبلاء والأكليروس وحل اكثر فرق الحرس الوطني وأعدم أكثر من الف شخص منهم بعد عمليات تعذيب وحشية كان يشارك فيها أحيانا بنفسه • اما زعيمة التمرد صوفيا فقد أمر بسجنها مدى الحياة في دير صغير • ولما كان الحرس الوطني بما له من تنظيمات قديمة ونفوذ واسع يعود الى أيام أيفان الرابع ، يشكل دعامة الرجعية وسند كل القوى التقليدية والمعارضة لصبغ روسيا بالصبغة الاوروبية ، فقد هدف بطرس من تصفيته الى أطلاق يده في سياسته الأصلاحية • يضاف الى ذلك ان هذا الحرس بما اعتاد ممارسته من نفوذ في الحياة السياسية كان يشكل بقاؤه عقبة على طريق الملكية المطلقة •

بعد عودة بطرس من الغرب أحدث تغييرا واسعا في سياسته التوسعية وعزم على الأتجاه نحو البلطيق ليفتح نافذة تطل منها روسيا على العالم المتحضر • وكانت دولة السويد تسيطر آنذاك على سواحل فنلندة واستونيا وليفونيا وأنغريا والجزء الأكبر من بوميرانيا مما يقيم سدا بين روسيا ومياه هذا البحر • وما كانت هذه الأراضي أصلا سويدية وأنما صارت كذلك بالغزو والفتح مما كان يجعل الدول المجاورة الأخرى تحقد على السويد •

لم يجد بطرس كبير عناء في التحالف مع بولونيا والتفاهم مع ملكها الذي زاره اثناء زيارته للغرب بسبب عداء الفريقين للسويد ولحاجة الملك البولوني لأموال بطرس الوفيرة والتي ما ضن بها عليه• ومما سهل التفاهم بين الدولتين أن قوة بولونيا ، عدوة روسيا القديمة ، كانت في تراجع وأنها ما عادت تستطيع ان تكون عدوة خطرة لروسيا ومنافسة لها • وكذلك تحالف مع الدانمرك •

بدأت الحرب سنة ١٧٠٠ بين التحالف الثلاثي والسويد • أظهر ملك السويد الشاب شارل الثاني عشر ، الحديث العهد بالملك ، براعة فائقة في فنون الحرب وهاجم الدانمركيين في بلادهم في آب (أغسطس)

وهزمهم وأجبرهم على توقيع الصلح • كذلك أجبر البولونيين على فك حصارهم لمرفأ ريغا الهام والتراجع • بعدها ذهب على رأس جيش حسن التدريب يضم ثمانية آلاف جندي لمواجهة جيش بطرس الأكبر المؤلف من أربعين الف جندي والذي كان قد القى الحصار على قلعة نارفا Narva الحصينة على خليج فنلندة • في يوم شديد العواصف والأنواء من أيام تشرين ثاني (نوفمبر) أنزل السويديون هزيمة ساحقة بأخصامهم وفر القيصر الروسي ليستعد للدفاع عن عاصمته •

بعد ذلك أرتكب الملك السويدي حماقة قاتلة اذ اندفع وراء أحقاده الشديدة على البولونيين فلم يلاحق الروس المهزومين داخل بلادهم وانما قرر متابعة الحرب في بولونيا • كانت حرب السويديين في بولونيا طويلة وشاقة ومدمرة دامت حتى سنة ١٧٠٧ فأعطت بطرس الأكبر فرصة نادرة لأعادة تنظيم جيشه على الطراز الغربي • ثم أن انشغال السويديين في حربهم سمح للروس بمهاجمة سواحل البلطيق مجددا واحتلال قسم منها •

سنة ١٧٠٨ تفرغ الملك السويدي لحرب الروسيا وعزم على ضربها في عقر دارها واحتلال عاصمتها • أخذت جيوشه تتقدم في الأراضي الروسية بينما الروس ينسحبون امامها • وكان السويديون يأملون بالحصول على دعم من الداخل من قبل عناصر القوزاق الذين كانوا آنذاك في ثورة على بطرس ، الا أن القيصر حال دون وصول أي مدد لأعدائه الآتين من الخارج مما أضعف موقفهم • كان شتاء ١٧٠٨ — ١٧٠٩ على درجة غير عادية من الشدة والقساوة أفقدت مع الأمراض جيش السويد نصف رجاله • يضاف الى ذلك ان جهل السويديين بطبيعة الأرض في داخل روسيا وعدم استعدادهم للبرد الشديد زاد في صعوبة وضعهم • وفي معركة بولتافا Poltava التي جرت في صيف سنة ١٧٠٩ بين الفريقين حلت بالسويديين هزيمة ساحقة قتل فيها جل جنودهم

واستسلم الباقون • أما ملكهم شارل الثاني عشر فقد فر الى تركيا حيث حل في ضيافة السلطان العثماني •

وتعتبر هذه المعركة نقطة تحول فاصلة في تاريخ السويد اذ أفقدتها نهائيا الزعامة في شمال أوروبا وحولتها الى دولة صغيرة • يضاف الى ذلك أنها أعادت الروح الى التحالف الثلاثي والذي انضمت اليه سنة ١٧١٤ بروسيا والهانوفر • وفوق هذا وذاك أطلقت يد بطرس الأكبر في التوسع في فنلندة وعلى سواحل البلطيق •

وهناك في تركيا أخذ الملك السويدي يحرض السلطان العثماني على محاربة الروسيا • ولما كان السلطان يتخوف من نمو القوة الروسية ويريد استعادة قلعة آزوف فقد التقت مصالحه مع مصالح السويد وأعلن الحرب سنة ١٧١١ على روسيا • وقد كاد القيصر الروسي أن يقضى عليه بعد أن طوق على أحد روافد نهر الدانوب لولا أنه عمد لرشوة القائد التركي ومعاونيه بالمال الوفير كما قبل بالتنازل عن قلعة آزوف للعثمانيين • بعد ذلك بقي شارل الثاني عشر في ضيافة العثمانيين الذين تسبب لهم بكثير من المشاكل حتى سنة ١٧١٤ •

بعد أن تصالح بطرس مع العثمانيين عاود عمليات الغزو والتوسع على سواحل البلطيق كما أطلقت يد حلفائه الآخرين الدانمرك وبولونيا وبروسيا في ممتلكات السويد الالمانية • ولما عاد الملك السويدي الى بلاده وجد الأوضاع على درجة كبيرة من التدهور والاضطراب وفشلت كل محاولاته لاستعادة أراضيه على سواحل البلطيق • وعلى هذا سعى للحصول على السلام غير أنه توفي بصورة مفاجئة سنة ١٧١٨ • خلفته على العرش شقيقته أولريكا التي تابعت مسعاه في سبيل التفاهم مع الروس • وفي سنة ١٧٢١ عقدت بين السويد والروسيا معاهدة نايشتات Nystadt التي أعطت سواحل البلطيق الشرقي ، عدا فنلندة لروسيا ، مما أعطى الروس السواحل الدافئة التي طالما حلموا بها وسعوا للوصول اليها منذ أيام ايفان الرابع الرهيب كما أكد نفوذهم وتفوقهم

في شرق أوروبا • وكانت السويد قبل ذلك قد أنهت في سنتي ١٧١٩ و ١٧٢٠ خلافاتها مع كل من الدانمرك وبروسيا وبولونيا حول السيادة على سواحل بحر البلطيق •

اصلاحات بطرس الداخلية :

حين ارتقى بطرس عرش الروسيا كانت البلاد على درجة كبيرة من التخلف ، فالزراعة فيها بدائية ووسائل المواصلات شبه معدومة والصناعة تكاد تكون غير موجودة • والمصدر الهام للثروة في تلك البلاد العظيمة الاتساع كان يكمن في استثمار أخشاب الغابات والحصول على الفراء الثمينة التي تباع للخارج وفي تربية المواشي • اما نظم الدولة العسكرية والسياسية والادارية فهي على درجة لا توصف من التخلف والرجعية •

هذا الواقع السيء ما حال بين بطرس وبين رغبته في جعل بلاده دولة كبيرة حديثة ومتحضرة مثل فرنسا وانكلترا وهولندا وهذه كلها أقل مساحة وثروة وسكانا من الروسيا • كان بطرس في رغبته هذه مدفوعا بحب عميق لبلاده وباعجاب عظيم بحضارة اوروبا الغربية وثقافتها المتطورة • وقد زاد اعجابه بحضارة الغرب بعد ان زارها لأول مرة بعد انتصاره على العثمانيين وصمم على ضرورة قلب أوضاع الروسيا وجعلها تأخذ بأساليب هذه الحضارة كوسيلة لا بد منها للخروج من حالة التخلف •

وانطلاقا من هذه القناعة بدأ فور عودته الى بلاده بتنفيذ سلسلة من الاعمال الاصلاحية تهدف لتغيير جميع أوجه الحياة الروسية امتدت حتى نهاية عهده • كان يشرف بنفسه على أدق التفاصيل في مشاريعه ليتأكد من أن كل شيء يجري بحيث يقرب بلاده من الحضارة الحديثة •

بعد هزيمته الأولى في حربه مع السويد بدأ يعيد النظر في جميع نظم جيشه وتقاليده • الغى الجيش الروسي ذا التنظيم القديم والذي كان ضباطه وجنوده من الفلاحين أو ملاكي الأرض الذين كانت لهم

خبرة في شؤون الارض والزراعة اكثر من خبرتهم في الحرب والقتال • اعاد تأسيس جيش روسيا الجديد على اسس حديثة تقوم على المساواة بين المواطنين جميعا في الوصول الى الوظائف العسكرية وفي الخضوع للجندية الالزامية مزيلا بذلك احتكار النبلاء للوظائف العليا • واستقدم الضباط والمدربين لهذا الجيش من الخارج وجهزه بما يلزم من الثكنات والملابس والاعتدة • وقبل وفاة بطرس كان قد بات تحت أمرته جيش حديث التنظيم عظيم الخبرة يزيد تعداد أفراده عن ماية الف جندي كلهم في خدمة القيصر وعرشه •

وكان الى جانب اهتمامه بالجيش يعمل على تكوين اسطول حديث لروسيا يكون أداة اتصالها بالعالم الخارجي • وفي أيامه بات لروسيا اسطول قوي يضم ثمانية واربعين مركبا من عابرات المحيطات وحوالي ثمانماية قطعة بحرية صغيرة • وكان عليه ان يهتم بصورة مستمرة بتكوين اسطوله وادارته ليتغلب على جهل الروس بفنون بناء السفن وقيادتها وخوفهم القديم من ركوب البحر • ولذا فرض أقسى العقوبات والتي تصل حد الموت لمن يتخلفون عن الخدمة في الاسطول كما في الجيش أو الذين يفرون أثناء المعارك أو الذين يتمارضون •

ولو أن قياصرة الروسيا كانوا يحكمون بلادهم حكما استبداديا مطلقا لا تحده الا القوانين السماوية الا أن بطرس الأكبر تأثر بما شاهده من مظاهر الحكم المطلق في أوروبا الغربية القائم على مركزية شديدة في الحكم والمرتكز الى ادارة حسنة التنظيم • ولذا الغى مجلس النبلاء والأعيان الذي يضم كبار الاقطاعيين والذي يمثل قوة سياسية تقليدية واستبدله بمجلس للشيوخ يتألف من عشرين عضوا من الوزراء وكبار الموظفين يتولى الاهتمام بالشؤون العامة ويقوم بادارة شؤون البلاد في غياب القيصر • وقد أبعد هذا التصرف النبلاء عن موقع التأثير في الحياة السياسية وأوجد مكانهم طبقة جديدة تدين بوجودها ونفوذها للقيصر • ومنذ سنة ١٧٢٢ صار يرأس هذا المجلس مدع عام يرتبط بالقيصر

مباشرة • وقد كلف المجلس المذكور بالاشراف على الادارة الحكومية التي أعيد تنظيمها على النمط السويدي • وقد قسمت البلاد الى احدى عشرة وحدة ادارية تشرف على ادارتها الاقليمية حكومات محليـة • ويتولى مفتشون ومندوبون من قبل القيصر التأكد بصورة دائمة من أن الأعمال فيها تجري وفق سياسة الدولة وارادتها •

ولعل أهم ما في التنظيم الاداري الجديد أنه قضى على احتكـار النبلاء للوظائف العليا في الادارة وجعل الكفاءة والعلم وحدهما طريقـا اليها • وبات بامكان كل مواطن أن يصل الى أعلى الوظائف والتي يصبح شاغلوها حكما من النبلاء والوجهاء مهما كانت أصولهم •

ولما كانت كنيسة روسيا الارثوذكسية بما لها من نفوذ وثروة قد وقفت موقف العداء من سياسة الاخذ بمظاهر الحضارة الغربية وصارت حصن المحافظين على التقاليد القديمة فقد استغل بطرس الأكبر وفـاة البطريرك سنة ١٧٠٠ وأبقى كرسيه شاغرا حتى سنة ١٧٢١ حين الغى المنصب أصلا وأوكل صلاحياته لمجمع مقدس يرأسه علماني يعينه القيصر• وبذا صار القيصر الرئيس الفعلي للكنيسة الارثوذكسية وباتت هـذه شديدة الارتباط بالدولة ملتزمة بسياستها •

ولما كان بطرس رجل عمل وانتاج فأنه ما فهم كثيرا حياة الزهـد والانقطاع عن الدنيـا فخفض من عـدد الأديرة والرهبان وصادر مـا احتاج اليه من ممتلكات الكنيسة الوافرة كما حول بعض الأديرة والأبنية الأسقفية لمستشفيات ومآوي للعجزة والمشوهين •

لقد اعتقد بطرس أنه لمزيد من السرعـة في تحويل بلاده نحـو الحضارة الغربية لا بد من بناء عاصمة جديدة لروسيا تكون أقرب الى بلدان الغرب وأقل ارتباطا وتأثرا بالتقاليد الروسية القديمة وبالقـوى الرجعية والمحافظة فيها في موسكو • علـى جزيرة صغـيرة عند مصب نهـر نيفا Neva وعند شاطيء سيء المناخ كثير المستنقعات شرع في سنة ١٧٠٣ يبني قلعة حصينة وترسانـة لصناعة السفن جعلهما نـواة

للعاصمة الجديدة • استقدم الآلاف من الفلاحين والعمال وكذلك أسرى حروبه وأوكل اليهم العمل في بناء عاصمته التي أسماها سان بطرسبرج • ولاعمار مدينته الجديدة بالناس نقل حكومته اليها سنة ١٧١٢ وأجبر النبلاء والأعيان على بناء قصور ومنازل لهم فيها • وقد جاءت بعد انتهاء العمل فيها آية في البهاء والفخامة بأبنيتها الحجرية الكبيرة وشوارعها العريضة واقنيتها المائية الهولندية الطراز • وعند وفاة بطرس كانت عاصمته الجديدة تضم أكثر من ماية وخمسين الف مواطن وتستقطب القسم الأكبر من تجارة روسيا الخارجية •

ولما كانت اصلاحات بطرس وسياسته التوسعية وكذلك مصاريف الجيش والاسطول تحتاج للكثير من المال فقد عمل على تبني المذهب التجاري الحر (المركنتيلي) كما كان سائدا في فرنسا فركز على ضرورة جعل روسيا تصدر الكثير من البضائع لتحصل على الوافر من المال • ولا يكون هذا الا بالعمل على تنمية عناصر الانتاج وزيادة مداخيل المواطنين لجعلهم أكثر قدرة على دفع الضرائب المتزايدة في النوع والمردود •

لأنماء الصناعة بسرعة كبيرة استدعى بأغلى الاجور الاختصاصيين من الغرب لانشاء المصانع وتدريب العمال • وكان يساعد المصانع الناشئة ويساهم أحيانا في رساميلها • ولم يتردد في حالات كثير في انشاء مصانع وتسليمها بعد نجاحها للقطاع الخاص • وارتفعت مصانع الحديد والصلب على ضفاف بحيرة أونيغا وفي بلاد الأورال وصارت مصانع تولا التي أقامها صناعي هولندي وحدها قادرة على سد حاجات الجيش والاسطول • وقد بذل جهدا وافرا في مجال استثمار معادن البلاد الوفيرة من حديد وذهب ونحاس • وكذلك قامت وازدهرت مصانع النسيج والجلود والأدوات المعدنية والأسلحة وترسانات بناء السفن • ولم يتردد في تشجيعه للعاملين في قطاع الصناعة في رفع الرسوم الجمركية لحماية منتوجاتها من المنافسة • وأيضا أعفى إبناء البورجوازية الصناعية من الخدمة العسكرية • ولتأمين اليد العاملة لقطاع الصناعة بتكاليف زهيدة

سمح بنقل نظام القن الذي هو في الأساس ملازم للمجتمع الزراعي الى المصانع • لقد صار هناك في المدن الروسية أقنان المصانع بعد أن سمح بطرس بنقل الأقنان بالقوة من المزارع الى المصانع كما سمح ببيعهم دون الأرض للصناعيين مما حولهم الى نوع من الرقيق مما زاد في تعاسة العاملين في الأرض في روسيا على تعاستهم والقى بعبء قيام الصناعة الجديدة على اكتافهم • وكثيرا ما كان ملاكون زراعيون يرسلون أقنانهم للعمل في المصانع مقابل أجور يتسلموها هم •

أما فئة التجار فقد حصلت على رعاية عظيمة من الدولة زمن القيصر بطرس لأنه أراد أن يجعل هؤلاء قادرين على تصريف انتاج البلاد للخارج واستيراد ما تحتاجه دون واسطة التجار الأجانب الذين طالما احتكروا صلات روسيا التجارية بالعالم الخارجي • وعمل على تعزيز التجارة مع بلاد الصين وسيبريا وطبعا مع بلدان غرب أوروبا • وتعاطى هو نفسه الأعمال التجارية واحتكر بعض السلع الأساسية كالملح والقطران والبوتاس وحرير فارس • وسعى بصورة خاصة لتأسيس شركات تجارية كبيرة على النمط الغربي الا أنه ما أصاب هنا نجاحا وافرا لجهل الروس بأساليب التجارة الدولية الكثيرة التعقيد •

ولم تفته امور الزراعة فعمل على استبدال الأدوات الزراعية البدائية المستعملة في أرياف روسيا بأخرى أحدث وأكثر فعالية • كما عمل على اقناع رعاة بلاده بتربية أصناف جديدة من الخرفان أغزر انتاجا وأحسن صوفا من التي اعتادوا تربيتها •

ولتعزيز الانتاج وزيادة الاتصال بين مناطق البلاد عمل على بناء الجسور وشق الطرق • وكانت أهم مشاريعه في هذا المجال تلك القناة المائية التي بناها لتقصير المسافة وتسهيل نقل البضائع بين عاصمته الجديدة بطرسبرج ومدينة نوفغورود المركز التجاري الهام •

واذا كان بطرس الاكبر قد ركز بدرجة قوية على القضايا الاصلاحية الاساسية من تطوير الادارة وتحديث الجيش وتنمية موارد البلاد

الاقتصادية فانه ما أهمل ضرورة تغيير مظاهر الحياة • فهو عند استقباله للنبلاء وكبار الموظفين بعد عودته من رحلته الأولى الى بلدان غرب أوروبا قام بنفسه بقص ذقون مستقبليه بادئا بذلك حملة للتخلص من هذه العادة القديمة • وكذلك دعى لاستبدال الملابس الروسية الواسعة بأخرى ضيقة على النمط الغربي تجعل لابسها أكثر مرونة وأقدر على العمل والحركة • ومع أن تدابيره هذه لقيت معارضة شديدة من الأوساط المحافظة الا أنه ما سمح بتربية الذقون الا لقاء ضرائب عالية تغذي خزانة الدولة •

قضى على نظام الحريم في روسيا وحرر المرأة الروسية من قيـود العزلة ودعاها لدخـول ميدان العمـل والاختلاط وشرع هو يقيـم الاجتماعات والحفلات المختلطة في قصره ليقلده الآخرون • وأيضا فرض سنا محددة للزواج ومنع زواج العروسين بغير رضاهما •

وفي مجال التعليم ، فرض اجبارية التعليم على أبناء النبلاء وشجعهم على الذهاب الى جامعات اوروبا الكبيرة لاكمال تحصيلهم كما أصلح الأبجدية الروسية وحذف منها ثمانية حروف لا فائدة منها • وأعطى روسيا التقويم الغربي الحديث بعد أن كانت السنة فيها تبدأ في ايلول (سبتمبر) وتحسب من بدء الخليقـة •

أصلاحات بطرس الأكبر وخاصة الاجتماعيـة والسياسية منهـا أثارت موجات عنيفة وعاصفة من المعارضة خصوصا من تلك الفئـات المحافظة من نبلاء ورجال دين أحبوا الماضي وتعلقوا به وآمنوا بنظمـه وتقاليده • وأيضا من أولئك الذين تضررت مصالحهم وضعف نفوذهم بسبب ما أوجده من تغييرات • ومـع أن هؤلاء ما تركـوا وسيلة الا واتبعوها لعرقلة مسيرة خططه الاصلاحية فتمردوا وتآمروا وثاروا أكثر من مرة • الا أنه ما وقف أمام معارضة ولا هادن ثورة أو تمردا ولا تراجع عن عمل اصلاحي وقد وصل في تصديه لهذه القوى المعارضة الى حـد اعدام ابنه وولي عهده الكسي حين أعلن معارضته لخطط أبيه وعزمه على القضاء عليها حال استلام العرش كما سمح للقوى المناوئة لبطرس الأكبر بأن تتحصن وراءه •

وأيضا وجهت لأصلاحاته انتقادات أخرى حيادية المصدر علمية المنهج • لقد اتهم بطرس الأكبر بأنه أرهق شعبه بدرجة لا توصف بالضرائب اللازمة لتنفيذ مشاريعه كما أنه أرهق الفلاحين بكثرة العمل وزاد من انتشار نظام القنية (رقيق الأرض) كما زاد من التصاق القن بالأرض التي يفلحها ونزع منه بعض القليل الذي كان ما يزال له من حرية وكرامة • والأسوأ من ذلك انه نقل نظام القنية الى الصناعة فعمرت المدن بالأقنان وشاعت فيها مظاهر البؤس والتعاسة • • وما كان هذا كله ليثير عواطف بطرس الأكبر لأنه أحب روسيا فوق كل شيء واعتبر نفسه ملزما بمراعاة الصالح العام ومصلحة الدولة العليا دون الاهتمام بما اعتبره هو ضمنيا من الجزئيات • فالمهم سعادة روسيا وعظمتها أما سعادة الروس كأفراد وبشر فتأتي في مرتبة ثانوية • ثم ان الصناعة أتت أقل نجاحا وأضعف مردودا مما أراد وخطط لها • وكذلك شركاته التجارية التي أرادها منافسة لمثيلاتها من انكليزية وهولندية ظلت دون ما يتمنى ويريد أن لم نقل أنها فشلت •

الا أن من المؤكد أن اصلاحاته كانت في مجملها عظيمة المردود وأنه في خلال فترة قصيرة من الزمن سار بروسيا خطوات جبارة في طريق التقدم الحضاري والقوة العسكرية والنفوذ السياسي في أوروبا • وقد ظهر هذا جليا في ما أظهره نحوه ملوك أوروبا وعظماؤها حين زارهم للمرة الثانية سنة ١٧١٧ ، من تقدير واحترام •

ومما لا شك فيه أنه هو الذي أعطى البلاد الروسية الأسس الثلاثة للدولة القومية الحديثة : الجيش القوي والاقتصاد المتطور والادارة المدنية الحسنة التنظيم مما أخرجها من عالم العصور الوسطى وأدخلها مرحلة العصور الحديثة • يضاف الى ذلك أنه فتح بصورة نهائية أبواب بلاده امام الحضارة الغربية مما جعلها تدخل بسرعة نظام أوروبا السياسي وتصبح أحدى دول القارة الكبيرة الفتية وهو الأمر الذي استحق عليه تقدير بلاده وحب شعبه مما جعل مجلس الشيوخ الروسي يعطيه في حياته لقب « بطرس الأكبر » •

ملكية آل ستيوارت
في
بريطانيـــا

مع مطالع القرن السابع‌عشر صار عرش‌الانكليز لعائلة ستيوارت‌التي قدر لها أن تظل قيمة على شؤون أنكلترا طيلة القرن المذكور الذي جاء حافلا بالأحداث الجسام والمنجزات العظيمة • فبعد وفاة الملكة أليزابيت خلفها ابن اختها جيمس ستيوارت ملك اسكوتلندا في سنة ١٦٠٣ الذي صار في نفس الوقت ملك الأنكليز تحت أسم جيمس‌الأول • وبذا أجتمعت بلاد اسكوتلندا مع أنكلترا تحت عرش واحد وكذلك دانت له بعد وفترة وجيزة دولة أيرلندا بالطاعة والولاء •

كانت آنذاك بلاد الأنكليز تجتاز مرحلة تحول هامة على الصعيد الأقتصادي • فالسير في طريق تطوير أقتصاديات البلاد الذي بدأ في ظل الملكة اليزابيت في النصف الثاني من القرن السادس عشر كان ما يزال مستمرا وبخطى حثيثة كما أن بعض ثماره كانت قد بدأت تظهر مؤثرة وفاعلة في حياة الأنكليز • لقد صارت التجارة والملاحة وكذلك الصناعة تلعب دورا متزايد التأثير في‌حياةالبلاد كمصدر للثروة والانتاج•فالاسطول البريطاني وأن كان ما يزال ناشئا الا أنه كان يسرع الخطى ليصبح قادرا على تلبية حاجات الملاحة الأنكليزية كاملة في مجال الأستيراد والتصدير • وتجارة البلاد نشطت بحيث باتت لندن مركزا هاما للمال وتبادل السلع لا يفوقه أهمية في المنقطة الا مرفأ أمستردام العظيم • وبات الأنكليز يعزفون بصورة متزايدة عن تصدير أصوافهم مفضلين تصنيعها في بلادهم معتمدين على من هاجر ويهاجر اليهم من الفلمنكيين العريقين في هذه الصناعة • بل أكثر من هذا ما لبث القطن ان ظهر في الأقسام الغربية من البلاد مما ساعد المغازل والمصانع المتزايدة على انتاج أغزر وأكثر تنوعا •

وفي نفس الوقت كانت صناعةالتعدين واستخراج الفحم قد باتت قادرةعلى تأمين اللازم من المعادن وأيضا من الطاقة لصناعة فيطور النشوء والتقدم •

وكان بعض التجار والأثرياء من أوائل المتعاملين مع الهند وبلاد ما وراء البحار رواد هذه النهضة والمستفيدين منها وجلهم كانوا من سكان المدن • وعلى هذا كانت في مطلع القرن السابع عشر في المدن الأنكليزية ، بورجوازية تستمد أسباب قوتها من التجارة والصناعة كما أنتشر التعليم بين أبنائها بنسبة تزايد ثروتها • وكذلك ما تردد بعض ملاكي الأرض في التجاوب مع رياح التقدم فطوروا أساليب استثمار زراعتهم وشاركوا في حياة البلاد العامة عن طريق الأدارة والقضاء وأعطوا أولادهم بعض أسباب العلم •

هذه التطورات أوجدت في بلاد الأنكليز في مطلع القرن السابع عشر في المدن كما بين ملاكي الأرض تجمعات سكانية على درجة لا بأس بها من التعليم والثقافة شديدة الوعي لمصالحها كثيرة الحرص على التمسك بما صارت تعتبره حقوقا اكتسبتها بالجهد والعمل • وكثيرون من هؤلاء كانوا قد أعتادوا الجلوس في مجلس العموم من أيام الملكة اليزابيت ومارسوا نفوذا واضحا كما أعتادوا المحافظة بحرص على ما ورثه الشعب البريطاني من حقوق سياسية تعود الى أيام الماكناكرتا الصادرة سنة ١٢١٥ • وعند مجيء آل ستيوارث الى الحكم في انكلترا وجدوا في هذه البلاد رأيا عاما شديد الوعي لهذه الحقوق التي كونتها العادات والأعراف الدستورية والتقاليد •

كان الملك الجديد جيمس الأول غريبا عن هذه العقلية • لقد كان كأسلافه من آل ستيوارت شديد الايمان بحق الملوك الالهي في السلطان • لقد كان يقول بأنه مادام الله هو الذي يعطي الناس ملوكهم فمن هؤلاء وحدهم تستمد القوانين • لم يكن جيمس الثاني في مجال الملكية المطلقة ملكا عاديا وأنما كان داعية للفكرة ومنظرا لها كما وضع كتابا فلسف فيه أفكاره السياسية ودعا لقيام ملكية مسؤولة أمام الله وحده يكون فيها الملك بمثابة الأب الرحوم ، المدبر بمحبة لشؤون رعيته ، وانما يبقى في

كل الحالات متحررا من كل رقابة أرضية وخاصة رقابة مجلس العمـــوم وسائر المجالس التمثيلية • لقد كان الملك الأنكليزي الجديد في أفكـاره يجاري العصر في أوروبا ويسير في الدرب التي كانت تسلكها الملكية في فرنسا وأسبانيا والأمبراطورية •

كان من الطبيعي أن لا يرحب الأنكليز بآراء ملكهم خاصة وأنها كانت تتعارض مع القانون العام الأنكليزي ، حصيلة أجيال طويلة مـن النضال والصراع مع العرش والملوك • والواقع أن جيمس الأول ما لبث في سنوات حكمه الاولى أن تكاثر الصدام بينه وبين مجلس العموم والفئآت الواعية من السكان • برز الخلاف الأول حول القضايا المالية • فواردات العرش البريطاني من املاكه ومن بعض الضرائب كانت محدودة وقليلة ولا يمكن فرض ضرائب جديدة وجبايتها الا بموافقة مجلس العموم الذي كـــان شديد الحرص في أقراره لما كان يطلبه الملك من موارد مالية أضافية • وفي الوقت الذي أصر فيه مجلس العموم على قدسية قوانين البلاد وعلى حقه وحده في تشريع القوانين وتعديلها ما كان ملك الأنكليز يستطيع بما يؤمن به من أفكار وآراء أن يسلم بحق رعاياه أيا كانت سلطتهم ورتبتهم في التصدي لأرادته وأوامره •

ولعدم مواجهة البرلمان الأنكليزي ــ وكان يتألف مـــــن مجلس اللوردات الذي يضم نبلاء عينهم الملك لمدى الحياة ، ومن مجلس العموم الذي يجري انتقاء اعضائه بالانتخاب ــ درج الملك على عادة الاقـلال من دعوته للأجتماع ما أمكن ذلك • وكثيرا ما لجأ للحصول على المال الى القروض والمساعدات الخارجية وتخفيض نفقات البلاط بدلا مـن طلـب أعتمادات مالية من مجلس للعموم غير مستعد للتنازل عن سلطاته أو للسكوت عن تجاوزات وممارسات يعتبرها مخالفة للتقاليد والأعراف الوطنية •

وأيضا ما كان جيمس الأول متفقا مع رعاياه وأتباعه كلهم حول الأمور الدينية • فالكاثوليك وكان عددهم قد تكاثر في أنكلترا بعد نجاح الأصلاح الكاثوليكي بنشاط الآباء اليسوعيين ، نقموا عليه ولائه الشديد للكنيسة الأنكليكانية والسماح لأساقفتها بالعمل على تحقيق وحدة البلاد الدينية •

وكذلك كان البيوريتانيون ، الكثيرو العدد،خاصةفيأوساط البورجوازية وصغار ملاكي الأرض وكذلك في مجلس العموم يرفضون تشدد الملك في قضايا العقيدة وتأييده القوي لآراء الكنيسة الأنكليكانية • كانوا يأخذون على هذه الكنيسة ميلها المتزايـد للأخـذ بعض الطقـوس والممارسات الكاثوليكية بينما هم اصلا يطالبون بتطهيرها من كل طقس ومظهر كاثوليكي وعلى هذا صار الكاثوليك والبيوريتانيون على الصعيد الديني في موقف المعارض من العرش الأنكليزي في وقت كان يصعب التمييز والفصل فيه بين الدين والسياسة •

وعلى صعيد السياسة الخارجية نهج طريقا زاد في بعد جماهير الأنكليز عنه وعن سياسته • فقد صالح حكومة أسبانيا الشديدة الكاثوليكية في سنة ١٦٠٤ وسعى طيلة أيام حكمه لتنمية الصداقة الأنكليزية الأسبانيـة متجاهلا العداء الذي طالما أعلنه الانكليز لهذه الأمـة والذي بلغ حدا كبيرا بعد اكتشاف مؤآمرة دبرها عملاء الاسبان سنة ١٦٠٥ لنسف البرلمان في لندن والأستيلاء على الحكم وأعادة الكاثوليكية بعد ذلك • وزاد غضب الأنكليز على سياسة جيمس الأول الخارجية ، أثـر محاولاتـه الكثيرة لتزويج ولي عهده من أميرة اسبانية •

وأيضا أنضم العقلاء والواعون من رعاياه الى معارضيه بسبب تماديه في الاعتماد في حكمه على مجموعة من المقربين على رأسهم مغامر وصولي أسمه بوكينغهام ، شاع بينهم الفساد والأستهتار وأنتشرت الرشوة وعـم العجز عن القيام بأصلاحات فعلية كانت تفرضها الأوضاع المستجدة فـي البلاد نتيجة للنمو المتزايد للتجارة والصناعة •

وعندما تفاقم الخلاف بين مجلس العموم والملك وعجز هذا عن فرض ما يريده على أعضائه كما صعب عليه ضبط بعض عناصره الناشطة في معارضة حكمه المطلق لجأ الى حل البرلمان وتعطيله من سنة ١٦١٤ حتى سنة ١٦٢١ حين أجرى أنتخابات جديدة ما أسفرت عن تخفيف حدة الخلاف مع العرش • على انه لا بد من الأشارة الى أنه بالرغم مما كان لجيمس الأول من مساوىء فأنه عرف دوما كيف يتفادى الانفجار ويتراجع عـن

المواقف المتصلبة عند الضرورة • وهو ما تردد في سنة ١٦٢٥ ، امـام ضغط المعارضة ، في التخلي عن سياسة التقارب مع اسبانيا واعلان الحرب عليها • وقد مات في هذه السنـة مخلفا لابنـه وخليفته شـارل الأول (١٦٢٥ ـــ ١٦٤٩) عرش لندن ومعه ما لا ينضب من الأزمـات السياسية والدينية والخلافات مع البرلمان • وترك له أيضا حربا معلنة على الاسبان •

شارل الاول :

كان شارل الأول شديد التمسك كأبيه بحـق الملوك الآلهـي في السلطان شجاعا في المجاهرة بأفكاره لا يتوانى عن أمر ، ولو كان غـير أخلاقي ، في السعي لتأكيد سلطانه المطلق على الأمة • كانت تنقصه مرونة أبيه وقدرته على التراجع وقت الأزمات • ولأنه ما كان راغبا في التنازل ولو قيد أنملة عما كان يعتبره حقا لـه ولعرش أعطتـه له السماء فقد تدهورت بسرعة العلاقات بينه وبين البرلمان خاصة بعد أن استمال اليـه النبلاء الانكليز واستند الى دعمهم القوي • وقد فعل هذا ليتفادى العزلة التي عرفها والده في السنوات الأخيرة من حكمه •

واعتمد أيضا على مساعد أبيه بوكينغهام فأوسع له في السلطـان والنفوذ • حاول شارل الأول أن يدشن عهده ، بناء لنصيحة بوكينغهام ، بانتصارات خارجية ترفع من مكانته وترهب معارضيه فأرسل حملـة بحرية على مرفأ قادش الاسباني غير أنها فشلت وكذلك فشلت محاولـة الاسطول الانكليزي مساعدة الهيفونوت الفرنسيين المحاصرين في لاروشيل سنة ١٦٢٧

هذه الممارسات أرهقت مالية الملك فصار عليه الحصول على المال بـأي شكل • طلب من مجلس العموم اقرار السماح له بجباية ضرائب جديدة فواجهه زعماء المعارضة بسلسلة من المطالب تحت اسم « عريضة الحقوق » Petition of rights • وتعرف هذه الوثيقة بأنها واحدة من أهم الدعائم التي تقوم عليها الديموقراطية والحياة الدستورية في بريطانيا • وأبرز

ما في هذه الوثيقة أنها تمنع جباية الضرائب والقروض دون موافقة البرلمان وكذلك لا تسمح باعتقال المواطنين أو سجنهم الا وفق القوانين السائدة في البلاد • بعد طول تردد وافق شارل الأول سنة ١٦٢٨ على هذه الوثيقة مما اعتبر مكسبا للانسان وللحرية في كل عصر ومكان •

الا أن هذه الخطوة ما كانت سوى هدنة قصيرة في الصراع على السيادة بين الملك والبرلمان الذي بدأ زعماؤه يظهرون حقدا كبيرا على بوكينغهام الذي اعتبروه مسؤولا عن كثير من تصرفات الملك • وعندما اغتيل في سنة ١٦٢٨ اعتبر الانكليز ذلك انجازا عظيما مما أساء كثيرا للملك •

والواقع أن شارل الأول خلال ما مر من سنوات حكمه ما استطاع أن يفهم حقيقة ما يجري في البلاد • فهو في ايمانه الشديد بالملكية المطلقة ذهب الى حد عدم القدرة على الرؤية الواضحة فلم يفهم الى أي حد يتمسك الانكليز بما ورثوه من حقوق دستورية ، كذلك ما فهم أن بورجوازية المدن وكذلك صغار ملاكي الارض الذين يسيطرون معا على مجلس العموم لن يطلقوا يده بحال من الأحوال في جباية ضرائب سيكونون هم أنفسهم أول دافعيها وستتأذى منها حكما مصالحهم الاقتصادية • وكذلك ما استطاع أن يفهم الى أي حد نقم عليه البيوريتانيون لأنه فشل في مساعدة بروتستانت فرنسا وتركهم يسقطون تحت نفوذ ريشيليو • أنه حقا ما فهم الى أي حد كان هؤلاء شديدي الولاء لعقائدهم ومقدساتهم •

بعد أن يئس من اخضاع مجلس العموم عزم سنة ١٦٢٩ على أن يحكم حكما مطلقا دون برلمان • وبالفعل حل هذا المجلس وأبقى انكلترا تحت سيادته المباشرة حتى سنة ١٦٤٠ • في مغامرته هذه اعتمد بصورة خاصة على مساعدة كونت سترافورد Strafford ، حاكم ايرلندة القوي والذي أخضعها بقوة لنفوذ العرش ، وأيضا الأسقف لود Laud الذي صار في أيامه رئيس أساقفة كنتربوري • والرجلان كانا يؤمنان

بالملكية المطلقة • كان لود شديد الولاء لتقاليد الكنيسة الانكليكانية ، وضع كتابا للصلاة برزت فيه كثيرا الطقوس الكاثوليكية • وقد تسبب له هذا الكتاب حين حاول فرضه بالقوة في كل كنائس انكلترا بمعارضة شديدة خاصة في أوساط البيوريتانيين وبين سكان اسكوتلندا الكالفينيين• تشدد لود كثيرا مع معارضيه فحرم بعضهم وسجن آخرين مما خلق جوا من التعصب الديني يسيطر على الجزر الانكليزية جعل اعدادا وافرة من الانكليز يهاجرون الى اميركا ليعبدوا ربهم بحرية وحسب معتقداتهم • وقد أيد شارل الأول سياسة لود لأنه رأى في تدعيم سلطانه تقوية للملكية المطلقة •

وكذلك سعى شارل الأول لتفسير بعض القوانين المالية بشكل يسمح له بجمع مبالغ مالية كان بحاجة اليها • اذ كانت المدن الساحلية تدفع في حالات الحرب مبالغ لتسليح الاسطول • فجاء يعمم هذه الضريبة على السواحل كما على الأرياف والمدن الداخلية وجعلها دائمة • تسلح معارضو الملك بالتقليد القديم الذي يمنع جباية أية ضريبة مهما كانت ضرورتها دون موافقة البرلمان وشنوا حملة عنيفة على العرش وسياسته •

وحين أصر لود على تطبيق كتاب الصلوات الجديد في اسكوتلندة الشديدة الولاء للكنيسة الكاليفينية اتحد فيها النبلاء وصغار الملاكين ، وهؤلاء كانوا يعارضون أصلا مبدأ الملكية المطلقة ، ووضعوا ميثاقا قوميا « Convenant » رفعوه للملك سنة ١٦٣٧ بعد أن وقعوا عليه وتعهدوا فيه بالمحافظة على عقيدتهم • وأمام تشدد الاسكتلنديين باتت المواجهة العسكرية أمرا لا مفر منه • ولما كان المال عصب الحرب كما كان يقال آنذاك غير موفور فقد عزم على التراجع خطوة الى الوراء فدعا لانتخابات جديدة سنة ١٦٤٠ وعقد مجلس العموم • ويعرف هذا المجلس باسم البرلمان القصير اذ ما طالت اجتماعاته أكثر من ثلاثة أسابيع أبدى اعضاءه خلالها من مظاهر التمرد وطلب ازالة المظالم ما جعل الملك يحله •

وأمام تدهور الأوضاع في اسكوتلندةوقيامحكومة متمردة في ادنبرة حققت أكثر من انتصار عسكري على جيوش الملك أجرى انتخابات جديدة في تشرين أول (آوكتوبر) سنة ١٦٤٠ اعادت الى مجلس العموم جميع الأعضاء السابقين ، وخاصة زعماء المعارضة منهم • ويعرف هذا البرلمان في التاريخ الانكليزي باسم البرلمان الطويل لأنه ظل ينعقد مدة أحدى وعشرين سنة •

لقد جاء البرلمان الجديد على صورة القوى الفاعلة في المجتمع الانكليزي اذ كان أكثر من نصف أعضائه من المتعلمين ومن رجال القانون ، من ابناء صغار ملاكي الأرض وبورجوازية المدن • على هذا فقد جاء معبرا بالفعل عن الاتجاهات السياسية والدينية المعارضة لسياسة شارل الأول وحكمه المطلق • وقد برز في مجلس العموم هذا بصورة خاصة جون بيم John Pym ؛ من صغار الملاك ، وعبر بأخلاص وحزم عن سياسة البرلمان • لم يكن ثوريا بقدر ما كان مؤمنا بالبرلمانية الديموقراطية حريصا على التوازن بين الملك والبرلمان الممثل للارادة الشعبية • اتجهت كل المعارضة وتجمعت احقاد السنوات السابقة كلها لتنصب على شخص سترافورد مستشار الملك الذي اعتبر مسؤولا عن أوزار النظام كله وكذلك شمل هذا الكره شخص رئيس الأساقفة لود بسبب تطرفه الديني وموجة الأرهاب التي أشاعها في البلاد وأيضا لدعمه القوي لمبدأ الملكية المطلقة •

أمر البرلمان باعتقال مستشار الملك وتقديمه للمحاكمة بتهمة الخيانة وحكم عليه بالاعدام • وكذلك اعتقل لود والقي به في السجن ليعدم بعد عدة سنوات • تردد الملك كثيرا في الموافقة على اعدام مستشاره وصديقه ولكنه وافق امام اصرار البرلمان وحاجته الماسة للمال لمواجهة الحرب في اسكوتلندة • استغل زعماء مجلس العموم هذا الوضع الى حد كبير لتأكيد الديمقراطية والحصول على مكاسب للنظام البرلماني • لقد أجبر الملك على اقرار قانون يفرض دعوة البرلمان للاجتماع مرة واحدة على الأقل

كل ثلاث سنوات • كذلك تنازل عن حقه في حل البرلمان • والغيت ضريبة السفن التي أساء استعمالها شارل الأول ومعها محكمة قاعة النجمة التي أنشأت أصلا لمساعدة الملك في التسلط على الأشراف والنبلاء واستعملت بصورة خاصة زمن شارل الأول من قبل رئيس الأساقفة لود لملاحقة معارضي سياسته الدينية • وأيضا أقر مجلس العموم قانونا يفرض على الملك أن يحصل على موافقة البرلمان لتعيين مستشاريه •

هذه المقررات وكذلك سياسة مجلس العموم بصورة عامة كانت شديدة التعارض مع ما طالما آمن به شارل الأول ودافع عنه من حقوق مطلقة أعطاه اياها الله • وهو اذا كان قد وافق على بعضها وخاصة على اعدام مستشاره سترافورد فأنه فعل ذلك مكرها أمام طغيان القوى المعارضة لسياسته في مجلس العموم بحيث عجز أصدقاؤه ومؤيدوه من كبار النبلاء في مجلس اللوردات عن تقديم أية مساعدة له•

الا أنه ما كان منتظرا منه أن يتنازل بصورة مستمرة عن المزيد من نفوذه وسلطانه مما كان يخالف مبادئه وأفكاره ولذا صمم على مواجهة أخصامه بضربة مفاجئة سنة ١٦٤٢ فذهب مع بعض أتباعه الى مجلس العموم في محاولة اعتقال زعيم المعارضة بيم وأعوانه • فشلت هذه العملية وعمقت الخلاف بين الملك والنواب الذين اعتبروا تصرفه بمثابة أهانة وتحد لسلطة الشعب وممثليه •

الحرب الاهلية :

عند هذا الحد وصل الخلاف الى نقطة اللارجوع وباتت البلاد على أبواب الحرب الأهلية خاصة بعد أن أثار المعارضون مدينة لندن بوجه الملك مما اضطره للهرب الى الأرياف • وبذا باتت انكلترا فعلا على عتبة الحرب الأهلية • حيال الصراع بين الملك والبرلمان انقسم الانكليز الى فريقين احدهما تحمس لشارل الأول والثاني حمل السلاح الى جانب اخصامه • كان مؤيدو الملك اجمالا من كبار ملاكي الأرض والنبلاء ومن سكان شمال وغرب البلاد بينما تحمس سكان الجنوب والجنوب الشرقي حيث

تكثر المدن الصناعية والتجارية وينتشر التعليم لقضية البرلمان والديموقراطية • وقد اطلق على مقاتلي الملك لقب الفرسان بينما حمل المقاتلون من أخصامه اسم «الرؤوس المستديرة» بسبب طريقتهم في قص شعورهم • وكان البيوريتانيون أكثر من تحمسوا لمقاتلة الملك تعبيرا عن ارادتهم في ممارسة معتقداتهم بحرية بوجه كنيسة الدولة الانكليكانية ورغبتها في توحيد كنائس انكلترا تحت سيادتها • وفي نفس الوقت التف الكاثوليك والأنكليكان بنسبة كبيرة حول قضية الملك • هذا الانقسام الهامشي كاد يعطي الحرب طابع الصراع الديني على نحو ما حدث في أوروبا قبل ذلك •

ما كان لدى مقاتلي الفريقين استعدادات كافية للقتال ولا خبرة أصيلة في فنونه • ولذا أخذ شكل معارك صغيرة وغزوات شارك فيها النبلاء ورجال الميليشيات بدأت سنة ١٦٤٢ وتحمل اعباءها وأوزارها غالبية سكان الجزر البريطانية • استقر الملك في أوكسفورد حيث أقام حوله من مؤيديه من النواب برلمانا مقابلا لبرلمان لندن •

انضم الاسكوتلنديون لقضية البرلمان وحاربوا بعناد مع معارضي الملك • ومع أن الفريقين حققا بعض الانتصارات في ساحات القتال الا ان أحدا منهما ما توصل لحسم الموقف حتى سنة ١٦٤٤ •

وبرزت في صفوف مؤيدي البرلمان بصورة خاصة شخصية أوليفر كرومويل القوية وصار لها تأثير متزايد في توجيه الأحداث واخراجها من جمودها • كرومويل كان من طبقة صغار الملاكين قوي البنية امتاز بذكاء نادر وشخصية قوية وقلب كبير عامر بايمان لا حد له بالله وبالمثل والقيم البيوريتانية • جمع حوله نفرا من الفلاحين الأحرار والبيوريتانيين المتدينين وأقام منهم فرقة امتازت بتنظيمها الدقيق ومعنوياتها المرتفعة • وقد باتت فرقة كرومويل التي وصفت بالحديدية Ironside لشدة فعاليتها أفضل فرق الجيوش المقاتلة ومثالا في التنظيم حاول تطبيقه رجال البرلمان في كل جيوشهم • انتصر جنود البرلمان وعلى رأسهم كرومويل سنة ١٦٤٥ في معركة نايسبي Naseby على شارل الأول وقبل نهاية السنة ١٦٤٦ كانت أكثر أراضي انكلترا قد باتت تحت سيادة البرلمان مما جعل الملك يفر ويلجأ

الى الاسكوتلنديين محاولا استغلال خلافات طارئة بينهم وبين البرلمان لأسباب مالية وعسكرية • ومع أن الاسكوتلنديين استقبلوا ملكهم أفضل استقبال واكرموا ضيافته واقامته الا أنهم من جهة ثانية أبقوه شبه معتقل تحت سلطانهم قبل أن يسلموه لعمال البرلمان لقاء مبلغ من المال •

انتصار جيوش البرلمان وهرب الملك أزال السبب الذي كان يجمع أخصام شارل الأول على اختلاف مشاربهم وأبرز ما كان بينهم من تناقضات وخلافات مكبوتة • لقد ظهرت في صفوفهم فرق دينية جديدة وبرزت ميول سياسية واجتماعية جنحت في بعض الحالات نحو التطرف ووصلت حد المطالبة بالمساواة الاجتماعية • وكذلك ظهر الخلاف بين رجال البرلمان الذين أرادوا المحافظة على النظام الملكي مع تأكيد تقييد سلطاته صونا للحريات الدينية والسياسية • سعى السياسيون لحل الجيش الذي بات قويا والذي شاعت فيه النزعات الجمهورية والأفكار الحرة والمتطرفة أحيانا • وكمحاولة أخيرة لانقاذ الملكية سعى شارل الأول لاستغلال هذا الخلاف الطارىء في صفوف أخصامه ولكنه فشل لأنه بات أسير أفكاره ومعتقداته السياسية فلم يقدم أي تنازل يرضي به حتى المعتدلين من أخصامه •

ومع أن كرومويل كان يريد الوصول الى تسوية مع الملك بأي ثمن الا أنه في النهاية وبعد اتصالات عديدة اقتنع باستحالة ذلك • وأمام دسائس بعض رجال البرلمان ومساعيهم للتخلص من الجيش بعد أن افزعتهم قوته المتزايدة ونزعة ضباطه نحو التسلط والهيمنة السياسية وأيضا ما حوى من نزعات وميول متطرفة ، قرر حسم الموقف • وفعلا فرض سلطانه في لندن وأبعد حوالي ١٤٠ من أعضاء البرلمان وأبقى على حفنة منهم كانت على استعداد لتحقيق سياسته • أقر مجلس العموم ، بمن بقي فيه من نواب ، تصريحا ثوريا يجعل الشعب بعد الله مصدر السلطات ويقيم من مجلس العموم قيما على السيادة الوطنية • وتلت ذلك محاكمة الملك ثم اعدامه في شباط (فبراير) سنة ١٦٤٩ •

كروميل والجمهورية :

اعدام الملك أثار موجة عارمة من الاستياء خارج بلاد الانكليز حيث كان للملوك قداسة خاصة وفي وقت كانت نظرية حقهم الآلهي في السلطان في أوج سلطانها • وحتى في الجزر البريطانية فان شجاعة الملك فيمواجهة حكامه وقضاته واصراره على حقه في أن لا يحاكم أمام محكمة من هـذا العالم أثارا تساؤلات كثيرة وحركا ضمائـر أناس عديدين خاصـة في اسكوتلندا حيث تغلب العطف على آل ستيوارت وعاد الناس فتمسكوا بقضيتهم والتفوا حول شارل الثاني ابن الملك القتيل بعد أن أعلنوه ملكـا على عرش أبيه • وكذلك جاهر الملكيون بعدائهم ومعارضتهم للسلطة التي أعدمت الملك • وفي ايرلندا كانت أحداث لندن مناسبة عاد الايرلنديون عبرها للتمرد على سلطان حكومة لندن وهاجموا بصورة خاصة أولئك الانكليز البروتستانت الذين أسكنهم شارل الأول في ايرلنـدا وخاصـة أولستر فقتلوا منهم خلقا كثيرا وأقاموا حكومة خاصة بهم وجيشا للدفـاع عن أرضهم •

أما في لندن فأن البرلمان سارع الى اعلان « انكلترا جمهورية يحكمها ممثلو الشعب المجتمعون في مجلس العموم » وكذلك الغي مجلس اللوردات الذي كان دائما مواليا للعرش والملك • وصارت الدولة التي تولى زعامتها كروموبل بمساعدة مجلس من العسكريين والمدنيين تعرف باسم رابطـة الشعوب البريطانية ويشمل نفوذها كل انكلتـرا واسكوتلندة وايرلندة والجزر المجاورة •

لم يكن كرومويل على استعداد اطلاقا للتساهل في قضيـة وحـدة البلاد • ولذا فقد واجه بشدة قضية التمرد في ايرلندا • حارب المتمرديـن الكاثوليك عدة سنوات حتى أخضعهم نهائيا • واستعمل في هذا السبيل أقصى أساليب القمع فأغرق الجزيرة في بحر من الدماء وأعـدم الكثيرين من زعماء التمرد كما أرسل خلقا كثيرا منهم الى أميركا بصفة عبيد أرقاء • وحين عم السلام أرجاء الجزيرة كان عدد سكانها قد تناقص الى النصف

وفقد جل ملاكيها أراضيهم الزراعية وبالتالي كان حقد الايرلنديين على الانكليز قد تأصل بدرجة لا توصف ربما ساعدت على بقائه حتى يومنا هذا •

وفي اسكوتلندا أيضا ما تردد كروموبل في مواجهة تمرد أنصار الملكية فهزمهم أكثر من مرة وقضى على عصيانهم سنة ١٦٥١ كما هرب الى القارة شارل الثاني • هذهالانتصارات سمحت لكروموبل بأن يؤكد في سنة ١٦٥٢ وحدة الجزر البريطانية نهائيا باعلان صدر عن مجلس العموم بقيام اتحاد بين اسكوتلندا وايرلندا وانكلترا •

وأيضا على صعيد السياسة الخارجية واجهت كروموبل مصاعب كبيرة • لقد أصدر سنة ١٦٥١ قانون الملاحة الذي يحتكر حق نقل البضائع من الجزر البريطانية واليها للسفن الانكليزية مما أثار حفيظة الهولنديين لأنهم اعتبروا هذا القانون موجها اليهم ضمنيا باعتبار ان اسطولهم طالما عمل في التجارة مع الجزر الانكليزية • وهذا مما أدى الى وقوع الحرب البحرية بين الدولتين انتصر في نهايتها الانكليز وفرضوا على الهولنديين سلاما اعترفوا فيه بهذا القانون الذي فتح مجالات وأفاقا لا حد لها امام البحارة والتجار الانكليز •

هذه الانجازات تركت كروموبل سيد الجزر البريطانية دون منازع مما جعل مجلس العموم ينتخبه في أواخر سنة ١٦٥٣ رئيسا للدولة مدى الحياة يحمل لقب اللورد الحامي Lord Protecteur ، ومع أن كروموبل طالما كان ينادي بتمسكه بالحرية والديموقراطية فأنه ما لبث أن اعتمد في حكمه على مجلس عسكري يضم اصدقاءه من الجنرالات وجنح نحو ممارسة حكم ديكتاتوري فردي ما مارسه ملك انكليزي في السابق • جعل الجيش دعامته الأولى في حكمه أذ قسم البلاد الى احدى عشرة مقاطعة على كل واحدة منها جنرال من أصحابه مهمته الأولى تطبيق سياسة الدولة في اشاعة الأمن والاستقرار مهما كانت الوسائل وكذلك اعلاء شأن المثل البيوريتانية المتزمتة في حياة الناس العامة كما في حياتهم الخاصة •

وقد اصطدم بمجلس العموم أكثر من مرة انما لم يكن يقيم كبير وزن لمعارضة أعضائه لاعتماده التام على الجيش المؤيد له • وما تردد حين كثر معارضوه من السياسيين في حل البرلمان قبل وفاته بقليل في سنة ١٦٥٨•

لقد كانت الجمهورية في الواقع في ظل كرومويل ديكتاتورية قوية القبضة شديدة على اعدائها غير أن الانكليز تحملوها على مضض ، ومعها كل ما كان يحمله البيوريتانيون المؤيدون لها من تزمت وتعصب على الصعيد الديني ، لأنهم كانوا قد سئموا الخلافات الدينية والحروب الأهلية والصراع على النفوذ والسلطان مما رافق السنين الأخيرة من حكم شارل الأول • وقد ساعد الانكليز على تقبل مرارة ديكتاتورية كرومويل سعيه المخلص لتحقيق وحدة البلاد وانتصاراته العديدة على الهولنديين والاسبان مما اعطى انكلترا مركزا ممتازا في أوروبا ، وكذلك ما تحقق في زمنه من تقدم اقتصادي ونمو الاسطول • وفوق هذا وذاك كان يشفع لكرومويل عند مواطنيه طيبته وتدينه وزهده في الحياة الدنيا وتقشف بلاطه وحرصه على الأموال العامة •

عودة الملكية

توفي كرومويل في أيلول (سبتمبر) سنة ١٦٥٨ فأنتخب مجلس العموم ابنه ريشارد رئيسا للدولة « لورد حامي » • واجهته مصاعب عديدة وبرزت أطماع كثيرة ومتناقضة للوصول الى السلطان • فالملكيون ركزوا على سلبيات عهد الجمهورية وسعوا لاعادة الملكية ، والجمهوريون ما ترددوا في سلوك أخطر السبل للبقاء في الحكم ، وقادة الجيش عمل كل منهم لتحقيق مجده الشخصي • شعر ريشارد بعجزه عن مجابهة وضع بالغ الدقة والصعوبة • فتنازل بعد ستة أشهر عن الحكم مما أوقع الجزر البريطانية في فراغ سياسي رهيب الابعاد•وقد بادر أحد أقوى قادة الجيش مونك Monk وكان ملكي العواطف لاستدعاء شارل الثاني الذي

كان ما يزال على قيد الحياة معتقدا أن في ذلك ابعادا للحكم البريطاني عن مزالق المغامرة .

قبل الملك المنفي طلب العودة وحاول التقرب من جماهير الانكليز فوعد باصدار عفو شامل وبنسيان الماضي وأيضا باحترام الحريات والديموقراطية .

شارل الثاني (١٦٦٠ — ١٦٨٥) :

وبعودة شارل الثاني الى لندن في ٢٩ آب (أغسطس) سنة ١٦٦٠ عادت الملكية الى بريطانيا وانطوت صفحة من تاريخ هذه البلاد مليئة بالأحداث الجسام والمنجزات العظيمة وبالمآسي أيضا ولعل أمر هذه الأخيرة طعما وابقاها أثرا ممارسات الديكتاتورية العسكرية وتعصب المتدينين البيوريتانيين وتزمتهم وتجاوزات الفئآت المتطرفة خاصة تلك التي عملت لتحقيق مساواة اجتماعية واقتصادية بين الناس (Levellers) .

استقبل الناس عودة الملكية بفرح عظيم وعلقوا على الملك العائد الأمال العريضة بأشاعة الأمن واقامة حكومة عادلة وادارة نزيهة . وكان من الطبيعي ان تعود الكنيسة الانكليكانية الرسمية الى ما كانت عليه من نفوذ قبل الجمهورية وكذلك البرلمان . وبعبارة أوضح بدا للانكليز وكان عليهم أن يعودوا بكل شيء الى ما قبل سنة ١٦٤٠ . انما هذه العودة للماضي رافقها اصرار من الطبقات النافذة في المجتمع على دعم الملك والكنيسة باخلاص وولاء ، لجعل الحق والقانون وحدهما يسودان في بريطانيا . وبالمقابل فان الملك مع ايمانه كأسلافه بحقه الآلهي في السلطة فأنه سار وفق نهج وضعه مستشاره ووزيره الأول كلاراندون يقضي بأن يكون التوازن بين سلطان العرش وصلاحيات البرلمان أساس النظام ورائد الحكومة . وقد حرص الوزير ولمدة طويلة على احترام صلاحيات البرلمان ومنع الملك من الجنوح نحو الحكم المطلق . الا ان الوزير ما استطاع طويلا أن يحول دون حدوث خلاف على النفوذ بين البرلمان والملك وفي

النهاية فشل كلاراندون وعزل من منصبه سنة ١٦٦٧ •

وكان أبرز ما اختلف حوله الملك والبرلمان السياسة الدينيــة ومبدأ التسامح • فالكنيسة الانكليكانيــة عادت لممارســة ضغوط قوية علــى المنفصلين وهم الكاثوليك وكل من ليسوا انكليكانيين مثل البيوريتانيين والكالفينيين للتضييق عليهم في محاولة لتحقيق وحدة الانكليز في ظــل الكنيسة الواحدة الرسمية • وكان البرلمان يجاري الكنيســة في هــذا الاتجاه • وبالمقابل فان الملك كان يبدي الكثير من الرحمة حيال هؤلاء راغبا في التقرب من الكاثوليك والبيوريتانيين وجعلهم دعامة لحكمــــه وعرشه • وعلى هذا فقد رفض البرلمان سنة ١٦٧٢ مرسوم التسامح الذي أصدره شارل الثاني الذي تراجع وقبل التحدي تفاديا لدخول صراع مــع البرلمان لا يريده أحد في البلاد • ومخافة أن يكون الملك قد أصدر قانون التسامح بهدف تشجيع الكثلكة في وقت كانت البروتستانية تمر في اوروبا في محن متتابعة فقد أصدر البرلمان قانون الاختبار Test Act الــذي يفرض على موظفي الدولة من اداريين وعسكريين الولاء لكنيسة الدولــة الأنكليكانية الرسمية والمشاركة في طقوسها • كما صدر فيما بعد قانــون آخر يبعد الكاثوليك عن عضوية مجلس العموم ومجلس اللوردات الــذي أعيد مع عودة الملكية • والواقــع أن هذين التشريعين كانــا مغاليين في التمييز بين الانكليز مما ابعد الكاثوليك عن شغل أي منصب رسمي حتى منتصف القرن التاسع عشر •

ومع الوقت تزايد نفور البرلمان من سياسة شارل الثاني المتهــم بميوله الكاثوليكية لكونه تزوج من كاثوليكية وانتهج سياسة التساهل مع الكاثوليك الانكليز ومال في سياسته الخارجية نحو التفاهم والتعامل مع لويس الرابع عشر وحصل منه على العون المالي مرات عديدة • ومع هذا فقد بقيت دوما قائمة امكانية التوفيق والتسوية بين الملك والبرلمان حتى طرحت مشكلة خلافته • لم يكن شارل الثاني قد أنجب وريثا لعرشه وما كان ينتظر انجاب ذلك الوريث ، وكان من المعروف ان عرشه سيؤول بعد موته لشقيقه جيمس الثاني (دوق يورك) الذي كا نمعروفا بولائه

الشديد للكاثوليكية وبصلاته بلويس الرابع عشر قاهر البروتستانت في فرنسا وكذلك بالاوساط اليسوعية الناشطة . وقد برز منذ سنة ١٦٧٩ في البرلمان تيار قوي يضم كل أولئك الذين يصرون على حصر حق الوصول الى العرش بالبروتستانت ، وكذلك أولئك الراغبين في تحديد سلطان الملك . وقد أطلق على هؤلاء الناس ومن كانوا يؤيدونهم في الشارع اسم الويغز Whigs بينما حافظ من أطلق عليهم اسم التوريز Tories على ولائهم للكنيسة الانكليكانية الرسمية والملك وتمسكوا بحق جيمس الثاني بوراثة عرش انكلترا . وأمام صراع هذين الحزبين في البرلمان كما في الشارع حول حق شقيق الملك بوراثة العرش وامام عجز شارل الثاني عن كبح جماح معارضي أخيه عمد في سنة ١٦٨١ الى حل البرلمان . وحكم البلاد بعد ذلك مستعينا بمجلس من الخبراء والمستشارين وتفرغ لتحقيق مجموعة من الاصلاحات الادارية والبلدية هدف منها اعطاء المراكز الأساسية لمن يدينون بالولاء والاخلاص لشخصه ولعرشه وأيضا للحصول على برلمان شديد الطواعية في الانتخابات القريبة .

ثورة سنة ١٦٨٨ المجيدة :

في شباط (فبراير) سنة ١٦٨٥ توفي الملك شارل الثاني بصورة مفاجئة فصار عرش الانكليز وفق قوانين البلاد الى أخيه جيمس الثاني دوق يدرك ، وهو الأمر الذي طالما تخوف منه البرلمان والسياسيون وانقسموا بشأنه . بعد ارتقائه العرش بدقائق جمع مجلس العرش ومنح رجاله عهودا علنية باحترام تقاليد الانكليز وقوانينهم وكنيستهم الانكليكانية الرسمية مما هدأ بعض الشيء عواطف المتخوفين منه ومن سياسته الموالية للكاثوليكية . بل اكثر من هذا فان حزب التوريز ، وكان جل أعضائه من العناصر المحافظة من رجال دين ونبلاء وأعيان معروفين بموالاتهم الدائمة للعرش والملك وأيضا للكنيسة الرسمية ، ما تردد في دعم الملك وتأييده مخافة وقوع البلاد في مهاوي الانقسام والحروب الأهلية مجددا .

اعتقد جيمس الثاني انه سيواجه برلمانا شديد الطواعية بسبب التدابير التي اتخذها الملك السابق قبيل اجراء انتخابات سنة ١٦٨٥ • وربما لم يكن حكيما في الاعتماد على هذا الامر وفي الاسراع في كشف نواياه الحقيقية • لقد ظهر للانكليز بوضوح أثر الممارسات الاولى ان ملكهم الجديد يعتمد بصورة واضحة سياسة ذات دعائم رئيسية ثلاث هي : الكاثوليكية ، الملكية المطلقة والتعاون مع لويس الرابع عشر وهي امور طالما أظهر الأنكليز عدم أستعدادهم لقبولها •

لقد حاول البرلمان مخلصا التعاون مع الملك الجديد قدر الأمكان في بداية الأمر وعلى هذا سمح له بأن يجمع جيشا من ثلاثين الف جندي وأعطاه الأموال اللازمة وذلك لمواجهة حركة تمرد قام بها في خريف سنة ١٦٨٥ أبن غير شرعي لأخيه المتوفي • ولكنه بالمقابل أذهل الأنكليز بالوحشية التي عامل بها المتمردين بعد انتصاره عليهم وبالعدد الكثير من الناس الذين عذبوا وقتلوا او هجروا من ديارهم • وفوق هذا فانه ما تردد في أعطاء مراكز هامة في جيشه لضباط من الكاثوليك مخالفا بذلك أحكام قانون الاختبار الصادر أيام أبيه •

وما اكتفى بذلك وأنما ذهب في تأييده العلني للكاثوليكية حد أقتراحه تعديل قانون الأختبار والسماح للكاثوليك وأيضا للبروتستانت من غير اتباع الكنيسة الانكليكانية بتولي الوظائف العامة • وقد أدرك الجميع ان الهدف الحقيقي من هذا الأقتراح هو فتح المجال أمام الكاثوليك للمشاركة في حياة البلاد السياسية والعامة • ورفض البرلمان بقوة هذا المشروع وأصر على ضرورة أحترام القوانين السائدة وتطبيقها بأمانة وأخلاص • وكان هذا أول خلاف علني ومباشر بين الملك الجديد والبرلمان وكذلك طالب الملك بان يتحول الجيش الذي سمح له بتشكيله لمقاومة التمرد الى جيش دائم في زمن السلم كما في أيام الحرب وهو الأمر الذي ما سمح به برلمان أنكليزي أطلاقا في السابق لكي لا يكون الجيش دعامة للملك ضد البرلمان • وبالطبع لهذا السبب وأيضا بسبب الخوف من أستعمال الجيش

لغرض تفوق الكثلكة وسيادتها فقد رفض طلب جيمس الثاني مما زاد في عمق الهوة بينه وبين النواب .

وفي سنة ١٦٨٧ عاد فأصدر تصريحا ملكيا أعلن فيه مبدأ التسامح حيال الكاثوليك والخارجين على الكنيسة الانكليكانية مؤكدا على أن الملك من حقه أصدار القوانين والغائها وتعديلها . هذا التصرف أثار ضده موجة هائلة من العداء في أوساط السياسيين لأنه من جهة جاء تأكيدا لأيمانه بمبدأ الملكية المطلقة من كل قيد وأيضا لأنه تجاوز سلطات البرلمان وحقوقه التي حصل عليها بعد طول نضال عبر العصور . وفوق هذا وذاك تجاوز في هذا الاعلان امتيازات الكنسية الرسمية وحقوقها القانونية والتاريخية . وكان العداء لتصرفات الملك هذه قويا لدرجة أن أنصاره من حزب التوريز تخلوا عنه وأتجهوا للتعاون مع أعضاء حزب الويغز الذين كانوا يعارضونه حتى قبل وصوله للعرش .

كان جيمس الثاني حازما وعنيدا بحيث أنه ما أستطاع أن يدرك ابعاد ما اثاره تصريحه من معارضة في البلاد فأتبعه بأعلان آخر بنفس المعنى أنما فرض قراءته في كل الكنائس الأنكلزية أسبوعيا وهو الأمر الذي ما تردد بعض الأساقفة ليس في معارضته فقط وأنما في تحديه علنا في كنائسهم . أحال بعض هؤلاء للمحاكمة بتهمة مخالفة أوامر الملك والحكومة فحوكموا وأعلنت براءتهم وسط موجة عارمة من الحماس والتأييد لهم ما أستطاع أيضا أن يفهم مغزاها الحقيقي .

وأخيرا ما تردد في تعيين أساتذة ومدرسين كاثوليك أو متعاطفين مع الكثلكة في كليات كامبريدج وأوكسفورد التي طالما أعتبرت مراكز ثقافية للكنيسة الأنكليكانية مما أثار أستياء من بقي حتى ذلك الوقت على تأييده للملك وسياسته .

ولعل ما يفسر لنا صبر الأنكليز على ملكهم جيمس الثاني سنوات ثلاث كونه كان أصلا طاعنا في السن وكان من المعروف أن عرشه سيؤول

بعد وفاته الى أبنته ماري التي ولدت وعاشت بروتستانتية متدينة • الا أن حصول جيمس الثاني سنة ١٦٨٨ على ولد ذكر من زواجه الثاني وتعميد المولود الجديد وفق الطقوس الكاثوليكية وضع أمام الأنكليز امكانيــة الخضوع لسلسلة طويلة من الملوك الكاثوليك وبالتالي أحتمال العودة الى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية الرومانية وهو أمر يرفضونه بأغلبيتهم •

أمام هذه التطورات بات على رجال السياسة القيام بعمل حازم أذا أرادوا فعلا وقف التحول الرسمي نحو الكثلكة • وعلى هذا أتفق رجال التوريز ورجال حزب الويغز وكاتبوا وليم أورانج زوج ماري أبنة الملك وزعيم هولندا يدعونه للنزول في أنكلترا وتسلم عرشها مع زوجته • وفعلا نزل وليم في تشرين ثاني (نوفمبر) سنة ١٦٨٨ على الشاطيء الأنكليزي وهو على رأس جيش يمثل الى حد كبير بمن فيه من هولنديين وسويديين ودانمركيين والمان وانكليز وهيفونوت فرنسيين البروتستانتية الأوروبية •

في الواقع ما واجه وليم أورانج كبير مقاومة لأن عظماء البلاد وقادتها العسكريين مالبثوا أن أنضموا اليه الواحد تلو الآخر مما قاد الملك الــى عزلة رهيبة جعلته يهرب الى فرنسا حيث نزل معززا مكرما في ضيافــة صديقه وحليفه لويس الرابع عشر •

غياب الملك أوجد حالة من الفراغ الدستوري المخيف لأنه تــرك العرش ولكنه لم يتنازل• ولذا عمد البرلمان في أجتماع له في كانون ثانــي (يناير) سنة ١٦٨٩ الى أعلان العرش خاليا وانه لم تعد للملك الهارب أية حقوق عليه ثم أنتخب في جلسة ثانية وليم أورانج ليمارس الملك على الأنكليز مع زوجته ماري •

وقد جرى تتويج وليم الثالث ــ كما أعلن نفسه في أنكلترا ــ من قبل رئيس مجلس اللوردات أنما بعد أن قبل علنا بلائحة الحقوق التــي أقرها البرلمان والتي أوجز فيها الأنكليز كلما حصلوا عليه حتى ذلك الوقت من حقوق قانونية ودستورية • بموجب أعلان الحقوق هذه Bill of rights

لا يجوز للملك أبطال أو تعديل قانون صادر عن مجلس النواب كما لا يحق له فرض ضرائب جديدة وتشكيل جيش دائم دون موافقة البرلمان • ونصت أيضا لائحة الحقوق على جعل أجتماعات البرلمان دورية وعلـــى أنتخاب أعضائه بحرية تامة وأيضا على حقهم الكامل في ائتعبير عن آرائهم بحرية وكذلك أعطى البرلمان حصانة للمواطنين بحيث لا يمكن اعتقـال مواطن أو حبسه دون محاكمة تجري وفق القوانين السائدة •

رضي وليم الثالث بهذه القوانين المقيدة لملكيتــه وتعهـد بأحترام العلاقة المنظمة بين عرشه والبرلمان بموجب لائحة القوانين مما جعل حكمه دستوريا الى حد كبير•وقد تبع ذلك قانون جديد للتسامح منح البروتستانت ـــ من غير الأنجليكانيين ـــ حرية كاملة في ممارسة شعائرهم الدينية ممـا وضع الأنكليز على درب التسامح الديني الفعلي مبعدا أياهم عن مشاكـل الخلافات الدينية • وفي سنة ١٧٠١ صدر قانون حرم الكاثوليك من حـق وراثة العرش •

وبمجيء وليم الثالث زالت نهائيا من أنكلترا ملكية آل ستيوات ـــ مع ان جيمس الثاني بقي في فرنسا يعمل لأستعادة عرشه ـــ بعد أن ملكت فيها مدة قرن تقريبا كان حافلا الى جانب جلائل الأعمال بكثير من مظاهر الصراع على السلطة بين الملك والبرلمان وأيضا بين الكنيسة الأنكليزيـة الرسمية والخارجين على سلطانها • وقد حاول الأنكليز بعد ثورتهم سنة ١٦٨٨ والتي أطلقوا عليها أسم المجيدة، أن يتخذوا كل التدابير ويفرضوا على ملكهم الجديد كل القيود التي تقيم توازنا دائما بين التاج والبرلمان تتحقق عبره ديموقراطية صحيحة • وأيضا حرصوا على تأمين حرية دينية كافية لجميع المواطنين ولكن دون المساس بحقوق الكنيسة الانكليكانيـة الرسمية •

لقد كانت ثورة سنة ١٦٨٨ بحق وكما اعتاد أن يسميها الانكليز «ثورة مجيدة»لأنها اكدت دعائم الحكم الملكي الدستوري وركزت قواعد الحياة البرلمانية في برلمانين أحدهما للعموم وينتخب اعضاؤه من المواطنين

وآخر للوردات المعينين ، جعلتهما المصدر الأول للقوانين والرقيب الدائم على السلطة التنفيذية . وكذلك وضعت دعائم الحياة الحزبية عن طريق حزبي الهويغ Whigs والتوريز Tories . وقد بدت انكلترا بعد هذه الثورة اكثر دول العالم تقدمـا في ممارسة الحياة السياسية وأسبقهـا في أحترام الحكم الدستوري الصحيح حتى باتت رائدة الأحرار في العالـم ومثالا تحتذيه حركات التحرر في أوروبا وتقدمه لحكامها كبديل أفضـل لنظام الملكية المطلقة .

لم يكن عهد آل ستيوارت حافلا فقط بالمآسي والصراع مع البرلمان والثورات وانما كان أيضا مرحلة تطور ونمو أقتصادي كبير بدأت بالفعل في مطلع القرن وظلت مستمرة دون توقف مما جعل أنكلترا تبدو في مطلع القرن الثامن عشر على درجة كبيرة من الأزدهـار والتوسع الأقتصادي . فالزراعة كانت في تطور مستمر من حيث الكمية والنوع . والصناعة كانت في نمو ظاهر ولو أنها كانت تتعرض لفترات من البطء او التوقف عـن التقدم لأعتبارات سياسية أو عسكرية . فقد ظهرت مراكز ناشطة حول برمنغهام وشيفيلد لصناعة التعدين وكذلك كانت صناعـة الأصواف في أزدهار دائم وأيضا نشطت كثيرا صناعة النسيج القطني خاصة بعـد ان وظف فيها كبار التجار رساميل هامة . وأيضا كان الاسطول الانكليزي في تقدم سريع بعد ان أدت سياسة الدولة في معاكسة المصالح الهولندية الى أزاحة مزاحم قوي وخطر وهذا ما سمح لهذا الاسطول بأن يكون في مطلع القرن الثامن عشر الاسطول الأول في العالم .

بروسيا في العصور الحديثة

مع بداية العصور الحديثة أخذت دولة بروسيا الصغيرة تلعب دورا متزايد الأهمية في الشؤون الألمانيـة . تعود هذه الدولـة في أصلها الى براندبورغ الصغيرة ، التي تضم مجموعة من الأراضي الفقيرة المجدبة تحيط بمدينة برلين الصغيرة ، والتي تكونت في قلب العصور الوسطى لتكون ثغرا متقدما بالنسبة للامبراطورية الرومانيـة المقدسـة يصون حدودها من الشرق ويرد عنها غارات القبائل السلافية المشاكسة . نجحت مع الوقت هذه الأمارة الصغيرة بزعامة حكامها ، وكان واحدهم يحمل لقب (ماركغراف) حاكم الثغر ، ليس فقط في صد غارات المعتدين وانما أيضا في التوسع والامتداد شرقا .

وفي سنـة ١٤١٧ وهـب الأمبراطـور ، فريدريـك هوهنزلرن Hohenzollern ، أحد أشراف جنوب المانيا ، حاكميـة براند بورغ مع لقب ناخب . وقد أعطى اللقب الجديد الأمارة مركزا مميزا بـين الدويلات الالمانية لكونه يخول صاحبه مع ستة آخرين من الأمراء والأساقفة حق انتخاب الامبراطور . اتخذ الأمير الجديد من برلين الصغيرة عاصمة له ومقرا لحكومته وبدأت منذ ذلك الوقت تنمو وتزدهر مع نجاح آل هوهنزلرن في الحكم واتساع ممتلكاتهم . وكان أبرز ما أنجزه فريدريك من نجاح لمواطنيه القضاء على ما كان يشيعه الفرسان من فوضى وأضطراب وتثبيت دعائم الأمن والنظام وأشاعة السلامة على الدروب .

بروسيا في القرن السابع عشر

ومع أن ناخب البراندبورغ تحول مع رعاياه منذ سنة ١٥٣٩ الـى اللوثرية الا أن الأمارة مارست حيادا تاما من الصراع بين البروتستانت

والكاثوليك في القرن السادس عشر مما وفر لها السلام والوقت للعمل على توسيع رقعة أراضيها دون قتال . في سنة١٦١٤ آلت دوقية كليف Cléves ، الواقعة بعيدا على ضفاف الراين قريبا من أراضي هولندا عن طريق الوراثة الى ناخب البراندبورغ . وبعد أربع سنوات صارت اليه ، وأيضا عن طريق الوراثة دوقية بروسيا (بروسيا الشرقية) . وكانت هذه ترتبط سياسيا بملك بولونيا وتدين له بالولاء .

وهكذا في منتصف القرن السابع عشر صار لآل هوهنزلرن ، حكام البراندبورغ ، ممتلكات واسعة . الا أن عدم اتصال هذه الأراضي كان يجعل الدفاع عنها أمرا بالغ الصعوبة كما كان يثير في الوقت نفسه مطامع الدول الأخرى . وعلى هذا بات على حكام برلين أن ينتهجوا بالضرورة سياسة تتسم بالأيجابية والمرونة للعمل على أتصال أجزاء أمارتهم . وتجلت بصورة خاصة مطامع الدول القوية أسبانيا والسويد وبولونيا وهولندا ، في أراضي بروسيا خلال حروب الثلاثين سنة . وما ترددت جيوش الأمبراطور في أجتياح أراضي البراندبورغ وأشاعة الدمار فيها وكذلك فعل ملك السويد . وزاد في المصاعب التي تعرضت لها بروسيا خلال هذه الحروب ان سياسة الناخب جورج وليم (١٦١٩ — ١٦٤٠) أتسمت بالضعف والتردد والسلبية مما أطمع الآخرين فيها وأضاع عليها فرصة استغلال أحداث الحرب لتحقيق مكاسب اقليمية . والأنجاز الوحيد الذي تحقق في هذه الفترة جاء أثر وفاة أمير بوميرانيا الشرقية ، وهي أراضي مجدبة خالية من السكان الا أنها تطل على بحر البلطيق . ولما لم يكن لأميرها وريث فقد صارت أراضيه الى ناخب بروسيا الذي أقره على ذلك المؤتمرون في وستفاليا .

فريدريك وليم (١٦٤٠ — ١٦٨٨)

يعتبر فريدريك وليم المؤسس الحقيقي لمملكة بروسيا . فهو وأن كان قد تسلم املاكا واسعة الا أنها كانت موزعة الى ثلاثة كتل منفصلة عن بعضها تعوزها وحدة الأرض . ثم أن قدرته على العمل كانت

محدودة بما كان لكل من المقاطعات من مجلس خاص يسيطر عليه النبلاء وممثلو المدن الالمانية ، يحتكر لوحده حق فرض الضرائب وأنفاقها • ثم ان سلطان آل هوهنزلرن على رعاياهم كان ما يزال احيانا واهيا • فسكان كليف كانوا أكثر ارتباطا بجيرانهم الهولنديين وأميل للتعاون والتعامل معهم كما أن نبلاء بروسيا الشرقية كانوا دائما يحبون التعامل مع بولونيا ويوالون نظامها الذي كان يعطي الأشراف امتيازات واسعة ليس أقلها حقهم في أنتخاب ملكهم • يضاف الى ذلك أن فريدريك وليم كان عليه أن يتبع الأمبراطور بصفته ناخب براندبورغ وأن يدين بالولاء لملك بولونيا بصفته دوق بروسيا وهذا ما أفقد البلاد والحكم وحدة الولاء السياسي • ثم ان حروب الثلاثين سنة كانت قد أشاعت في بعض أراضي بروسيا الكثير من الخراب والدمار حيث كانت مسرحا لبعض معاركها وممرا لجيوش المتقاتلين مما أورثها أضطرابا سياسيا وضائقة أقتصادية شديدة •

القضية الملحة التي واجهها في بداية حكمه هي ضرورة اخراج البلاد من أتون حرب الثلاثين سنة • حقق نجاحا هاما في هذا المجال كما وفق في أخراج القوات الأجنبية من أراضيه • ليس هذا فقط وأنما نجح بدبيلوماسيته ومرونته في أن يجعل المؤتمرين يعترفون له بحقه في مقاطعة بوميرانيا الشرقية التي جعلت أراضيه في البراندبورغ تتصل بمياه البحر كما حصل لبلاده على أراضي أربع أسقفيات المانية •

توزيع أراضيه في مختلف جهات المانيا كان دائما شاغله الأساسي وموجه سياسته الخارجية التي أتصفت بالأنانية والألتواء وربما باللاأخلاقية خاصة في علاقاته مع الدول الكبرى • ولعل مبرر تصرفاته في هذا المجال حاجته الماسة لأن يستمد من ضعفه العسكري والسياسي قوة تساعده في تحقيق اغراضه الملحة • أستغل الى أقصى حد التناقضات بين بولونيا والسويد وكذلك حربا قامت بينهما للتخلص من أرتباطاته بالعرش البولوني • وفعلا حصل سنة ١٦٦٠ بنهاية هذه الحرب على سيادته الكاملة في بروسيا الشرقية وتحرر هذه الأراضي من سلطان

البولونيين القديم • وكذلك ناور كثيرا وبذكاء أثناء الحروب الهولندية التي قامت أيام لويس الرابع عشر سنة ١٦٧٢ الا أن فرنسا أفسدت عليه خطته وخرج من هذه الحرب دون مكاسب هامة •

وقد وجد أنه لتأكيد سلطانه على أراضيه ولحمايتها من مطامع الآخرين لا بد أن يكون له جيش قوي دائم • وفعلا كان له هذا الجيش الحسن التنظيم قبل نهاية حروب الثلاثين سنة وبلغ تعداد جنوده آنذاك ثمانية آلاف • وقد أنشأ لهذه الغاية مؤسسة خاصة أسماها « المفوضية الحربية العامة » اولاها سلطات واسعة • أنما بقيت مسألة تأمين مصاريف هذا الجيش مشكلة صعبة ولمدة طويلة • على الصعيد المالي كان فريدريك وليم يعيش آنذاك بالدرجة الأولى من املاكه الواسعة باعتباره واحدا من ملاكي الأرض الكبار • ولذا كان عليه ان يجرد مجالس المقاطعات من بعض سطانها السياسي وخاصة من أشرافها التام على امور الضرائب • وأعتقد أنه متى نال سلطة فرض الضرائب على المواطنين مباشرة يتأمن له المورد المالي اللازم والجيش القوي الدائم الذي يعتبره الأداة الوحيدة الصالحة لقيام ملكية مطلقة على النمط الفرنسي وهو أمر كان يحلم به ويسعى اليه •

لقد أدرك النبلاء والبورجوازيون ابعاد سياسة فريدريك وليم المالية ولذا عارضوها بشدة وضراوة وتمسكوا بأمتيازاتهم القديمة وفي حالات كثير أتخذت معارضتهم شكل الثورة والتمرد • أنما في النهاية وبفضل عناد فريدريك وليم ومثابرته تمكن من أقرار اول أصلاح مالي في براندبورغ فقط سنة ١٦٦٧ قضى بفرض ضريبة مباشرة يدفعها سكان الأرياف للخزانة العامة ، ويدفع سكان المدن ضرائب غير مباشرة تجبى على بعض السلع • وقد خضعت تدريجيا لهذه الضرائب كل مناطق دولة بروسيا وجميع سكانها بما في ذلك النبلاء • وبذا تخلص فريدريك وليم من سلطات مجالس المقاطعات ومعارضتها لسلطانه وأخضع البلاد كلها لأدارة مدنية مركزية وبات يمارس سيادة فعلية على جميع رعاياه حتى أن هؤلاء صاروا

يدفعون بموجب أصلاحاته المالية من الضرائب اكثر مما كان يدفع آنذاك الفرنسيون .

وما فاته انه كان من الضروري انماء موارد البلاد بصورة مستمرة من ناحية لجعل المواطنين قادرين فعلا على دفع الضرائب ومن جهة ثانية للتغلب على فقر أراضي بروسيا الطبيعي ولأزالة ما خلفته فيها عموما وفي براندبورغ خصوصا حروب الثلاثين سنة من دمار . شجع الزراعة واستصلح أراضي كثيرة واعتمد في انجاز ذلك على الأجانب . واستقدم الكثيرين من الهولنديين الذين أفادوه في تطوير موارد البلاد الزراعية بما أقاموه من مزارع ممتازة . وكذلك فتح بلاده أمام البروتستانت الفرنسيين يأوون اليها منذ بدأ يضطهدهم لويس الرابع عشر وخاصة بعد الغائه براءة نانت . حمل معهم هؤلاء رساميلهم الوفيرة وخبراتهم الواسعة في مجال الزراعة كما في العلوم والصناعة وأقاموا سلسلة من المصانع الحديثة كانت حجر الأساس في نهضة البلاد الصناعية .

وربما معجبا بما شاهده من تقدم الهولنديين أثناء أقامته عندهم قبل تسلمه سلطاته حاول دوما أن يقلد هولندا وأن ينفذ في بلده ما أعتقده أساس قوتها ومصدر ثروتها . فقد سعى دوما لأن يكون لبلاده أسطول قوي تكون له حصة في السيطرة على البلطيق . كما سعى لأن يجعل لبروسيا أمبراطورية أستعمارية فأستولى على مستعمرة صغيرة بمساعدة مغامر هولندي عند خليج غينية الا ان خلفاءه فشلوا في الأحتفاظ بها . وكذلك شق قناة مائية تصل مدينة هامبورغ بأراضي سيليزيا لتنشيط تجارة برلين التي أتسعت كثيرا في أيامه .

الا أن منجزاته الأقتصادية والمالية أتت دائما بمردود محدود بسبب فقر أراضيه أصلا وتخلف رعاياه وقلة عددهم بالنسبة لدول أوروبا ، أذ ما كانوا يزيدون عند وفاته عن مليون ونصف المليون . ولهذا أستمر في الحصول على المساعدات المالية حتى نهاية حياته من جانب أسبانيا وفرنسا وهولندا . على أن نجاحه الأهم والأبرز يظل جيشه الممتاز والذي بلغ تعداده أربعين الف جندي عند وفاته سنة ١٦٨٨ مما سمح لأبنه وخليفته

فريدريك الثالث ان يمارس ديبلوماسية مرنة وأيجابية خققت لبلاده الكثير

لم يكن فريدريك الثالث ١٦٨٨ ــ ١٧١٣ ملكا أستثنائيا وأنما على العكس من ذلك كان محدود الذكاء ضعيف الجسد محبا للمظاهر مبذرا • الا أنه مع ذلك حقق لبروسيا أنجازا هاما خلده بين عظام هذه الأمة • لقد أعتقد منذ تسلم العرش أن من حقه أن يصبح ملكا على قدم المساواة مع ملوك أوروبا وأن يساهم في سياسة القارة وامورها على هذا الأساس • في سنة ١٧٠٠ أستغل حاجة الأمبراطور لدعم سياسي من جانب بروسيا وأيضا لبعض جيوشها في نزاعه مع العرش الفرنسي حول مسألة الوراثة الأسبانية • وحصل فعلا على مساعدات مالية وعلى أعتراف به « كملك على بروسيا » مقابل وعده بمساعدة عسكرية في حال نشوب الحرب •

بروسيا في القرن الثامن عشر

في ١٨ كانون ثاني (يناير) سنة ١٧٠١ توج بمظاهر العظمة والأبهة ملكا لمملكة بروسيا تحت أسم فريدريك الأول • وبذا صارت ممتلكات آل هوهنزلرن الموزعة في المانيا مملكة واحدة موحدة في ظل عرش واحد أعترفت به جميع دول أوروبا بعد ذلك • والواقع أن بروسيا باتت بعد ذلك القوة الثانية في الأهمية بين الدول الألمانية بعد الأمبراطورية ولن تلبث أن تصبح منافسة قوية لها • ومع أن مواهب فريدريك الأول كانت محدودة وكذلك موارده المالية الا أنه أهتم كثيرا بأن يعطي عرشه مظاهر الأبهة والعظمة فقرب العلماء والأدباء وأقام أكاديمية للعلوم وأخرى للفنون وجامعة كبيرة كما دفع عاصمته برلين بقوة في طريق العمران والأزدهار • ولم يهمل أصلاالأهتمام بجيشه عماد دولته•وهذا كله أعطى لعرش بروسيا مكانة وسط حكام أوروبا أكبر مما كانت تسمح به أمكانيات البلاد •

فريدريك وليم الاول (١٧١٣ ــ ١٧٤٠) :

رغم مظاهر القوة السياسية فان مملكة بروسيا عند أستلام فريدريك وليم الأول عرش برلين كانت ما تزال تتألف من مقاطعات مشتتة وسط

المانيا مما كان يضعف من أمكانياتها الفعلية ويلقي على حكامها مسؤوليات صعبة • واجه الملك الجديد الذكي ، المحب للعمل هذا الواقع بمسؤولية واعية • أبتعد عن مظاهر الأسراف والبـذخ التي مارسهـا أبوه وأنقص مصاريف البلاط بنسبة كبيرة • كان مؤمنا بالحكم الملكي المطلق ولكنه كان يغلفه بطابع أبوي •

درج على عادة أسلافه بالأهتمام بالجيش بل ربما فاقهم في هـذا المجال فخص هذه المؤسسة بجل عنايته وأهتمامه حتى صار يعرف بـين ملوك أوروبا بأسم « الملك العريف » • بلغ تعداد جيش بروسيا في أيامه ثمانين الف جندي دربوا أحسن تدريب بعناية أفضل الضباط والخبراء العسكريين • وأمتاز هذا الجيش أيضا بنظامه الدقيق وروحه العسكريـة العالية • ولما كان مثل هذا الجيش كبيرا بالنسبة لأمة لا يزيد أبناؤهـا على مليوني أنسان فقد كثر الأعتماد فيه على المرتزقة الأجانب بينما ظل الأشراف والنبلاء يقدمون له القادة والضباط •

لقد وضع فريدريك الأول تقليدا سار عليه خلفاؤه وكيف مستقبل الحياة السياسية والعسكرية في بروسيا • جعل الوظائف العليا في الجيش محصورة في أبناء طبقة النبلاء كبار ملاكي الأرض المعروفة باسـم يونيكرز Yunkers • لقد اعتبر خدمة الدولة واجبا أساسيا لأبناء الطبقات العليا وعن طريق الحاقه ابناء النبلاء بالجيش وجعلهم يقسمون يمين الولاء والأخلاص للدولة والملك نشأت علاقة وثيقة ودائمة بين هذه الفئات وبين عرش بروسيا • وربما كان لأنتماء هذه الطبقة الى اللوثرية أثر هام في جعل أبنائها شديدي الأخلاص والولاء للملك بأعتبار ان لوثر كان يحض دومـا على الخضوع والأخلاص للسلطة • ومع أن اليونكرز ما تحمسوا كثيرا في بداية الأمر لهذه السياسة الا أنهم ما لبثوا أن أنسجموا معها وبـات أحترام النظام والأنضباطية والوطنية والأندفاع والولاء للعرش صفـات مميزة لأبناء النبلاء البروسيين وللمحافظة • على كيان هذه الطبقة فقد حرمت طبقة الفلاحين من مجالات التقدم الأجتماعي والحصول علـى

المناصب العالية • وكذلك صدرت تشريعات تمنع بيع أراضي النبلاء لواحد من غير هذه الطبقة للمحافظة على كيان أبنائها ولمنع من هم من البورجوازية او الفلاحين من الحصول على القاب الشرف التي قد يجلبها امتلاك ارض معينة • وقد أكتفت الطبقة الوسطى التي ما كانت كبيرة النفوذ كثيرة العدد في بروسيا بخدمة الدولة عن طريق الوظائف المدنية او العمل الحر •

ولتأمين حاجات هذا الجيش ولوازمه جعلت صناعة بروسيا التـــي كانت آنذاك تسعى للنمو والأزدهار في خدمة الأغراض العسكرية بالدرجة الأولى • صارت الصناعة تمارس في كثير من الثكنات وأقيمت مصانـــع البارود والمدافع والبنادق في كل مكان حتى أن عاصمة البلاد برلين بات يغلب عليها طابع القلعة الحربية اكثر من أية عاصمة أخرى في أوروبـا • ولتأمين مصاريف الجيش بصورة منتظمة أخضعت منذ سنة ١٧٢٠ شؤون الحربية والمال وأملاك الدولة لأدارة واحدة •

الى جانب الجيش الكبير وضع فريدريك وليم الأول أسس أدارة سليمة حسنة التنظيم عهد بها الى موظفين أمتازوا بالكفاءة والنزاهة • الا أن هذا التنظم غلب عليه الطابع العسكري • أذ قسمت البلاد الى مقاطعات لكل مقاطعة فرقتها العسكرية الخاصة تمدها بالرجال وتؤمـن لها الأغذية والموارد كما ان مدرسة برلين العسكرية باتت المصدر الأساسي لتخريج موظفي الدولة الذين كان يؤخـذ جلهم مـن الضباط • كما أن شؤون الضرائب من تحديد جباية وكذلك النظم الادارية طغى عليها الطابـع العسكري •

لقد اراد الملك فريدريك وليم الأول ادارة حسنة ومالية منتظمـــة لا مكان فيها للأشراف والنفقات غير المجدية • كل ذلك من أجل خدمـة جيش بروسيا ألذي أراده عظيما لائقا بدولة كبيرة •

أنما لا بد من الأشارة الى أنه في المجال العسكري درج أيضا على عادة أسلافه من حيث الأصرار على عدم زج الجيش البروسي في المعارك الا بحذر • والواقع ان البروسيين سعوا دائما للأعتماد على قوة جيشهم

في تحقيق أغراضهم ديبلوماسيا كان البروسيون يدركون أن موارد بلادهم محدودة ومصادر جنودهم ليست هامة ولذا فان عليهم ان لا يزجـوا بجيشهم في معركة الامرغمين وفي سبيل أهداف هامة وأساسية. وانطلاقا من هذا التقليد أتبع فريدريك ولم الأول سياسة خارجية مرنـة أتسمت بالطموح الحكيم المتوازن . لقد سعى بأصرار لتوسيع رقعة أراضيه والعمل على جمع أجزائها مع تفادي ارسال جنده الى ساحات القتال. وهو مازج ببروسيا بحرب زمن حكمه الطويل سوى مرة واحدة حينما استغل الصراع بين السويد وجيرانها الروس والبولونيين والدانمركيين واستفاد من هرب شارل الثاني عشر الى تركيا فأستولى على أراضي بوميرانيا السويديـة ذات الأهمية الكبيرة له بأعتبار أنها تضع قلب بروسيا على أتصال ببحر والبلطيق عن طريق نهر الأودر . وفي سنة ١٧٢٠ اعترفت له بذلك السويد وكذلك بأستيلائه على مرفأ ستاتن Stettin الهام .

فريدريك الثاني العظيم (١٧٤٠ ــ ١٧٨٦)

لم يكن في مطلع شبابه شبيها بوالده على الأطلاق .ففي الفترة التي سبقت أرتقاءه عرش بروسيا عرف بالأنطواء على نفسه والتمسك بالعزلة . كان شديد الاهتمام بالموسيقى ميالا للدراسات الفلسفية والأدبية على أتصال بأئمة الفكر في اوروبا في زمنه شديد الأعجاب بحضارة فرنسا ولغتها وآدابها . هذه الخصال جعلته على خلاف دائم مع أبيه مما انتهى به للهرب الى فرنسا مدة من الزمن ثم للحكم عليه بالأعدام بعد ذلك . وما أنقذه من الموت الا تعهده لأبيه بأن يظهر المزيد من الأهتمام بالحياة العسكرية وبأدارة البلاد المدنية .

ولكن حين تسلم الحكم أبدى بخلاف ما كان ينتظره منه الناس مقدرة فأئقة في تصريف أمور الدولة . كما أظهر عقلية أستبدادية مطلقة ونزعـة نحو الحكم الفردي تحول معها وزراؤه ومعاونوه الى موظفين أو كتبـة مهمتهم تلقي أوامره وتنفيذها . وقد ساعده في ممارسة أستبداديته صغر رقعة أراضيه وقلة عدد رعاياه ومنجزات أسلافه الكبيرة وأيضا الـولاء

المطلق الذي درج النبلاء اليونكرز على أظهاره تجاه عرش بلادهم • كان يصر على الأشراف على تقرير وتنفيذ كل الأمور في كل بلاده • وكان يفعل ذلك بواسطة موظفين ومفتشين يرسلهم الى المقاطعات وعن طريق عمل دؤوب متواصل ظل يقوم به طيلة حياته •

أشرف بنفسه على شؤون المال والاقتصاد طيلة حياته فتابع سيرة أسلافه في العمل على تطوير الصناعة بصورة خاصة وتشجيع التجارة الا أن سياسته في هذا المجال كانت شديدة الوطأة على العاملين • فطبقة العمال في الأرياف كما في المدن ما أفادت شيئا من أفكاره المستنيرة ومما تعلمه من المفكرين الغربيين من آراء حرة ونظريات انسانية • فهو أذا كان قد الغى نظام القنية (رقيق الأرض) في املاك التاج مما حسن من وضع الفلاحين في هذه المناطق فان سائر الفلاحين ظلوا يعملون في ظل نظام للقنية شديد الوطأة مما يجعل وضعهم قريبا من العبودية • وكذلك ضيق في الحقوق على عمال المدن لصالح الصناعات الناشئة •

وبالمقابل محافظة منه على أمتيازات طبقة ملاكي الأرض وسع في سلطانهم وأنشأ مصرفا خاصا للرهونات العقارية لحل مشاكل المعسورين منهم •

على صعيد علاقات بروسيا الخارجية فقد أخذ فريدريك الثاني على عاتقه وضع وتطبيق سياسة خارجية تمتاز بالمرونة والواقعية وتأخذ أوضاع المملكة ومشاكلها بعين الأعتبار • لقد أخذ بعين الأعتبار كون بلاده كانت ذات أقتصاديات محدودة بالنسبة لدول اوروبا الكبيرة وتفتقر بالدرجة الأولى للوحدة الجغرافية • انطلاقا من هذه النقطةالأخيرة جعلفريدريك الثاني سياسة بلاده الخارجية تهدف الى ضم أراضي جديدة لممتلكاته تساعد في اقامة الأتصال بين اجزائها المتفرقة وأيضا تزيد في طاقاتها البشرية والأقتصادية • ولتحقيق هذه الغاية الأساسية شارك في أحداث القارة الأوروبية الهامة طيلة حياته وعلى نطاق واسع وما تورع عن خوض اكثر من حرب رآها ضرورية لمصالح بلاده العليا • وفي كل ذلك أظهر موهبة

عظيمة في السياسة الخارجية كما في الحرب والقتال مما جعل الألمان يلقبونه بحق فريدريك الثاني العظيم •

لقد ترك لخليفته عند وفاته سنة ١٧٨٦ مملكة بروسيا وقد باتت واحدة من دول أوروبا العظمى كما تضاعفت مساحتها بعد أن الحق بها سيليزيا سنة ١٧٤٢ وفريزيا الشرقية سنة ١٧٤٤ وبروسيا الغربية سنة ١٧٧٢ مما وحد مناطقها ووصل بين أجزائها ما عدا تلك الممتلكات الواقعة في الغرب • ثم فوق هذا وذاك ترك لخليفته فريدريك وليم الثاني ، مالية وقد تضاعفت مواردها وجيشا بلغ عدد أفراده خمسة أضعاف ما كان عليه في أوائل عهده وذاع صيته في أوروبا على أنه عظيم لا يقهر •

حروب القرن الثامن عشر

أذا كان صلح أو ترخت الذي أعقب حرب الوراثة الأسبانية قد رسم خريطة سياسية جديدة للقارة الأوروبية ، فأنه ما أستطاع أن يعطي اوروبا السلام الذي أملت بالحصول عليه بعد سنوات القتال الطويلة والمريرة• فهو من جهة حمل للقارة هيمنة انكلترا على شؤونها السياسية كما في ما وراء البحار مما لم يطرب كثيرا الدول الكبرى وخاصة فرنسا • ثم أن المعاهدة المذكورة كانت تحمل في طياتها بذور عدم أستقرار أوروبا وأسباب عودة دولها لحمل السلاح • فهي عند أقتسام المغانم توخت فقط المحافظة على مبدأ توازن القوى بين الدول الكبيرة مما أخفى مشاكل كثيرة دون أن يجد لها حلا وأوجد أخرى ما كانت قائمة •

أسبانيا التي أعطتها الطبيعة السيطرة على مدخل البحر الأبيض المتوسط من ناحية المحيط الأطلسي أخذ منها صلح أو ترخت هذه الهبة فأزال سيادتها عن جبل طارق وجزيرة مينورقة وهي أراضي أسبانية أعطاها لأنكلترا • وما وقف الأنكليز عند حدهم في أستغلالهم ضعف أسبانيا العسكري في مطلع القرن الثامن عشر ففرضوا عليها أيضا أتفاق الأسينتو Asiento الذي يعطي السفن الأنكليزية أحتكار تجارة

العبيد مع مستعمرات أسبانيا في أميركا • وأيضا ما قبل الفرنسيون الا مكرهين ما حصل عليه الأنكليز من هيمنة وتفوق في البحار ولا أطربهم اعطاء البلاد الواطئة الأسبانية للنمسا مما حرمهم من أراضي طالما سعوا للحصول عليها بأعتبارها واقعة ضمن ما كانوا يعتبرونه حدود فرنسا الطبيعية •

ومما زاد في تشابك العلاقات الدولية في أوروبا وتعقيدها في القرن الثامن عشر أنه شاهد انضمام دولتين جديدتين الى مجموعة الدول الكبرى: روسيا الأرثوذكسية وبروسيا البروتستانتية ومع كل منهما زاد كبير من المشاكل والأطماع الأقليمية • والواقع أن النصف الأول من هذا القرن تميز بتشابك متزايد للعلاقات بين دول القارة وبتنافس شديد في مجالات التجارة والتوسع الأستعماري في آسيا وأفريقيا بين الدول البحرية أنكلترا وفرنسا وأسبانيا • ومع أن والبول Walpole الشديد التمسك بالسلام كان يطبق بقوة على الحكم في بريطانية الا أنه ما أستطاع أن يمنع تدهور العلاقات مع أسبانيا بسبب تناقض المصالح البحرية والأستعمارية المستمر والمتزايد للدولتين ، ولا نجح في منع أندلاع الحرب البحرية بين الأسطولين الأنكليزي والأسباني •

حرب الوراثة النمساوية :

عندما توفي شارل السادس أمبراطور الأمبراطورية المقدسة دون خليفة ذكر يرث عرشه أحدث ذلك أزمة في أوروبا أنفجرت عندها أوعبرها اكثر المشاكل الأوروبية المعلقة مما أدى لنشوب سلسلة من الحروب والأصطدامات المسلحة أطلق عليها المؤرخون حرب الوراثة النمساوية •

كان أخشى ما يخشاه الأمبراطور شارل السادس في سنوات حكمه الأخيرة ان تتعرض أمبراطوريته لما تعرضت له اسبانيا قبل ذلك بسنوات عندما توفي ملكها شارل الثاني دون وريث لعرشه • والأمبراطور النمساوي ما كان قد أنجب ذلك الوريث ولم يعد يأمل بحصول مثل ذلك • وعلى هذا أصدر تعديلا لقانون وراثة العرش في بلاده يعرف بأسم

Pragmatic Sanction يجيز لأبنته ماريا تريزا زوجة فرنسيس أمير اللورين ان ترتقي عرش الأمبراطورية • ونظرا لمعرفته بمطامع الكثيرين في عرش بلاده سعى لأخذ موافقة دول اوروبا واماراتها على المرسوم الجديـــد وتعهدها بأحترام بنوده في المستقبل • وكلفه ذلك الكثير من الجهـــد والمساومات كما كلف بلاده تنازلات أقليمية وتضحيات مادية وفيرة • بقيت وحدها معارضة للتعديل الجديد دوقية بافاريا التي كان أميرها يعتبر نفسه أحق الناس بوراثة العرش الأمبراطوري بسبب قرابته للبيت الحاكم في فينـــا •

ارتقت ماريـــا تريزا عرش الامبراطوريـــة بعد وفـــاة أبيها في سنة ١٧٤٠ • وكانت آنذاك ملكة لبلاد المجر • ومع أن الملكة الشابـــة ، ذات الثلاثة والعشرين ربيعا القليلة الخبرة في شؤون الحكم والسياسة ، أرادت من اللحظة الأولى ان تتفرغ لحل مشاكل بلادها المزمنة وخاصة أوضـــاع جيشها المتردية وخزينتها التي كانت تشكو فراغا مزمنا ، الا أن الأطمـــاع الخارجية جعلتها تخوض سلسلة من الحروب ما كانت مستعدة لها دفاعا عن عرشها ووحدة بلادها الأقليمية •

أذا كانت اكثر دول أوروبا قد أعترفت بماريا تريزا أمبراطورة على عرش فينا فأن رعاياها ما كانوا كلهم موافقين على أن يؤول عرش أقـــدم وأعرق امبراطورية في أوروبا الى سيدة شابة في وقت كانت أوروبا تحكم من قبل رجال أفذاذ عظام • ثم أن الجيش الذي ورثته عن أبيها كـــان ضعيفا مفككا هدته هزائم متوالية قبل ذلك وقضت على معنويات جنوده وضباطه بحيث صار عاجزا عن حماية عرش البلاد وصيانة حدودهـــا ووحدتها • هذا الواقع جعل المطالبين بالعرش يطلون برؤوسهم ويعكرون سلام أوروبا الواهي الدعائم • أمير بافاريا أراد العرش لنفسه وكذلـــك أدعى ناخب سكسونيا أحقيته بعرش الأمبراطورية وما تخلف فيليب الخامس ملك اسبانيا عن ركب الطامعين وان كان بالواقع يريد فقط استعادة ما أخذته الأمبراطورية من أراضي لأسبانيا في أيطاليا بموجب صلح أوترخت • وسيد

فرنسا لويس الخامس عشر اعتبر ان مصاعب حكومة فينا ربما كانت مناسبة يستولي فيها على البلاد الواطئة .

على أن الخطر الحقيقي جاء من جانب سيد بروسيا فريدريك الثاني الذي كان يطمع بأراضي سيليزيا الملاصقة لمتلكاته والغنية بمواردها الطبيعية . دون أعلان للحرب ودون تقديم مبرر ولو ظاهري ودون سحب أعترافه بماريا تريزا أرسل فريدريك الثاني في كانون أول (ديسمبر) سنة ١٧٤٠ جيوشه لأحتلال سيليزيا . بسرعة مذهلة حقق البروسيون نصرا مبينا في معركة مولفيتز Mollvitz في نيسان (أبريل) سنة ١٧٤١ وأستولى على المقاطعة الغنية مما جعل فريدريك الثاني يختبر قوة جيشه بتجربة أيجابية ويتأكد من فعاليته وقدرته .

لقد ردت الأمبراطورة الشابة على تصرف البروسيين الذي وصف آنذاك بالغدر ونقض العهود والمواثيق بأعلان الحرب التي عرفت آنذاك بحرب سيليزيا الأولى . ما كان بأستطاعة النمسا السكوت عن تصرف بروسيا التي كانت تعتبر تابعة لها بأعتبارها واحدة من الدول الألمانية التي تشارك في الأمبراطورية الرومانية المقدسة . ثم أنها أذا أبدت أي تساهل فربما شجع ذلك دويلات المانية أخرى — وهي كثيرة — على تحدي سلطان الأمبراطورية . وقد رفضت ماريا تريزا بعناد وحزم كل مبادرات التسوية وخاصة تلك الصادرة عن أنكلترا وأصرت على محاربة فريدريك الثاني الذي أعتبرته خطرا دائما يهدد سلامة الأمبراطورية ونفوذها ووحدتها .

هزيمة النمساويين في الحرب شجعت امير بافاريا على التحرك وكذلك برزت مطامع الفرنسيين ورغبتهم في أن يلعبوا دورا متفوقا في أوروبا بمناسبة هذه الأزمة . أجتاح الفرنسيون اراضي بوهيميا وأستولوا على عاصمتها براغ وتقدم حليفهم شارل البرت في عمق الأراضي النمساوية حتى بات على أبواب فينا وأعلن نفسه في مدينة فرانكفورت أمبراطورا تحت أسم شارل السابع بعد ذلك في سنة ١٧٤٢ .

توالت الكوارث والفواجع على النمسا وعجزت عن مجابهة تحالف بروسيا وفرنسا وبافاريا فلجأت الأمبراطورة الى المجريين الشجعان تطلب منهم العون والمدد . وكذلك أظهرت بعض الواقعية حيال فريدريك الثاني وفاوضته للوصول الى أتفاق سلمي . ولما لم يكن ملك بروسيا شديد الحرص على المناقبية والأخلاقية في علاقاته الدولية ولا كان حريصا على احترام عهوده ومواثيقه فما أهتم بمواصلة الحرب بعد احتلال سيليزيا وأنما فاوض الأمبراطورة ووقع معها صلحا ضمن له أعترافا قانونيا وعلنيا بمكاسبه . وقد وجه بذلك طعنة قوية الى حلفائه الفرنسيين حين أنهى حرب سيليزيا الأولى على هذه الصورة الغادرة .

بعد أنسحاب جيوش بروسيا من ميادين القتال صار موقف النمسا يتحسن تدريجيا خاصة بعد ان هب النبلاء والفرسان المجريون الشجعان لمساعدة ملكتهم فأنهزم أمير بافاريا في سنة ١٧٤٢ وأجبر على التنازل عن أملاكه للنمسا وكذلك عن لقبه الأمبراطوري . وأيضا طرد الفرنسيون من بوهيميا وتحرج موقفهم العسكري وصار عليهم الدفاع عن أراضيهم في الألزاس واللورين .

لم يكن الانكليز راضين عن انهيار النمسا العسكري ولا كانوا موافقين على مطامع فرنسا في أراضيها وخاصة في البلدان الواطئة . وعند أعتزال والبول للعمل السياسي بات الأنكليز أكثر ميلا للتدخل وأرسلوا جيشا الى القارة لمنع الفرنسيين من الأستيلاء على الأراضي المنخفضة دون أعلان للحرب . ثم تورطوا أكثر من ذلك فعقدوا في سنة ١٧٤٣ تحالفا مع الأمبراطورية النمساوية ودولة سردينيا عرف بأسم تحالف ورمز Warmz يهدف للوقوف بوجه مطامع فرنسا ورغبتها في التسلط والهيمنة . وبذا تداخل صراع أنكلترا مع فرنسا وحليفتها اسبانية في البحار والمستعمرات مع أحداث القارة التي ما كانت بحاجة لمزيد من التعقيد .

تزايد أصدقاء النمسا وتحسن موقفها السياسي وكذلك ما حققته من

نجاح في ساحات القتال أثار مخاوف فريدريك الثاني من أن تعود ماريا تريزا لاسترجاع سيليزيا منه • يضاف الى ذلك ان تكاثر أعداء فرنسا عليها وتدهور موقفها سياسيا وعسكريا أخافه من أن يصبح هو معزولا مهددا اذا انهارت جيوش فرنسا فعلا • على هذا بدأ حرب سيليزيا الثانية في سنة ١٧٤٤ واجتاح بوهيميا واستولى على عاصمتها براغ وبذا انقذ جيشه الممتاز فرنسا من هزيمة مؤكدة • وعقب عدة انتصارات على النمساويين أهمها الانتصار في معركة هوهنفريدبرج Hohenfriedberg وافقت النمسا على عقد صلح جديد مع ملك بروسيا في درسدن يؤكد شروط الصلح السابق ويكرس سيادة فريدريك الثاني على سيليزيا •

عقب توقيع هذا الصلح استمرت الحرب على الجبهات الأخرى في الأراضي المنخفضة بين فرنسا والنمسا تساعدها جيوش انكليزية وأخرى روسية أرسلتها سنة ١٧٤٦ اليزابيث قيصرة الروسيا ، وفي البحار بين اسطول الانكليز واسطولي فرنسا واسبانيا المتحالفين ، وفي شبه الجزيرة الايطالية بين اسبانيا وفرنسا من جهة والنمسا وحلفائها من جهة ثانية •

مع استطالة القتال ودخول دول جديدة كروسيا طرفا في الصراع اتخذت الحرب طابعا أوروبيا عاما بحيث بات من الصعب حصول أحد الفرقاء على نصر حاسم • يضاف الى ذلك ان الفرقاء جميعا أصابهم التعب والملل وهدت من قدراتهم الأعباء المالية المتراكمة للاعمال الحربية فبرز اتجاه مسالم عند ملك اسبانيا وجنح حكام انكلترا وفرنسا نحو الاعتدال والتفاهم مما سهل الوصول في شهر تشرين أول (أوكتوبر) سنة ١٧٤٨ الى توقيع معاهدة صلح في أكس لاشابيل وضعت حدا لتلك الحروب المدمرة•

أبرز ما نصت عليه المعاهدة الجديدة أعتراف جميع دول أوروبا بحق الامبراطورة ماريا تريزا في وراثة عرش فينا دون منازع • وقد استبعد من نصوص هذه المعاهدة مبدأ توزيع المغانم فقد أعيد كل شيء في أوروبا الى ما كان عليه قبل الحرب ما عدا حالات قليلة اذ اعترفت الجماعة الدولية

لفريدريك الثاني بحقه في سيليزيـا كما أعطي ملكي اسبانيا وسردينيـا ترضيات صغيرة في شبه الجزيرة الايطالية •

حرب السبع سنوات :

لم يحدث صلح أكس لاشابيل أي تغيير في الوضع الدولي بل أعاد الأوضاع في أوروبا الى ما كانت عليه قبل الحرب • فقد التزم المؤتمرون بمبدأ التوازن الدولي الذي كان يتمسك به ديبلوماسيـو ذلك العصر وبصورة خاصة الانكليز منهم • وعلى هذا انتهت العمليات الحربية دون غالب أو مغلوب وتم الصلح على هذا الأساس وبقيت مشاكل ما قبـل الحرب دون حل مضافا اليها ما استجد من مصاعب أوجدتها مضاعفات الصراع الدولي •

على أن هناك نتيجتين بارزتين في العلاقات الدولية ، لحرب الوراثة النمساوية هي أن فرنسا أهملت لفترة طويلة شؤون مستعمراتها وامور اسطولها وحملت خزينتها من الأعباء والديون ما لا طاقـة لها عليـه • بالمقابل فان مشاركة انكلترا الهامشية في الأعمال الحربية زاد من قدرتها على الاهتمام باسطولها وتركيزها على ضرورة استمرار تفوقها في البحار كما في مجال الاستعمار • وقد انعكس هذا الدافـع على العلاقات بـين الدولتين في الفترة التي تلت حرب الوراثة النمساوية • فسادها التوتـر والاضطراب وصراع البقاء في اميركا كما في الهند وفي حوض السان لوران كما في أعالي البحـار •

وأيضا بالرغـم من وجود المعاهـدات الدولية فان امبراطوريـة النمسا كانت ما تزال تطمع بأسترجاع سيليزيا مهما كان الثمن مما يعتبـر سببا دائما يمكن أن يفجر خلافها مع بروسيا في أية لحظة •

وعلى هذا فقد أعتبر ، وبحق ، هذا الصلح بمثابة هدنة بين المتقاتلين حصلوا عليها ليعيدوا تقويم مواقفهم ومحالفاتهم استعدادا لجولة جديدة يكونون فيها أوفر استعدادا وأكثر قدرة على الحصول على النصر الحاسم

وقد بدأت الجولة الثانية فعلا بعد سنوات قليلة حين قامت حـرب السبع سنوات •

أنما هناك ظاهرة لا بد من التوقف عندها هي«الثورة الديبلوماسية» التي قامت بعد توقيع الصلح المذكور بسبب ما حدث من تغييرات فـــي المحالفات الدولية كانت بالفعل بمثابة ثورة في علاقات الدول • ذلك أن ظهور بروسيا كدولة كبرى عسكريا وما حققته لنفسها من مكانة سياسية وديبلوماسية في أوروبا وفي العالم الألماني جعل النمسا تعتبرها بالفعـــل عدوتها الأولى وأنه لا بد من وضع حد لنموها وتزايد قوتها أذا ما أرادت ان تحافظ على هيمنتها في وسط أوروبا وعلى زعامتها بين الدول الألمانية • وعلى هذا صار في أعتبار الديبلوماسية النمساوية ان فرنسا باتت أقـــل خطرا نظرا لمشاكلها الكثيرة في البحار والمستعمرات وخلافها الشديد حول هذه القضايا مع الأنكليز وبالتالي فأن أسترضاءها والتفاهم معها هو أسلم وأجدى من معاداتها • وعلى هذا بدأ السعي الجديد للتقارب مع الفرنسيين منذ سنة ١٧٥٠ وهو الأمر الذي كان يعتبر ضربا من المستحيل قبل ذلـك بسبب الصراع القديم والعميق الجذور بين آل بوربون وآ هابسبورغ • ومع أن الفرنسيين ما كانوا مقتنعين أول الأمر بمثل هـذا التقـاربالا ان مصاعبهم المتزايدة خارج أوروبا مع الأنكليز جعلهم بحاجة لحليف قـوي كالنمسا • وقد زاد في جنوحهم هذا خوفهم من تزايد قوة بروسيا بـين الدول الألمانية وما قد يجره ذلك من تهديد لمستقبل المصالح الفرنسية في المانيا • يضاف الى كل ذلك أن اتفاقها مع النمسا قـد يجـر اليهـا بعض المكاسب في البلاد الواطئة وهو ما لمح اليه النمساويون ولو بصورة غـير مباشرة •

وفي الوقت الذي بدأ الفرنسيون والنمساويون يتغلبون علـى احقادهم القديمة ويخطون خطواتسريعة في دربالتحالف بدأ الخوف من العزلة يساور فريدريك الثاني الذي اتجه نحو الانكليز اعداء الفرنسيين يحاول التفاهم معهم • وما تردد الأنكليز كثيرا في توقيع أتفاق وستمنستر مع البروسيين في (يناير) كانون ثاني سنة ١٧٥٦ لأنهم كانوا يعرفون ان

القتال الذي كان قد بدأ بينهم وبين الفرنسيين قبل ذلك في شمال أميركا دون أعلان حرب لن يلبث أن يتحول الى حرب شاملة قد يحتاجون فيها لحليف قادر على مواجهة الفرنسيين في حرب برية في القارة بينما يتفرغون هم للقتال في البحار •

الأتفاق البروسي الأنكليزي أزال ما بقي من مصاعب في طريق تحالف نمساوي ـ فرنسي وقع في فرساي في أيار (مايو) سنة ١٧٥٦ يتعهد فيه كل فريق بتقديم ٢٤ الف جندي للآخر في حال عدوان فريق ثالث • وهذا يعني بصورة واضحة أنه موجه ضد بروسيا بأعتبار أن أنكلترا ما كانت قادرة على شن عدوان بري لافتقارها لجيش قوي قادر على ذلك • وما لبثت في نهاية العام أن أنضمت روسيا للتحالف المذكور بسبب عداء قيصرتها اليزابيت الشخصي لملك بروسيا ولمعارضته لمصالحها وأهدافها في أوروبا الشرقية • وبذا صار تحالف فرساي ثلاثيا يضم روسيا والنمسا وفرنسا وهي من كبريات دول أوروبا آنذاك •

وهكذا وجدت أوروبا نفسها مسوقة بقوة وبسرعة نحو حرب عامة شاملة اساسها رغبة النمسا في أسترجاع سليزيا ولكن رافقتها ولازمتها أزمات وخلافات أخرى كثيرة • كان فريدريك الثاني يرتاب كثيرا بمخططات ماريا تريزا ومحالفاتها الهادفة لتطويقه خاصة وأنه قد انضمت لهذه المحالفات دويلة سكسونيا الألمانية صديقة الفرنسيين • لـذا أستعمل ملك بروسيا عامل المباغتة وبادر قبل ان تكتمل أستعدادات النمسا وقبل ان يصلها المدد من روسيا وفرنسا ، لاجتياح أراضي سكسونيا في آب (أغسطس) سنة ١٧٥٦ بادئا بذلك حرب السبع سنوات في أوروبا • لقد فعل ذلك دون أعلان للحرب وبكثير من الأنانية والغطرسة مما صار فيما بعد ملازما وتقليدا للسياسة البروسية العسكرية • حقق البروسيون انتصارات أولية في هذه السنة غير أن فرنسا ما لبثت أن نزلت بقوة الى ميدان العمل الحربي فوقعت مع النمساويين في أيار (مايو) سنة ١٧٥٧ معاهدة فرساي الثانية تعهدت فيها بأرسالماية وخمسة آلاف جندي الى المانيا وبتمويل جيش من المرتزقة الالمان وأيضا بامداد النمسا بالعون المالي والسلاح • وفي نفس الشهر دعمت

النمسا وروسيا تحالفهما وبدأت هذه الأخيرة ترسل جيوشها بأتجاه الغرب للقتال في المانيا • وقبل ذلك بشهرين كانت السويد التي تخشى سياسة بروسيا التوسعية والمتسلطة في البطليق قد تحالفت مع النمسا ودفعت بقواتها الى ساحات الحرب •

في كانون أول (ديسمبر) سنة ١٧٥٧ هزم ملك بروسيا الفرنسيين بقوة وطردهم من الهانوفر الالمانية حاميا بذلك جناحه الغربي كما انزل بعد ذلك بقليل هزيمة أخرى مذلة بالنمساويين محررا أراضي سيليزيا التي أجتاحتها جيوشهم • وفي مطلع سنة ١٧٥٨ كان البروسيون يتقدمون في الأراضي النمساوية ويهددون فينا ذاتها •

آنذاك صار فريدريك الثاني في قمة تفوقه الا أنه بدأ يلمح عبر انتصاراته ملامح الضعف • فهو انتصر على أقوى دولتين عسكريتين في أوروبا في معركتين حربيتين الا انه ما ربح الحرب ضدهما بعد • ثم أن تكاثر الاعداء ضده جعله وحيدا في وجه دول قوية يبلغ تعداد سكانها عشرين ضعف عدد سكان بروسيا • وهو لا يستطيع ان يعتمد على حلفائه الأنكليز كثيرا لأفتقارهم للجيش البري الفعال ولأنشغالهم في حربهم ضد فرنسا في ماوراء البحار • وبالفعل بدأ يواجه مصاعب متزايدة منذ سنة ١٧٥٩ وهزم بقوة أمام الروس في آب (أغسطس) • وتعرضت بعد ذلك برلين نفسها في سنة ١٧٦٠ للغزو والنهب وتوالت الهزائم عليه فاجتاح الروس أراضي بوميرانيا وأستولى النمساويون مجددا على سيليزيا وكان ذلك في سنة ١٧٦١ •

بالمقابل في سنة ١٧٦٠ صار الانكليز في موقف ممتاز • فجيشهم الصغير في المانيا أنتصر في معركة ميندن وفي الهند وكندا صارت السيادة شبة كاملة لهم بعد ان أخرجوا الفرنسيين منهما وكذلك حدوا من قوة أسطول فرنسا في البحار •

في هذا الوقت بدأت الأقدار تقدم من المساعدات للبروسيين ما لا حد له • فتقدم الحرب بدأ يظهر التناقضات السياسية في صفوف أعدائهم • فأحتلال الروس لبروسيا الشرقية وتمركزهم فيها أخاف حلفاء النمسا

الآخرين مثل بولونيا والدنمرك والسويد وكذلك تخوفت فرنسا من ذلك ورفضت التعهد باعطاء هذه الأراضي لروسيا في التسوية النهائية لأنذلك يقوي مركزها كثيرا في شرق اوروبا وهو ما لا يريده لويس الخامس عشر ◦ هكذا بدأت التناقضات والخلافات تغرق اخصام فريدريكالثاني وتعوق مسيرتهم نحو النصر الحاسم ◦ ويضاف الى ذلك ان فرنسا التي تحملت القسم الأوفر من المصاريف المالية للحرب بدأت تدرك انها تورطت اكثر مما يجب في حرب لا ترجو منها كبير مكسب ◦

معجزة أخرى وقعت لصالح ملك بروسيا عندما توفيت قيصرة روسيا وخلفها على العرش بطرس الثالث صديق فريدريك الثاني والمعجب به كثيرا فأمر فورا بسحب جنودهمنبروسيا الشرقية ثم بادر لتوقيع معاهدة الصلح معه في مطلع سنة ١٧٦٢◦وفي أيار (مايو) من نفس السنة أنسحبتالسويد من الحرب وأعادت بوميرانيا الغربية للبروسيين ◦

أمام هذه التطورات المتلاحقة ما عادت ماريا تريزا تأمل بالحصول على نصر أكيد وجنحت نحو التفاهم والمصالحة مع فريدريك الثاني ◦ وفي شباط (فبراير) سنة ١٧٦٣ كان المفاوضون من البلدين قد توصلوا الى صلح هربتسبرغ Herbertsburg الذي أعاد الوضع في المانيا الى ما كان عليه قبل الحرب بين النمسا وبروسيا مبقيا على سيليزيا نهائيا تحت سيادة فريدريك الثاني ◦

وقبل ذلك بأيام كانت الدول البحرية التي تورطت في القتال بشكل أو بآخر في البحار والمستعمرات فرنسا وأسبانيا والبرتغال قد جنحت هي أيضا لوقف حربها ضد الأنكليز بعد الأنتصارات العظيمة التي سجلها هؤلاء ◦ وفعلاأمكن الوصول الى بنود صلح باريس لسنة ١٧٦٣ الذي أكد تفوق الأنكليز في مجال الأستعمار والسيادة على البحار ◦ بموجب هذا الصلح تنازلت فرنسا لأنكلترا عن أراضيها في كندا وكذلك عن كل الأراضي الواقعة غربي نهر الميسيسيبي والممتدة من البحيرات الكبرى في

الشمال حتى خليج المكسيك ما عدا مدينة أورليان الجديدة أعطتها لأسبانيا •

وكذلك تعطي أسبانيا أراضي فلوريدا لأنكلترا مقابل أسترجاعها جزيرة كوبا والفيليبين اللتين أحتلتهما أنكلترا أثناء الحرب •

اما في الهند فقد أعيد الوضع الى ما كان عليه قبل الحرب وبذلك أحتفظت فرنسا بممتلكاتها هناك شرط أن تظل مراكز تجارية لا يحق لها الاحتفاظ فيها بقوات عسكرية أو اقامة تحصينات وبذا أطلقت يد انكلترا نهائيا وبصورة عملية في شبه القارة الهندية •

الثـورة الفرنسية

فرنسا على أبواب الثورة

كانت ثورة الفرنسيين في سنة ١٧٨٩ على النظام الملكي حدثا استثنائيا في تاريخ أوروبا الحديث • ذلك أنها كانت نقطة تحول أساسية في مسيرة النظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية في فرنسا كما في سائر بلدان غرب أوروبا • فآثار هذه الثورة ونتائجها تجاوزت كثيرا حدود فرنسا ووصلت الى حيث كان يشتكي الناس مما اشتكى منه الفرنسيون وثاروا عليه • فالثورة الفرنسية أتت لتزيل كل ما كان ما يزال حيا في فرنسا من مخلفات عصر الاقطاع من طغيان طبقة النبلاء واستئثارهم بخيرات أرض فرنسا الغنية ومن امتيازات وسلطات واسعة تمارسها طبقة رجال الدين دون مبرر انساني وبصورة مجافية لأوضاع العصر وللافكار التي بدأت تسوده • وأيضا هدفت الثورة الفرنسية لتحرير الحياة السياسية من طغيان الملكية واستبدادها وتمسكها بسلطات تزعم حصولها عليه وديعة من رب العالمين دون أن تعمل حقا بما اشترطه واضعو نظرية حق الملوك الآلهي في السلطان من لزوم العمل وفق شرائع الله وقوانينه الأخلاقية •

والواقع أن ثورة سنة ١٧٨٩ وأن كانت قد قامت في فرنسا الا أنها جاءت لتعالج عللا شائعة في كل أوروبا وبالتالي فأن الحلول التي أوجدتها ربما صلحت لبلدان كثيرة غيرها أو على الأقل هكذا اعتقد أحرار هذه البلاد • ولذا فقد صارت هذه الثورة مدرسة وهاديا ومرشدا للعالم المتمدن طيلة القرن التاسع عشر •

ولفهم أحداث هذه الثورة العظيمة وادراك مراحل مسارها الطويل لا بد من تقصي الأسباب والدوافع الحقيقية التي أوجدتها ، على تشابكها

وصعوبة تعدادها وحصرها • ثم أن عدة من أسباب هذه الثورة لا تبدو واضحة للباحث بسبب ارتباط جذورها عميقا في قلب التاريخ الفرنسي بما ربما وصل الى أيام لويس الرابع عشر حين كانت فرنسا الملكية في قمة مجدها وابهى سنائها • على أننا نستطيع بشيء من اليسر تلمس اهم مسبباتها في العوامل الآتية •

النظام الملكي :

في أواخر القرن الثامن عشر كانت الملكية الفرنسية ما تزال تسير وفق ما بشر به وعمل بموجبه لويس الرابع عشر من نظريات الحكم الأسبدادي المطلق الذي يرتكز لتفويض من الخالق بادارة شؤون المخلوقين • وعلى هذا فملك الفرنسيين كان ما يزال بموجب القوانين والتقاليد الفرنسية سيد الدولة وحاكمها المطلق • بل أن الاستبداد كان حقا من حقوقه المسلم بها ، يمارسه في مجال السلطة التنفيذية كما في التشريع ، اذ كان يضع ما يريد من قوانين • وما كان يحد سلطته التشريعية هذه الا المحاكم العليا التي كانت تملك حق مناقشة القوانين ودراستها دون أن تكون قراراتها ملزمة للملك • والواقع أن هذه المحاكم بما كان يجري فيها من مناقشات قد ساهمت في ارشاد الناس الى مساويء الحكم والى ما كان يصدر عن الملكية من تشريعات ما كانت دائما في صالح الجماعة • وقد حدث هذا بصورة خاصة في أيام لويس السادس عشر حين أخذ أبناء الطبقة المثقفة يتصدون بجرأة للقوانين الفرنسية ويناقشونها في المحاكم العليا ويظهرون ما فيها من مظالم ومن تجاوز لحقوق عامة الناس •

وزاد من صعوبة موقف الملكية عشية الثورة ان الملك لويس السادس عشر الذي جرت الثورة في أيام حكمه كان ضعيفا مترددا مستهترا تتحكم به الملكة وأيضا بعض أعوانه والمقربين اليه فكان عليه أن يتحمل وزر أخطائهم وتجاوزاتهم واستغلالهم • يضاف الى ذلك ان بعض أعوانه والمقربين منه الذين كان يفترض فيهم أن يكونوا دعامة النظام وسنده كان قد فتر ولاؤهم له أو أنهم ادركوا ان الزمن تخطاه وان مفاهيم عصرهم قد تجاوزت النظام القائم • وقد برزت هذه الظاهرة بصورة خاصة بالتحاق

الكثيرين من أبناء النبلاء من المثقفين بركب المباديء الحرة فدعوا للثورة وطلبوا التغيير وتخلوا بذلك عن النظام الذي طالما ارتكز الى ولاء طبقتهم الممتازة •

نظام الطبقات :

ولعل أكثر ما كان يؤذي مشاعر الفرنسيين ويثير فيهم الشعور بالغبن والمظلمة تمسك النظام الملكي بنظام الطبقات الموروث من أيام العصور الوسطى والذي يجعل الفرنسيين درجات تختلف في المراتب وتتفاوت في الحقوق والواجبات • ويمكننا أن نميز في سلم الرتب الاجتماعية الفئآت التالية :

١ ــ طبقة الاشراف : ورث هؤلاء عن أسلافهم سادة اقطاعات العصور الوسطى امتيازات لم يعد لها ما يبررها وما عادت تتوافق مع واقع فرنسا الاقتصادي والاجتماعي والفكري • كان هؤلاء يملكون جل أرض فرنسا الزراعية ويستثمرونها بواسطة فلاحين يعيشون عليها في ظروف قاسية مجحفة • ومع الأرض ورثوا حقوقا وامتيازات كثيرة كحقهم في الصيد في مزارع الفلاحين أو كحقهم الموروث في فرض ضرائب معينة على العاملين في أراضيهم • وأيضا كان هؤلاء يستأثرون تقليديا بالمناصب العليا في الجيش والادارة وفي نفس الوقت يحافظون على حقهم بالاعفاء من اكثر الضرائب التي تجمع لحساب الخزانة العامة •

حقوق الاشراف وامتيازاتهم الكثيرة تجاه الدولة وتجاه المواطنين توارثوها أبا عن جد منذ القرون الوسطى وحافظوا عليها بحرص عظيم • الا انها مع تطور الحياة بدت في أواخر القرن الثامن عشر ظاهرة شاذة وحملا ثقيلا على الفلاحين كما على سكان المدن •

٢ ــ طبقة الاكليروس : ورجال الدين أيضا كانوا يشكلون طبقة ممتازة لها نفوذ قوي طاغ يرتكز من جهة ، لامتيازات تقليدية موروثة من العصور الوسطى ومن جهة ثانية ، لثروة مادية عظيمة : لقد كانت الأديرة

والرهبانيات الكثيرة المنتشرة في جميع أرجاء فرنسا تملك مساحات واسعة من أجود الأراضي الزراعية تشكل في مجموعها خمس أراضي فرنسا يعمل فيها ألوف الفلاحين في ظروف قاسية شديدة أبعد ما تكون عما أراده وأوصى به السيد المسيح • ويزيد في موارد الكنيسة ما يدخل صناديقها سنويا من حاصلات ضريبة العشر التي كانت تجبى من المواطنين والتي وصل مردودها عشية الثورة الى حدود مايتي مليون فرنك ذهب • وفوق هذا وذاك فان رجال الأكليروس كانوا كالأشراف معفون من اكثر الضرائب مما يبقي عبء هذه فقط على كاهل الطبقة الثالثة •

٣ ــ الطبقة الثالثة : وتضم سواد الفلاحين والعامة من سكان المدن • وعلى هؤلاء تحمل عبء الضرائب وتقديم الجنود في أيام الحرب وخدمة الكنيسة والعمل في مزارع النبلاء • وبعبارة موجزة فأنهم يلتزمون بواجبات كبيرة لا يقابلها الا حقوق ضئيلة فهم محرومون من أبسط حقوق الانسان الطبيعية • لم يكن القانون الفرنسي يعترف لهم بحقهم في الحريات العامة ولا يعطيهم حق المساواة مع النبلاء أو الاكليروس امام القانون ولا كان يسمح لهم بالمشاركة الفعالة في الحياة السياسية أو بحقهم في اختيار النظام السياسي والاقتصادي الذي يتلاءم مع رغباتهم ومصالحهم •

وقبل قيام الثورة بمدة طويلة كان تطور الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية قد أوجد في قلب الطبقة الثالثة فئة جديدة تعرف باسم البورجوازية وتميزت بما جمعته من ثروة وبما توفر لابنائها من علم وثقافة ونفوذ اقتصادي •

والواقع أن ظهور هذه الطبقة يعود الى أواخر العصور الوسطى حين تحرر بعض أقنان الأرض وتملكوا أراضي استغلوها لحسابهم الخاص ، كما مارس بعضهم الأعمال الحرة وبرعوا في التجارة وبعض الصناعات الناشئة• ومما سهل مهمة هؤلاء وجعلهم مع الوقت يسيطرون على التجارة والصناعة الناشئة ترفع ابناء النبلاء عن ممارسة مثل هذه الاعمال • ثم ان اكتشاف اميركا ، وما سببه من تدفق الأموال على أوروبا ، واتساع آفاق التجارة الخارجية ، فتح أمام الكثيرين سبل الغنى والثروة السريعة • ومن أبناء

هؤلاء من تفرغ للعلم والثقافة وكثر من بينهم الاطباء والمحامون والأدباء والاساتذة . ولم يمض كبير وقت حتى صارت هذه الفئات المثقفةالناشطة قادرة ، بل وراغبة ، في مزاحمة أبناء النبلاء على المراكز الكبيرة في الدولة ، مصدر النفوذ والسلطة . وقد تسلطت فعلا على تلك التي تحتاج الى العلم والاختصاص وهي امور لم تكن تتوفر كثيرا في أبناء النبلاء . وكان منها كتاب وعلماء وفلاسفة ساهموا في تنوير الجماهير وجعلها تشعر بما هي فيه من ظلم وتدرك ما لها من حقوق مغتصبة .

ساعد هؤلاء المثقفين الأحرار من أبناء البورجوازية في مهمتهم كون برامج التعليم كانت أدبية محضة . فكانت تعتبر الأدب القديم وبصورة خاصة أدب اليونان كمعين لا ينضب للثروة الفكرية . والأدب اليوناني خطر الى حد ما ، اذ لم يكن اليونان القدماء موحدين سياسيا أو خاضعين لسلطة كبرى . هذا الأدب ، بما فيه من فردية وحرية ، نفح في الفرنسيين روح التمرد والثورية . ومن هذه الزاوية ساعدت برامج التعليم على الثورة وبصورة خاصة ضد طبقة النبلاء والاشراف الذين ظلوا يحتفظون بامتيازاتهم وخاصة في المجالات العسكرية والسياسية . وكان هذا يثير أبناء البورجوازية ويجعلهم يشعرون بأنهم في وضع شاذ ، اذ كانوا يرون بأن عندهم العلم والخبرة والمال ، ومع هذا فالمراكز الكبرى والسلطة للنبلاء . ولذا فان الثورة في بدايتها ستبدو أحيانا وكأنها تمرد على امتيازات النبلاء والاكليروس أكثر مما هي خروج على سلطان النظام الملكي .

الوضع المالي :

كانت فرنسا تشكو عجزا مزمنا في خزينتها العامة تعود جذوره الى أيام الملك لويس الرابع عشر . وازدادت الازمة حدة بسبب ما تحملته الخزينة الفرنسية من أعباء لتمويل عمليات الحرب الاميركية ولمساعدة الاميركيين في ثورتهم على حكم الانكليز . يضاف الى ذلك أن أسراف البلاط ومصاريف النبلاء وامتيازاتهم ما كانت تعرف حدا تقف عنده .

ولكي ندرك حقيقة الوضع المالي لفرنسا قبيل الثورة يكفي ان نلقي نظرة الى حسابات الخزينة للعام ١٧٨٨ وهو العام السابق لها • لقد كانت المصاريف لهذا العام ٦٢٩ مليونا من الفرنكات بينما لم تكن الواردات تزيد عن ٥٠٣ أي بعجز مقداره ١٣٦ مليون فرنك مما يشكل ٢٠ ٪ من الميزانية العامة • ولعل نقطة الضعف الهامة في هذه الميزانية ، الى جانب عدم توازنها ، هي الطريقة الفاسدة في توزيع المصاريف فيها • كان نصفها يخصص لدفع الديون السابقة • وفي وقت ترى فيه مصاريف القصر وأصحاب الامتيازات تشكل ٦ ٪ من مجموع الموازنة ما كانت مصاريف التعليم والخدمات الاجتماعية تتجاوز ٢ ٪ •

بالطبع جرت محاولات عديدة لاصلاح الوضع المالي في البلاد ، قبل الثورة ، وخاصة في السنوات العشر السابقة لها ، أبرزها المحاولات الجادة التي قام بها الوزراء تيرغو Turgot ونيكير Necker الا أن مساعيهما خابت أمام استحالة تحصيل الضرائب من الاشراف ورجال الدين بسبب نفوذهم القوي وتعلقهم بامتيازاتهم •

وكان يزيد في سوء الأوضاع المالية وفي تذمر المواطنين ، أبناء الطبقة الثالثة ، فساد السياسة الضرائبية للدولة • فالقسم الأكبر من الضرائب كان يصيب ابنائها دون النظر الى أوضاع الكثيرين منهم المتردية في وقت كانت جل هذه الضرائب ان لم نقل كلها تذهب في غير الصالح العام • وكان يزيد في وطأة الضرائب أساليب جبايتها القاسية واعتماد الجباة في حالات كثيرة على مظاهر خارجية لتقدير قيمة الضريبة • ثم أن لجوء الدولة الى احتكار بعض السلع تتولى المتاجرة بها وجمع الضرائب عبر ذلك قد أدى الى عرقلة التجارة أحيانا وشل بعض القطاعات •

العامل الاقتصادي :

رافق الأوضاع السياسية والمالية السيئة تدهور في الوضع الاقتصادي العام للبلاد تعود جذوره الى أكثر من نصف قرن • لقد ارتفع معدل

الاسعار في السنوات الخمسين السابقة للثورة بنسبة ٦٥ ٪ بينما لم ترتفع الاجور بأكثر من ٢٢ ٪ • وقد زادت الأزمة الاقتصادية الدورية التي حدثت سنة ١٧٨٨ في تردي الأوضاع العامة اذ أصابت الطبقة البورجوازية في مداخيلها بشكل عنيف وتناولت العمال والفلاحين في لقمة عيشهم • جاءت المواسم الزراعية ، وخاصة موسم القمح ، عاطلة في السنة المذكورة فعم القحط أنحاء البلاد ، وانخفض انتاج القمح الى ادنى مستوى عرفته فرنسا • وعندما جاء ربيع سنة ١٧٨٩ كان قد عز الرغيف ، وارتفع سعره ، ولم يعد بمتناول الكثيرين من أبناء الطبقة الفقيرة • وكانت المعاهدة الاقتصادية المعقودة مع بريطانيا قد زادت في حدة الأزمة بما أتاحته للتجار من تصدير القمح للانكليز سعيا وراء الربح الوفير ، رغم حاجة الفرنسيين لقمحهم • وعبثا طالب الرأي العام بالغاء المعاهدة الاقتصادية المعقودة مع بريطانيا والتي تبيح تصدير القمح اليها • انتشرت المجاعة وعم الاستياء المدن والأرياف وأخذ الفلاحون يطوفون مستجدين تارة ومحرقين المنازل طورا فتلبد الجو بغيوم الثورة •

الجمعية الوطنية

ان الأزمة الاقتصادية الحادة التي اجتاحت فرنسا سنة ١٧٨٩ لم تكن أكثر من تذكير للمسؤولين بأن عليهم أن يجدوا حلا جذريا لأوضاع فرنسا العامة وليس الاقتصادية فقط • ومحاولات تيرغو لأصلاح الوضع المالي كانت دلالة على ادراك بعض المسؤولين لابعادها ولخطورتها • بل أكثر من هذا أن آخر المحاولات الجدية قبل الثورة لاصلاح الأوضاع صدرت عن الوزير كالون Calonne المعروف من جهة ، بتفاؤله ومن جهة اخرى ، بصلاته الوثيقة برجال البلاط وبولائه للملك والعرش • لقد أدرك هذا الوزير أن اصلاح الاوضاع المالية لا بد ان يكون المدخل لكل اصلاح عام ، واصلاح الاوضاع المالية لا يكون الا بجعل الفرنسيين يتساوون كلهم في تحمل مصاريف الدولة بغض النظر عن مراتبهم الاجتماعية وامتيازاتهم الموروثة • وليقنع رجال الدين والنبلاء بقبول اصلاحاته باعتبارها ضرورية لا بد منها لسلامة النظام والبلاد دعى مجلس الأعيان ـ وهو مجلس يمثل طبقتي الاعيان والاكليروس قليلا ما كان يجتمع ـ الى اجتماع عقد سنة ١٧٨٧ عرض فيه مجمل اقتراحاته لأصلاح أوضاع البلاد المالية • لقد أبلغ المجتمعين ان ديون الخزينة تبلغ أربعة مليارات يضاف اليها ما تراكم من تكاليف الحرب الاميركية وان لا سبيل لايفاء هذه الديون الا بفرض ضريبة جديدة تصيب المواطنين جميعا بغض النظر عن طبقتهم ووضعهم الاجتماعي • هذا التقرير المتشائم أثار ضجة ومناقشات حادة بين المجتمعين الا انهم في النهاية تعاموا عن رؤية الواقع ورفضوا اقتراحاته وطالبوا بأقالته وهذا ما حصل فعلا •

وفي سنة ١٧٨٨ عندما دعي الوزير الخبير نيكير ليتسلم وزارة المال مجددا ، وكانت الأزمة الاقتصادية قد استفحلت بشكل خطر وانتشرت المجاعة وعم البؤس ، وجد أن عليه أن يسرع لأنقاذ فرنسا بتدابير جذرية مهما كانت الطرق والأساليب • كان الوزير الجديد عالما بداء فرنسا ، عارفا لدوائها ، فسارع بابلاغ الملك ان فرنسا تقف على حافة الافلاس وان الوضع اذا ما استمر على ما هو عليه فانه سيقود الى الانفجار والكارثة • وقد اقترح ان تطرح المشكلة كلها على الامة الفرنسية عن طريق دعوة مجلس الطبقات Etats Generaux للاجتماع بعد ان أهمل تماما مدة ١٧٥ عاما • فالخزينة بحاجة ماسة للمال وهذا لم يعد من الممكن زيادة جبايته الا بموافقة وقبول ممثلي الامة • قبل الملك هذا الاقتراح مترددا ، وربما مكرها ، وعهد لوزيره بوضع قانون انتخابي جديد جرت على أساسه انتخابات عامة في جميع أرجاء المملكة • وكانت الانتخابات مناسبة رفع خلالها الناخبون وفق التقاليد الفرنسية القديمة للمجلس الجديد شكاواهم ومطالبهم التي اجمع الفرنسيون على ضرورة تحقيقها وأهمها :

••• صيانة الحريات العامة ومنع التعدي عليها الا وفق القانون •

••• القضاء على ما تبقى من امتيازات اقطاعية ومساواة الجميع أمام القانون •

••• اصلاح القضاء •

••• حصر فرض الضرائب بممثلي الشعب في مجلس الطبقات •

••• توزيع اعباء الضرائب على جميع المواطنين بالتساوي بغض النظر عن الانتماء الطبقي للمكلفين •

والواضح من هذه المطالب انها كانت على درجة كبيرة من الاعتدال ولا تحمل في طياتها أي عداء للنظام الملكي او رغبة في احداث تغيير جذري في الأنظمة السياسية والاقتصادية السائدة في فرنسا • وأبرز ما فيها أنها من وضع مواطنين لا يزالون على ولائهم للملكية وعلى حبهم للملك يدفعهم

مثل أعلى ، هو العمل على جعل فرنسا مملكة دستورية برلمانية ديموقراطية شبيهة بالملكية القائمة في انكلترا .

تألف المجلس الجديد من ١٢٠٠ عضو نصفهم يمثل الطبقة الثالثة والنصف الآخر يمثل بالتساوي طبقتي النبلاء والاكليروس . وتقضي التقاليد القديمة بأن يجتمع مندوبو كل طبقة على حدة وان يجري التصويت على أساس صوت واحد لكل طبقة بغض النظر عن عدد المندوبين . وبذا يكون دائما ممثلو الطبقة الثالثة في موقع الأقلية تجاه تحالف مندوبي النبلاء والاكليروس الدائم لتوافق مصالحهم . وفي الاجتماع الاول الذي عقد في ٥ مايو (أيار) سنة ١٧٨٩ اعترض زعماء الطبقة الثالثة على طريقة التصويت المجافية للديموقراطية وأصروا على أن تؤخذ الأصوات بالاقتراع الفردي وليس على أساس الطبقات . وكانوا يهدفون من وراء ذلك للحصول على أغلبية في المجلس لأخذ المبادرة عند طرح المشاكل الهامة . ذلك أنهم كانوا يعرفون ان عددا لا بأس به من مندوبي النبلاء والاكليروس كانوا ميالين للتعاون مع الطبقة الثالثة ، بسبب تأثرهم بالافكار الحرة والمباديء الديموقراطية ، ولذا فأن أي اقتراع بالاسماء سيجعل الأغلبية بجانب ممثلي الطبقة الثالثة المعبرين ، فعلا عن آمال ومصالح شعب فرنسا . ادرك الملك أبعاد هذا الاقتراح فرفضه وتمسك بالتقاليد القديمة بعناد واصرار .

الجمعية الوطنية :

الملك ومناصروه من النبلاء والأكليروس تمسكوا بضرورة المحافظة على التقليد النيابي القديم لأبقاء سيطرتهم على المجلس ، وبالمقابل اعتبر ممثلوا الطبقة الثالثة قضية التصويت على اساس أن لكل نائب صوت هي المدخل الى الاصلاح الحقيقي . وقد زاد تصلبهم ان الخطاب الذي القاه باسم الحكومة الوزير نيكير ركز على اصلاح الاوضاع المالية عن طريق زيادة الجباية دون الاهتمام بسائر أوجه الاصلاح الضرورية . كما انه اهمل الاشارة الى موقف الدولة من المطالب التي رفعها الناخبون أثناء

الانتخابات ، وهذا يعني أن الدولة توخت من دعوة المجلس حل مشكلتها المالية فقط مما جعل ممثلي الطبقة الثالثة يميلون لأخذ زمام المبادرة من السلطة والسير في طريق تحقيق اصلاح دستوري شامل مهما كانت العقبات .

وأمام تصلب الملك في موقفه تقدم سياياس (Sièyès) وهو راهب متنور من أنصار المبادىء الحرة باقتراح يدعو الى اجتماع مندوبي الطبقة الثالثة ومن يؤيدهم من أحرار الطبقتين الأخريين في مجلس تشريعي يمثل كل البلاد ويطلق عليه اسم « الجمعية الوطنية » . كان ذلك في ١٦ يونيو (حزيران) وقد قبل هذا الاقتراح وبدأ المندوبون بصفتهم نواب الشعب الشرعيون يستعدون لوضع دستور جديد يصون حقوق المواطنين متجاوزين بذلك الغاية التي من أجلها دعي مجلس الطبقات للاجتماع وهي فرض ضرائب جديدة . ادرك الملك وأنصاره ابعاد الخطوة المقترحة وما تنطوي عليه من تهديد لسلطان الملكية المطلق فأمر بأخلاء القاعة من الحضور بحجة الرغبة في الاعداد لاجتماع قادم . لم يتفرق مندوبو الطبقة الثالثة ومؤيدوهم وانما انتقلوا الى ملعب للتنس : مجاور للقصر ، حيث تعاهدوا على مواصلة الاجتماع الى ان يعطوا البلاد دستورا ديموقراطيا .ويعرف اتفاقهم هذا باسم « قسم ملعب التنس » . وبذا تحول مجلس الطبقات الى جمعية تشريعية تعمل لوضع دستور يلبي حاجات الفرنسيين .

لم يكن الملك راضيا عما جرى ولذا دعا المجلس الى اجتماع : في ٢٣ من الشهر نفسه ، عرض فيه على المندوبين خطة وضعتها الحكومة لاصلاح الادارة وتقويم أوضاع الخزينة ، وأبلغهم من جهة ثانية أصراره على ان تظل طريقة التصويت القديمة هي المعتمدة وكذلك رفضه والغاءه للقرار الذي اتخذ بتحويل المجلس الى جمعية وطنية .

انسحب الملك من الاجتماع وتبعه محازبوه من النبلاء والاكليروس. الا ان مندوبي الطبقة الثالثة وحلفاءهم بقوا في أماكنهم مما جعل أحد موظفي البلاط يذكرهم بأمر الملك باخلاء القاعة .

هنا أظهرت الثورة أحد ابرز زعمائها وأحكم قادتها ، ميرابو Mirabeau ، الذي رد بعبارته الشهيرة : « نحن هنا بارادة الشعب ولن نخرج الا على رؤوس الحراب » • كان ميرابو يمثل هوية الثورة في عهدها الأول • اذ كان يريد تحقيق اصلاح معقول مع الابقاء على العرش والملك • لقد كان ملكيا دستوريا وبقي كذلك حتى آخر حياته •

بعد أيام قليلة سجل مندوبو الشعب اولى انتصاراتهم حين تراجع الملك عن قراره وأمر ممثلي الاكليروس والنبلاء بالعودة الى مقاعدهم في الجمعية والتعاون مع زملائهم ممثلي الطبقة الثالثة من أجل خير المملكة والعرش • الا ان الملك وحكومته كانا يشعران بخطورة الوضع في باريس وبأن ثورة قد تندلع فيها في أية لحظة ، فاستدعيت بعض فرق الجيش الى فرساي على سبيل الاحتياط ، واتخذت تدابير مشددة لصيانة الأمن والنظام • ولما كان الوزير نيكير يعارض مثل هذه التدابير فقد تخلى عن مركزه واستبدل بأحد أعوان الملك ، وكان صديقا للملكة التي كان الناس في فرنسا يحملونها الكثير من اوزار الحكم والعرش ، مما كان له أسوأ الأثر بين الفرنسيين •

سقوط الباستيل :

هذه التدابير الأخيرة كان لها في باريس وقع سيء الأثر خاصة لما كان يرافقها من شائعات عن مؤامرة يعدها الملكيون المتطرفون وعلى رأسهم الملكة ماري أنطوانيت ، القوية الشخصية والنافذة الارادة ، ودوق دارتوا شقيق الملك المعادي لكل فكر اصلاحي أو دستوري • ومما جعل الناس يميلون للاخذ بهذه الشائعات تمسك الملك بالقوات التي استدعاها الى فرساي ورفضه أبعادها ، كما طالب بعض زعماء الجمعية الوطنية •

ولم يلبث الخلاف بين الملك وزعماء الجمعية الوطنية أن انتقل الى شارع باريس الذي كثرت فيه المظاهرات ، يشارك فيها العاطلون عن العمل والعاجزون عن تأمين كفافهم ، او اولئك الذين عجزوا عن شراء القمح لفقدانه من الاسواق بسبب جشع التجار ، ويوجهها ويثير حماس المشاركين

فيها خطباء ومهيجون بلغاء وصحفيو أثـــارة من أمثال مـــارا Marat وديمولـــين Desmoulin • انتشرت الفوضى في باريس وسفكت في بعض المظاهرات دماء كثيرة ، اثر الاصطدام ببعض الجنود من المرتزقة الالمان ، مما بدأ يخلق جوا من عدم الثقة بل والعداء تجاه العرش والملك • ولـــم تتردد بلدية باريس التي سيطر عليها عوام العاصمة ومتطرفوها في السماح للمواطنين بأن يتسلحوا ويشكلوا حرسا أهليا يساعد على حفظ النظام وصيانة الأرواح والأموال • الا ان الوضع ظل يسير من سيء الى أسوأ ، وسعى الناس بكل الوسائل للحصول على السلاح ، فنهبت مخازن ومتاجر السلاح ، وكذلك استولى المتظاهرون على مخازن السلاح في الأنفاليد ونهبوا ما فيها ــ وكان كثيرا ــ من بنادق ومدافع واندفعوا بقوة نحـــو الباستيل يحاصرونه • لقد كان الباستيل حصنا قديما مهملا استعملتـــه الدولة في بعض الحالات سجنا للمحكومين لمدد طويلة ، وربما في حالات قليلة للمسجونين السياسيين • الا ان هالة من الاشاعات والأساطير نسجت خلال سنين كثيرة حول ما يجري فيه من مظالم وجرائم ، وصار في نظـــر الفرنسيين رمزا لطغيان الملكية ، ومقرا لظلمها واستبدادها ، ومستقرا للمقهورين ودعاة الحريـــة والديموقراطية • كان ذلك يوم ١٤ يوليـــو (تموز) سنة ١٧٨٩ •

استعمل قائد الحصـــن دي لوني De Launay الحكمة مـــع المهاجمين ، خاصة وأنه لم يكن تحت أمرته من الجند غير نفر ضئيل بينهم بعض المرتزقة من السويسريين • الا ان المهاجمين الثائرين أعملوا مدافعهم في بناء الحصن وتسلق بعضهم جدرانه وسيطروا على حصونه • ولم ينفع المدافعين عن الباستيل سريع استسلامهم ، اذ اعمـــل المهاجمون السيف في رقابهم وقتلوا جلهم ورفعوا رأس قائدهم على حربة وطافوا به شوارع باريس معلنين للناس أنتصار الجماهير على رمز الطغيان والاستبداد •

لقد أتخذت أحداث باريس هذه شكلا من العنف والبطش أبعد ما يكون عما اراده دعاة الأصلاح وطلاب الديموقراطية من البورجوازيـــين

وأنصار الأعتدال والذين كانوا يشكلون الأكثرية في الجمعية الوطنية .لقد أظهر تطور الأحداث ان زمام الأمور بدأ يفلت من يد تلك الفئة الواعية من السكان والتي كانت أصلا المسيطرة والموجهة لما يجري في البـــلاد . لقد دخل عوام باريس حلبة الصراع بقوة ، وفرضوا أنفسهم في الشارع ، مما أثار في أوساط الجمعية الوطنية الخوف والقلق من أن تسيطر العناصر المتطرفة جدا التي قد تقود فرنسا في مزالق ومهاوي لا تعرف أبعادها .

صحيح ان الأنتصار في الباستيل كان وهميا ، وأنه ما كان فيه ساعة احتلاله سوى عدد قليل من المجانين الخطرين ، الا ان الحادث بذاته رفع من معنويات الجماهير وأنتشرت حركات التمرد في المدن ولأرياف . هناك كانت مكاتب الضرائب والدوائر الرسمية وكل ما له علاقة بامتيـــازات الأشراف هدفا للتخريب والتدمير . لقد اراد المهاجمون ان يقضوا على كل صلة بالماضي الحافل بالقيود والمظالم المالية والعقارية بالنسبة للجماهير ، خاصة ما كان يؤكد أمتيازات الأشراف والأكليروس . . وكما كان الامر في باريس كذلك في الأقاليم وقفت الدولة عاجزة عن السيطرة على الأحداث وكبح جماح الشارع الثائر ، فقامت في كل مكان لجان أهليةللاشراف على أعمال الحكومة والمحافظة على الأمن والنظام . وساعد على أنتشار هذه الفوضى بصورة خاصة في الأرياف وبين الفلاحين الأشاعات التي كانت تنتشر بسرعة والتي تزعم بأن النبلاء والأشراف يشكلون عصابات مـن المرتزقة للقضاء على الفلاحين وأحراق بيوت ومزارع من ايدوا الثورة من رجال البورجوازية .

الحرس الاهلي :

من خلالأحداث ١٤ يوليو (تموز) المضطربة برز علىمسرح الأحداث في باريس بطل الحرب الأهلية الأميركية ، المركيز لا فاييت La Fayette . كان أحد أبناء طبقة النبلاء وقد آمن باكرا بقضية الحرية والديموقراطية فوضع نفسه في خدمة قضية أستقلال أميركا وجعله الأميركيون أحـــــد

ابطال تاريخهم • بعد عودته الى باريس تبوأ مكانة كبيرة عند أهلها بفضل سمعته الطيبة وأيمانه بالأفكار الحرة • كان أول من التحق من الأشراف فيمجلس الطبقات بمندوبي الطبقة الثالثة مدافعا عن قضيتها • وحين أجتاحت اعمال العنف والتخريب مدينة باريس رأت البوجوازية المسيطرة ان لا بد من قوة تدين لها بالولاء وتدافع عن مصالحها وممتلكاتها الوافرة في باريس كما في سائر المدن فتشكل في بلدية باريس الحرس الأهلي وأسندت رئآسته الى لافاييت • تشكل هذا الحرس أول الأمر من المتطوعة ثم تزايد عدد افراده حتى جاوز الخمسين الفا جلهم من المتحمسين للثورة المشبعين بأفكارها • لقد تقبل البلاط والملكيون على أختلاف فصائلهم هذا التعيين بالأرتياح لكون لا فاييت ضمانة أخلاقية ووطنية ولما عرف عنه من أفكار أصلاحية معتدلة وبعد عن أي تطرف • حاول دوما في عمله أن يكون بمثابة جسر بين الملك والأمة ساعيا الى نشر دستور يضمن للشعب حرياته الطبيعية وحقوقه الدستورية ويبقي للعرش سلطات محدودة •

وبهذه الصورة صار للجمعية الوطنية أداة تنفيذية تدافع عن رجالها وتحمي مقرراتها وتصون نفوذها • والواقع ان الحرس الأهلي وخصوصا تحت زعامة لافاييت أدى ، رغم بعض الشوائب ، خدمات جليلة خاصة في بداية الثورة •

الغاء الامتيازات واعلان حقوق الانسان :

كانت الأحداث تتوالى بسرعة أفقدت الملكية مرونتها وقدرتها على اتخاذ الموقف المناسب فيالوقتالمناسب، خاصة وان الملكفي ضعفه وتردده والملكيون الرجعيون المتشددون بزعامة الملكة وشقيق الملك،وقفوا عاجزين عن فهم حقيقة ما يجري وأبعاده الحقيقية • ولما تعقد الموقف وأدركت الملكية ان زمام المبادرة صار بايدي المتطرفين من عوام باريس قررت تقديم بعض التنازلات تفاديا للأسوأ • ابعد الملك بعض وزرائه وتقبل العلم المثلث الألوان الذي رفعته الثورة واعاد نيكير ، المحبوب من الفرنسيين

لأخلاصه ونزاهته وجرأته ، الى وزارة المال • لقد فعل الملك ذلك رغـــم معارضة المتطرفين من اعوانه وأقربائه لأنه أدرك أن الأوضاع قد وصلت مرحلة يصعب التغلب عليها الا أذا حصلت مواجهـــة مسلحة بـــين جيش الملكية والشارع الفرنسي وحتى فيهذه الحالة فليس من المضمون انتكون النتيجة لصالح العرش والنظام • ولذا فقد أختار التضحية ببعض ما كان يعتبره حقوقا تاريخية لعرشه مقابل صيانة هذا العرش وبقائه •

الا أن هذا الموقف المعتدل والمتسامح بعض الشيء جاء متأخرا ، فشعر الجميع بأن لا بد من القيام بأصلاحات جذرية لتهدئة الأحوال في الشارع وأرضاء الفلاحين الثائرين • أجتمعت الجمعية الوطنية في جلسة خاصة مساء الثلاثاء في ٤ أغسطس (آب) سنة ١٧٨٩ للبحث عن الوسائل الكفيلة بأعادة النظام والقانون الى الشارع في فرنسا • في بدء الجلسة أعلن أحد كبار النبلاء ، الفيكونت دي نوايVicomte de Noailles ، أن السبب الحقيقي لما يجري في البلاد هو ما بقي في فرنسا مـــن رواسب الأمتيازات الأقطاعية التي يقترح الغاءها • وبتأييد من عدد وافر مـــن المتنورين والعقال من النبلاء والأكليروس أقرت الجمعية الوطنية القوانين التاليـــة :

••• الغاء حقوق النبلاء الاقطاعية وما يلحق بها من امتيازات قضائية وبالتالي تحرير الفلاحين من أي قيد أو التزام تجاه ملاكي الأرض •

••• الغاء اعمالالسخرة والضرائب المفروضة على المطاحن والأفران•

••• الغاء امتيازات المقاطعات والجمعيات الحرفية •

••• أصلاح القضاء بحيث يتساوى امامه الجميع في الحقـــوق والواجبات •

••• أعلان المساومة التامة بين المواطنين في الحصول على الوظائف العامـــة •

لا قت هذه المقررات استحسانا كبيرا لدى الفرنسيين وبصـــورة

خاصة في أوساط الفلاحين بأعتبار انها ازالت نهائيا وبصورة قانونية كل ما كان قد بقي في فرنسا من آثار النظام الأقطاعي • الا أنها من ناحية ثانية أعطت نتائج سيئة على الصعيد المالي أذ الغت دون دراسة وتمحيص كثيرا من الضرائب كانت الدولة تقوم مقابلها بخدمات أساسية • ومع ان الزعيم الثوري ميرابو قد استدرك هذا الأمر بناء على أشارة وزير المال نيكير وجعل الجمعية الوطنية تقر ضريبة تبلغ ربع جميع المداخيل التي تزيد على أربعماية ليرة بحيث لا تصيب الا أصحاب المداخيل المميزة• الا أن مردود هذه الضريبة كان أقل مما كان منتظرا وأخذ الناس يدركون تدريجيا ان ما حدث منذ شهر مايو (أيار) ، والذي كان في الأساس يهدف يهدف لأنقاذ فرنسا من مصاعبها المالية والأقتصادية ، انما أنتهى في الواقع الى تزايد مستمر في حدة هذه الأزمة • وهذا سبب خيبة أمل شديدة لكثير من الناس ، وخاصة لأولئك الذين كانوا يريدون أصلاح الأوضاع لا قلبها وتغييرها •

وفي ٢٦ أغسطس (آب) أصدرت الجمعية الوطنية وثيقة حددت حقوق الأنسان والمواطنين على الدولة والأمة وأبرز ما فيها •

••• الناس يولدون أحرارا ويظلون أحرارا متساوين في الحقوق •

••• الغرض من الحكومات ضمان وحماية الحقوق الطبيعية للانسان: الحرية ، الملكية ، حماية الأرواح ، وحق رد المظالم •

••• لا يسجن أحد أو يوقف الا في الحالات التي يحددها القانون

••• لكل أمة الحق في مشاركة حكومتها في وضع القوانين وتقرير الضرائب •

ويلاحظ أن هذا الاعلان قد تأثر بشكل واضح بنصوص وثيقة أعلان حقوق الأنسان الأميركية•كما أن روح أئمة الفكر الفرنسي الأحرار من أمثال روسو ومونتسكيو تبدو فيه واضحة الأثر • وقد نشرت الجمعية الوطنية هذا الاعلان لتجعل منه مقدمة للدستور الذي كانت قد ندبت نفسها لأعطائه للفرنسيين •

حوادث تشرين أول (أوكتوبر) سنة ١٧٨٩ :

كان لا بد لمقررات شهر أغسطس (آب) ، لتصبح نافذة المفعول وفق التقاليد الفرنسية ، من أن تقترن بالموافقة الملكية • ولم يكن منتظرا من الملك ان يوقع عليها بسهولة ، من جهة لكونها جردت العرش من اكثر صلاحياته التقليدية ومن جهة أخرى ، بسبب تحريض النبلاء وخاصة المتطرفين منهم وكذلك الملكة التي بدت آنذاك اكثر تصميما من الملك على المحافظة على كامل سلطات العرش الفرنسي • وفعلا رفض الملك توقيع تلك المقررات وتوتر الوضع في مدينة باريس حيث بدت عناصر التطرف ، وربما الشعب ، مسيطرة اكثر من أي وقت مضى • تخوف الملك من عاقبة تدهور الأوضاع الأمنية في باريس فاستدعى المزيد من فرق الجيش وخاصة فرقة الفلاندرز الشديدة الولاء لعرشه الى فرساي • أستغل المتطرفون والمهيجون هذا التدبير ، خصوصا وان عناصر فرقة الفلاندرز كانت من المرتزقة الأجانب ، واستعدوا جماهير الفرنسيين على ملكهم • وكذلك ساهمت الصحف الفرنسية المتطرفة في أثارة الشارع الفرنسي ، مستغلة شائعات سرت في أوائل شهر تشرين أول (أوكتوبر) عن أن حفلة صاخبة باذخة مترفة أقيمت في قصر فرساي لضباط هذه الفرقة أطلقت فيها الهتافات بحياة الملكية وأهينت شعارات الثورة وعلمها • ومما زاد في هياج جماهير باريس ، أن حفلة باذخة كهذه جرت في وقت كانت الأزمة الاقتصادية تعض بنابها الفقراء والعاطلين كما ان الخبز كان قد بات قليل الظهور ليس بسبب فقدان القمح فقط وانما ايضا بسبب قلة التنظيم وخوف التجار من أعمال السلب والنهب وأيضا بسبب الرغبة في الأستغلال والربح الوافر •

وأيضا بورجوازية باريس وزعماء الجمعية الوطنية أستاؤوا لرفض الملك التوقيع على مقررات الجمعية وتخوفوا من أقدامه على أستعمال القوة ضدهم فرأوا أستغلال الهيجان في الشارع ضد العرش لأجبار الملك على المجيء مع حاشيته الى باريس فيصبح تحت سيطرتهم وأقل تأثرا بالملكيين المتطرفين •

وفي ٥ تشرين أول (أوكتوبر) خرجت من باريس جماهير عريضة، تتقدمها النساء ، بأتجاه فرساي للعودة بالملك على زعم أنه بعودته لا بد ان تعود الأقوات آلى الظهور في المخازن • تخوف العقال والمعتدلون ، من زعماء الثورة ، مما قد ترتكبه الجماهير الزاحفة من تجاوزات وحماقات تجاه الملك او الجيش فلحق بها الحرس الأهلي وعلى رأسه لا فاييت •

هاجمت الجماهير الغاضبة قصر الملك ، بعد القضاء على مقاومة الحرس وبعض رجاله • لكن لا فاييت حال بين الملك والمهاجمين وطلب اليه العودة الى باريس بأسم بلدية العاصمة • دون مقاومة ، وافق الملك على العودة الى باريس،كما قبل بالتوقيع على مقررات الجمعية الوطنية الغاضبة بالغاء الأمتيازات وأعلان حقوق الأنسان • وفي اليوم السادس من الشهر المذكور وصل الملك وعائلته في عربة مذهبة بحماية الحرس الأهلي الى باريس حيث حل في قصر التويلري وبات في حمى الثورة أن لم نقل رهين أسرها •

وعقب مغادرة الملك قصر فرساي انتقلت الجمعية الوطنيةالى باريس لتتفرغ للمهمة التي أخذتها على عاتقها وهي صياغة الدستور الجديد • على أن الشيء الهام هو أنه بانتقال أجهزة الحكم الى العاصمة ، ليس فقط الملك بات أسير الثورة ، وأنما أعضاء الجمعية أنفسهم تعرضوا لما هو أمر وادهى ، فباتوا أسرى التطرف وتدخلت الجماهير اكثر من مرة في اعمال صياغة مواد الدستور مما أثر تأثيرا سيئا في أعداده •

المهاجرون :

بعد أن تأكدت سيطرة رجال الثورة على مرافق فرنسا ومقرراتها ، وبعد أن أتضحت ابعاد الأحداث الجارية ، وخاصة بعد صدور قانون الغاء الأمتيازات رآى كثيرون من النبلاء والأكليروس المعادون لخط الثورة الأصلاحي أستحالة التفاهم مع رجال الجمعية الوطنية وخطورة البقاء في فرنسا منتظرين ما ستأتي بهالأحداث • والواقع أنهم كانوا يعرفون تماما أن تسلط رجال البورجوازية على مقدرات الثورة والبلاد لا يمكن الا ان

يكون معاكسا لمصالحهم • فهؤلاء يريدون بحكم مصالحهم أيضا القضـاء على أمتيازات الأكليروس والنبلاء وتحرير التجارة من القيود القديمـة وتنشيط القطاع الصناعي ولو على حساب الزراعة • وهم أيضا يريدون تحرير العقول وتنويرهاوتثقيفها لأضعاف نفوذ النبلاء والأكليروس والقضاء على تسلطهم على مواقع السلطة في الدولة والجيش • ولذا صار الأشراف يغادرون فرنسا تباعا فيلجأ بعضهم الى العواصم القريبة ويتجمع القادرون على حمل السلاح عند الحدود حيث ينظمون صفوفهم ويتسلحون أستعدادا للعودة الى فرنسا بقوة السلاح والدفاع عن مصالحهم وامتيازاتهم •

الا أن هذه الهجرة أعطت مردودا عكسيا من حيث أنها أفرغت الصف المعادي للثورةمن أفضل عناصره وأقدرها واغناها ، كما أنها أثارت حقد الجماهير ضد كل العناصر النبيلة وحتى تلك التي بقيت في فرنسا •

الثورة والكنيسة :

لم يتوقف رجال الجمعية الوطنية في معالجتهم امور فرنسا عند حد أصلاح الأوضاع الدستورية والسياسية والأقتصادية وانما تجاوزوا ذلك في تصديهم لأمور الكنيسة • لقد اعتبروا أنفسهم ، بصفتهم ممثلين للشعب مصدر كل السلطات ، مخولين لمعالجة مصالح البلاد ، كل مصالح البلاد ودون أستثناء • صحيح ان اوضاع الكنيسة كانت آنذاك بحاجة الى شيء من الأصلاح ، أنما كان من الخطورة بمكان اجراء هذا الأصلاح ، ليس فقط بمعزل عن اصحاب الشأن فيها ، بل رغما عنهم وعلى يد جمعية وطنية صار للعلمانية فيها وزن وكلمة ولأعداء الكنيسة رأي وصوت يسمع • لذا أتت التشريعات المتعلقة بالكنيسة الكاثوليكية الفرنسية الصادرة عن هذه الجمعية متسمة بالتطرف ومتجاهلة لوظائف هذه المؤسسة ولرسالـة العاملين فيها مما ترك آثارا سيئة بالنسبة لفرنسا وأيضا للثورة •

في ٢ تشرين ثانـي (نوفمبر) سنة ١٧٨٩ ، وبنـاء لأقتراح الراهب تاليران Talleyrand ، أقرت الجمعية الوطنية مصادرة ممتلكات

الكنيسة التي كانت تقدر آنذاك بين مليارين وثلاثة مليارات ليرة .وبالرغم من معارضة الأكليروس الشديدة لهذا الأقتراح المعادي للكنيسة والـذي ينزع عنها كل قدراتها ويشل نشاطها ، وبالرغم من معارضته الواضحـة لواحد من بنود اعلان حقوق الأنسان الذي يضمن حق الملكية ويحميه فان الحماس له كان قويا في أوساط الجمعية مما أظهر انزلاقها المتزايد في دروب التطرف . والواقع ان الدافع الرئيسي وراء أصدار هذا التشريع ، كـان الرغبة في الحصول على المال لحل الأزمة المالية المزمنة والتي أكد علـى ترديها المتزايد نيكير في خريف ذلك العام . وقد برز هذا الدافع فعـلا للعيان حين بادرت الحكومة الى اصدار سندات على الخزينة بضمـان الممتلكات الكنسية . الا أن هذا النقد الورقي سرعان ما أنهارت قيمته ، من جهة لكثرة ما صدر منه دون مراعاة القواعد والأصول المالية ، ومـن جهة ثانية لأن البورجوازيـة المهيمنة آنـذاك بادرت لبيع الكثير مـن الأملاك الكنسية وأراضيها الزراعية لبورجوازية الأقاليم ، مما قوى مـن نفوذها ، وأيضا مما جعلها تصبح دعامة للثورة وسادتها في العاصمة . وقد اكدت الأحداث فيما بعد ان فرنسا والثورة خسرتا اكثر مما ربحتا مـن هذا التشريع الذي ما أستفاد منه أحد الا بورجوازية المال .

ولما كانت الكنيسة قد جردت من ممتلكاتها ومصادر دخلها الأساسية فقد بات من الضروري تنظيم أمورها وتأمين موارد العيش للأكليروس ليستمروا في تأدية رسالتهم . لذا أصدرت الجمعية الوطنية ، في يوليـو (تموز) سنة ١٧٩٠ ، دستورا مدنيا للأكليروس . بموجب هذا الدستور صار تعيين الأساقفة من حق الشعب وليس من حق الملك أو البابا ، وبالتالي صاروا ينتخبون من الشعب ويتناولون أجورهم من خزينة الدولة . وقـد طبق الدستور المدني على كافة الوظائف الدينية . لقد أتى هذا التنظيـم شديد الخطورة ، لأنه يتنافى وتقاليد الكنيسة بجعله الأكليروس في حكم موظفي الدولة بينما هم يعتبرون أنفسهم اصحاب رسالة . وفوق ذلـك فان حصولهم على الوظائف والمراتب الكنسية عن طريق الأنتخاب العـام يفتح امام غير الكاثوليك من امثال البروتستانت واليهود ابواب التدخـل

في شؤون الكنيسة ، وهو امر مرفوض بل وتسبب في نزاعات كثيرة بين المواطنين .

لم يكن من المعقول ان توافق الكنيسة على هذا الدستور ، ولهذا طلب من رجال الدين بعد أشهر قليلة ان يقسموا يمين الولاء للشعب والملك والدستور المدني للاكليروس . بعض الاكليروس امتثلوا وأقسموا اليمين عن قناعة أو لمصلحة آنية ، وأكثرهم خالفوا وباتوا حكما في الصف المعارض للثورة وهاجر منهم كثيرون تهربا من الضغوط والأضطهاد .

وقد أدى صدور هذا الدستور الى تازم في العلاقات مع البابوية ، والى أبتعاد عناصر الشعب المتدينة عن الثورة ، خاصة بعد أن صدر عن قداسة البابا قرار الحرمان بحق كل من يقبل او يقسم يمين الولاء لهذا الدستور . وكان أول واكثر من تأثر من القرار البابوي الملك لويس السادس عشر نفسه الذي ندم أشد الندم لتوقيعه على ذلك القانون ، أذ كان فعلا في أعماقه مؤمنا متدينا فأخذ يفتش عن مخرج لوضعه الحرج .

قرار الملك :

الواقع ان الملك والملكة كانا يعاديان الثورة أصلا ويضمران لها الكره والعداء ، ومع هذا فأن الملك قد تبنى ، طوعا او كرها ، الكثير من مقررات الثورة وتعاون في اكثر من مناسبة مع رجالاتها . الا أن الدستور المدني للأكليروس كان نقطة تحول في علاقاته بالثورة . لقد اقتنع اكثر من أي وقت مضى بأن التعاون مع الجمعية الوطنية يتعارض مع أيمانه وولائه للكاثوليكية ولذا فانه كثف علاقاته وأتصالاته السرية مع ملوك أوروبا ومع النبلاء المهاجرين لأنقاذ عرشه ونفسه .

ولم يكن الملك وحده قد نفذ صبره من تطرف الثورة ، بل ان بعض زعمائها وروادها ومحبيها باتوا يخافون عليها من متطرفيها . كبير خطباء هذه الثورة ميرابو ، الذي كان بطبعه كارها للتطرف مؤمنا بأن أفضل الأنظمة لفرنسا : « ملكية دستورية ذات سلطات محدودة تكفل للمواطنين

حرياتهم التامة » ، أدرك أن زمام الأمور قد صار بأيدي المتطرفين الذيـــن أخذوا يبتعدون بالبلاد كثيرا عن الهدف الأصلاحي الذي بدأت الأحداث من أجله • وقد عرض ميرابو على الملك مساعدته في التغلب على الجمعية الوطنية ، الا أن وفاته المفاجئة أفقدت الملك ثوريا مخلصا للثورة وأيضا لفرنسا ولعرشها •

وكمخرج أخير لجأ الملك الى المهاجرين الذين كانوا على اتصـــال مستمر بالملكة ، بواسطة الوزير السويدي فرسن Axel de Fersen • لقد تولى هذا تنظيم عملية هرب العائلة المالكة الى خارج فرنسا • خرج الملك وعائلته سرا في عربة مقفلة من باريس بأ تجاه الحدود الشماليـــة الشرقية ووصل في ليل ٢١ يونيو (حزيران) سنة ١٧٩١ الـى فاريـــن Varennes ، وهي بلدة صغيرة قرب الحدود ، الا أن أمرهم كشـــف وأجبروا على العودة في صباح اليوم التالي تحت حراسة مشددة الـــى العاصمة الفرنسية •

كان قرار الملك بعيدا عن الحكمة والحصافة لأنه قضى على ما كان قد بقي من صلات بين العرش والثورة اقامتها وحافظت عليها بعناء العناصر المعتدلة • ليس هذا فقط بل أنه قضى على كل أمل بأقامة ملكية دستورية في فرنسا ، وأعطى للمتطرفين والجمهوريين المبرر للعمل علنا وبقوة ضد الملك بأعتباره خارجا على أرادة امته متعاونا مع اعدائها حانثا بعهده • ومما أضعف موقفه أيضا أنه كان قد صرح قبل هربه بأن كل ما وافق عليه بعد جلسة ٢٣ يونيو (حزيران) تم بالرغم من أرادته وبالتالي يسحب موافقته عليـــه •

مع كل ذلك فقد سيطر التعقل والحكمة على الجمعية الوطنية وتمكن أنصار الأعتدال ، أصحاب الأغلبية في الجمعية الوطنية ، من فرض وجهـة نظرهم القاضية بأعادة الملك الى عرشه مع تقييد سلطانه ، وذلك بقصـــد اجتناب أزمة خلو العرش وما قد يعقبها من اضطراب • وفعلا أصـــدرت الجمعية قرارا بأبقاء الملك على عرشه وعللت ذلك امام الجماهير الثائـــرة

المتطرفة بأنه يعتبر غير مسؤول عن عملية الهرب أذ نقل من قصره رغم أرادته • لم يقبل المتطرفون هذه التسوية وأرادوا ان لا تفوتهم فرصة اعطاهم اياها الملك للتخلص من الملكية فنظموا المظاهرات في شوارع باريس وهاجموا الجمعية الوطنية لأرهاب اعضائها ، غير ان تدخل الحرس الأهلي الحازم أبقى الأوضاع ضمن أطار الشرعية القانونية وفي خط الأعتدال ، فشتت المتظاهرين وفرق جموعهم وترك زمام المبادرة بيد الجمعية الوطنية• وقد أتخذت هذه الجمعية تدبيرا سريعا لأسكات الجماهير الغاضبة في باريس فاصدرت قرارا آخرا بوقف الملك عن ممارسة سلطاته حتى يتم وضع الدستور الجديد ويقسم يمين الولاء له ، أنما دون ان تمس حقه بالعرش •

وأذا كان هذا التدبير الحكيم قد أوقف ، ولو لفترة قصيرة ، أنفجار الوضع السياسي فان ما أصاب الملك من تقييد لسطاته كانت له ردود فعل سيئة على الصعيد الأوروبي وفي أوساط المهاجرين • كان المهاجرون الفرنسيون الذين أدركوا منذ البداية الأبعاد الحقيقية لأحداث باريس يقومون منذ صيف سنة ١٧٨٩ ، بحملة دعاية ضد الثورة ، ويسعون لجر دول أوروبا الى تدخل عسكري في فرنسا • وكان لويس السادس عشر يرسل المندوبين بصورة مستمرة وسرية الى عروش أوروبا طلبا للمساعدة، حتى أنه أقترح على العرش البريطاني التنازل عن جزء من المستعمرات الفرنسية مقابل مساعدته • هذه المساعي لم تعط أية نتيجة ذلك أن دول أوروبا ما كانت راغبة بالتدخل في الأزمة الفرنسية ، الا أن قرار الجمعية الوطنية بتجريد الملك من صلاحياته عقب محاولته الفرار قد نجح في أثارة ملوك أوروبا وجعلهم يشاركون في الأهتمام بالشؤون الفرنسية •

أجتمع في ٢١ أغسطس (آب) سنة ١٧٩١ امبراطور النمسا وملك بروسيا وأصدرا بلاغا مشتركا أعلنا فيه أن من واجب جميع ملوك أوروبا أن يعملوا على تعزيز سلطة الملك الفرنسي• ومن جهة ثانية أعلنا أستعدادهما للتدخل ، أذا قبل بذلك وساهم سائر ملوك أوروبا• الواقع ان هذا الأعلان الشهير بأسم أعلان بلنيتز Pillnitz ، والذي يحمل من عناصر التردد

والأحجام اكثر مما فيه من تهديد وجدية ، قد أسيء فهمه في باريس لأنه صيغ بلغة ديبلوماسية معقدة ما اعتاد على فهمها مناضلو الثورة ومتطرفوها فأعتقدوا أن فرنسا باتت على ابواب غزو خارجي ، مما زاد موقف لويس السادس عشر حرجا وضعفا وأعطى المتطرفين ، أخصام الملكية ، برهانا جديدا على خيانة الملك وأتصاله بأعداء الثورة وفرنسا • وهذا جعل رياح الجمهورية تهب على فرنسا بقوة اكثر وكذلك بدأ دور الأندية السياسية يقوى ويشتد وما كانت هذه في اكثر الحالات مقرا للتعقل والحكمة ولا مستقرا للتبصر والروية •

النـوادي :

كان أبرز ما ميز العمل السياسي ايام « الجمعية الوطنية » ظهور عدد من النوادي السياسية كان يتردد اليها زعماء الثورة ومفكروها فيتناقشون ويتبادلون الآراء والأفكار • وقد لعبت هذه النوادي ادوارا بارزة في أحداث الثورة ، أذ أنها تحولت مع الوقت الى ما يشبه الأحزاب السياسية بمفهومنا الحاضر • ولما كان اكثر رواد الثورة ومن تعاقبوا على حكم فرنسا ايامها من من مؤيدي هذه النوادي او المترددين اليها فأن بعض احداثها الهامة كانت من نتاج هذه النوادي وثمارها • وأبرز هذه الأندية •

ـ نادي الكوردليه Cordeliers : كان مقره في دير للآباء الفرنسيسكان ورواده كانوا ممن يمثلون الطبقات الدنيا بصورة عامة • غلب التطرف على الأفكار والاتجاهات السائدة فيه وبحث أكثر رواده عن حلول جذرية ، بعيدا عن التسويات وأنصاف الحلول • لقد أرادوا أجمالا نظاما ديموقراطيا صحيحا ، وفي مناسبات كثيرة أظهر بعض مفكريهم اتجاهات متطرفة في مجالات الأجتماع والأقتصاد وخاصة فيما يتعلق بالملكية والأجور والعدالة الأجتماعية •

ـ نادي اليعاقبة : الاسم الحقيقي لهذا النادي هو « جمعية أصدقاء الدستور » الا ان تردد اعضائه على دير للآباء اليعاقبة أعطاهم اسم الدير • كان اليعاقبة في البداية في موقع الاعتدال يسعون الى تثبيت

المكتسبات التي حصلت عليها الثورة مع المحافظة على نظام ملكي دستوري • وكان للنادي نفوذ كبير ، لما كان عنده من منظمات ونوادي موزعة في جميع انحاء البلاد وبفضل صحيفته القوية الواسعة الانتشار • والواقع أنه سيصبح بفضل براعة وشجاعة زعمائه أحد أبرز المراكز القيادية في فرنسا زمن الثورة •

وعلى الرغم من أن النادي كان في بدايته يمثل التيار المعتدل ، الا أنه أخذ ينجرف شيئا فشيئا نحو مواقف أكثر تطرفا فرضتها عليه أحداث الثورة من جهة ومن جهة اخرى انضمام العديد من العناصر المتطرفة اليه • وبالرغم من أن الكثيرين من زعمائه كانوا أصلا من فئة البورجوازيين الا أنه أصبح يمثل مصالح الطبقات الدنيا ويتأثر بتوجيهات الفئات الأكثر تطرفا من رجال الثورة •

ـ نادي الجيرونديين : كان يمثل بمن يضم من رجال البورجوازية الجناح المحافظ في الثورة • كان الاهتمام في هذا النادي يتجه بالاكثر نحو السعي لحماية الملكية الفردية والحريات التجارية • وكان للافكار الجمهورية نصيب بارز من اهتمام رواد هذا النادي ومفكريه ، الا ان انجراف الثورة في مزالق التطرف جعل الجيرونديين يبتعدون عنها وليس فقط يدافعون عن الملك قبل اعدامه ويسعون لانقاذ العرش والنظام وانما لا يترددون في التفاهم مع النبلاء لأنقاذ مصالحهم المهددة •

وعلى كل فان هذه النوادي ظلت عبارة عن تجمعات لأشخاص تجمع بينهم وحدة المصالح والتفكير والهدف ولم تصل الى درجة الحزبيه المنظمة الملتزمة كما نعهدها اليوم • فكثيرون من زعماء الثورة كانوا يترددون على أكثر من ناد ومنهم من كانوا ينتقلون من واحد لآخر وبصورة خاصة بين نادي الكوردليه ونادي اليعاقبة •

دستور ۱۷۹۱ :

رغم انشغال اعضاء الجمعية الوطنية بأمور الحكم والامن فانهم اتابعوا العمل الذي أخذوه على عاتقهم منذ بداية الثورة ، وهو أعطاء

فرنسا دستورا ديموقراطيا يكفل الحريات الاساسية للمواطنين ويوزع السلطات توزيعا صحيحا • أقر هذا الدستور بالفعل في ٣ستمبر (ايلول) سنة ١٧٩١ ووضع موضع التنفيذ • وقد وقعه الملك لويس السادس عشر وأقسم اليمين على احترامه وصيانته •

جاء الدستور الجديد متضمنا بالفعل الكثير من المباديء الحرة التي طالما دعى اليها ونادى بها احرار فرنسا ومفكروها الكبار ، مثل روسو ومونتسكيو ، كما جاء جاء ضامنا لحريات المواطنين ، مؤكدا على تطبيق ديموقراطية حقيقية • ولعل ابرز ما فيه أنه مع أعطائه الفرنسيين كل الحريات التي أرادوها تمكن من الوقوف بوجه الاتجاهات المتطرفة فحافظ على النظام الملكي بعد ان جعله دستوريا ديموقراطيا يحدد سلطات الملك دون ان يقضي عليها • وابرز المباديء التي تضمنها هذا الدستور :

ــ الأمة هي المصدر الأساسي للسلطة تمارسها بواسطة الهيئات المنتخبة والملك •

ــ أنيطت سلطة تشريع القوانين بالجمعية الوطنية التشريعية المنتخبة من الشعب والتي لا يحق للملك حلها بأي شكل من الأشكال • وأعطيت الجمعية التشريعية سلطات واسعة في مجال وضع القوانين وفرض الضرائب وتنظيم جبايتها • وقد وضع الدستور الجديد قيودا على حق الانتخاب ، اذ اعطي هذا الامتياز فقط لمن يدفعون ضرائب سنوية تعادل اجور ثلاثة أيام عمل • وهذا طبعا حرم كثيرين من فقراء الفرنسيين حق الانتخاب لا لسبب سوى فقرهم مخالفا بذلك روح اعلان حقوق الانسان •

ــ يرأس السلطة التنفيذية بموجب هذا الدستور الملك ، يعاونه وزراء لا يحق لهم حضور جلسات الجمعية أو المشاركة في مناقشاتها • وكذلك يرأس الملك الجيوش البرية والبحرية والادارة الخارجية • وله حق الاعتراض على بعض القوانين والتشريعات التي تصدرها الجمعية التشريعية ، ولكن لأجل محدود • لقد صار الملك بموجب هذا الدستور في خدمة الفرنسيين

وليس سيدا لهم • نص الدستور فعلا على حالات يمكن فيها محاكمته •

ـ أكد الدستور على مبدأ فصل السلطات بصورة مطلقة •

ـ تبنى الدستور في مقدمته وفي روحه جميع مبادىء اعلان حقــوق الانسان •

وعند انتهاء الجمعية من صياغة الدستور الجديد والتصويت عليه تبنى أعضاؤها قرارا ، ولو أنه اتصف بالنبل والترفع ، الا أنه القى بفرنسا في مهاوي التطرف والمغامرة • لقد قرروا أنه لا يجوز تجديد انتخاب أي عضو فيها للجمعية التشريعية التي دعي الفرنسيون لأختيار أعضائها بموجب أحكام الدستور الجديد • لقد حرم هذا القرار الجمعية التشريعية الجديدة من أفضل رجال فرنسا خبرة ودراية وحكمة وترك أبوابها مشرعة امام شبان مغامرين قليلي الخبرة في امور الحكم والسياسة والاقتصاد ، ميالين للتطرف والمغالاة في مواقفهم السياسية ، وغابت عن واجهة الحياة السياسية الفرنسية تلك الوجوه التي أمسكت بزمام الأحداث منذ قيام الثورة والتي عملت على أبعاد فرنسا ، كلما أمكنها ذلك عن مزالق التطرف •

الجمعية التشريعية

تنفيذا لأحكام دستور سنة ١٧٩١ عقدت الجمعية التشريعية جلستها الأولى ، في أول تشرين أول (أوكتوبر) ، وقد ضمت ٧٤٥ مندوبا بينهم الكثيرين من الشبان المغمورين ذوي الثقافات العالية والتفكير الحر • وقد تميزت ، بين أعضاء الجمعية منذ الجلسات الاولى بثقافتها الواسعة ومكانتها الاجتماعية ، جماعة من البورجوازيين من نادي الجيرونديين مالت الى اليسار ودعت الى الجمهورية والى نشر أفكار الثورة في كل اوروبا وسار في صفها ولو في مرحلة محدودة بعض زعماء اليعاقبة • ووقف الى اقصى اليسار نفر ضئيل ولكن ناشط جدا ، من اعضاء نادي الكوردلية يجهرون بآراء اقتصادية واجتماعية متطرفة ويعادون الملكية • وبالمقابل تجمع في الوسط والى اليمين كل أولئك الناس الذين يمثلون النبلاء الأحرار والبورجوازية الكبيرة ومن بقي فرنسا من رجال الكنيسة ، يسعون للمحافظة على الثورة ومكاسبها وفي نفس الوقت للابقاء على الملكية الدستورية المقيدة كما نصت على ذلك بنود دستور سنة ١٧٩١ •

ولم تكن مهمة الجمعية التشريعية ، في الظاهر على الأقل ، واسعة متشعبة كما كان حال سابقتها ، وانما انحصر دورها في العمل على تطبيق أحكام الدستور وصيانة أمن فرنسا وسلامتها وسلامة ثورتها • الا ان الأحداث لم تلبث ان ساقت اعضاءها في مزالق خطرة بسبب الغيوم التي بدأت تتلبد في سماء علاقات فرنسا بالدول المجاورة •

الواقع ان دول أوروبا بدأت منذ بداية ثورة فرنسا تتخوف من نتائجها وتتحسب لأنعكاساتها على مصالح هذه الدول خارج الحدود

الفرنسية • وقد عم الشعور بالخوف منها فعلا منذ سنة ١٧٩٠ بعد ان رسخت أقدامها في فرنسا وظهرت منجزاتها وجذبت أنظار الأحرار في كل مكان في أوروبا وصارت أصداؤها تتردد في دول مجاورة ولو بصورة بطيئة • لقد فهم ملوك أوروبا جيدا أبعاد انتفاضة سكان مدينة أفينيون Avignon التابعة للدولة البابوية والتحاقها بفرنسا باعتبارها من الناحية القومية الوطن الأم • ثم ان تجوال الكثيرين من محبي ثورة فرنسا ودعاتها في الدويلات الالمانية وفي أمكنة أخرى من أوروبا يبشرون بمباديء الحرية وبحق الشعوب في تقرير مصائرها ما كان الا ليزيد في مخاوف ملوك أوروبا على عروشهم وممالكهم ، ونبلاءها وأشرافها على امتيازاتهم ومصالحهم• ولقد أتت هذه المبادرات تؤكد صحة الدعاية التي كان ينشرها المهاجرون الفرنسيون حول الابعاد الحقيقية للثورة الفرنسية وأخطارها على أوروبا • وكانت أكثر دول اوروبا اهتماما بأمور الثورة الفرنسية وأشدهــا تأثرا بهمومها الامبراطورية النمساوية • فالنمسا أصلا كانت تتحسس تململ الأحرار في بلدها من وطأة نظامها الامبراطوري الاستبدادي وبالتالــي فان أخشى ما كانت تخشاه ان يمتد التحرك الثوري من فرنسا الى النمسا • ثم ان فرنسا الثورة طرحت في أوروبا شعار حق الشعــوب في تقريــر مصيرها على اساس قومي • واذا انتصر هــذا المبدأ فمــاذا يبقى مــن الأمبراطوريــة النمساوية التي تضــم تحت علمها العديــد من القوميات والأجناس والاديان • فالثورة هي بالنسبة للنمسا خطر يتهدد كيانهــا ووجودها • ثم فوق هذا وذاك فالملكة الفرنسية ماري انطوانيت هي ابنة الامبراطور ليوبولد وما يلحق بها من أذى أوعنت يصيب البيت المالــك النمساوي كله • وايضا هناك حقوق اقطاعية في بلاد الألزاس تخص امراء ألمان من رعايا الأمبراطور تعود الى القرن السابع عشر استولت عليها الثورة دون أن تراعي خاطر الامبراطور ولو ظاهريا على الأقل •

والواقع ان الامبراطور قد تعرض فوق كل ما ذكرنا الى ضغوط كثيرة من جانب ابنته، ملكة فرنسا، ومن جانب الاوساط المحافظة في بلاده ، ومن البابا ، وأيضا من جانب ملوك اوروبيين هالهم ما آلت اليه حال الملكية

الفرنسية ، وذلك للقيام بعمل حاسم ضد الثورة الفرنسية • لقد صمد الامبراطور ليوبولد طويلا امام هذه الضغوط لأنه كان يخشى قوة فرنسا العسكرية ولأنه ادرك ان حربا ضد فرنسا ستكون مضنية ومرهقة لبلاده ، المرهقة أصلا ، وطويلة حتى ولو حملت في النهاية النصر لبلاده • وقد رأيناه في اجتماع بيلنيتز وعقب وقف الملك الفرنسي عن ممارسة سلطاته يصدر بيانا فيه بعض التهديد لفرنسا وفيه الكثير من الحذر والديبلوماسية، الا ان ليوبولد لم يلبث ان طواه الردى وخلفه على العرش ابنه فرنسيس الذي كان أكثر ميلا لاستعمال القوة وأقل حذرا ودراية •

اما في فرنسا فان المشاكل الداخلية المتزايدة أخذت تبرز الحرب امام بعض السياسيين وكأنها مخرج يحول أنظار الجماهير الفرنسية عن القضايا الداخلية • وأيضا صراع الأحزاب داخل الجمعية كان قويا بحيث مال بعضها الى الحرب لأسباب مختلفة • الملكيون المحافظون انصار النظام القديم ، وبقايا النبلاء والاوساط الكنسية المحافظة رأت في الحرب وهزيمة محتملة تصيب فرنسا الطريق الوحيد للقضاء على الثورة ومنجزاتها • وفي الوقت نفسه كان الجيروندیون الذين صارت الزعامة ، في الجمعية التشريعية ، اليهم يرغبون فيها بدرجة كبيرة • لقد اعتقدوا ان النصر سيكون حليفهم رغم ضعف الجيش الفرنسي وافتقار البلاد الى المال والتنظيم السليم • كانوا يرون أن قيام الحرب سيؤدي حتما الى اشعال الثورة في أوروبا كلها والى انهيار النظم الملكية الاستبدادية والى سيادة مباديء الحرية والعدالة والمساواة • لقد خرجوا في موقفهم هذا حقا عن الواقعية الثورية وتاهوا في رومانطيقية سياسية تفتقر للمعلومات الصحيحة عن واقع حال اوروبا آنذاك وما خلت فرنسا آنذاك من أناس ومفكرين اتهموا هؤلاء بسوء النية وبكونهم صنائع للرأسمالية الكبيرة ولأصحاب المصانع وشركات النقل البحري وهي الفئات الاكثر استفادة من الحرب في النهاية •

الثوريون الحقيقيون العارفون بأوضاع فرنسا العالمون بمشاكلها ، وحدهم ، وقفوا يعارضون انتشار فكرة الحرب بين المواطنين • روبسبير وداتتون نبها الفرنسيين بشدة الى ان الهزيمة ، وهي محتملة جدا بسبب

ضعف الجيش الفرنسي ، ستقضي حتما على مكاسب الثورة وستعيد الملكية أقوى وأعتى مما كانت عليه سابقا • الا أن صيحات العقل ذهبت ، وسط صراع الأحزاب والعواطف ، أدراج الرياح •

الحرب مع النمسا وبروسيا :

كانت أول خطوة متهورة وضعت فرنسا على درب الحرب الانذار الذي وجهه الفرنسيون الى أمير تريف Trêves الموالي للنمسا بأن عليه أن يطرد قوات المهاجرين الفرنسيين المتمركزة في أراضيه وبضرورة اعادة هؤلاء المتآمرين الى فرنسا بعد تجريدهم من أسلحتهم •

أمبراطور النمسا قبل التحدي الموجه اليه بصورة غير مباشرة فعقد تحالفا مع جارته بروسيا ، التي أبدت منذ البداية تخوفا من الثورة ورغبة في مساعدة عرش باريس المهدد ، وكان ذلك في ٧ فبراير (شباط) ١٧٩٢ مما زاد في غضب الفرنسيين وحنقهم • وقد زاد الاتجاه نحو الحرب حين توفي الامبرطور ليوبولد الثاني في أول مارس (آذار) وخلفه ابنه فرنسيس الثاني الذي كان أقل حكمة ومسالمة من أبيه •

في ابريل (نيسان) وجهت النمسا انذارا الى فرنسا طلبت فيه رد حقوق الأمراء الالمان في بلاد الألزاس واعادة مقاطعة أفينيون الى البابا ووقف الدعاية الثورية في أوروبا • كان كل أنصار الحرب من الجيروندبين في الحكم آنذاك وكان معهم أيضا ملكيون لا يقلون عنهم رغبة فيها ولكن لمآرب أخرى ولذا فقد جاء الطلب النمسوي يصب الزيت على النار • وكان أكثر الوزراء حماسة للحرب ديموريه Dumouriez وزير الخارجية المعروف بديبلوماسيته وذكائه وبأنه جندي ممتاز • وكان معروفا أيضا بكونه مغامر متلون لا يستقر على قرار يهتم قبل كل شيء بمصالحه الخاصة ومستقبله السياسي

أصدرت الجمعية التشريعية بناء لطلب الجيروندبين أعلانا للحرب على النمسا في ٢٠ أبريل (نيسان) جاء فيه ان فرنسا تخوض هذه الحرب

دفاعا عن حريتها وأستقلالها • حاول ديموريية استغلال مواهبه اول الامر لكسر تحالف النمسا وبروسيا الا ان هذه ما كانت أقل من حليفتها عداء للثورة الفرنسية • وكذلك فشل في جر الانكليز للتحالف مع فرنسا لان هؤلاء ما كانوا بعد قد غفروا للفرنسيين موقفهم اثناء حرب الاستقلال الاميركية •

منذ بداية الحرب أظهر الجيش الفرنسي القديم عدم كفاية وعجزا واضحا عن مقاومة جيوش النمسا وبروسيا ، وهما صاحبتا أقوى جيشين في أوروبا آنذاك • فالجيش الملكي كان في حالة انحلال كشفتها المناوشات الاولى وجعلت فرنسا الثورة دون حماية عسكرية يعتمد عليها • هزم الجيش الفرنسي الذي أرسل على عجل لاحتلال بلجيكا ورد على أعقابه وبذا تحولت فرنسا سريعا من موقف الهجوم الى موقع الدفاع وبات على حكامها أن يتولوا مهمة صد الجيوش المتحالفة •

تباطأ النمساويون والبروسيون منذ بداية الحرب في التحرك وما دفعوا الى ساحات القتال الا بحوالي ثمانين الف مقاتل بقيادة القائد العجوز برونسويك Brunswick البروسي •

في ١٩ أغسطس (آب) بدأ المتحالفون هجوما على الأراضي الفرنسية فاستولوا بسرعة على مدن ومواقع كثيرة • ولما وصلوا الى تلال فالمي Valmy حيث كانت ترابط بعض الفرق الفرنسية جرت معارك بسيطة بين الفريقين انسحب على أثرها البروسيون • وسبب هذا التراجع يعود لأقدام روسيا على تحركات مريبة في بولونيا وكان للدولتين مصالح هامة في هذا البلد • ثم أن الفرنسيين ابدوا ثباتا وتصميما على القتال يوحي بأن الحرب اذا استمرت ستكون باهظة التكاليف •

توقف القتال على هذه الصورة ، ومكاسب صغيرة حققوها في القتال ، أعطت الفرنسيين الثقة بقدرتهم على الانتصار ورفعت معنوياتهم وزادت من ايمانهم بصلاح ديموقراطيتهم • لقد كان لهذه الحرب المحدودة ولمعركة فالمي بالخصوص فضل كبير من حيث أنها أيقظت في

الفرنسيين الشعور القومي وجعلتهم يظهرون للعالم كأمة متحدة متجانسة متمسكة بقضية الثورة وقضية الحرية مصممة على الدفاع عن أراضيها وحرياتها ومكتسبات ثورتها رغم ضعف جيشها النظامي الذي أخذته من النظام القديم .

منذ أن بدأ القتال فعلا وبالخصوص بعد الهزائم التي مني بها الجيش الفرنسي في بلجيكا تطورت الأحداث على الصعيد الداخلي بشكل سريع وغير متوقع وأخذت ابعادا أوسع مدى مما توقع أو مما أراد زعماء الأحزاب الذين سعوا للحرب . طرحت مشكلة الملكية من زاوية فرضتها الهزائم الفرنسية الاولى للجيش الملكي وصار الناس ، حتى المحايدين منهم ، يتساءلون عن جدوى محاربة النمسا وصديقها وحليفها لويس السادس عشر قابع في قصره ينتظر انتصار اعداء الثورة وأعداء فرنسا . بل أنه أكثر من ذلك بعد ان عرف بأخبار الهزائم الفرنسية الأولى أقال وزارة الجيروندين وعين مكانها وزارة أقل تطرفا تضم ممثلين لأكثر الأحزاب . وتمرد أكثر من مرة على رغبات الجمعية التشريعية ، واتصل كما قال اعداؤه سرا بالجيوش المعادية الموجودة عند الحدود . وهكذا بات النظام الملكي الدستوري موضع أتهام من فريق من الفرنسيين بالخروج على الدستور وبما هو أكثر من ذلك أي الاتصال بالاعداء .

تواصلت الحملات على الملكية وبلغت مرحلة العنف في تلك المظاهرات التي قادها المتطرفون والتي هاجمت قصر الملك في ٢٠ يونيو (حزيران) كما اشتدت كثيرا بعد الانذار الذي وجهه من خارج الحدود قائد الجيوش المتحالفة في ٢٥ يوليو (تموز) من أنه سيدمر باريس اذا ما تعرض الملك أو نظامه لضر أو أذى . على أن الظاهرة الهامة في هذا الوقت هي جنوح الشارع الفرنسي لتقبل الأفكار المتطرفة ، ربما كرد على الهزائم الخارجية العسكرية ، مما سمح لمتطرفي اليعاقبة بأن يفرضوا وجودهم وزعامتهم على عامة باريس وأيضا في المدن الأخرى وبعض الأقاليم .

ولقد أبرزت الأحداث في هذه الفترة بصورة خاصة دانتون أحد الوجوه البارزة في نادي اليعاقبة • ساهم هذا الرجل الى حد كبير في جميع الأحداث التي ستسبق سقوط الملكية واعلان الجمهورية • فهو الذي قاد المظاهرات الدامية التي هاجمت التويلري ، قصر الملك ، في العاشر من اغسطس (آب) بعد أن قضت على الحراس السويسريين في مذبحة رهيبة والتي انتهت باعتقال الملك واسرته ووضعتهم رهن الاعتقال • الا ان الجيرونديين الذين أخافهم تسلط المتطرفين على الشارع والنهج الثوري المتطرف الذي جنحت نحوه الجماهير رفضوا تحمل مسؤولية محاكمة الملك أو اعدامه وجعلوا الجمعية التشريعية تكتفي بايقاف الملك عن ممارسة سلطاته وترك تقرير مصيره وكذلك مصير النظام لمؤتمر وطني ينتخب اعضاؤه لهذه الغاية • وقد صارت امور البلاد بعد ذلك لهيئة برئاسة دانتون تتعاون مع بلدية باريس معقل التطرف في فرنسا ، جعلت مهمتها الأساسية مواجهة القوات المتقدمة نحو فرنسا •

ومع هذا فان سيل المظاهرات والاضطرابات ما توقف مما أبقى الشارع الفرنسي في حال من الهيجان السياسي بلغ حد الخطورة حين وردت أنباء سقوط مدينة فردان الفرنسية الهامة بيد القوات النمساوية البروسية • استولى الخوف على جماهير غاضبة ، واندفعت عصابات مسلحة تهاجم السجون حيث كان عدد كبير من الأشراف ينزلون منذ انذار برونسويك ، فقتلت منهم خلقا كثيرا • لقد اعتبر دانتون لحد كبير مسؤولا عن هذه المذبحة التي جرت في ٢ سبتمبر (ايلول) سنة ١٧٩٢ ، ان لم يكن لتأييده لها فعلى الأقل ، لتغاضيه عنها • والواقع ان الهدف الحقيقي لهذه المذابح كان ارهاب العناصر المعادية للثورة بقصد التأثير في مجرى الانتخابات المقبلة • وربما كان دانتون بالذات يهدف من وراء تغاضيه عن هذه المذابح أيضا الى القاء الرعب في قلوب أخصامه وأخصام الثورة لمنعهم من القيام بثورة مضادة بسبب الأزمة الاقتصادية الخانقة ، مما يعرقل في نظره المجهود الحربي •

وفي أواخر شهر سبتمبر (ايلول) كان دانتون قد سيطر على الموقف في الداخل كما أن انباء انتصارات فالمي المحدودة فعلا قد ساعدته في تثبيت دعائم حكمه وأثبتت قدرة الشعب الفرنسي علـى المقاومـة والانتصار وأظهرت كفاءة العناصر المتطرفة التي تولت زمـام الامـور في باريس أثنـاء الحرب

وفي هذه الأثناء كانت الجمعية الوطنية قد حلت وانتخب الفرنسيون بديـلا لها « المؤتمـر الوطني » لأدارة شؤون البـلاد وتقرير مصـير النظـام الملكي .

عهد الارهاب

تم انتخاب اعضاء المؤتمر الوطني وفق تنظيم جديد أتى مخالفـا لأحكـام الدستور الذي لفظ أنفاسه ، على ما يبـدو ، أيام الجمعيـة التشريعية • فقد الغيت من القانون الانتخابي القيود المالية وخفض سن الناخبين • وعلى هذا فقد برزت الاتجاهات المتطرفة بين أعضائه بصورة أوضح وبات للجمهورية فيه أنصار ومؤيدون كثيرون • وفعـلا ودون معارضة تذكر أعلن المؤتمر الوطني في جلسة ٢١ سبتمبر (أيلول) سنة ١٧٩٢ الغـاء النظام الملكي وقيام الجمهورية الفرنسية • واذا كان اعضاء المؤتمر الوطني قد اتفقوا بسهولة على ازالة الملكية واقامة الجمهوريـة فان مناقشات الجلسات الأولى أظهرت انقساما عميقا في الآراء بين أعضائه الذين توزعوا في تجمعات رئيسية ثلاث :

ـ الجيروندیون استولوا على مقاعد اليمين وأبدوا تصميما واضحا على ان الجمهورية هي أقصى ما يسمحون بالذهاب اليه في دروب التغيير وأنهم يعارضون بكل الوسائل سيطرة اليعاقبة على المجلس خوفا مـن أفكارهم وسياستهم المتطرفة على الصعيدين الاجتماعي والاقتصادي مما يهدد مصالحهم المباشرة باعتبارهم من البورجوازيين أصلا • وكان عدد نوابهم في المؤتمر الوطني حوالي ١٢٠ نائبا •

ـ بالمقابل أخذ مقاعد اليسار اليعاقبة الذين ما كان عددهم يزيد عن خمسين نائبا الا أنهم أكثر خبرة في شؤون الحكم والدولة وأوضح رؤية لما يريدون ويعتمدون على دعم قوي من شارع باريس ومن البلدية •

ـ وبين الفريقين جلس معظم أعضاء المجلس أي حوالي ستمايـة

مندوب عرفوا باسم السهل ولم يكن لهم موقف واضح مما جعل دورهم في توجيه الأحداث محدودا يتجاذبهم أهل اليمين وأهل اليسار وفق الظروف وأيضا وفق الأهواء والمصالح .

لقد دشنت الجمهورية عهدها بانتصارات عسكرية رفعت من معنويات رجال الثورة . فالجيوش الفرنسية ما اكتفت عقب معركة فالمي بطرد الجيوش المهاجمة من أراضيها بل أنها تمكنت في الفترة من ٢٠ سبتمبر (ايلول) حتى ٧ نوفمبر (تشرين الثاني) من احتلال نيس وسافواي وولايات الراين وبلجيكا .

هذه الانتصارات رفعت من معنويات العناصر المتطرفة ومن ثقتها بقدرتها على الحكم وبقوة جماهير فرنسا مما جعل أعضاء المؤتمر الوطني يصدرون في نوفمبر (تشرين ثاني) قرارا كان ذو ابعاد خطيرة بالنسبة لعلاقات فرنسا مع الدول الاخرى . لقد أعلن المؤتمر الوطني استعداده لتأييد كل أمة تطالب بحريتها وبذا صارت الجمهورية الفرنسية في أيامها الأولى دولة فتح ودعاية وتبشير على استعداد دائما للتدخل في شؤون الدول الأخرى من أجل نشر مبادىء الثورة وأعلاء صوتها . وقد أظهر هذا الاعلان حكومة فرنسا وكأنها عازمة على نقل معركتها مع الأنظمة الملكية الى كل مكان في أوروبا مما خلق لها اعداء كثيرين وربما أكثر مما تستطيع ان تواجه أو تهزم . وأيضا أظهرها دولة فتح وغزو وتوسع مما يهدد المصالح الاقليمية والمباشرة للدول الأخرى .

اعدام لويس السادس عشر :

هذا المنحى الجديد للثورة أثار مخاوف العناصر المؤيدة للملكية وكذلك العناصر المحايدة والواعية داخل فرنسا ، كما في الخارج ، وجعلها تتكتل وتنشط لحماية القانون والنظام ولمنع زعماء الثورة من السير بعيدا على دروب التطرف مما قد يعرض فرنسا لأخطار داخلية وخارجية لا تعرف أبعادها . خوف اليعاقبة من تكتل أخصامهم ومن مؤآمرتهم جعلهم يتحسسون الخطر على الجمهورية ورأوا في اعدام الملك خطوة مفيدة يرهبون بها أخصامهم ويقطعون الطريق على كل من كانوا ما يزالوا

يأملون بعودة الملكية • حاولوا ارغام المؤتمر على مجاراتهم في هذا الطريق غير أن الجيرونديين الذين باتوا يعارضون التطرف بصورة متزايدة خوفا على مصالحهم حالوا دون ذلك وأصروا على ان يحاكم الملك محاكمة عادلة• دافع الملك الفرنسي عن نفسه بقوة وذكاء وكاد ينتزع حكما ببراءته لولا تدخل الزعيم المتطرف روبسبير واستخدامه عناصر متطرفة احتشدت في قاعة المحكمة وشكلت عنصر ضغط واكراه بالنسبة لاعضائها •

وفعلا صدر حكم الاعدام في السابع من يناير (كانون ثاني) سنة ١٧٩٣ ونفذ بصورة علنية في اليوم الحادي والعشرين من الشهر المذكور، بعد أن فشلت كل الجهود التي بذلها الملكيون وأيضا الجيرونديون لأنقاذه •

التحالف الدولي الاول :

كان اعدام الملك انتصارا حاسما لليعاقبة ومن يحالفهم من المتطرفين على كل أولئك الذين حاولوا انقاذ الملك حبا بالملكية أو خوفا من اليعاقبة وتطرفهم من ممثلي البورجوازية الكبيرة والجيرونديين والمحافظين من ملكيين أو كاثوليك متدينين • وعلى هذا بادر اليعاقبة للافادة السريعة من انتصارهم فزادوا من سيطرتهم على الحكم والسلطة مخافة تحرك أخصامهم في الداخل خاصة وان اعدام الملك ما استقبل بتأييد واسع في الأقاليم والمدن الفرنسية • ولذا فقد بات الجيرونديون في موقف صعب للغاية •

على ان الشيء الأهم هو ان اعدام الملك اثار موجة استياء عارمة في كل بلدان أوروبا وضعت فرنسا في موقف لا تحسد عليه على صعيد علاقاتها الخارجية • فالانكليز الذين ظلوا في موقف الحذر والحياد والترقب على الصعيد الرسمي حتى سنة ١٧٩١ بدأوا يميلون للتعاون مع اعداء الثورة كلما أوغلت هذه في دروب التطرف • وحتى اولئك الادباء والكتاب والشعراء الأحرار الذين جادوا بتأييدهم وحماسهم للثورة ما

استطاعوا المحافظة طويلا على موقفهم • فاعدام الملك الفرنسي على هذه الصورة لم يبق لفرنسا صديق في انكلتـرا التي بادرت لقطع علاقاتهـا الديبلوماسية مـع الفرنسين والطلب مـن السفير الفرنسي ان يعـود الى بـلاده •

ولو أن أثر اعدام الملك كان واضحا في تدهور العلاقات الانكليزية فأن اعتبارات أخرى أكثر جدية وأشد التصاقا بعقلية الانكليز كانت منذ مدة تشد الانكليز الى الصف المعادي للثورة الفرنسية في أوروبا •

ان احتلال فرنسا الثورة لأراضي بلجيكا بعد معركة فالمي وتهديد حدود هولندا قد حركا مخاوف الانكليز • ذلك ان هؤلاء كانوا دوما يرفضون بقوة ان تقع بلجيكا وهولندا المواجهتان للشواطيء الانكليزية ، وحيث للانكليز مصالح تجارية ومالية واسعة ، تحت نفوذ دولة كبرى ، أية دولة ، خاصة اذا كانت بحرية مثل فرنسا • ثم ان في اعلان فرنسـا استعدادها لأن تقدم العون لجميع الشعوب المناضلة من أجل حريتهـا تحريض مباشر لرعايا ملك الانكليز في ايرلنـدا وفي المستعمرات على التمرد والعصيـان •

لجنة الامن العام :

في أول فبراير (شباط) سنة ١٧٩٣ رد الفرنسيون عبر المؤتمـر الوطني على اخراج سفيرهم من لندن باعـلان الحرب على الانكليز • وسرعان ما تشكل تحالف هو التحالف الدولي الأول ضد فرنسا مـن الدول التي كانت أصلا في حرب معها وهي النمسا وبروسيا وتلك التي أغضبهـا اعدام لويس السادس عشر وهي هولندا وسردينيـا وأسبانيا والبرتغال والروسيا وانكلتـرا • وبما ان انكلترا كانت أصلا دولـة بحرية فقد اقتصر دورها الحربي على تقديم المال للدول المقاتلة فعلا وعلى منازلة فرنسا في البحار ومحاصرة شواطئها •

كان لا بد أن تهزم فرنسا امام القوات الكبيرة لهكذا تجمع دولي وعرفت في أشهر القتال السبعة الأولى سلسلة متلاحقة من الهزائم • فقد

تركت بلجيكا للجيوش النمساوية • وانهزم القائد الفرنسي الجيروندي ديموريه الذي حاول ، لتغطية موقفه ، ان يسير الى باريس بالتعاون مع بعض العناصر الملكية فيستولي على السلطة ويعيد النظـام الملكي غير ان جنوده لم يوافقوه فهرب ولحق بأعداء بلاده • أساء موقفه كثيرا الـى الجيرونديين في فرنسا باعتباره احد زعمائهم وأضعف من قدرتهم علـى مواجهة اليعاقبة • وفي وادي الراين طرد البروسيون الجيوش الفرنسية من الأراضي التي احتلتها في العام السابق وحاصر الاسطول الانكليزي مرفأ تولون واستولت عليه مشاته •

أمام الخطر الجدي الذي بات يهدد فرنسا منذ أوائل صيف ١٧٩٣ بالغزو الخارجي ، وأيضا امام خيانة القائد الفرنسي الكبير ، وتحركات العناصر المعادية للثورة في بعض الأقاليم ، رآى قادة المؤتمر الوطني أنه لا بد من وضع السلطة بيد هيئـة صغيرة قادرة على مجابهـة الأحداث بسرعة وحزم لانقاذ فرنسا وحماية ثورتها من العناصر المحافظة وأيضا من المعتدلين المناوئين لحكم اليعاقبة • لذا تشكلت لجنة من تسعة أشخاص سميت « لجنة الامن العام » أعطيت صلاحيات ديكتاتورية لتتمكن مـن القيام بواجبها • ولما كان اعضاء هذه اللجنة من غلاة المتطرفين اليعاقبة فقد باشروا حكمهم بملاحقة أخصامهم الجيرونديين •

وتألفت أيضا لجنة أخرى هي « لجنة الضمان العام » ومهمتها ادارة شؤون البوليس وحفظ الأمن ومراقبة المشبوهين • وكانت محكمة الثورة التي أقامها المؤتمر الوطني تنظر في أمر من يشتبه في سلوكهم أو يشك في ولائهم للثورة وللبلاد وترسلهم بسرعة كبيرة الى المقصلة •

وجه دانتون رجل اللجنة الأول جل نشاطـه واهتمامـه للشؤون الخارجية وللدفاع عن فرنسا • ثم انضم الى اللجنة روبسبير ، وهو أيضا من زعماء اليعاقبة في شهر يوليو (تموز) سنة ١٧٩٣ • ومن رجالات اللجنة أيضا كارنو وهو ضابط في سلاح المهندسين بارع في التنظيـم العسكري تولى مهمة طرد الجيوش الأجنبية من فرنسـا • أصدر فورا

مرسوما بفرض التعبئة العامة وأمر بتكوين جيش شعبي فرنسي أشبه ما يكون بجيوش الميليشيا المعروفة في أيامنا • لقد أظهر كارنو براعة فائقة بتحويل فرنسا كلها الى معسكر حربي •

أثمرت هذه الجهود بسرعة مذهلة ، اذ تمكنت جيوش الجمهورية من رفع حصار ضربه الانكليز على مرفأ دنكرك في شهر سبتمبر (ايلول) والانتصار على النمساويين ورد الجيوش المعادية نحو الشرق •

وفي نفس الوقت أجبرت الجيوش الجمهورية الانكليز على الجلاء عن مرفأ تولون قاعدة الاسطول الفرنسي في المتوسط وكان هذا الانجاز في الوقت نفسه انتصارا على اعداء الثورة في الداخل • فصيف سنة ١٧٩٣ كان حافلا باعمال التمرد والثورات الداخلية ضد حكم لجنة الأمن العام المتسم بالبطش والعنف وجنحت مقاطعات كثيرة نحو ادارة امورها بنفسها • وكانت أشد هذه الثورات وأعنفها تلك التي قام بها سكان اقليم الفاندي والتي كان يديرها ويوجهها بعض زعماء الجيروند الفارين • ذلك أن هؤلاء تعرضوا في ٢ يونيو (حزيران) لملاحقة واضطهاد دانتون وأنصاره في المؤتمر الوطني فسجن واعدم الكثيرين من زعمائهم بينما فر آخرون وصاروا يثيرون التمرد ضد حكم اليعاقبة • وكان سكان تولون أكثر فئآت المتمردين تطرفا فلم يترددوا في التعاون مع رجال الاسطول الانكليزي • وقد تبعت احتلال المدينة موجة من العنف والارهاب أشاعها حكم اليعاقبة في منطقة الفاندي بكاملها وتم ذلك باسم حماية حرية ووحدة فرنسا •

عهد الارهاب :

مع ان منجزات « لجنة الامن العام » على الصعيد العسكري كانت وفيرة ، فأن أهم ما يؤخذ عليها هو ان عهدها ساده جو من الارهاب بلغ حدا لا يطاق • بين خريف ١٧٩٣ وربيع ١٧٩٤ بلغ عدد من سيقوا الى السجون في باريس ثمانية آلاف وفي الأقاليم ربما بلغ هذا الرقم عشرة أضعافه • وكانت محكمة الثورة تتولى تفريغ السجون كلما ضاقت

بنزلائها بارسالهم الى المقصلة • ويقدر عدد من أرسلوا الى المقصلة في هذه الفترة في العاصمة وحدها بثلاثة آلاف •

لقد دام عهد الارهاب سنة رافقه فيها تسلط روبسبير على لجنة الأمن العام وعلى مصير فرنسا • كان روبسبير يرى أنه لا يمكن حماية الجمهورية الا بضرب أعدائها في الداخل • وكان يعتبر معاديا للجمهورية ليس فقط من كان يجاهر بعدائه لها ويعمل ضدها بل فئة المحايدين واللامبالين • ولذا فان المقصلة ما عادت وقفا على النبلاء بل صار زبائنها من كل الفئآت ، وحتى من بين أولئك الذين كانوا أنصارا للثورة في في أيامها الاولى • وبلغ حماس اليعاقبة واندفاعهم في الاعتماد على العنف ، لحماية الجمهورية ، حدا جعل الناس يتساءلون عن مبررات هذا الارهاب • داتنون نفسه صار يتساءل أخيرا عن الغاية من سفك كل تلك الدماء خاصة بعد أن زالت الاخطار عن فرنسا في الداخل والخارج ، بل أنه ما عاد يعرف وجه الثورة الأصيل التي طالما أحبها وأخلص لها بعد أن اتخذت ذلك اللون الدامي المرعب • لم يتمكن داتنون من وقف موجة التطرف لأن أعضاء المؤتمر ابعدوه عن اللجنة في يوليو (تموز) سنة ١٧٩٣ مما جعل السيطرة تامة في لجنة الامن العام لروبسبير وأنصاره • ثم ترك داتنون باريس وانزوى في مزرعة له في الريف ينتظر ما تجود به الأحداث • ولما عاد الى باريس في الخريف وجد نفسه في مواجهة صديقه القديم روبسبير • وكان الرجلان آخر من بقي على قيد الحياة من رجالات الثورة الكبار •

ومع نجاح اليعاقبة على الصعيد العسكري والخارجي ورسوخ قدمهم في السلطة بدأت تظهر بين زعمائهم تناقضات عديدة مبعثها اختلاف نظرة كل منهم لفلسفة الثورة وللمدى الذي يجب ان يقف عنده تيار الارهاب ، وأيضا لمجرى تغيير الأوضاع العامة • وكذلك برزت في صفوفهم حركات متطرفة كتلك التي تزعمها الصحفي هيبير **Hebert** والتي هدفت للقضاء على المسيحية في فرنسا واقامة عبادة العقل مكانها • تعاون داتنون ، الذي كان يميل بصورة متزايدة نحو سياسة تتسم بالهدوء

والسكينة وتعود بفرنسا الى حكم القانون والشرعية الديموقراطية مع روبسبير الذي أراد التخلص من هيبير وجماعته ومن مزايداتهما في الشارع، وقضيا عليه • الا ان تعاونهما هذا كان الأخير اذ ما لبث روبسبير ان أمر باعتقال دانتون وصديقه ديمولين ، بسبب كتاب أصدره هذا الأخير دعا فيه الى العودة لسياسة الرحمة والاعتدال ، وجرى اعدامهما في أبريل (نيسان) سنة ١٧٩٤ •

خلا الجو بعد ذلك لروبسبير فأشتط في حكمه المطلق ، وأرسل الى المقصلة كل من تجرأ على مقاومته • وفي ١٠ يونيو (حزيران) أصدر تشريعا أتى بمثابة سيف سلط على رؤوس أعضاء المؤتمر الوطني • لقد نزع عنهم القانون الجديد حصانتهم البرلمانية وأجاز محاكمتهم دون الرجوع الى المؤتمر • كما أنه فرض على محكمة الثورة ان تحكم فقط بالاعدام أو البراءة مما يخالف بصورة قاطعة قانون الجزاء الفرنسي •

وهنا برز نفر من أعضاء المؤتمر الوطني بزعامة براس Barras خافوا على رؤوسهم وعزموا على التخلص منه معتمدين على كون الجماهير قد ملت رؤية المشاهد الدموية يوميا وباتت تتوق الى السكينة والهدوء بعد ان زال الخطر الخارجي الذي كان اليعاقبة يتذرعون به لتبرير ارهابهم •

نظم باراس وأنصاره قواهم واستمدوا من ضعفهم قوة ومن تعلقهم بالحياة شجاعة ، وفاجأوا روبسبير ومعاونيه في جلسة المؤتمر الوطني يوم ٢٧ يوليو (تموز) سنة ١٧٩٤ فاعتقلوه وأوقفوه في دار البلدية • وفي اليوم الثاني اقتحمت الدار قوة من المتظاهرين أتت من أحياء يقطنها أهل اليسار والغنى وحملت روبسبير الى المقصلة ليشرب من الكأس التي طالما قدمها للآخرين •

حكومة الادارة

بسقوط روبسبير زال ذلك الكابوس المخيف الذي رافق الثورة في واحدة من مراحلها وزالت فجأة الرغبة في هدر الدماء والانتقام فتوقفت قوافل المحكومين التي كانت تأخذ دربها مع أطلالة كل فجر الى المقصلة • وقد أيدت الجماهير القضاء على عهد الارهاب مما سمح للمعتدلين الذين تسلموا الحكم بأن يبادروا الى الغاء كومون (بلدية) باريس عرين المتطرفين كما أغلقوا نوادي اليعاقبة ، وأصدروا عفوا عاد بموجبه زعماء الجيروندين من المنفى لممارسة الحياة العامة • لم يتقبل اليعاقبة ، أو دعاة « حكم الشعب بالشعب » كما كانوا يسمون أنفسهم أحيانا ، هذه الهزيمة التي اعتبروها عودة الى تسلط بورجوازية اليمين الرجعي فتمردوا أكثر من مرة بين ربيع وخريف سنة ١٧٩٥ وقادوا المظاهرات الصاخبة مستغلين حدة المصاعب الاقتصادية وارتفاع الاسعار • وما ترددوا في التحالف مع حركات يسارية أكثر تطرفا منهم والمخاطرة بدفع فرنسا في طريق الثورة الشعبية • الا ان الحرس الأهلي كان قد اكتمل تنظيما وخبرة فقضى في كل مرة على تحركاتهم وصان سلطان المؤتمر الوطني ونفوذه •

وعلى كل فمن الضروري الاشارة الى ان ما حدث لا يعني ان فرنسا ما عادت جمهورية أو ثورية • بل على العكس من ذلك ان فرنسا سنة ١٧٩٥ كانت ثورية اكثر من أي وقت مضى ، طالما بقيت الثورة محافظة على الدستورية الديموقراطية وفي الاطار السياسي بعيدا عن التغييرات الاجتماعية والاقتصادية التي ما كانت البورجوازية التي بقيت في كل الحالات قوية نافذة فاعلة في الجيش كما في الأقاليم والأرياف تقبل بها

لأنها تتعارض بشكل أساسي مع مصالحها وأهدافها • والشيء الوحيد الذي تغير هو ، زوال عهد الارهاب باعتبار أن مبرراته قد زالت بزوال الأخطار الخارجية ، ووقف انزلاق الثورة في مهاوي التطرف لأحتواء الحركات الثورية ودعاة التغيير الاجتماعي والاقتصادي ووقف نشاطهم ان لم نقل القضاء عليهم •

ودلالة على ولاء المؤتمر الوطني للثورة حافظ أعضاؤه على جميع مكتسباتها ورفضوا ان يتعاونوا مع الملكيين والرجعيين • ثم اتجه هؤلاء للبحث عن شكل جديد للحكومة يضمن سيادة العنصر الثوري المعتدل • وفي أواخر سنة ١٧٩٥ وجدوا هذا الحل في دستور جديد يعرف بدستور العام الثالث للجمهورية أو دستور سنة ١٧٩٥ الذي أقام نظاما جديدا للحكم يهدف الى المحافظة على مكتسبات الثورة ويضمن الحريات العامة•

دستور سنة ١٧٩٥ :

بموجب هذا الدستور تمارس الحكم في فرنسا هيئآت ثلاث :

ـ حكومة الادارة وتتألف من خمسة مديرين يتناوبون الرئآسة كل ثلاثة أشهر وتسقط عضوية واحد منهم سنويا • تمارس هذه الهيئة السلطات التنفيذية في الدولة ويجري انتخاب المديرين من قبل المجلسين التشريعيين •

ـ مجلس الخمسماية ويضم خمسماية عضو ممن تزيد أعمارهم عن الثلاثين سنة وتسقط عضوية ثلثهم سنويا • ويمارس هذا المجلس سلطة التشريع •

ـ مجلس الشيوخ ويضم ٢٥٠ عضوا ممن تزيد أعمارهم عن أربعين سنة • ومهمة هذا المجلس مراقبة أعمال مجلس الخمسماية •

ويعتبر هذا الدستور الى حد ما ردة الى الوراء ان لم نقل الى اليمين • ففي الوقت الذي اعطى كل من يحسن القراءة والكتابة حق التصويت فانه جعل المنتخبين الثانويين ـ باعتبار ان الانتخاب كان على

درجتين – ممن يملكون قدرا معينا من العقارات بحيث أن عددهم كان عشرين الفا وهذا الرقم أقل بكثير مما سمح به دستور سنة ١٧٩١ • ويتولى هؤلاء اختيار كبار الموظفين في المناطق وأعضاء المجلسين • وبذا يكون الدستور الجديد قد اعطى خيوط الحكم لعشرين الفا من الأغنياء والملاكين ، وفي هذا تأكيد لسيادة ونفوذ الطبقة البورجوازية المعتدلة سياسيا والتي تعادي بطبيعة مصالحها أسباب العنف والهدم • وقد أراد بذلك المشرع ضمان استمرار خط الاعتدال في السياسة الفرنسية • وبالمقابل حافظ دستور سنة ١٧٩٥ على انجازات الثورة الأساسية مثل الغاء الملكية والقضاء على امتيازات الاشراف واعلان حقوق الانسان والدستور المدني للاكليروس •

ولما كان أعضاء المؤتمر الوطني مسؤولين مباشرة ، أو غير مباشرة ، عن اعدام الملك وعن الكثير مما حدث في عهد الارهاب فقد ساورهم الخوف حول مستقبلهم فأصدروا مع الدستور أمرا تشريعيا يقضي باختيار ثلثي أعضاء البرلمان الجديد من أعضاء المؤتمر الوطني • هذا القرار أغضب الملكيين واليمينيين عامة لانهم كانوا يريدون التخلص من كل السياسيين المشاركين بشكل أو بآخر بعصر الارهاب • في أوكتوبر (تشرين أول) نظمت الفئات الميسورة والمحافظة مظاهرات واسعة هاجمت دار المؤتمر الوطني • باراس Barras ابرز رجال حكومة الادارة أوكل الى شاب من سلاح المدفعية اسمه نابوليون بونابرت حماية دار المؤتمر • بطلقات قليلة وجريئة من مدافعه قضى هذا الشاب على المظاهرات واعاد الأمن والنظام ، مما أتاح له ترقية سريعة ، فبات قائد القوات الداخلية وحصل في السنة التالية على قيادة الحملة الايطالية •

ولعل أهم ما نتج عن هذه الأحداث هو أنها أكدت سيادة الأوساط المعتدلة على الحكم ومنعت اليمين والرجعيين من التسلط على عهد ما بعد الارهاب • وبذلك يكون اليمين كما اليسار قد وضعا على هامش الحياة السياسية الفرنسية ولو الى حين • الا انه بالمقابل نتج عن تدخل بونابرت

وسلاح المدفعية تسلط العناصر العسكرية على الجمهورية الدستورية (حكومة الادارة) .

ازمة ١٧٩٧ :

واذا كانت حكومة الادارة قد وفقت في كبح جماح اليمين ، وفي تحرير الشارع الفرنسي من تسلط اليسار واليسار المتطرف فأن القوى ظلت موجودة وفاعلة في المجتمع الفرنسي تثير المتاعب بوجه المديرين . فاليساريون وخاصة اليعاقبة انصرفوا الى المؤآمرات السرية والعمل على استغلال مصاعب فرنسا الاجتماعية والاقتصادية . والملكيون عملوا جهارا في باريس لأعادة الملكية بشخص لويس الثامن عشر المقيم في مدينة فيرونا الايطالية مستعينين بما قدمت انكلترا من مال ودعم خارجي . وفي حالات كثيرة كان نشاط هذه الفئآت يكاد يشل عمل حكومة الادارة .

وفي ظل انتخابات حرة نزيهة جرت في مارس (آذار) سنة ١٧٩٧ لتجديد ثلثي أعضاء المجلسين كان معظم الفائزين في الانتخابات من الملكيين الدستوريين أو من أنصارهم . وبذا اختل التوازن في الحياة البرلمانية الفرنسية لصالح النظام الملكي وهو أمر لا يسلم به الجمهوريون وكل من عملوا في ظل علم الثورة وشعاراتها . وأيضا نابوليون الذي صار لكلمته وزن وشأن في تقرير القضايا الهامة ايام حكومة الادارة ، والذي كان يقاتل تحت لواء الجمهورية ضد النمسا ، لا يمكن ان يقبل بعودة الملكيين الى كراسي الحكم ليس فقط لانهم يريدون عقد الصلح مع انكلترا بل أيضا لأنه كان دائما ثوريا وجمهوريا .

ونتيجة لأتفاق بين باراس ونابوليون أرسل هذا الأخير ، أوجيرو أحد ضباطه ، على رأس فرقة من الجند لحماية عهد حكومة الادارة ولو كان في ذلك مخالفة للدستور . وفي ٤ سبتمبر (ايلول) قام جنود نابوليون باعتقال النواب المشكوك في ولائهم لحكومة الادارة دون محاكمة . وفي الأقاليم أصدرت لجان عسكرية الكثير من الأحكام بالاعدام أو النفي كما الغيت الانتخابات في تسع وأربعين مديرية .

بعد هذه الأحداث تربع على كرسي السلطة في باريس باراس ، واصدقاؤه من الجمهوريين القدامى ، انما هذه المرة بارادة نابوليون وليس بارادة الشعب وبحماية حراب أصدقائه العسكريين • ذلك ان انتخابات سنة ١٧٩٧ قد أظهرت أن لشعب قد سئم المغامرة والتطرف ، ان لم نقل الثورة، وأخذ يعود بصورة متزايدة نحو الأفكار المحافظة المعتدلة علها تعيد اليه الهدوء والاستقرار اللذين ما استطاعت الثورة حملهما للفرنسيين • وقد برر رجال حكومة الادارة خروجهم على ارادة الامة بأنهم انما يدافعون عن الثورة ويحولون دون عودة النظام الملكي القديم • وقد ظل هؤلاء في كراسي الحكم ، مع ما اتصف به عهدهم من ضعف الأجهزة الحكومية والانفصال عن القواعد الشعبية الى أن حان الوقت الذي صار فيه نابوليون مستعدا وقادرا على تسلم السلطة بنفسه في سنة ١٧٩٩ •

حكومة الادارة واوروبا :

رأينا كيف أن انكلترا تمكنت من تشكيل تحالف دولي يدعى « التحالف الدولي الأول » ضد فرنسا في سنة ١٧٩٣ • وقد تمكن هذا التحالف من انزال هزائم متوالية بالفرنسيين جعلتهم يفقدون كل الأراضي التي احتلوها قبل ذلك في بلجيكا وعلى ضفاف الراين • وكذلك تقدمت الجيوش المتحالفة داخل الاراضي الفرنسية • الا ان لجنة الأمن العام قد نجحت في تشكيل جيش جديد من ٧٥٠ الف مقاتل ليس فقط حرر الأرض الفرنسية ، وانما أعاد احتلال بلجيكا والضفة اليسرى لنهر الراين ، وحمل علم الثورة الفرنسية الى كوبلنتز حيث يعسكر المهاجرون الفرنسيون ، وقضى على تجمعاتهم • وحينما أطل العام ١٩٧٦ كانت فرنسا قد حققت تقدما كبيرا على الجبهة في أوروبا الغربية • فقد احتلت جيوش الجمهورية هولندا وحولتها الى ما يعرف باسم « جمهورية بتافيا » • وأيضا ألحقت بلجيكا وجميع الأراضي الالمانية حتى نهر الراين بالجمهورية الفرنسية ،

باعتبارها واقعة ضمن الحدود الطبيعية الفرنسية • وكذلك رابط جيش فرنسي في الريفييرا الايطالية •

بروسيا عقدت صلحا منفردا في ٥ ابريل (نيسان) سنة ١٧٩٥ مع فرنسا وتبعتها اسبانيا فعقدت صلحا مماثلا في ٢٢ يوليو (تموز) سنة ١٧٩٥ • اعترفت بروسيا بانضمام بلجيكا والاراضي الالمانية بموجب بنود الصلح وكذلك تنازلت اسبانيا لها عن جزيرة سانتو دومينغو • أما هولندا التي صالحت الفرنسيين في شهر مايو (ايار) سنة ١٧٩٥ فقد قدمت لهم اسطولها لمساعدتهم في حربهم ضد الانكليز •

الظاهرة الهامة التي بدأت تثير الاوروبيين في هذه الفترة هي ان تطورات احداث الثورة والانتصارات الخارجية بدأت تخلق عند زعماء الفرنسيين ومفكري ثورتهم مفاهيم جديدة واتجاهات توسعية تجاري وتوافق رغبتهم في نشر مباديء ثورتهم في اوروبا بحيث تضعف قوى الملكية والأنظمة الرجعية فيها ولا تعود قادرة في المستقبل على مناوئة الحكم الجمهوري الثوري في فرنسا • يضاف الى ذلك ان الانتصارات العسكرية التي حققتها جيوش فرنسا الثورة بعد سنة ١٧٩٥ رفعت من معنويات الفرنسيين ، بما في ذلك أولئك الذين أخذوا يميلون عن تأييد الثورة ويعودون نحو الملكية ، وجعلتهم يعتنقون بصورة واضحة وثابتة نظرية امتداد أراضي فرنسا نحو حدود طبيعية وآمنة • وهذا يفرض عليهم بالضرورة ضم أراضي بلجيكا وسافواي وأفينيون والضفة اليسرى لنهر الراين • وقد ورث نابوليون هذه السياسة التوسعية عن حكومة الادارة والتزم بها وفي أحيان كثيرة تجاوزها وحاول ان يصل بحدود فرنسا الى ابعد من ذلك مما جعله في صراع مستمر مع اوروبا ، وخاصة أنكلترا التي رفضت بصورة قاطعة قبول حق فرنسا بحدود طبيعية ، وكذلك مطامع نابوليون التوسعية فيما بعد ، لما في ذلك من تجاوز لمبدأ توازن القوى الذي طالما تمسكت به دول القارة الكبيرة •

وانطلاقا من هذه الاتجاهات التوسعية تعين على ديبلوماسي

وعسكري حكومة الادارة مواصلة الحرب ضد النمسا وانكلترا تحقيقا لسياسة الحدود الطبيعية ولاجبارهما على الاعتراف بما أحدثته فرنسا الثورة من تغييرات في الحدود في أوروبا • وقد أوكلت حكومة الادارة هذه المهمة للجنرال نابوليون بونابرت الذي سيباشر عمله بقيادة حملة عسكرية ضد قوات الامبراطورية النمسوية المرابطة في ايطاليا • وستكون انتصاراته في هذه الحملة بداية لنهاية حكم الثورة في فرنسا وفاتحة لعهد جديد في أوروبا يلعب فيه نابوليون الدور الأول والأهم •

نابوليون بونابرت

نابوليون بونابرت

أصله ونشأته :

ولد نابوليون بونابرت في مدينة أجاكسيو عاصمة جزيرة كورسيكا سنة ١٧٦٩ أي سنة واحـدة بعد تنـازل جمهورية جنـوى لفرنسا عن الجزيرة • عاش سنوات طفولته الأولى بين صغار نبلاء الجزيرة • وقد الحقـه والده شارل بونابرت وكان يمارس مهنة المحاماة بمدرسة بريان الحربية • ثم دخل بعد ذلك مدرسة سان سير العسكرية الشهيرة • وهناك أظهر تفوقا على رفاقه ليس فقط في العلوم العسكرية وانما أيضا في الآداب والتاريخ والجغرافيا •

سنة ١٧٨٥ تخرج من المدرسة الحربية وعين برتبة ملازم أول في سلاح المدفعية التابع للجيش الملكي الفرنسي • وعندما اندلعت الثورة في فرنسا انتمى الى نادي اليعاقبة الا أنه لم يشارك بصورة عملية في أحداث الثورة وكان بصورة أساسية معاديا للعنف والفوضى محبا للنظام والقانون وهذا ما جعله ينتقد الكثير من تصرفات رجال الثورة (الهجوم على قصر التويليري في باريس سنة ١٧٨٩) الا أنه ظل يؤمن بها ويدافع عنها اذ كانت تنسجم مع حبه للحرية وايمانه بأفكار فلاسفة القرن الثامن عشر • وفي سنة ١٧٩٣ ساهم مساهمة فعالة مع الضباط اليعاقبة الذين طردوا الانكليز من مدينة تولون •

وفي سنة ١٧٩٥ ساهم في تعضيد حكم مجلس الادارة في باريس وفي القضاء على المظاهرات التي قام بها الملكيون والعناصر المحافظة وكان هذا أول ظهور له على مسرح السياسة في فرنسا • ثم عاد في سنة ١٧٩٧

فانقذ هذه الحكومة من سيطرة العناصر الملكية الدستورية ومنذ هـذا التاريخ بات هو السند الفعلي لتلك الحكومة ولدستور سنة ١٧٩٥ •

الحملة الايطاليـة :

ولما كانت حكومـة الادارة تريد مواصلـة الحرب ضد النمسـا وانكلترا فقد عهدت اليه بتنظيم حملة عسكرية ضد الجيوش النمسوية المعسكرة في ايطاليا الشمالية وضد حليفتها سردينيا •

قاد بونابرت جيشه الصغير المفتقر الى المؤن والذخائر عن طريـق الألب البحرية باتجاه الأراضي الأيطالية وكان ذلك في نيسان (ابريل) سنة ١٧٩٦ وفي خلال شهر واحد احتل كل بلاد البيمونت وتعقب جيوش سردينيا وجبرها على عقد الصلح مع فرنسا مع القبول بالتنازل عن نيس وسافواي • ثم تعقب النمسويين بعد ذلك فاحتل مقاطعة لومبارديا ومدينة ميلانو الشهيرة وأخذ يتقدم في الأراضي النمسوية مهددا مدينة فينا ذاتها• عندئذ تقدم النمسويون بطلب الصلح •

وفي نفس الوقت أجبر الدولة البابوية على الاستسلام له كما قـام باحتلال أراضي جمهورية البندقية •

وفي تشرين أول (أوكتوبر) سنة ١٧٩٧ عقد مع النمسويين صلح كامبوفورميو Compo - Formio دون العودة الى حكومة باريس • وابرز نقاط هذا الصلح :

١ ـ تبقى دولة سردينيا مستقلة وتقام دولة جديدة في شمـال ايطاليا اسمهـا الجمهوريـة السيزالبيـة Republique Cisalpine تضم لومبارديا وبعض أراضي البابا الشمالية • الا أن هذه الدولـة ستكون عمليا تابعة لبونابرت الذي يعين حكامها بنفسه ويسن قوانينها وهو بالتالي أرادها أن تكون قاعدة لتوسعه في المستقبل •

٢ ـ ولكي يعوض النمسا عن خسائرها اعطاها جمهورية البندقية والشواطيء الشمالية لبحر الأدرياتيك •

٣ ــ تأخذ فرنسا بعض الجزر في البحر الأيوني وجزيرة كورفو التي كان يريدها قاعدة لحملة يعدها ضد انكلترا في الشرق •

٤ ــ اعترفت النمسا نهائيا بانضمام بلجيكا لفرنسا •

لقد جاءت هذه المعاهدة انتصارا كبيرا لفرنسا ذلك أن أكثر دول أوروبا محافظة ورجعية اعترفت فيها بفتوحات فرنسا الجمهورية • كما اعترفت بالجمهوريات التي اقامتها فرنسا خلف أراضيها • وفي هذا اذلال وخزي للنمسا •

وهنا لا بد من ابراز نقطتين أساسيتين في هذه الحملة :

اولا : ان نابليون كان أثناء اقامته في ايطاليا متحررا من سلطة الحكومة الفرنسية ولذا فقد رأيناه يعقد الصلح مع النمسا كما أراد هو لا كما ارادت حكومة باريس • ولذا جاءت أكثر نصوص هذه المعاهدة موآتية لمصالحه الشخصية باعتبار انه كان يطمع بحكم فرنسا وأخذ يخطط لذلك وبالطبع لم يستطع رجال الادارة في باريس أن يعترضوا على تفرده في اقرار امور هامة من هذا النوع نظرا لضعف موقفهم في باريس ولكون انتصاراته على ايطاليا والنمسا جعلت له شعبية واسعة عند الجماهير الفرنسية •

ثانيا : ان حملة بونابرت كانت بداية ايقاظ الشعور القومي الايطالي • لقد حمل معه الى الايطاليين نسيم حرية جديدة وأماني عريضة لبعث القومية الايطالية • فقد حطم النير النمسوي المسيطر على ايطاليا وجعل ابناءها يخطون الخطوات الأولى في طريق بناء دولة حديثة • ثم أن جمهورية الألب الشمالية التي أقامها وجعلها تحت حمايته ظلت تعمل طيلة أيام نابوليون كمدرسة تعلم الايطاليين مبادىء الحرية والمساواة التي أتت بها الثورة الفرنسية وتنمي فيهم الشعور بالواجب القومي •

الحملة المصرية :

بعد انسحاب النمسا من الحرب بقيت انكلترا وحدها وجها لوجه

أمام فرنسا • حاول الفريقان ايجاد حل سلمي لمشاكلهما المعلقة • وقد ارسل الانكليز وفدا مفاوضا الى مدينة ليل في فرنسا • قاد الوفد الفرنسي المفاوض وزير الخارجية تاليران وكان هذا في أول امره رجل دين وعند قيام الثورة انضم اليها وخلع ثوبه ثم اصبح نائبا في المجلس • وكاد الفريقان يصلان الى اتفاق لولا أن احداث سنة ١٧٩٧ في باريس قد أعادت سيطرة المتطرفين على السياسة الفرنسية وكان هؤلاء يرون ضرورة انزال الهزيمة بانكلترا قبل توقيع الصلح معها • فتوترت العلاقات مجددا وراحت كل دولة من جانبها تعد العدة للحرب •

شكلت فرنسا من جهتها جيشا خاصا دعته « جيش انكلترا » كانت قاعدته شواطىء فرنسا الشمالية وبنت سفنا صغيرة لنقل الجيوش • ودعت الحكومة الفرنسية بونابرت وكان قد رجع من ايطاليا بعد توقيع صلح كامبوفورميو ، الى غزو انكلترا • الا أن نابوليون ومعه بعض الخبراء العسكريين كانوا يرون استحالة غزو الجزر البريطانية نظرا لتفوق الاسطول الانكليزي الكبير • وأخيرا وبناء لنصيحة نابوليون استقر الرأي الرسمي في آذار سنة ١٧٩٨ على غزو مصر باعتبارها مفتاح المواصلات الانكليزية ولأخذها قاعدة لضرب الانكليز في الهند المصدر الاقتصادي الأول لقوتهم وغناهم وربما لكون بونابرت يود أن يحقق نصرا سريعا حاسما في مصر يقوي مركزه السياسي • يضاف الى ذلك أن الوضع السياسي المضطرب في فرنسا جعله يفضل البقاء بعيدا عن بلاده في تلك المرحلة الحرجة على أن يعود اليها كزعيم منقذ عندما يحين الوقت فيقلب الحكم ويتسلم السلطة •

في ١٩ أيار (مايو) سنة ١٧٩٨ غادر بونابرت مرفأ طولون الى مالطة فاستولى عليها ثم وصل الى مصر ونزل في أبي قير شرقي الاسكندرية واستولى على هذا المرفأ الكبير في أول تموز (يوليو) ثم زحف على القاهرة فانتصر على جيش المماليك في موقعة الأهرام واستقر في العاصمة المصرية • ولما كان الاسطول البريطاني بقيادة الأميرال نلسون والذي كان يتعقب الاسطول الفرنسي منذ خروجه من المرافيء الفرنسية قد فاجأ

هذا الأخير في أبي قير في أول آب (اغسطس) وقضى عليه فقد قطعت طرق الاتصـــال بين فرنسا وجيشها في الشرق واضطر بونابرت للاعتماد على موارد البلاد • انصرف الى تنظيـــم شؤون مصر الداخلية ، ولما كان قد صحب معه في حملته عددا من العلمـــاء الفرنسيين ، فقد انكب هؤلاء على دراسة أوضاع البلاد السياسية والاجتماعية والاقتصادية •

وفيما هو منهمك في أمور التنظيم الداخلي علم بأن الديبلوماسيين الانكليز قد اقنعوا الأتراك بدخول الحرب وبارســـال حملتين الى مصر : واحدة برية تأتي عن طريق سوريا والثانية بحرية تهاجم مرافيء مصر •

وقد رأى أن يبدأ هو بالهجوم قبل أن يكمل الاتراك استعدادهم فهاجم مدن فلسطين في شبـــاط (فبراير) سنـــة ١٧٩٩ محـــرزا بعض الانتصارات الا انه وقف امام أسوار عكا فحاصرها شهورا دون نتيجـة ذلك لأن قائدها احمد باشا الجزار كان قد احكم تحصينها ولأن الاسطول البريطاني في المتوسط بقيادة سيدني سميث كان يمده بالمؤن والاعتدة بصورة مستمرة • ولما طال الحصار وفتك الطاعون بالجيش الفرنسي عاد الى مصر • وفي تموز كانت الحملة البحرية التركية قد وصلت الى مصر ففاجأها نابوليون وقضى عليها في ٢٥ تموز (يوليو) عنـــد مرفـــأ أبي قـــير •

في هذه الأثناء كانت الاوضاع في فرنسا آخذة في التدهور مـــن جهة بسبب سوء ادارة الحكومة الفرنسية ومن جهة أخرى بسبب تأليف تحالف اوروبي جديد ضد فرنسا هو التحالف الثاني ساعد على قيامـــه اخبار الهزائم التي مني بها الفرنسيون في عكا • وفي حملة قصيرة تمكن المتحالفون في صيف سنة ١٧٩٩ من جعل الجمهورية الفرنسية تفقد كل ما كان قد أحرزه لها نابوليون في ايطاليا • وكان هذا التحالف يضـــم روسيا الحاقدة على فرنسا لتدخلها في الشرق وتركيا التي احتل نابوليون املاكها في مصر ، وانكلترا والنمسا التي رأت في هزائم الفرنسيين فـــي مصر وغيـــاب نابوليـــون مناسبة تحاول أن تثأر فيها لهزائمهـــا السابقة في ايطاليـــا •

واذ علم نابوليون بذلك فقد عجل بالعودة الى بلاده ، تاركا جنوده يبذلون قصارى جهودهم للخروج من مصر • بشكل مشرف ومقبول •

وقد كان لهذه الحملة فائدة عظيمة من الناحية العملية والثقافية اذ ساهم ، الفرنسيون اثناء وجودهم في مصر في اذكاء النهضة الفكرية • ووضع علماؤهم كتبا ومؤلفات عن حالة مصر كما أسسوا أول مجمع علمي في الشرق وجاؤوا بالمطابع الحديثة فكان لهم أثر يذكر في نشوء النهضة الثقافية والأدبية في الشرق كما انهم أقاموا اتصالا مباشرا بين بلدان المشرق العربي والحضارة الأوروبية ذات الانجازات الكبيرة في ذلك العصر •

القنصلية ١٧٩٩ — ١٨٠٤

في ٩ تشرين أول (أوكتوبــر) سنــة ١٧٩٩ نزل نابوليون على الشاطىء الفرنسي ، وفي ١٦ منه دخل باريس • تأكد من الاستقبالات الحماسية التي قوبل بها في الطريق الى العاصمة من أنه رجل فرنسا المنتظر وأن الشعب الفرنسي لا يعتبره مسؤولا عن الهزيمة في مصر وانما ألقى هذه المسؤولية على عاتق السياسيين المقيمين في باريس • وعند وصولــه الى العاصمة ادرك حراجة موقف حكومة الادارة التي يهددها من جهة اليسار ، جماعة اليعاقبة الذين عادوا الى ممارسة العمل السياسي بعــد سنة ١٧٩٥ ، ومن جهة اليمين الملكيون الذين كانوا يعملون بقوة لعودة عرش آل بوربون • كانت هذه الحكومة قد فقدت كل عطف وتأييد عند عامة الجماهير الفرنسية بسبب ما ساد البلاد في عهدها من ترد في الأوضاع الداخلية وعودة الاخطار الخارجية ، يضاف الى ذلك وضــع اقتصادي متدهور ، وبطالة متزايدة ، واسعار في ارتفاع مستمر •

التف حول نابوليون منذ وصوله الى الحكم رجال أقوياء ، عرفوا بانتهازيتهم وقدرتهم على استباق الحوادث ، ساعدوه في الوصول الــى الحكم هم : سياياس Siéyes وفوشيه Fauché وتاليران Tallayrand وباتوا أقرب أعوانه اليه وأكثرهم التصاقا بعهده •

انقلاب برومير (٩ تشرين ثاني) ١٧٩٩ :

في ٩ تشرين ثاني (نوفمبر) اجتمع مجلس الشيوخ ، وكانت الأغلبية فيه تؤيد سياياس الذي اقترح ان يجتمع المجلسان في اليوم التالي في ضاحية سان كلو معللا ذلك بحجة زائفة وهي أن هناك مؤآمرة يعدهــا

اليعاقبة في باريس . وحين اجتمع المجلسان في اليوم التالي طوق رجال مسلحون مكان الاجتماع وتدخلوا حين طلب اليهم ذلك لوسيان شقيق بونابرت ، الرئيس الشاب لمجلس الخمسمائة ، وفرقوا بالقوة شمل الاعضاء المجتمعين . وفي المساء دعي فريق منهم واجبروا على وضع مشروع بتسليم السلطة لقناصل ثلاثة يحلون محل حكومة الادارة ووافق مجلس الشيوخ في الحال على هذا الاقتراح .

وقد قابلت باريس هذا الانقلاب بالهدوء ولم يظهر الناس أي أسف على عهد حكومة الادارة اذ كان حكمها سيئا وغير مستقر ، وقد استبشر الناس خيرا بالعهد الجديد خاصة وأن نابليون بات على رأسه . وكان لا بد من اعطاء طابع الشرعية لهذا الانقلاب فأخذ سياياس السياسي ، الداهية وصاحب الفكر الثاقب والشديد التمسك بالديموقراطية والحريات العامة على عاتقه مهمة اعطاء فرنسا دستورا جديدا يناسب الأوضاع الجديدة ويأتي صورة عن أفكاره الديموقراطية الحرة . الا أن الدستور الجديد والمعروف في التاريخ الفرنسي باسم دستور سنة ١٧٩٩ جاء مطابقا على الأغلب لأفكار نابوليون ولرغبته في جمع السلطات كلها بيديه . وذلك ان نابوليون رغم ايمانه بمباديء الثورة الفرنسية ودفاعه الشديد عنها كان يرى أن فرنسا باتت بحاجة الى شخصية قوية حازمة مستبدة تخرجها من حالة الفوضى وعدم الاستقرار السياسي والعسكري التي سادتها منذ اندلاع الثورة سنة ١٧٨٩ ، وان الشعب الفرنسي بات بحاجة للسلام والاستقرار ليتفرغ لبناء دولة حديثة تقوم على مباديء ثورته . وكان نابوليون يعتقد أنه هو وحده القادر على اعطاء فرنسا ما تحتاجه من سلم واستقرار ومن سيطرة وتفوق في مجال تقرير الشؤون الاوروبية العامة .

قضى هذا الدستور بوضع السلطة التنفيذية في يد ثلاثة قناصل ينتخبهم مجلس الشيوخ لمدة عشر سنوات . وعهد لنابليون بمركز قنصل اول ، خول حق اعلان الحرب وابرام المعاهدات واصدار القوانين وتعيين الوزراء وكبار الموظفين ورئاسة الجيش والادارة . يساعده في مهامه

القنصلان الآخران Lebrun و Gambacérès • وقد اختارهما نابوليون بنفسه • وبذا تركزت في يده بالفعل كل السلطات •

أما سلطة التشريع فقد اعطيت لثلاثة مجالس هي :

١ ـ مجلس الشيوخ : وينتخب اعضاؤه لمدة حياتهم •

ومهمة هذا المجلس انتخاب اعضاء المجلسين الآخرين والاشراف على تنفيذ احكام الدستور •

٢ ـ مجلس التريبون (Tribunat) ويضم مائة عضو مهمتهم دراسة القوانين المقدمة من القنصل الأول دون أن يكون لهم حق رفضها أو قبولها •

٣ ـ المجلس التشريعي ويضم ثلاثمائة عضو ومهمتهم الاقتراع على مشاريع القوانين دون مناقشتها •

معاهدة لونفيل :

كانت أولى المهمات التي واجهها نابوليون كقنصل أول قضية الحرب مع دول التحالف الثاني (انكلترا ، النمسا ، تركيا وروسيا) •

قبل ان يتسلم نابوليون الحكم كانت روسيا قد انسحبت من الحرب عمليا انما دون أن توقع معاهدة سلم مع فرنسا • ذلك أن الروسيا التي كانت قد انتصرت على الفرنسيين في آب (أغسطس) سنة ١٧٨٩ في ايطاليا عادت فهزمت في سويسرا في تشرين اول اوكتوبر في نفس السنة على يد الفرنسيين ، فسحبت جيوشها من اوروبا • كان على نابوليون اذا أن يركز هجومه على النمسويين الذين اعادوا احتلال ايطاليا كلها ما عدا جنوى ، بعد انسحاب الروس فأعد نابوليون جيشا كبيرا اجتاز به جبال الألب متبعا الخطة التي نفذها قديما هنيبعل ، وانحدر الى سهول ايطاليا الشمالية مهددا خطوط مواصلات الجيوش النمسوية • ولما التقى بالنمسويين هزمهم في معركة مرنغو Marengo في ١٤ حزيران

(يونيو) سنة ١٨٠٠ • وكان هذا النصر أول الانتصارات التي احرزها في عهد القنصلية • وقد اثارت اخبار هذه المعركة موجة من الحماس العارم في فرنسا مما زاد في نفوذه السياسي • وبعد هزيمتهم التالية في معركة هوهند لندن في المانيا على يد القائد الفرنسي مورو في كانون أول (ديسمبر) طلب النمساويون الهدنة واجراء مفاوضات الصلح ثم وقعوا على معاهدة لونفيل في آذار (مارس) سنة ١٨٠١ • وابرز ما في شروط هذه المعاهدة :

١ ـ تستولي فرنسا على الامارات الالمانية الواقعة بين حدودها وبين نهر الراين •

٢ ـ تنسحب النمسا من ايطاليا نهائيا ويتولى الفرنسيون شؤونها كما يريدون معترفة باحتلال فرنسا لبلاد البيامون وبجميع الجمهوريات التي أقامها الفرنسيون في سويسرا وهولندا وايطاليا •

موقف انكلترا :

بعد انسحاب النمسا من الحرب بقيت انكلترا لوحدها تقاتل نابوليون ، ولما كانت فرنسا لا تقوى على محاربة انكلترا بحريا فقد أظهر نابوليون ميلا للمصالحة •

أما في بريطانيا فان الأوضاع الداخلية كانت تفرض ضرورة التفاهم السلمي مع نابوليون ذلك أن مصاريف الحرب الباهظة ادت الى تزايد الضرائب،ثم ان قيام الثورة فيإيرلندا التابعةللتاج الانكليزي يهدد الانكليز في أشد اوقاتهم قساوة • ذلك ان سكانها كانوا منذ زمن طويل يريدون الاستقلال وكانوا يعلنون العصيان والتمرد كلما رأوا انكلترا في حرب خارجية أو في موقف حرج وهذا ما فعلوه سنة ١٧٩٨ •

وبالفعل تمكن البلدان من بدء مفاوضات ادت الى معاهدة صلح اميان وقعت في ٢٥ آذار (مارس) سنة ١٨٠٢ وابرز خطوطها :

١ ـ تقبل انكلترا بحدود فرنسا الطبيعية أي بضم بلجيكا وقسم

من هولندا وأراضي الراين اليسرى الى الجمهورية الفرنسية •

٢ ـ تقبل انكلترا بقاء ايطاليا تحت النفوذ الفرنسي مع الاعتراف بما اجراه فيها نابوليون من تغييرات •

٣ ـ تعيد انكلترا جزيرة مالطة لأصحابها الأصليين أي منظمة فرسان مالطا وتحتفظ بجزر سيلان ورأس الرجاء الصالح • كما أن فرنسا انسحبت من مصر تاركة البلاط للسلطة العثمانية •

الاصلاح الداخلي

ورث نابوليون عن حكومة الادارة مجتمعا فرنسيا حطمته ومزقت وشائجه عشر سنوات من الثورة والاضطراب ، سيطرت فيها الشهوات والاحقاد وسالت خلالها الدماء غزيرة ، وانهارت القيم والمفاهيم القديمة بما فيها من تراث اخلاقي وديني واجتماعي حتى أن كل ما له صلة بالماضي اعتبر سخيفا واستبعد ولو كان صالحا • فكان على نابوليون تحقيق انجازات كثيرة داخل فرنسا ؛ بعد أن أعاد لفرنسا اعتبارها وهيبتها في الخارج واعطاها السيادة التامة على ما كان يعتبره الفرنسيون أو يرون أنه حدود « فرنسا الطبيعية » • كان عليه أن يعيد للامة وحدتها وأن يعطي المجتمع نظما واضحة تساعد على استقرار البلاد داخليا للمحافظة على ما حققته من مكاسب خارجية وما اعطته الثورة من قيم ومفاهيم جديدة في المجال السياسي •

ولعل مما ساعد نابوليون في مهمته الشاقة العسيرة هذه تلك الثقة اللامحدودة التي أظهرها الشعب الفرنسي تجاهه • ففي سنة ١٨٠٠ وأثر انتخابات شعبية عين قنصلا أولا لمدة عشر سنين • ثم في سنة ١٨٠٢ انتخبته الجماهير قنصلا مدى الحياة •

وابرز ما قام به من اصلاحات زمن القنصلية :

١ ـ **الإصلاح الاداري :**

اعاد نابوليون تنظيم البلاد اداريا بموجب قانون اصدره في ١٧ شباط (فبراير) سنة ١٨٠٠ • لقد تبنى التقسيم الاداري القديم الذي اصدرته الجمعية الوطنية الا أنه جعل الحكام يعينون من قبل القنصل الأول بدل الانتخاب من قبل المواطنين ، وانشأ بجانب الحاكم مجلسا استشاريا يهتم بالشؤون المالية • ولكي يضمن للمواطنين حقوقهم ويحول دون تجاوزات الادارة فانه اقام محاكم ادارية في المقاطعات للفصل فيما يقع من خلافات بين المواطنين والادارة الحكومية أي أنه أقام حكما مركزيا يسمح للحكومة في باريس بأن تدير بصورة مباشرة وبواسطة حكام اداريين جميع المقاطعات الفرنسية بحيث تخضع كل البلاد لحكم واحد ونظم ادارية وسياسية واحدة ، انما مع تأمين الضمانات الديموقراطية للسكان بواسطة المحاكم الادارية •

٢ ـ **القانون المدني :**

ويعرف أيضا باسم «قانون نابوليون» وقد صدر في سنة ١٨٠٤ ويعتبر هذا العمل اعظم اعمال نابوليون الحضارية وابقاها وأجلها • لقد حاولت حكومة الثورة قبله أن تجمع كل القوانين المدنية الصادرة عن مختلف العصور الملكية منذ أيام العصور الوسطى ، وكذلك تلك التي صدرت عن الثورة في مجموعة واحدة الا أنها لم توفق في عملها •

لقد جمعت أيام حكمه القوانين الأساسية التي كانت سائدة زمن العهد الملكي واضيفت الى ما صدر زمن الثورة من مراسيم وقوانين ومزجت ونسقت ثم أصدرت في مجموعة واحدة تعرف باسم القانون المدني • وابرز ما يميز هذه المجموعة الجلاء ووضوح النصوص والايجاز • لقد أعطى هذا القانون فرنسا والعالم كله آنذاك تشريعا يحافظ على القيم والتقاليد القديمة في مجال الاسرة والملكية الخاصة ويضم أحسن ما في تشريعات ثورة فرنسا العلمانية من قوانين جديدة في مجالات العدل الاجتماعي وحرية الافراد وحقوقهم •

اما في مجال القضاء فقد الغى مبدأ انتخاب القضاة وجعلهم يعينون

من قبل القنصل ، ولضمان استقلالهم وتجردهم أقر مبدأ عدم قابلية القاضي للعزل .

٣ ــ الكونكوردات :

على الرغم من أن نابوليون لم يكن متدينا أو حتى متمسكا بدين الا أنه كان يدرك ما للدين من هيبة وسلطان في نفوس الجماهير وخاصة عند الفلاحين وسكان الارياف سواء في فرنسا أم خارجها . ثم أن نابليون ذاته كان يعتقد بأن الدين هو سر النظام الاجتماعي . لذا فقد سعى منذ بداية عهده لايجاد اتفاق بين الدولة والكنيسة يحفظ للبلاد مكاسبها وللكنيسة احترامها وهيبتها . وبعد مفاوضات طويلة وشاقة مع الكنيسة توصل الى اتفاق نهائي زمن البابا بيوس السابع . وفي ١٦ تموز (يوليو) سنة ١٨٠١ وقع مع البابا التعاهد المعروف باسم « الكونكورداتو » .

بموجب هذه المعاهدة اعترفت فرنسا بالكنيسة الكاثوليكية وسيادتها الروحية وفي المقابل فقد اعترفت البابوية بقوانين مصادرة الأملاك الكنسية التي اصدرتها الثورة على أن تتكفل الدولة الفرنسية بدفع مرتبات رجال الدين . اما تعيين رجال الدين الفرنسيين فيتم بالاتفاق بين الدولة الفرنسية والبابا . وبذا فقد عادت الكنيسة للعمل في فرنسا الا أنها فقدت استقلالها القديم وأصبحت الى حد كبير خاضعة للسلطات المدنية . وعلى كل فان هذا القانون لقي معارضة شديدة من جانب قادة الجيش الذين كانوا لا يزالون متأثرين بروح الألحاد التي سادت زمن الثورة ، ومن الأوساط الفكرية والسياسية في باريس التي استاءت من عودة الكنيسة الكاثوليكية لممارسة نشاطها العلني في فرنسا وما قد يجره ذلك من عودة نفوذ الأكليروس وما قد يرافقه من تدخل في شؤون الدولة ومن محاولة العودة بفرنسا الى أوضاع ما قبل الثورة .

٤ ــ التعليم :

وضع نابوليون مشروعا لتنظيم التعليم في كل انحاء فرنسا جاءت ابرز نقاطه :

١ ــ العمل على تحقيق مجانية التعليم الابتدائي للفقراء • وبذلك أتاح للطبقات الفقيرة امكانية التعليم دون أن يقضي على التعليم الخاص غير أنه على كل حال وضعه تحت اشراف الدولة •

٢ ــ انشأ في سنة ١٨٠٨ جامعة تديرها الدولة مباشرة تقوم بالهيمنة على جميع فروع الثقافة العامة •

الامبراطورية في فرنسا

العلاقات الفرنسية الانكليزية :

لم يكن صلح اميان في الواقع الا هدنة بين الفريقين المتحاربين اذ ان نوايا كل من الفريقين تجاه الآخر لم تكن واضحة وسليمة • وليس أدل على ذلك من ان السلم بين الدولتين لم يعمر أكثر من عام واحد • لقد فهمت كل دولة بنود الصلح على هواها وبما يتناسب مع مصالحها وهذا ما جعل التصادم أمرا مفروغا منه • ويمكننا أن نلخص نقاط التصادم بما يلي :

١ ــ الاسباب الاقتصادية : كانت انكلترا تأمل عند توقيعها الصلح أن يؤدي ذلك الى فتح الاسواق الفرنسية امام البضائع الانكليزية وكذلك أمام البضائع الكثيرة التي يأتي بها اسطولها من المستعمرات • الا أن نابوليون لم يكتف باقامة الحوجز الجمركية امام بضائع انكلترا المتفوقة بل أخذ يعمل على تنشيط الصناعات الفرنسية وتطويرها مما كان يهدد المصالح البريطانية ليس في فرنسا بل وفي الأسواق العالمية •

٢ ــ الأسباب الاستعمارية : لقد اخذ بونابرت يظهر منذ توقيع الصلح اهتماما متزايدا بالشؤون الاستعمارية فأرسل جيشا كبيرا الى مستعمرة هايتي لاخماد ثورة قامت هناك • الا ان الانكليز رأوا في تصرفه هذا محاولة منه لاحياء امبراطورية فرنسا الاستعمارية في اميركا ، خاصة

وأن اسبانيا كانت قد تنازلت منذ سنة ١٨٠٠ عن مستعمرة لويزيانيا لفرنسا . هذا الاتجاه نحو الاستعمار في ما وراء البحار اعتبره الانكليز مهددا لمصالحهم الامبراطورية . يضاف الى كل ذلك ارساله الوفود العديدة الى السلطان العثماني في محاولة لتقوية النفوذ الفرنسي في الشرق .

٣ ـ الأسباب السياسية العامة : لقد فهم نابوليون صلح اميان على أنه اعتراف من الانكليز بحقه المطلق في التصرف بشؤون القارة الأوروبية . وعلى هذا الأساس اتخذ سلسلة من التدابير ، خاصة في ايطاليا ، جاءت متعارضة ليس فقط مع مصلحة بريطانيا بل ومع المصالح النمساوية والروسية . لقد رفض أن تجلو جيوش فرنسا عن هولندا ، وأعلن انضمام جزيرة « البا » والبيامون الى فرنسا ، ونظم جمهورية ما قبل الألب وجعل نفسه رئيسا لها ، وتدخل في الشؤون السويسرية وفرض على هذا البلد دستورا شبيها بالدستور الفرنسي ثم احتل بعض أراضيه وعقد معه معاهدة دفاعية كما جعل نفسه وسيطا في شؤونها . هذه التدابير رأت فيها انكلترا دليلا على نوايا نابوليون التوسعية وسعيا للاخلال بالتوازن السياسي بينها وبين فرنسا .

٤ ـ تنظيم شؤون المانيا : كان نابوليون قد وعد عند توقيع صلح لونغيل Luneville ، الامراء الالمان الذين ضمت اراضيهم الواقعة على الضفة اليسرى لنهر الراين بأن يعوض لهم خسائرهم في المانيا الوسطى عند تنظيم الشؤون الألمانية . وكانت المانيا ذلك الحين موزعة الى عدد كبير من الدول والامارات والمدن الحرة التي تعتبر وكأنها شبه مستقلة لها انظمتها ودساتيرها الخاصة بها . وجميع هذه الدول والامارات كانت اعضاء في الامبرطورية الرومانية المقدسة التي يرأسها امبراطور النمسا . لقد الغى نابوليون جميع الامارات والدويلات الخاضعة للسلطات الدينية وضمها الى بروسيا وبافاريا والنمسا مما الحق بالكنيسة خسائر مادية كبيرة . ولما كان عدد المدن الحرة احدى وخمسين فقد الغى أكثرها وابقى منها ستة فقط .

وعن طريق اعطاء بعض هذه الاراضي لامراء وحكام المان فقد

استرضاهم واستمالهم الى جانب فرنسا • كما انشأ علاقات اقتصادية متينة مع كثير من الدول الالمانية مما أغضب انكلترا كثيرا •

والواقع أن تنظيم المانيا على هذا الشكل اساء كثيرا للانكليز الذين رأوا فيه تسلطا فرنسيا على الشؤون الالمانية يتهدد مصالحهم السياسية والاقتصادية • وبالرغم من آن نابليون قد وسع رقعة الارض النمساوية الا أن الأمبراطور كان يشارك الانكليز نقمتهم على تسلط نابليون بهذه الصورة على شؤون المانيا •

هذه التصرفات اثارت الرأي العام البريطاني وجعلته يتجه نحو فكرة الحرب اذ اقتنع الجميع باستحالة التفاهم مع الفرنسيين • وعلى هذا الاساس وربما كنتيجة لتصرفات نابوليون فقد رفض الانكليز الجلاء عن جزيرة مالطة وفي هذا مخالفة صريحة لنصوص صلح اميان •

ولما طلب الفرنسيون في شهر شباط سنة ١٨٠٣ من الانكليز الجلاء عن مالطة اجابهم هؤلاء مطالبينهم بالجلاء عن هولندا وسويسرا والبيامون وكان ذلك في ٢٦ نيسان سنة ١٨٠٣ ثم بدأت العمليات الحربية بالفعل دون أن تعلن الحرب •

معركة الطرف الاغر :

خلال السنتين ١٨٠٣ و ١٨٠٤ اقتصرت الحرب على احتلال بعض المرافىء في هولندا وايطاليا ومدن الهانوفر الساحلية • وكانت هذه المرافىء ذات أهمية كبيرة للتجارة الانكليزية • كما امر نابوليون بتحسين المرافىء الفرنسية على الشاطيء المقابل لانكلترا وبانشاء مرافيء جديدة • وأخذت ترسانات السفن تعمل على بناء قوارب وصنادل لنقل الجنود عبر المانش، ودرب الجنود الفرنسيين على الحرب البرمائية • وقد أدرك الانكليز حقيقة الخطر الذي يتهدد سلامة اراضيهم من جراء استعدادات نابوليون واصراره على غزو جزيرتهم • الا أن آمال نابوليون بغزو انكلترا قد تحطمت كلها عندما فاجأ الاسطول البريطاني بقيادة الاميرال نلسون اسطول فرنسا عند الطرف الاغر امام الشاطيء الاسباني في ٢١ تشرين أول سنة ١٨٠٥ وهزمه شر هزيمة وحطم أكثر سفنه • وقد أعاد هذا النصر الثقة والطمأنينة الى نفوس الانكليز وغير مخططات نابوليون كلها •

تتويج نابوليون امبراطورا ١٨٠٤ :

لقد ادى تتابع الاحداث الداخلية والخارجية في فرنسا الى تزايد نفوذ نابوليون والى ارتفاع قدره في نظر الفرنسيين • ففي سنة ١٨٠٣ اكتشف البوليس الفرنسي موآمرة كانت تهدف الى اغتياله واعادة آل بوربون الى العرش وقد اشترك في هذه الموآمرة الزعيم الملكي كادودال الذي كان يقيم منذ مدة طويلة في انكلترا الا أنه في سنة ١٨٠٣ نزل على الشاطىء الفرنسي سرا وبتأييد مادي ومعنوي من الانكليز • وكان يسعى لتشكيل مقاومة مسلحة لحكم بونابرت بمساعدة الانكليز • وقد حاول الاتصال بالجنرال مورو والحصول على تأييده غير أن البوليس سرعان ما وضع يده على الموآمرة وكشف عن اهدافها وغاياتها •

وقد زادت هذه الموآمرة في سخط الفرنسيين على الملكيين وفي حقدهم على الانكليز المتدخلين في شؤونهم الداخلية وجعلهم يتعلقون بقوة اكثر بشخص نابوليون وبحكمه • وقد استغل نابوليون هذه الحادثة ليقنع الفرنسيين بأن افضل حل لقطع دابر الموآمرات ولتقويه النظام هو جعل حكمه وراثيا مما يفقد الملكيين كل امل بالعودة الى العرش • وفي شهر نيسان سنة ١٨٠٤ جرى استفتاء شعبي حول اقتراح قدمه المجلسان بتسمية نابوليون امبراطورا على الفرنسيين • وقد جاءت نتيجة الاستفتاء مؤيدة للاقتراح باغلبية ٩٩ بالمئة من الاصوات • وقد قام قداسه البابا في ٢ كانون أول (ديسمبر) سنة ١٨٠٤ بتتويجه امبراطورا للفرنسيين في كنيسة نوتردام في باريس •

التحالف الدولي الثالث :

في شهر آب (اغسطس) سنة ١٨٠٥ كانت انكلترا قد وفقت الى تشكيل تحالف دولي ثالث ضد فرنسا في أوروبا ، يضم انكلترا وروسيا والنمسا واسوج • كان لكل من هذه الدول مآخذ على السياسة الفرنسية فالحكومة الروسية كانت غير راضية عن تدخل نابوليون المتزايد في الشؤون

الالمانية • أما النمسا فكانت تنتظر منذ أمد طويل الفرصة المناسبة للعودة الى الحرب والانتقام من فرنسا • وقد أثارها بصورة خاصة اعلان نابوليون نفسه سنة ١٨٠٥ ملكا على ايطاليا وضم أراضي جنوى وبارم وبيامونت الى الامبرطورية الفرنسية • وقد عرف الانكليز كيف يستفيدون من عداء الدولتين الكبيرتين لفرنسا ودفعوهما الى اعلان الحرب •

حين شعر نابوليون بما يدبر ضده في أوروبا سير جيوشه التي كانت مرابطة في شمال فرنسا استعدادا لغزو انكلترا ، الى اراضي الامبراطورية النمساوية وذلك لضربها قبل أن تصلها النجدات العسكرية من حليفتها روسيا • وصلت الجيوش الفرنسية الى مدينة أولم على نهر الدانوب حيث كانت تتمركز الجيوش النمساوية ، وهناك جرت في ٢٠ أيلول سنة ١٨٠٥ المعركة الفاصلة • انهزم النمساويون ووقع منهم حوالي خمسين ألف جندي اسرى بيد الجيش الفرنسي ، وفر من بقي من الجيش النمساوي نحو الشرق للاتصال بالجيش الروسي القادم واعادة الهجوم ضد الفرنسيين • ولكن نابوليون بادر الى مطاردة الجيش الهارب ليحول دون اتصاله بالروس • ولما كانت الطريق الاقرب الى اعدائه تقع في اراضي دولة بروسيا المحايدة فانه لم يتردد في عبور اراضيها وخرق حيادها مما أغضب ملكها وجعله يميل لدخول الحرب ضد فرنسا • وقد جرت اتصالات بالفعل بين قيصر روسيا لاقناع هذا الاخير وجعله ينضم الى التحالف الثالث •

وفي ٢ كانون اول سنة ١٨٠٥ جرت اعظم معركة في تاريخ الامبراطورية الفرنسية على هضبة اوسترليتز في النمسا حيث التقت الجيوش المتحالفة للنمسا وروسيا بالجيوش الفرنسية • وقد رأى نابوليون منذ البداية أن يضرب النمساويين ضربة قاضية وذلك بقصد ارهاب بروسيا وجعلها تعود عن رغبتها في دخول الحرب •

وفي هذه المعركة الشهيرة في التاريخ بأسم أوسترليتز سجل نابوليون اعظم انتصاراته فضرب الجيوش المعادية وسحقها وجعلها تهرب مخلفة في ساحة المعركة حوالي ستة وعشرين الف قتيل •

وكان من ابرز نتائج هذه الانتصارات ان امبراطور النمسا بادر في اليوم التالي الى مقابلة نابليون واجراء مفاوضات الصلح معه • وقد وقعت المعاهدة النهائية المعروفة بصلح برسبورج ٢٦ كانون أول سنة ١٨٠٥ وبموجب هذا الصلح الذي جاء مذلاً للنمساويين اطلقت يد فرنسا في ايطاليا وجنوب المانيا ثم أنسحبت روسيا من الحرب عمليا كما انسحبت في الحرب الماضية دون توقيع معاهدة صلح • أما بروسيا فقد فرض عليها نابوليون في ١٥ كانون اول معاهده شونبرن التي جعلتها تتنازل عن بعض الاراضي الالمانية التابعة لها وتهبها لبافاريا وتبقى الجيوش الروسية في الهانوفر مقابل هذا التنازل • وقد هدف من ذلك الى ايجاد سبب دائم للنزاع بين بروسيا وانكلترا باعتبار ان الهانوفر كانت قديما للانكليز •

ولم يكتف نابوليون بكل هذا بل انه بعد عودته الى باريس انشأ اتحادا للدويلات الالمانية اسماه اتحاد الراين في ١٢ تموز (يوليو) سنة ١٨٠٦ وجعله تحت حماية فرنسا • وتعهد الاتحاد المذكور بأن يقدم لفرنسا زمن الحرب سبعين الف مقاتل •

نابوليون وبروسيا :

وكانت بروسيا منذ سنة ١٨٠٥ ترغب في محاربة فرنسا غير أن انتصار نابوليون العظيم في أوسترليتز جعلها تقلع عن رغبتها وتوقع مع نابوليون معاهدة شونبرن المشينة لها وذلك اتقاء اخطره • الا أن انشاء اتحاد الراين وجعل هولندا مملكة عين نابوليون شقيقه لويس ملكا عليها ، وبسط سلطان فرنسا على ايطاليا ، كل هذا جعل بروسيا تشعر بضرورة العودة الى الحرب • والذي جعلها تقرر محاربة فرنسا أخيرا هو معرفتها بأن نابوليون في الوقت الذي كان يعد فيه بروسيا باعطائها أراضي الهانوفر كان يفاوض الانكليز سرا على اعادة هذه الاراضي اليهم• ولما كان نابوليون قد فشل في عقد الصلح مع الروس والانكليز وامام مطالبة بروسيا الملحة له بالجلاء عن كل الاراضي الالمانية فقد بادر الى الهجوم عليها قبل أن يتشكل ضده تحالف دولي جديد •

وفي (اوكتوبر) تشرين أول سنة ١٨٠٦ هزم البروسية في معركة يينا

ثم تقدم في الأراضي البروسية حتى احتل مدينة برلين • ولما كان ملك بروسيا قد تراجع حتى حدود روسيا حيث سارع القيصر لنجدته فقد لحقه نابوليون وانتصر عليه وعلى حلفائه الروس في موقعتين مهمتين همـا ايلو وفريدلاند (شباط سنة ١٨٠٧) • وقد بادرت الدولتان المتحالفتان الى طلب الهدنة •

صلح تلسيت Tilsitt

في ٢٥ حزيران سنة ١٨٠٧ عقد اجتماع بين نابوليون وقيصر روسيا على مركب صغير في نهر نيمن • وفي هذا الاجتماع تفاهم الرجلان على كثير من النقاط وخرجا من المقابلة صديقان حميمان • واهم ما تم الاتفاق عليه هو عدم خسارة روسيا أي جزء من أراضيها ومساعدة فرنسا لروسيا في تحقيق مصالحها في فنلنـدة مقابـل اعتراف القيصر بالتغييرات التي سيجريها نابوليون في الأراضي الالمانية بموجب معاهـدة الصلح مـع بروسيا ، وتعهده بالانضمام اليه في تنفيذ الحصار القاري ضد انكلترا •

وفي ٨ تموز (يوليو) سنة ١٨٠٧ وقعت معاهدة تلسيت التي أتت بمثابة عقوبات شديدة ضد بروسيا • اذ أقام مملكة وستفاليا في أراضي غرب المانيا وجعل أخاه جيروم ملكا عليها • وكذلك أقام في أراضي بروسيا في بولونيا دولة اسماها دوقية فرصوفيـا وضمها الى ملك سكسونيـا حليف فرنسا • وفوق هذه الخسائر في الاراضي فقد فرض على الأمـة الالمانيـة تعويضات حربية باهظة وتحديد قواتها المسلحة وأقام جيش احتلال في أراضيها •

وبهذه الصورة يكون التحالف الدولي الثالث قد تفكك ولم يبـق من دولة في عـداء مع فرنسا سوى انكلترا والسويـد وهذه بعيدة لا يخشى بأسهـا •

الحروب الاسبانية

في سنة ١٨٠٧ بلغ نابوليون ذروة مجده بعد أن صارت النمسا وبروسيا تحت مواطيء قدميه وفرض على روسيا أن تكون حليفته ولم يبق عليه ليصبح سيد آوروبا دون منازع سوى اذلال الانكليز . ولما كان قد يئس من هزيمة انكلترا عسكريا وغزو اراضيها فقد علق آماله كلها على الحصار القاري الذي فرضه عليها بموجب المراسيم التي اصدرها في برلين سنة ١٨٠٦ . وبموجب هذه المراسيم حرم على جميع دول أوروبا أن تتعامل تجاريا مع انكلترا كما أنه حرم على السفن الانكليزية أن ترسو في أي مرفأ فرنسي أو تابع لدولة حليفة أو صديقة أو تابعة لفرنسا وقد أعلن ان كل سفينة ترسو في مرفأ بريطاني أن في انكلترا أو في المستعمرات سوف تصادر بضائعها ، وان كل سفينة لا تخضع لأنظمة الحصار الفرنسي سوف تفقد جنسيتها وتعتبر من سفن الاعداء فيحق لفرنسا أن تصادرها أو تغرقها .

ولما كانت انكلترا تعتمد في اقتصادها مصدر قوتها وتفوقها السياسي والعسكري الى حد كبير على التجارة مع أوروبا فقد أراد نابوليون أن يقفل بوجهها أسواق أوروبا مما يؤدي الى كساد بضائعها وتدهور اقتصادها . وبعبارة أوضح كان يريد أن يخضعها عن طريق هزيمتها اقتصاديا بعد أن فشل في اذلالها عسكريا . ومنذ البداية اعلنت كل من روسيا وبروسيا والنمسا وأسوج والدانمارك موافقتها على الحصار القاري واقفلت بوجه السفن والبضائع الانكليزية مرافئها وأسواقها .

الا ان هذا الحصار لكي يعطي نتائج ايجابية كان يجب ان تنضم اليه جميع دول أوروبا . وفي هذا صعوبة كبيرة اذ أن بلادا كثيرة اعتادت على التعامل مع الانكليز وبات هذا التعامل عاملا مهما في اقتصادها .

ولذلك فانها تجاهلت أوامر نابوليون وظلت تسمح بنزول البضائع الانكليزية في مرافئها ومن هناك كانت تأخذ هذه البضائع طريقها الى باقي أوروبا بواسطة التهريب ، وهذه المرافىء تقع في البرتغال الحليفة القديمة والتقليدية لأنكلترا وفي الأملاك البابوية •

ولما كان نابوليون يصر على انجاح الحصار القاري بأي شكل كان فقد تجاهل عواطف الكاثوليك في امبراطوريته واحترامهم الشديد للبابا• ففي أيار (مايو) سنة ١٨٠٩ ضم املاك البابا الى فرنسا وقبض عليه وسجنه • وقد كان لهذا التصرف أثر سيء للغاية في العالم المسيحي وفي ايطاليا بصورة خاصة حيث كان ينظر للبابوية ليس فقط على أنها مؤسسة ذات قداسة وانما أيضا على انها تمثل تراثا قوميا لهم • وقد اعتبر الايطاليون تصرف نابوليون هذا بمثابة طعنة للشعور القومي عند الايطاليين •

وبالطبع فان الانكليز وجدوا أنفسهم مضطرين ــ مع أنهم طالما نادوا بحرية البحار وحرية التجارة نظريا على الأقل ــ لاتخاذ تدابير ثأرية ردا على مراسيم برلين • فقد فرض اسطولهم القوي حصارا شديدا على مرافىء الدول الأوروبية التي تقيدت بتدابير نابوليون ومنعت الاتصال فيما بينها وكذلك بينها وبين مستعمراتها وسائر بلدان ما وراء البحار وقد أصابت هذه التدابير والتدابير المعاكسة المواصلات العالمية بضربة قوية وعطلت التجارة البحرية مما اصاب الدول البحرية بازمات اقتصادية حادة • وكانت اكثر الدول تأثرا بالازمة فرنسا وانكلترا التي افلس الكثير من تجارها وتعطلت مصانع كثيرة فيها وازداد عدد العاطلين عن العمل في القطاع الصناعي في وقت كانت الصناعة فيها قد ازدهرت كثيرا بفضل الاعتماد على الاسواق الخارجية أن في اوروبا أو في المستعمرات •

احتلال البرتغال :

ولما فشلت كل جهود نابوليون لاقناع البرتغاليين بمقاطعة انكلترا لما بين البلدين من علاقات سياسية واقتصادية وثيقة ونظرا لكون مرافىء

البرتغال قد تحولت الى مراكز لتهريب البضائع الانكليزية الى أوروبا ، فقد عزم على احتلال هذاالبلد • ولذا عقد اتفاقا مع الاسبان يقضي بالسماح لجنوده بالمرور عبر أراضيهم على أن يشترك ، البلدان في اقتسام الغنيمة • ولم يجد الجيش الفرنسي الذي ارسل أية صعوبة في احتلال البرتغال ذلك أن العرش البرتغالي نظرا لما كان لفرنسا من هيبة آنذاك لم يفكر حتى بالمقاومة بل أن العائلة المالكة فرت الى البرازيل تاركة القائد الفرنسي جينو يحتل البلاد دون مقاومة فعلية •

احتلال اسبانيا :

عقب احتلال البرتغال ظلت بعض القوات الفرنسية مرابطة في اسبانيا بحجة أن ذلك ضروري لتأمين الدفاع عن شواطيء البرتغال • الا أنه في الواقع وأمام السهولة التي تم بها احتلال البرتغال فكر نابوليون بضم اسبانيا الى املاكه متجاهلا أنها بلد حليف وصديق لفرنسا ، وأنه دخل أراضيها صلحا وبموافقة حكامها تسهيلا لمهمته على أن يغادرها فور انتهاء الحملة الفرنسية على البرتغال • عين (Murat) مورا قائدا عاما للجيوش الفرنسية في اسبانيا وكلفه باحتلال الاراضي الاسبانية تدريجيا •

الواقع أن نابوليون ارتكب بتصرفه هذا خطأ لا يقل فداحة عن احتلاله لأراضي البابا • فاسبانيا هي أكثر بلدان أوروبا تمسكا بالدين وأقلها تأثرا بالمباديء الثورية المتحررة الشائعة في فرنسا • ثم أنها بلد متماسك قوميا لدرجة كبيرة والبلدان التيحاربها نابوليون وانتصر عليها كالمانيا وايطاليا والنمسا لم يكن لها وحدة قومية قوية ولا كانت أجزاؤها مترابطة ، أما في اسبانيا فكان عليه أن يواجه شعورا وطنيا قويا وقومية موحدة منذ قرون عديدة • وهذا أمر على درجة كبيرة من الأهمية •

وقف الاسبان منذ البداية في وجه المحتل الفرنسي موقف عداء شديد ، وبدأت المقاومة الشعبية تعرقل الاحتلال الفرنسي وتخلق له

المصاعب حتى أن الفرنسيين اضطروا لاحتلال العاصمة مدريد • ثم أن ناوليون عين أخاه جوزيف ملكا عليها بعد أن أسقط ملكها •

لما كان رجال الدين الاسبان يرون في بونابرت رجلا من ابناء الثورة الفرنسية الملحدة التي اضطهدت الدين ورجاله ، فانهم كانوا في مقدمة من تصدوا للاحتلال الفرنسي بقوة وعناد وأخذوا المبادرة في اثارة الحرب الشعبية ضد الفرنسيين • وكانوا يشعرون بعاطفة قومية وطنيه جعلتهم يحملون راية الثورة والعصيان ويسيرون في طليعة رجال المقاومة ضد الجيوش المحتلة • كما أنهم افهموا الاشراف والنبلاء الأقوياء حقيقة المباديء التي يمكن أن تزرعها الثورة الفرنسية بواسطة جنود نابوليون في قلوب الفلاحين الاسبان مما سيؤدي الى انهيار امتيازاتهم • وراح رجال الدين بعد ذلك يوقظون في الاسبان العاطفة الدينية الراسخة طالبين منهم محاربة اعداء الدين المسيحي • ولما لم تكن أصلا فلسفة الثورة الفرنسية ومباديء الحرية قد لاقت هوى عند أكثرية الاسبان فان صيحات رجال الدين لاقت آذانا صاغية وهبت اسبانيا باسرها لمقاومة الجيوش الفرنسية المحتلة التي تضم مأية وستون الف جندي من جنسيات وقوميات متعددة • وقد اتخذت المقاومة الاسبانية شكل عصابات مسلحة تضم عسكريين ومزارعين ومغامرين يؤيدهم السكان بقوة ويدعمهم رجال الدين والاشراف بالمال والسلاح •

ولما كان الجيش الفرنسي قد توزع في جميع انحاء البلاد فقد سهلت مهمة رجال المقاومة الاسبان واتخذت الحرب شكلا رهيبا لما رافقها من اعمال وحشية وتجويع وقتل للاسرى من جيوش الاحتلال • وقد شجعت هذه الثورة البرتغاليين على المقاومة فحملوا السلاح يساعدهم جيش انكليزي نزل شواطئهم بقيادة دوق ولينغتون وامدادات متواصلة يرسلها لهم الانكليز عن طريق البحر •

النجاح الكبير الذي حققته المقاومة الاسبانية ضد جيوش نابوليون كان له دوي هائل في أوروبا اذ شجع الدول الاوروبية على العودة الى الحرب • ثم أن الاكليروس والاشراف اخذوا يقومون بالدعاية

ضد الفرنسيين ومبادىء ثورتهم في كل أوروبا .

والواقع أن نابوليون نفسه ادرك ابعاد ظهور بوادر نجاح الاسبان في مقاومتهم وخاصة بعد أن هزموا الفرنسيين في يوليو (تموز) سنة ١٨٠٨ في معركة بايلن Baylen وارغموهم على اخلاء العاصمة مدريد ، ولذا رأى أنه لا بد من ذهابه شخصيا الى اسبانيا لانقاذ الوضع . الا انه قبل ذلك اجتمع في مدينة (أرفورت) بالمانيا بقيصر روسيا وعقد معه اتفاقا سريا ينص على جلاء الجيوش الفرنسية عن بروسيا وعن أراضي بولونيا وموافقة نابوليون على بقاء الجيوش الروسية في امارات الدانوب (مولد افيا وفلاشيا) التي كان القيصر قد احتلها وسلخها عن الامبراطورية العثمانية ومقابل هذه التنازلات تتعهد روسيا بصيانة السلام في أوروبا الوسطى والشرقية ، ومنع النمسا من الاعتداء على فرنسا . وقد عقدنابوليون هذا الاتفاق لأنه كان يخاف أن تستغل النمسا فرصة غيابه في اسبانيا وتهاجم فرنسا . بعد أن أمن نابوليون جانب النمسا توجه في نوفمبر (تشرين ثاني) سنة ١٨٠٨ نحو اسبانيا ودخل مدريد وأعاد أخاه جوزيف الى عرشها . ثم أخذ ينظم شؤون البلاد على أسس حديثة فقضى على مساوىء العهد القديم وادخل اصلاحات كثيرة في بلد لم يعرف الاصلاح منذ أمد بعيد . الا ان تلك الاصلاحات لم تغير من نظرة الاسبان العدائية للاحتلال الفرنسي وبقيت العصابات المسلحة الاسبانية تطارد فرق الجيش الفرنسي الموزعة في مختلف انحاء البلاد أينما وجدتها وتعتدي على طرق مواصلاتها وتمنع عنها المؤن وتلاحقها في تنقلاتها الافرادية والجماعية ناشرة في صفوف جنودها الخوف والرعب . وكان يساعدها في كل ذلك تأييد الشعب الاسباني وطبيعة البلاد الوعرة الجبلية الصالحة لحرب العصابات .

الحرب النمساوية ــ الفرنسية ١٨٠٩ :

ان النمسا قضت السنوات الاربع من ١٨٠٥ الى ١٨٠٩ تستعد للحرب وتقوي جيشها وتطور صناعاتها الحربية في محاولة للثأر لهزائمها

المتتالية على أيدي الفرنسيين . ولم تكد الجيوش الفرنسية تغادر بروسيا في طريقها الى اسبانيا حتى بادرت الى مهاجمة الفرنسيين بغير اعلان حرب نيسان (ابريل) سنة ١٨٠٩ ، مستغلــة في ذلك انشغال نابوليــون في اسبانيا ومتاعبه فيها . الا ان نابوليون عاد من اسبانيا على عجل مخافــة تطور الامور لغير مصلحته وانتصر على النمسويين ودخل عاصمتهم فينا في أيار (مايو) سنة ١٨٠٩ ثم جرت بعد ذلك بين الفريقين معركة واغرام Wagram الفاصة التي سحق فيها الجيش النمسوي وقضي عليه في ٦ تموز (يوليو) سنة ١٨٠٩ . وعقد بعد ذلك صلح « فينا » بين الفريقــين في ٩ تشرين أول سنة ١٨٠٩ الذي خسرت بموجبه النمسا أراضي يبلغ تعداد سكانها ثلاثة ملايين ونصف المليون مواطن .

عقب هذه المعاهدة تم زواج نابوليون من ماري لويز ابنة امبراطور النمسا ، اذ كان قد سبق أن طلق زوجته جوزفين . وقد سعى لهذا الزواج السياسي الداهية ميترنيخ وزير خارجية النمسا . الذي صار يرى ضرورة مصادقة نابوليون والتعاون معه ما دام من المستحيل القضاء عليه . وقد رأى في هذا الزواج طريقا لتحالف بين فرنسا والنمسا ولو لفترة مؤقتة من الزمن تستعيد فيها النمسا بعض قوتها .

التدخل البريطاني في اسبانيا والبرتغال :

في الواقع لم يستطع نابوليون ان يقضي على تجــارة بريطانيــا واقتصادها عن طريق الحصار القاري رغم جميع التدابير التي اتخذها ، ذلك انها كانت مسيطرة تماماً على البحار ، ولديها اسطول يوازي في قوته أساطيل أوروبا كلها مجتمعة . ثم أنها احتلت بعض الجزر الصغيرة في بحر الشمال والمانش والأطلسي والمتوسط جعلتها قاعدة لتهريب البضائع الى أوروبا . ثم أن الامبراطورية العثمانية اعطتها تسهيلات تجارية في بلادها كما حصلت على تسهيلات مماثلة في مستعمرات اسبانيــا والبرتغــال في أمريكا . وبفضل هذه التدابير ارتفعت الصادرات البريطانية من معدل ١٠٠ في سنة ١٨٠٥ الى معدل ١٣٠ في سنة ١٨٠٩ .

ورغم نجاح انكلترا في تفادي انهيار اقتصادياتها فقد بقيت تخاف الامبراطورية الفرنسية بجيشها الضخم وامكانياتها الكبيرة • ولذا فقد قررت ان تعمل على انشاء جيش منظم ، مدرب كثير السلاح ، لمساعدة الجيوش الاوروبية التي تحارب نابوليون • وانطلاقا من هذا المبـدأ وكمقدمة ارسلت انكلترا في سنة ١٨٠٩ ولنغتون على رأس جيش صغير لمساعدة البرتغال ولفتح ثغرة في جسم الامبراطورية تتسرب منها الجيوش البريطانية في المستقبل الى اوروبا • عمل هذا القائد على زيادة متاعب الجيش الفرنسي في اسبانيا والبرتغال بينما تسعى انكلترا لحمل الـدول الاوروبية على العودة الى الحرب مجددا • وقد حقق الانكليز سلسلة من الانتصارات الصغيرة على الفرنسيين بمساعدة الثوار الاسبان • ولعل مما ساعد هؤلاء في مهمتهم اختلاف القـواد الفرنسيين فيما بينهم وتذمـر الجنود الفرنسيين بسبب تناقص المؤن والاغذية • ولم تأت سنة ١٨١١ حتى كان ولنغتون قد احتل بمساعدة عشرات الالوف من الثوار المدنيين الأسبان الذين كانوا يتابعون المقاومة وحرب العصابات معظم اسبانيـا ودخل العاصمة مدريد وأخذ يتهدد الامبراطورية الفرنسية عبر حدودها في جبـال البيرينيه •

نهاية الامبراطورية الفرنسية

لقد كان للحرب الاسبانيـة نتائج سيئـة لنابوليون في أوروبا • فانتصارات الاسبان الجزئية وظهور القومية الاسبانية كقوة فعالة ضـد الغزو الفرنسي أثار في أوروبا الأمل والرجاء بالقدرة على التخلص مـن النير الفرنسي • اذ أن مثال اسبانيا قد شجع الالمان والطليان والنمساويين على الجهاد دفاعا عن أوطانهم • وأصبح كل مواطن في أوروبا يشعـر بواجبه الفردي في أن يساهم في تحرير بلده • وقد ظهرت بالفعل بوادر تمرد على نظام نابوليون في ايطاليا والمانيا الا أنها أخمدت دون كبير عناء وحتى في فرنسا نفسها فقد بدأ المواطنون يظهرون التعب والملل مـن الحروب ومن سياسة نابوليون •

وفي الوقت الذي كانت تحدث فيه هذه التطورات كان نابوليون يسير بخطى سريعة نحو مغامرته الخطرة في روسيا • منذ سنة ١٨٠٩ أخذت روسيا تشعر بضرورة الابتعاد عن نابوليون والتزام سياسة روسية تأخذ بعين الاعتبار مصالح البلاد العليا فقط • ذلك أن سياسة نابوليون قد اضرت بالمصالح الروسية وخاصة في المجالات التالية :

١ ـ أن انشاء دوقية فرسوفيا واعطائها مقاطعة غاليسيا قد انشأ حاجزا قويا بين روسيا وأوروبا • خصوصا وأن الدوقية الجديدة كانت موالية لفرنسا في سياستها •

٢ ـ لم يف نابوليون بتعهداته تجاه روسيا في أن يساعدها فـي تحقيق اطماعها في تركيا •

٣ ـ ان الحصار القاري قد انزل اضرارا بالغة بالاقتصاد الروسي •

ولذا أخذ اسكندر الأول قيصر روسيا يبتعد عن السياسة الفرنسية فسمح في سنة ١٨١٠ برسو السفن المحايدة في موانىء بلاده كما فرض رسوما جمركية مخفضة بالنسبة لواردات المستعمرات الانكليزية • ولم يكن نابوليون بالطبع يقبل أي انحراف من قبل حلفائه عن سياسة الحصار القاري التي جعلها حجر الاساس في سياسته الخارجية والتي اعتبرها الطريق الوحيد لاذلال انكلترا وقهر مقاومتها وبالتالي لتكريس الهيمنة الفرنسية بصورة نهائية على كل أوروبا •

لقد بات واضحا منذ سنة ١٨١٠ أن الحرب بين البلدين واقعة حتما وأخذ البلدان يفتش كل منهما عن حليف يساعده ضد الآخر • وفي نفس الوقت كان نابوليون والقيصر يستعدان للمعركة الفاصلة•وفي سنة ١٨١٢ ظهر أن أكثر دول أوروبا تفضل البقاء بعيدا عن هذا الصراع منتظرة نتائجه ، ولو بصورة مؤقتة الى ان يتضح الموقف لتقرر الى جانب أي من الجبارين الكبيرين تقف •

الحملة الروسية :

وفي مايو (أيار) سنة ١٨١٢ غادر نابوليون فرنسا على رأس جيش ضخم يتألف من سبعماية الف مقاتل من قوميات مختلفة • اما الروس وكان جيشهم يضم ٢٥٠ الف جندي فقد تحاشوا منذ البداية الاصطدام بالفرنسيين وأخذوا يتراجعون نحو الشرق تاركين اعدائهم يتوغلون داخل بلادهم • وفي آب (اغسطس) وقع اول اصطدام بين الفريقين عند مدينة سمولنسك Smolensk ، وتقع في منتصف الطريق بين الحدود وموسكو ، انتصر الفرنسيون فيه واحتلوا المدينة غير ان الجيش الروسي انسحب نحو الداخل دون أن يترك لعدوه فرصة القضاء عليه • أخذ نابوليون يتقدم نحو الشرق حتى دخل العاصمة موسكو في ١٤ سبتمبر (ايلول) سنة ١٨١٢ فوجدها خالية من سكانها الذين غادروها قبل وصول الفرنسيين • وفي مساء ذلك اليوم اشتعلت النيران في المدينة بأمر من حاكمها ، فارتد نابوليون خارج المدينة وبقي هناك مدة

شهر كامل ينتظر أن يعرض عليه القيصر الصلح الا أن هذا رفض كل صلح أو مفاوضة مع الفرنسيين • وفي تشرين أول (اكتوبر) أمر جيشه بالعودة الى فرنسا اذ كان يخشى ثورة داخلية فيها وانضمام الدول الأوروبية الى روسيا • ذلك أنه في غيابه كثرت المؤآمرات والدسائس ضد حكمه الذي جر على البلاد الويلات والكوارث لما أوجد لها من عداوات في أوروبا ولما قادها اليه من حروب وغزوات • مات في طريق العودة عشرات الألوف من الجنود الفرنسيين بردا وجوعا ، ذلك أن الجنود الفرنسيين لاقوا في تراجعهم نكبات كبيرة • فالشتاء كان قاسيا والبرد شديدا وفرسان القوزاق والجيوش الروسية يهاجمونهم من كل جانب ولم يصل الى الحدود من ذلك الجيش الضخم سوى مائة ألف جندي • وعند وصوله الى بروسيا ترك نابوليون الجيش الفرنسي وأسرع الى باريس ليكون فيها قبل أن يصلها خبر الكارثة العسكرية التيأصابت الجيش الفرنسي ، فيشتد بذلك ساعد مناوئيه والمتآمرين عليه ويزداد سخط الجماهير الفرنسية عليه وعلى سياسته الحربية خاصة اذا ما وصلته الأرقام الصحيحة لضحايا الحرب الروسية من الشبان الفرنسيين • وفي كانون ثاني (يناير) سنة ١٨١٣ بدأ الروس الذين كانوا يطاردون الجيوش الفرنسية هجوما معاكسا فدخلوا أراضي بروسيا واحتلوا دوقية فرصوفيا الموالية لفرنسا • وبذا انتقل الروس من موقف الدفاع الى موقف الهجوم مشرعين بذلك امام أوروبا أبواب الأمل في امكانية الانتصار على نابوليون بعد أن كان ذلك يبدو منذ أكثر من عشر سنوات من المستحيلات •

بروسيا تدخل الحرب :

كانت بروسيا قد تفرغت منذ صلح تلسيت لأصلاح أوضاعها الداخلية • لقد تناول الاصلاح الادارة الحكومية والشؤون المالية والجيش وأنظمة المجتمع على أساس من المساواة بين أفراد الشعب حتى يساهم بمختلف فئاته في النضال ضد الاجنبي المحتل • فالغيت الالتزامات الاقطاعية على الفلاحين وسمح لهم بامتلاك الارض وشرائها كما أعفوا

من الخدمات الاقطاعية . اما في الجيش فقد جعلت الخدمة العسكرية اجبارية وفتح باب الترقية في رتب الجيش لأبناء جميع الطبقات وجعل اختيار الضباط على أساس الامتحان والكفاءة والمقدرة وليس على أساس الانتماء الطبقي أو الثروة . ولما وصلت انباء هزيمة نابوليون في روسيا قام الشعب البروسي يطلب الانضمام الى الروس خاصة وأن الحصار القاري قد شل تجارته وأصاب اقتصاده بضربة قوية يضاف الى ذلك أن نابوليون سبق أن هزم البروسيين أكثر من مرة واذلهم وتصرف بشؤونهم بصورة استبدادية ومغايرة لمصالحهم القومية .

وفعلا عقدت بروسيا في ٢٨ شباط (فبراير) سنة ١٨١٣ تحالفا مع روسيا وأعلنت الحرب على فرنسا في ١٦ آذار (مارس) . احتل الجيش البروسي دولة ساكسونيا حليفة فرنسا وتابع سيره نحو الغرب . كما أصدر الحليفان اعلانا الى جميع الالمان اعتبرا فيه الحرب حرب تحرر وطني وجهاد قومي ضد الاجنبي الغاصب ، وان الواجب يقضي على كل ألماني أن يحمل السلاح . وبالفعل اجتاحت الشعب الالماني بأسره عاطفة قومية وحماس شديد في سبيل السيادة والتحرر .

جهز نابوليون جيشا جديدا واسرع لمقابلة اعدائه وسجل عليهم في أيار (مايو) سنة ١٨١٣ انتصارات عديدة واستعاد دولة ساكسونيا كما احتل قسما كبيرا من أراضي بروسيا ولكنه فضل عقد هدنة بانتظار أن تصله امدادات جديدة وقد وافقت الدول المحاربة على طلبه وتم عقد الهدنة في ٢٠ تموز سنة ١٨١٣ وقد امتدت هذه الهدنة حتى ١٠ آب (اغسطس) . خلال هذه المدة جرت مفاوضات طويلة وشاقة بين نابوليون وخصومه لعب فيها مترنيخ وزير خارجية النمسا دورا بارزا اذ حاول من ناحية أن يكون صلة الوصل بين الفريقين ومن ناحية ثانية أن يعيد للنمسا أملاكها وأن يجعل فرنسا تقلع عن سياستها التوسعية .

خلال هذه الفترة قام الانكليز بنشاط ديبلوماسي واسع لتوثيق تحالفهم مع بروسيا ولجر النمسا الى الحرب ، ولما فشل مترنيخ في ايجاد تسوية سلمية لمشاكل أوروبا مع نابوليون اعلنت النمسا الحرب على

فرنسا وانضمت لتحالف انكلترا وروسيا وبروسيا وبذا تشكل تحالف دولي جديد في أوروبا ضد نابوليون •

العمليات الحربية حتى استقالة نابوليون :

كان الجيش الفرنسي يتألف من أربعماية وخمسين الف مقاتل اكثرهم تنقصهم التجربة والخبرة العسكرية • أما الجيوش الاوروبية فكانت تضم مليون جندي مدربين افضل تدريب يحاربون بعاطفة وطنية تسندهم القوى الأحتياطية لكل دولة على حدة • كان على نابوليون أن يقابل جيوش اعدائه كلا على انفراد ، فانتصر اول الأمر على الجيوش النمسوية المتجمعة عند مدينة درسدن الا أن قواده خسروا كثيرا من المعارك في شهري آب وايلول ١٨١٣ وانتشرت الأمراض في صفوف الجيوش الفرنسية ومات منهم ماية ألف محارب مما جعل نابوليون يتراجع نحو الحدود الفرنسية تاركا في قلاع بروسيا ماية وخمسين الف جندي لم يلبثوا أن وقعوا اسرى بيد اعدائه •

وفي تشرين ثاني (نوفمبر) سنة ١٨١٣ جرى اتصال بين المتحالفين ونابوليون بواسطة مترنيخ وزير خارجية النمسا الذي عرض على فرنسا باسم الحلفاء عقد الصلح على اساس حدودها الطبيعية الا أن هذه المفاوضات فشلت أيضا بسبب تعنت نابوليون من جهة وعدم رغبة الانكليز بمهادنة الأمبراطور من جهة ثانية• ذلك أن هؤلاء وجدوا في هزائم نابوليون في روسيا ثم في تجميع قوى اوروبا ضده فرصة ثمينة للتخلص من سياسة فرنسا التوسعية وسيطرتها على أوروبا •

في هذه الاثناء كانت القوات الحليفة تتقدم نحو باريس ودخلتها في ٣١ آذار (مارس) سنة ١٨١٤ • كان نابوليون يريد متابعة القتال فجمع قواده وجنوده وطلب منهم ذلك ولكنهم بسطوا ما وصلت اليه البلاد من ضعف وانحلال ورغبة عن الحرب • ذلك أن فرنسا التي طالما تعلقت بنابوليون بدأت تعلن رغبتها في السلام وتبعد عن الحرب التي كان غرضها

اشباع مطامع الامبراطور التوسعية دون الالتفات الى مصالح فرنسا الأساسية ورغبة سكانها في السلام ، خاصة وأن اقفال البلاد في وجه التجارة الانكليزية لم يوفر للبلاد الرخاء الذي كانت تحتاج اليه فباتت تئن من الضائقة الاقتصادية والعسر المالي وبالتالي باتت تنشد السلم باي ثمن • عند ذلك أعلن تنازله عن العرش وسافر الى جزيرة ألبا التي وافق الحلفاء على اعطائها له مع احتفاظه بلقب امبراطور •

معاهدة باريس الاولى ـ ٣٠ أيار سنة ١٨١٤ :

عقب انتصار الحلفاء اجتمع ملوكهم وقادتهم في قصر تاليران الذي بقي لمدة طويلة وزيرا لخارجية نابوليون ثم اقاله وابعده • وقد اذاع المجتمعون نداء على الشعب الفرنسي دعوه فيه لاختيار نظام جديد للحكم واقترحوا عودة النظام الملكي • ودعي مجلس الشيوخ للاجتماع في ٢ نيسان (ابريل) فاقر اقالة نابوليون وشكل حكومة مؤقتة برئاسة تالليران أما ماري لويز زوجة نابوليون وابنها فقد اعطيا دولة بارم في ايطاليا • وبناء على اقراح تالليران ورغبته دعي لويس الثامن عشر لاستلام عرش فرنسا • وبذلك تمت عودة آل بوربون الى العرش الفرنسي بعد أن ابعدتهم عنه الثورة •

كانت الحكومة الفرنسية التي تشكلت بعد عودة نابوليون وفي ظل جيوش الاحتلال تعتقد ان عودة لويس الثامن عشر ستجلب لفرنسا الهدوء ومودة أوروبا • اذ بعد زوال الثورة وعهد الامبراطورية ظهرت الملكية بالنسبة للفرنسيين وكأنها اقل التدابير اذى لانها على الاقل ترضي العروش الاوروبية وتقيم بينها وبين فرنسا صلة تفاهم واتصال دائم •

وفي ٣٠ ايار سنة ١٨١٤ وقعت معاهدة باريس بين الحلفاء وفرنسا • ساد هذه المعاهدة الاعتدال والحكمة فاعيدت لفرنسا اراضيها كما كانت زمن لويس السادس عشر أي قبل الثورة وأعيدت اليها بعض مستعمراتها ولم تفرض عليها أية غرامة مالية أو جيوش احتلال • وقد قصد من كل ذلك استرضاء الفرنسيين ومساعدة لويس الثامن عشر على تثبيت دعائم

حكمه . الا ان الملكية الجديدة عادت الى الحكم بعقلية قديمة فهي لم تتعلم شيئا ولم تنس شيئا طيلة غيابها عن فرنسا ، وهي كما نعلم فترة غنية بالتغيرات الجذرية . لقد رأى لويس الثامن عشر بعد استلامه الحكم أن يعيد للاشراف حقوقهم وامتيازاتهم القديمة وأن يقيم حكمه على أساس الاستبداد والحكم الفردي مما كان له أثر سيء عند الفرنسيين الذين قاموا بالثورة للتخلص من امتيازات الاشراف ورجال الدين . ومما ساعد على ازدياد موجة الاستياء الشعبي أن الملك جعل للانتخابات قواعد تخالف مبدأ المساواة المعمول به في فرنسا منذ الثورة . فقد حصر حق الانتخاب بمن يدفع ضريبة قدرها خمسماية فرنك سنويا وحق التمثيل بمن يدفع ضريبة مقدارها ألف فرنك . وكانت الحالة الاقتصادية تزداد سوءا كما أن الحكومة الجديدة فشلت في حل مشاكل ما بعد الحرب فأخذ كثير من الفرنسيين يتمنون عودة بونابرت الى فرنسا .

هذا في فرنسا أما في أوروبا فأن الدول المتحاربة قد عقدت مؤتمرا في مدينة فينا للبت في جميع المشاكل المعلقة في أوروبا كما نصت على ذلك معاهدة باريس . وسرعان ما تبين أن هناك خلافا بين بريطانيا وروسيا كما أن هناك اختلافا أساسيا بين مصالح ورغبات الدول المختلفة . وحين وصلت أنباء هذه الخلافات الى نابوليون ولما كان يتسرب اليه من أنباء فرنسا وسخط الشعب الفرنسي على الملكية الجديدة قرر العودة الى باريس وغادر جزيرة ألبا سرا في ٢٦ شباط (فبراير) سنة ١٨١٥ . نزل في فرنسا حيث استقبله أنصاره وفتحت له مدن فرنسا وقراها أبوابها واستقبلته استقبال الفاتحين ففر لويس الثامن عشر الى بلجيكا وحل نابوليون في قصر التويلري في باريس في ٢٠ آذار سنة ١٨١٥ .

ولما علم مندوبو الدول المجتمعون في فينا بعودة نابوليون أصدروا بيانا مشتركا في ١٣ آذار وقع عليه تاليران باسم فرنسا اعتبروا بموجبه نابوليون عدو العالم المتدن ودعوا شعوب أوروبا لمحاربته والقضاء عليه .

حكم المائة يوم :

كان أول ما اهتم به نابوليون بعد عودته أن يجمع حوله تأييد الأمة الفرنسية بجميع عناصرها فأصدر دستورا جديدا جعل بموجبه الشعب يشارك في ادارة الدولة وأنشأ مجلسين أحدهما للاشراف والآخر للنواب وذلك للحد من سلطات الامبراطور • كما حاول أن يقنع الدول الأوروبية بنواياه السلمية فأعلن قبوله بمعاهدة باريس بجميع نصوصها • الا أن دول أوروبا لم تهتم لعروضه وأصرت على ابعاده عن حكم فرنسا بأي ثمن • ولذا أخذ يعمل على انشاء جيش فرنسي بلغ عدد افراده في خلال اشهر حوالي نصف مليون جندي •

ولما كانت الجيوش البريطانية محتشدة في بلجيكا بقيادة ولنفتون والجيوش البروسية بقيادة بلوخر فقد قرر ان يبادر للحرب قبل ان تصل جيوش الدول الاوروبية الأخرى • فوجه جيشا فرنسيا الى بلجيكا ، وكانت الخطة بأن يندس بين الجيشين ويسحقهما الواحد بعد الآخر دون أن يترك لهما مجال الاتصال • وقد التقى الجيش الفرنسي والجيش الانكليزي في واترلو Waterloo وكاد نابوليون ينتصر لو لم يطل الجيش البروسي فجأة وينجد الانكليز مما جعل الجيش الفرنسي ينهزم تاركا في الميدان ثلاثين ألف قتيل • وكان ذلك في ١٨ حزيران سنة ١٨١٥ •

وبذلك انتهى ذلك الصراع الطويل بين الثورة الفرنسية ومبادئها المتحررة من جهة والاسر المالكة في اوروبا من جهة ثانية • وكان هـذا الصراع قد بدأ منذ ثلاث وعشرين سنة في معركة فالمي • لقد جـاءت معركة واترلو بمثابة نهاية عصر الثورة في فرنسا وبداية عصر آخر عادت فيه السيادة الى آل بوربون •

وفي ٧ تموز (يوليو) دخل الحلفاء مدينـة باريس للمرة الثانيـة ومعهم لويس الثامن عشر • وفي ٢٠ تشرين ثاني (نوفمبر) وقعت معاهدة باريس الثانية والتي أتت شروطها أشد قساوة من سابقتها • فقد فرضت

المعاهدة الجديدة على فرنسا أن تدفع غرامة حربية مقدارها سبعماية مليون فرنك • كما فرض عليها قبول جيوش احتلال اجنبية في أراضيها الشمالية والشرقية لمدة خمس سنوات وفصلت عنها جميع الاراضي التي احتلتها في عهد الثورة والامبراطورية وهي : بلجيكا وهولندا وأراضي الراين ولم يترك لها الا مدينة نيس وقسم من أراضي السافواي • كما استولت انكلترا نهائيا على جزر مالطة والهند الغربية وعلى رأس الرجاء الصالح • واذا بدت نصوص هذه المعاهدة على شيء من الاعتدال بالنسبة لما كان يجيش في صدور اعدائها وبصورة خاصة البروسيين والنمساويين من حقد ورغبة في اذلال فرنسا وتقطيع أوصالها فان الفضل في ذلك يعود للحكومة الانكليزية التي وقفت بقوة بوجه هذه الرغبات وخاصة رغبة بروسيا في أخذ مقاطعتي الألزاس واللورين الهامتين بالنسبة لفرنسا • وذلك أن السياسة الانكليزية كانت لا تريد ان تذل الفرنسيين كثيرا وأن لا تعطيهم أسبابا تدفعهم للعودة الى التفكير في الحرب مجددا • كما أنها كانت لا تريد احراج الملك الفرنسي وانما كانت تريد تقوية موقفه ليظهر أمام الفرنسيين كمنقذ لهم ولبلادهم • وبالتالي فان أية ترضية تعطى للفرنسيين من قبل الدول المنتصرة كانت تقوي موقف الاسرة المالكة الفرنسية وتجعلها محل ثقة الفرنسيين وولائهم •

نابوليون في المنفى :

أما نابوليون فقد نقل على ظهر مدمرة بريطانية الى جزيرة القديسة هيلانة حيث بقي فيها سجينا حتى وفاته في ٥ آيار (مايو) سنة ١٨٢١ • وفي سنة ١٨٤٠ نقل جثمانه الى مقره الحالي في الانفاليد في باريس •

أوروبا من مؤتمـــر فينا

الى

ثورات ١٨٤٨

مـؤتمر فينا

لقد أوجد نابوليون زمن حكمه الامبراطوري حالة شاذة في أوروبا لم يكن من المعقول أن تقبل بها أو تسكت عنها الدول الكبرى • فقد عمل على تغيير خريطة أوروبا السياسية بشكل جذري • ففرنسا اتسعت حدودها بشكل لم تعهده في أي عصر من عصورها ، فأصبحت تضـم زيادة على أراضيها الأصلية بلاد بلجيكا وكل الأراضي الواقعة بين الحدود الفرنسية ونهر الراين وفي ايطاليا استولى على كل الساحل الايطالي من الحدود الفرنسية حتى روما • كما أنه جعل من ابنه ملكا على المدينة المقدسة • وبذلك فقد ارتفع عدد المديريات الفرنسية من ثلاث وثمانين الى ماية وثلاثين مديرية •

ولم يكتف بأن وسع الحدود الفرنسية على هذه الصورة بل أخذ يغير معالم الدول الأوروبية الأخرى بما يتناسب مع مصالحه • فسويسرا بقيت جمهورية في الشكل الا انها صارت تابعة له بالفعل • أما في بولونيا فقد أقام دوقية فرسوفيا وأعطاها لصديقه ملك ساكسونيا متجاهلا ما لبروسيا والنمسا من مصالح واطماع تاريخية في بولونيا •

وفي المانيا فقد أقام بين الأراضي التي ألحقها بفرنسا وبين أراضي بروسيا والنمسا دولة شكلها من عدد من الدويلات الألمانية اسماهـا « اتحاد الراين » • وقد جعل الدولة المذكورة تحت حمايته • وفوق كل ذلك تجاهل حقوق عائلات مالكة أوروبية تعود الى قرون عديدة واعطى عروشها لاخوته واقربائه • فقد اعطى أخاه عرش اسبانيا ولويس عرش هولندا وجيروم عرش وستفاليا •

أما شقيقته كارولين فقد أهدى زوجها مورا عرش نابولي ، ولومبارديا والبندقية ومعظم املاك البابا السابقة ضمها في مملكة واحدة وجعل نفسه ملكا عليها الا أنه كلف بادارتها نيابة عنه (يوجين بوهارنية) ابن زوجته الاولى جوزفين • وأخيرا لم يفته أن يعطي خاله جوزيف مركزا يليق به فجعله كاردينالا •

ومن خلال هذه الصورة نرى لأوروبا السياسية زمن نابوليون خريطة تختلف اختلافا كبيرا عنها قبل الثورة الفرنسية بل أن عدم التوازن السياسي في القارة وهيمنة فرنسا على امورها يظهران بوضوح • وهذا يتعارض بشكل اساسي مع مصلحة الدول الكبرى وخاصة انكلترا والروسيا • ولعل هذا يوضح لنا الضراوة التي قاتلت بها دول أوروبا الثورة الفرنسية ونابوليون طيلة ثلاث وعشرين سنة • وقد خلف بونابرت في أوروبا للدول الكبرى آثارا أشد خطرا وأكثر بقاء في المجالات الاجتماعية والاقتصادية والفكرية •

فالغزو العسكري الفرنسي كان يتبعه انشاء حكومة وطنية متعاونة مع الفرنسيين تبادر فورا الى سن دستور جديد للبلد يحدد سلطات الحكومة ويصون حقوق المواطنين • ولما كان نابوليون مؤمنا أشد الايمان بسيادة القانون فقد كان يعطي هذه البلدان مع الدستور الجديد القانون المدني الفرنسي الذي هو من انتاج الثورة الفرنسية • وفي مرحلة تالية كان يباشر في هذه البلدان حركة اصلاح داخلي شبيهة بتلك التي احدثتها الثورة في فرنسا • فامبراطورية نابوليون يمكن اعتبارها من هذه الناحية الوارثة الأمينة للثورة وربيبتها الجمهورية الفرنسية •

كانت اصلاحاته توجه ضد كل ما هو اقطاعي ، فاعطت المساواة للجميع وقضت على نظام الطبقات في المجتمع لتجعله يتألف من أفراد متساويين في الحقوق والواجبات ، كما افقدت النبلاء امتيازاتهم • وفي كل مكان من أوروبا خضع لنفوذ نابوليون اضاعت الكنيسة بعض نفوذها وامتيازاتها ، فالغي سلطانها السياسي وقيدت محاكمها وألغيت ضريبة الأعشار وصودرت املاك الكنيسة وبات التسامح الديني هو القاعدة ، والقانون يتساوى في ظله المؤمن والكافر والكاثوليكي وغير الكاثوليكي •

وبصورة عامة لقد عمل نابوليون في كل بلد ضم الى الامبراطورية على ادخال المبادىء الاساسية للثورة الفرنسية•وقد وجد نابوليون فيكل مكان تقريبا انصارا ومؤيدين لأصلاحاتـه من ابناء الطبقات المستنيرة المتشبعة بمبادىء القرن الثامن عشر التحررية • وسنرى فيما بعد ان هذه الاصلاحات قد خلفت أثرا بعيدا للغاية في ايطاليا وفي جنوب المانيا ممـا سيكون له أبعد الأثر في تطور البلدين السياسي •

وحتى البلدان التي لـم تخضع لحكم نابوليـون المباشر كبروسيا والروسيا فقد حدث فيهما تجديد أو محاولة تجديد للدولة لم تكن بعيدة عن روح الثورة الفرنسية ومبادئهـا •

وعقب انهيـار الأمبراطوريـة كان لا بـد أن يرفض سادة اوروبا المنتصرون ابقـاء خريطـة أوروبـا النابوليونيـة وأن يصروا علـى اعادة الأوضاع الى ما كانت عليه قبل الثورة الفرنسية أو على الأقل الى أوضاع أكثر ما تكون ملائمة لمصالحهم • ليس هذا فقط بل انه بدا لهم من الضروري القضاء على كل التيارات القومية والجمهورية والتقدميـة التي أثارها نابوليون في البلدان التي خضعت لحكمه • ولما كانت معاهدة باريس الأولى قد نصت على عقد مؤتمر عام للصلح في مدينة فينا لحل جميع مشاكل القارة المعلقة ، فقد توافد الى عاصمة النمسا ملوك وامراء يمثلون كل بلدان اوروبا • وحتى اولئـك الذين زالت اماراتهـم فقد حضروا أيضا في محاولـة لجعل المؤتمر يعيد لهم دولهم أو على الأقـل للحصول على تعويض عما فقدوه • وقد بلغ عدد الوفود ٢١٦ وفدا •

اعمال المؤتمر :

أمام صعوبة التوفيق بين رغبات ومصالح هذا العدد الضخم مـن الحكام اتبعت خطة عمل تقضي بأن يجتمع ممثلو الدول الكبرى الأربع : روسيا ، بروسيا ، انكلترا والنمسا في اجتماعات سرية ثم يبلغون مقرراتهم لمندوبي الدول الأخرى • وقد اعتبرت فرنسا في البدايةمن الدول المستبعدة الا أن الرغبة في مراعاة جانب لويس الثامن عشر ومساعدتـه في تثبيت

دعائم حكمه ومهارة تاليران النـادرة كل ذلك جعـل فرنسا تشترك في مفاوضات الدول الكبرى •

اتضح من مجرى المناقشات انه كانت هناك اهداف عامة اتفق الجميع على ضرورة تحقيقها في أوروبا واخرى تخص كل دولة على حدة وهذه كانت مثار نزاعات وخلافات لاحـد لها •

أما الأهداف المشتركة بين الجميع فيمكن تلخيصها بما يلي :

ـ القضاء على الانظمة الثورية الجمهورية في أوروبا كلها والعمل على التخلص من كل الأفكار الجديدة أينما وجدت لمنع تكرار احداث الثورة الفرنسيـة •

ـ السعي الى تقوية العروش الملكية واعادة اصحابها الى سلطانهم القديم اينما أمكن ذلك والعودة الى الأنظمة الاجتماعية التقليدية •

العمل على اضعاف فرنسا سياسيا وعسكريا لمنعها من تهديد أمـن أوروبا وسلامها •

والى جانب هذه الأهداف كانت للدول الكبرى بصورة خاصـة أهداف ومطامع متضاربة ومتنافرة لحد بعيد وهذا ما اتضـح وهـدد بانفراط عقد المؤتمر سنة ١٨١٤ مما شجع نابوليـون على ترك منفـاه والعودة الى باريس وقيام حكم المائة يوم كما رأينا سابقا • وسنعرض هنا باختصار اهداف كل من الدول الكبرى ومصالحها •

١ ـ الأهداف الفرنسية : كان تاليران ، ممثل فرنسا في المؤتمر ، يريد أن يعيد لبلاده مكانتها الديبلوماسية واعتبارها كدولة كبـرى • ولتقوية ثقة الدول بها أعلن تنازلها بصورة نهائية عن كل مطلب لها فـي الأراضي التي احتلها نابوليون ، كما أعلن تمسكه بمبدأ شرعية النظـام الملكي والأنظمـة التقليدية الموروثة • وكانت فرنسا أيضا تريد اضعاف النفوذ النمساوي في ايطاليـا قدر الامكـان •

٢ ـ الاهداف الانكليزية : كانت ترمي الى المحافظة على سيطرة انكلترا على البحار وعدم بحث هذا الموضوع اطلاقا كما كانت تريد احاطة فرنسا من جميع جهاتها بدول قوية لمنع توسعها في المستقبل • وكانت تريد ايضا أن تضع حدا لمطامع روسيا في السيطرة في أوروبا او الشرق •

٣ ـ الاهداف النمساوية : كانت النمسا تدرك صعوبـة استعادة مكانتها القديمة بعد هزائمها على يد الفرنسيين ولذا فقد اكتفت بالمطالبة بالمحافظة على أراضيها وصيانة مصالحها القديمة في يطاليا كما أبـدت رغبتها بعدم السماح لروسيا بالسيطرة على بولونيا •

٤ ـ الاهداف الروسية : كان قيصر روسيا يطالب بأن تكـون بولونيا له وبأن يعترف له بالزعامة على اوروبا كلها • وكان يريد ان يتألف حلف عام من الدول الأوروبية الكبرى بزعامته وذلك لتأمين السـلام والابقاء على الملكية وعلى نظم الحكم التقليدية •

٥ ـ الأهداف البروسية : طالبت الحكومة البروسية بالتوسع في الأراضي الالمانية كما أظهرت رغبة شديـدة بالحصول علـى مقاطعتي الألزاس واللورين الفرنسيتين ، بينما كان الشعب البروسي يطالب بالسعي لتوحيد الدول الالمانيـة في دولـة قوية شاملة أو على الأقـل اختصار عدد الدويلات الالمانية قـدر الامكـان •

أمام تعارض مصالح الدول الكبرى طالت المفاوضات كثيرا وامتدت من منتصف أيلول سنة ١٨١٤ حتى آذار سنة ١٨١٥ • والواقع أن مؤتمر فينا كان في الاغلب سلسلة من المفاوضات السرية بين الدول الكبرى لعب فيها مندوبو الدول الصغرى دور المتفرج • وكانت أكثر القضايا اثارة للخلاف هي مسألة مصير بولونيا وساكسونيا ممـا أدى الى تأزم الموقف وانقسام الدول الكبرى الى معسكرين : روسيا وبروسيا اتفقتا على أن تأخـذ الاولى بولونيا والثانيـة ساكسونيا • ومن جهة أخرى انكلترا والنمسا اللتان كانتا تعارضان في ذلك • الا أن عودة نابوليون من منفاه جعلت الدول الكبرى أكثر ميلا للتفاهم • وأخيرا وفي ٩ حزيران سنة ١٨١٤ وكانت الدول الكبرى قد توصلت الى تسوية فيما بينهـا وأعلنت المقررات النهائية للمؤتمر ودعيت الدول الصغرى للموافقة عليها •

مقررات مؤتمر فينا :

ويمكن تلخيص هذه المقررات بما يلي :

١ ـ أعيدت فرنسا الى ما كانت عليه قبل الثورة ولكن سمح لهـا بالاحتفاظ بمدينة أفينيون • الا انها احيطت بسلسلة من الدول المستقلة لتحول دون توسعها في المستقبـل • فقد ضمت هولندا وبلجيكا في دولة واحدة وأعطي عرشها لآل أورانج وأعطيت نيس وسافواي الى سردينيا• كما ضمن المؤتمر سلامة وحدود سويسرا •

٢ ـ حصلت انكلترا على مكاسب فقط في المستعمرات فأخذت : مالطة ورأس الرجـاء الصالح وغيانا وترينيداد وجزيرة سيلان •

٣ ـ أخذت بروسيـا قسما مـن أراضي سكسونيا وقسما مـن بولونيـا ووستفاليا •

٤ ـ حصلت النمسـا علـى بعض المكاسب في ايطاليـا فاحتلت لمبادريا والبندقيـة •

٥ ـ أخذت روسيا أراضي فنلندا وبسارابيا العثمانية • وما تبقى من بولونيا جعل دولة مستقلة عين ملكا لها قيصر روسيا •

٦ ـ الممالك الالمانيـة التي أقامهـا نابوليون لم ترد الى أصلهـا انما أصبح عددها ٣٨ ضمت في اتحا دالماني لضمان سلامتها الداخليـة وحدودهـا •

٧ ـ فيما يختص بايطاليا أعيدت للبابـا أملاكـه وكذلك الامراء الايطاليون الذين طردهم نابوليون اعيدوا الى اماراتهم ما عدا تلك التي اعطيت للنمسا أو سردينيا •

٨ ـ أخذت أراضي النروج من الدانمرك وأعطيت للسويد •

وقـد الحقت بهذه المقررات معاهـدة باريس الثانيـة التي ورد ذكرهـا سابقـا •

وهكذا نرى أن زعماء أوروبا قد أعادوا رسم خريطة أوروبا آخذين بعين الاعتبار مبدأين أساسيين : العودة الى الشرعية القديمة متى أمكن ذلك والمحافظة دوما على التوازن بين دول القارة بحيث لا تتجدد تجربة الامبراطورية الفرنسية • والواقع أن الخوف من التجربة الفرنسية والرغبة في تجنب الثورات حتى ولو أدى ذلك الى معارضة مبدأ القوميات ورغبات الشعوب ، هما اللذان حددا الخطوط الرئيسية لخريطة أوروبا السياسية لما بعد سنة ١٨١٥ •

وأمام الخوف من تجدد الثورة وللحد من المبادىء الحرة فقد بادرت الدول الكبرى الى اتخاذ الترتيبات التي رأتها كفيلة بتحقيق هذه الغاية وهي :

١ ـ التحالف المقدس :

وقعت عليه كل من بروسيا وروسيا والنمسا في ٢٦ ايلول سنة ١٨١٥ ثم انضمت اليه فرنسا فيما بعد • وكان القيصر هو صاحب فكرة هذا التحالف • وأهم مبادئه : التعهد بتطبيق مبادىء الدين المسيحي والتقيد بمبادىء العدل والمحبة والسلام في العلاقات بين الدول • ويعتبر الملوك الموقعون انفسهم كأنهم رسل الله على الأرض وبما أن الله هو الذي أنشأ الأنظمة الاجتماعية القائمة والفروق بين الطبقات • فانهم يعتبرون أنفسهم ملزمين بالدفاع عن الأنظمة وعن الفروقات الطبقية •

ورغم الاطار الديني لهذا التحالف فانه لم يكن في الواقع سوى تعبير عن رغبة ملوك أوروبا بالقضاء على كل محاولة ديموقراطية أو جمهورية تحررية في أوروبا والعالم •

والواقع أن فكرة التحالف المقدس كانت خيالية وغير عملية بل كانت تعارض كل الأماني الشعبية السائدة في تلك الأيام • ثم أن صدور الفكرة عن قيصر روسيا المعروف برجعيته ومطامعه الواسعة في أوروبا جعل الشكوك تنتشر حول الغاية من هذا التحالف • ولم يوقع عليه الانكليز لاعتبار مبادئه غامضة وغير عملية ، ولعدم ثقتهم بقدرته على مواجهة

الأوضاع الجديدة في أوروبا التي قامت بسبب الآثار الفكرية والاجتماعية المتحررة التي أوجدها نابوليـون في أوروبـا في كل مكان حلت فيـه جيوش فرنسا الثـورة •

وكانت نتيجة هذا التحالف خنق الحياة الفكرية في ألمانيـا بعـد سنة ١٨١٥ وقمـع الحركات الدستورية والقومية في ايطاليا وارجـاع اسبانيا الى الحكم الملكي المطلق ومحاولة القضاء على الحركات الاستقلالية في أمريكا الجنوبية مما سبب لأوروبا فيما بعد الكثير من الثـورات والاضطرابـات •

٢ ـ التحالف الرباعي :

وفي ٢٠ تشرين ثاني سنة ١٨١٥ وقعت الدول الأربـع الكبرى : روسيا وبروسيا والنمسا وانكلترا تحالفا رباعيا الغاية منه دعم مقررات مؤتمر فينا والعمل على المحافظة على الوضع الراهن في أوروبا ولو بالقوة العسكرية لمدة عشرين سنة • كما أنه يهدف الى منـع انتشار المبادىء الاجتماعية والاقتصاديـة للثورة الفرنسية • وقد نص التحالف على عقد اجتماعات دورية للمشاورة في الشؤون الاوروبية • وقد لقي هذا التحالف معارضة شديدة من الرأي العام البريطاني مما جعل الحكومة البريطانية تتخلى عنه تدريجيا فيما بعد •

نقد التسوية :

يمكن اعتبار مقررات مؤتمر فينا والمعاهدات الملحقة به أعظم اتفاق ديبلوماسي أمكن الوصول اليه في أوروبا منذ صلح وستفاليا سنة ١٦٤٨ • وقد كان لهذه المقررات نواحي ايجابية هامة • لقد قبل الفرنسيون بنتائج مؤتمر فينا لأنها أنزلت بفرنسا أقل قدر ممكن من الخسائر • يضاف الى ذلك ان مقررات المؤتمر قد أوجدت حلا للمشكلة البولونية التي ظلت طيلة القرن الثامن عشر مثار خلافات وحروب في أوروبا • كما أنها خففت من حدة الصراع لمدة خمسين سنة تقريبا بين بروسيا والنمسا على الزعامة بين الدول الالمانيـة •

الا أنه الى جانب هذه النواحي الايجابية فقد كان للمقررات نواحي أخرى سلبية كثيرة • فدعاة القومية والحكم الديموقراطي قد اصيبوا بخيبة أمل في كل مكان من أوروبا وخاصة في المانيا • ذلك أن رسم الحدود بين الدول وتوزيع المناصب والمكاسب قد تم دون الأخذ بعين الاعتبار ارادة شعوب هذه البلدان ومصالحهم القومية والاقتصادية • ولعل مرد ذلك الى أ نالذين اشرفوا على اعمال المؤتمر كانوا من أخصام الأفكار القومية والديموقراطية وهما القوتان الأكثر فعالية في العصر التالي للمؤتمر •

وبصورة عامة ومهما كانت الانتقادات التي وجهت الى أعمال المؤتمر فانه وفق في تحقيق غايته الأساسية وهي اقامة سلم دائم يرتكز الى توازن في القوى بين دول أوروبا • وقد حصلت أوروبا بالفعل على ذلك السلم الذي استمر حوالي نصف قرن لم تعكر صفوه الا حركات ثورية جزئية قامت سنة ١٨٣٠ وسنة ١٨٤٨ •

ثورات سنة ١٨٣٠

في سنة ١٨٣٠ قامت سلسلة من الثورات والحروب الداخليةانتشرت في أكثر البلدان الأوروبية كرد فعل للسياسة الرجعية المحافظة وما يرافقها من ضغط وتدخل في شؤون الدول الصغرى من قبل ميترنيخ وزير خارجية النمسا وقيصر روسيا بصورة خاصة • وفي كل البلدان التي قامت فيها الثورة كان هدف الاحرار اقامة حكم دستوري يضمن للمواطنين حقوقهم في الحرية والمساواة وتقرير مصيرهم • ذلك أن نابوليون بونابرت زرع في كل بلد دخلته الجيوش الفرنسية زمن الامبراطورية مبادىء الثورة الفرنسية • وكانت الطبقات البورجوازية في كل واحدة من هذه البلدان هي التي تتولى الدفاع عن مبادىء الثورة الفرنسية وتقوم بالدعوة لها • ثم ان مبدأ القوميات قد لعب أيضا دورا كبيرا في ثورات سنة ١٨٣٠ وخاصة في البلدان التي اخضعت للحكم الاجنبي بموجب مقررات مؤتمر فينا كبلجيكا وبولونيا مثلا •

وقد اتخذت هذه الثورات شكلا عنيفا في بعض البلدان كفرنسا ودول أوروبا الشرقية • وسنستعرض هنا أهم أحداث سنة ١٨٣٠ •

١ ـ الثورة في فرنسا :

قضى مؤتمر فينا بعودة الملكية الى فرنسا وارتقى عرش باريس لويس الثامن عشر متعاونا مع أعداء فرنسا في الخارج ، فأخذ يعود بالبلاد تدريجيا الى الحكم الملكي المستبد • كما أنه ترك أعوانه يضطهدون أنصار نابوليون ويلاحقونهم وسمح للكنيسة بأن تسترد بعض نفوذها الذي فقدته زمن الثورة • وقد اساءت هذه السياسة كثيرا الى مشاعر الفئآت الوطنية من الفرنسيين • ورغم أنه عمل كثيرا في أيام حكمه

على جعل فرنسا تستعيد مكانتها كدولة كبرى في أوروبا الا ان عدد الأحرار ونوابهم في البرلمان كان في تزايد مستمر• ولما توفي سنة ١٨٢٤ كانت الرجعية قد تمركزت في كثير من مراكز القوة في الجيش والادارة بحيث صارت لها يد قوية في تقرير شؤون البلاد • خلفه على العرش شقيقه شارل العاشر فأطلق العنان للسياسة الرجعية وأعاد للكنيسة نفوذها القديم ووضع التعليم في أيدي الجيزويت المشايعين للملكية المطلقة وأعطى من هاجروا من الاشراف زمن الثورة تعويضات كبيرة عن أملاكهم التي فقدوها •

هذه السياسة المتطرفة أثارت نقمة الأحرار واشمئزاز الملكيين الدستوريين • وفي سنة ١٨٢٩ عين بولينياك (De Po ignac)سفير فرنسا

في لندن والمعروف بعدائه الشديد للنظم المتحررة رئيسا لوزرائه • وقد حكم البلاد سبعة أشهر دون أن يجمع البرلمان • وفي الجلسة الاولى التي اجتمع فيها النواب في آذار سنة ١٨٣٠ طالب المجلس بمشاركة الحكومة في السلطة • فغضب الملك وأمر بحل البرلمان ، الا أن الانتخابات التي جرت بعد ذلك أعطت الأحرار نصراً قويا وزاد عدد نوابهم خمسين نائبا •

لقد رد الملك على ذلك فأصدر أربعة مراسيم قضت بحل المجلس الجديد وتقييد حرية الصحافة وتعديل قانون الانتخاب بحيث أصبح أكثر الناخبين من فئة ملاكي الأرض •

وفي ٢٧ تموز (يوليو) تم التفاهم بين الجمهوريين والجمعيات العمالية على ضرورة اللجوء الى العصيان المسلح • وفعلا نزل العمال والطلاب الى الشوارع وأقاموا المتاريس كما أغلقت المصانع أبوابها وجرى توزيع الأسلحة على الناس من قبل الصناعيين • وفي ٢٨ تموز احتل الثوار قصر الملك (التويلري) وسيطروا على باريس كلها • وقد حاول الملك استرضاء الجماهير بالعودة عن مراسيمه الأربعة الا أن

رجـال الثورة أصروا على خلعه فهرب شارل العاشر الى الخارج ٠

ولما فرغ عرش فرنسا لم يحاول أحد اقامة الجمهورية وذلك لكون أوروبا وخاصة النمسا وروسيا ما كانت على استعداد اطلاقـا لقبول جمهورية فرنسية آنذاك ٠

دعي لوي فيليب (دوق دورليان) وهو قريب شارل العاشر ومـن عائلة البوربون ومن أشد أنصار حزب الأحرار في فرنسـا ، من قبـل البرلمان ليكون « ملكا على الفرنسيين » في ظل العلم المثلث الألوان وليس في ظل العلم الملكي ٠ وقد بادر فور انتخابه الى استرضاء الناقمين فعدل الدستور جاعلا الحكومة مسؤولة امام البرلمان والغى الوراثة في مجلس الأعيان وعدل قانون الانتخاب لمصلحة الطبقة المتوسطة صاحبة الفضل في حمله الى العرش ٠

وهنا لا بد من الاشارة الى أن دول أوروبا الرجعية لم تتمكن مـن التدخل بسبب سرعة الأحداث ٠ اذ تم القضاء على النظام القديم خـلال ثلاثة أيام فقط يسميها الفرنسيون « الأيام المجيدة » ٠ ثم أن النظـام الذي قام مكانه هو نظام ملكي تقليدي ٠ وفوق ذلك فان انكلترا كانت تعارض أي تدخل من جانب النمسا وروسيا في الشؤون الفرنسية لكـي لا يفسح لهما المجال لتحقيق مكاسب اقليمية على حساب فرنسا أو أي منطقة أخرى من أوروبا ٠ كما أنها كانت تخاف أن يؤدي مثل هذا التدخل الى ازدياد نفوذهما في أوروبا عامة ٠

٢ ـ ثورة بلجيكا :

لقد قضى مؤتمر فينا بأن تضم بلجيكا وهولندا في دولة واحدة عين عليها (وليم أوف أورانج) ملكا ٠ ولم يكن قرار المؤتمر حكيما لأنـه تجاهل الفروقات اللغوية والدينية التي تفصل بين الشعبين ٠ وكان الملك الجديد متحيزا للهولنديين مستبدا في ادارة شؤون الحكم مما جعـل البلجيكيين ينفرون منه ويكرهون الهولنديين وخاصة ، حينما حاول أن يفرض اللغة الهولندية في مدارسهم ٠

وفي سنة ١٨٣٠ اتفق الحزب الكاثوليكي وحزب الاحرار وهما أكبر أحزاب بلجيكا على الثورة ، فأعلناها في بروكسل في آب سنة ١٨٣٠ ، وبسرعة كبيرة عمت جميع انحاء البلاد • وحين تدخل وليم مرسلا جيشا لاعادة احتلال العاصمة أبدى الأهالي مقاومةشديدة أجبرته على الانسحاب بعد أربعة أيام • انتصار البلجيكيين هذا شجعهم على المضي في تمردهم فشكلوا حكومة مؤقتة دعت لانتخاب مجلس نواب أعلن استقلال البلاد •

الا أن وليم لم يقبل بالأمر الواقع بل أخذ يطالب دول التحالف الرباعي أن تساعده ضد الثورة • ولما كانت روسيا مهتمة بمشاكلها في بولونيا والنمسا تراقب الثورات في ايطاليا وانكلترا مهتمة بمشاكلها الداخلية • وفرنسا تعارض أي تدخل في بلجيكا فقد بقي نداؤه دون جواب ••

والواقع أن فرنسا كانت راضية أشد الرضى عن الثورة البلجيكية لأنها رأت فيها بداية تفكك مقررات مؤتمر فينا • ورغم أن بعض الوطنيين الفرنسيين رأوا ضرورة ضم بلجيكا لفرنسا لما بين البلدين من رابطة دينية ولغوية وحدود مشتركة فان الحكومة وقفت موقف المعتدل وأعلنت عزوفها عن التدخل وذلك تفاديا لاثارة المشاكل مع انكلترا • وامام عدم تدخل الدول الكبرى في شؤون بلجيكا فقد انتصرت فيها الثورة ودعمت قواعدها •

وفي سنة ١٨٣١ اجتمع في لندن مؤتمر للدول الكبرى الخمس فرض الهدنة العسكرية والغى اتحاد بلجيكا وهولندا ووافق على تعيين الامير ليوبولد ــ وهو أمير الماني كان زوجا سابقا لابنة ملك انكلترا وكان يقيم في لندن ــ ملكا على عرش بروكسل كما أعلنت الدول الكبرى اتفاقها على حياد بلجيكا وضمانها له • وقد ظل هذا الحياد قائما حتى سنة ١٨١٤ حين خرقته الجيوش الالمانية •

ولما كان ملك هولندا غير موافق على استقلال بلجيكا فقد أرسل

جيشا لاحتلالها الا ان الجيوش الفرنسية تولت طرد الهولنديين وتثبيت دعائم العرش البلجيكي خاصة وأن ليوبولد كان قد تزوج من ابنة لوي فيليب ملك فرنســا •

٣ ـ ثورة بولونيــا :

الثورات في أوروبا الغربية كان هدفها الاصلاح الدستوري والعمل على ضمان الحريات العامة • أما في بولونيا فالغايــة كانت قوميــة تحرريــة • ذلك أن مؤتمر فينا قد قضى بجعل بولونيا دولة مستقلــة يحكمها قيصر روسيا • والواقع فان قضية الاستقلال كانت شكلية ذلك أن البلاد كانت تحت الحكم الروسي المباشر • وقيــام الثورة في فرنسا سنة ١٨٣٠ دفع الحركات الوطنية البولونية للتحرك • وقد أعلن في هذه السنة بعض الضبــاط الوطنيين البولونيين في الجيش الروسي الثورة في فرصوفيا ، ومنها امتدت بسرعة كبيرة الى المدن والأرياف • ثم قامت في البلاد حكومة بولونية مؤقتة طلبت من الدول الغربية مساعدتها ضد القيصر ، الا أن فرنسا وانكلترا كانتا تهتمان آنذاك بالمشكلة البلجيكية والنمسا وبروسيا كانتا تريدان انتصار القيصر الروسي لكي لا يثير نجاح الثورة في فرصوفيا مشاكل في الاراضي البولونيــة التي تسيطر عليهــا الدولتــان •

وبذلك ترك البولونيون وجها لوجه أمام عدوهم القيصر الروسي • فاجتاحت الجيوش الروسية حدود بولونيا في شباط سنة ١٨٣٠ • وقــد دامت الحرب سبعة أشهر ابدى خلالها الثوار البولونيون شجاعة نادرة الا أنهم هزموا في النهاية امام جيوش القيصر •

وهنا لا بد من الاشارة الى أن الهزيمة البولونية لم تكن بسبب ضعف الجيش البولوني وقلة عتاده بقدر ما تنجت عن خلافات زعماء الثورة مع بعضهم البعض • ثم أن بعض الزعماء الارستوقراطيين تعاونوا مع القيصر بسبب كرههم للعمــال والبورجوازيين الذين كانــوا شديدي الحماس للثورة والاستقلال •

وأدى فشل الثورة الى هجرة حوالي عشرة آلاف بولوني أكثرهم من العلماء ورجـال الأدب والفن والفكر استقر أكثرهم في فرنسا وأخذوا يعملون بقوة لقضية بلادهم •

٤ ـ ثورات ايطاليـا :

كان لثورة ١٨٣٠ الفرنسية ردود فعل قوية في ايطاليا التي كانت شديدة التأثر بكل ما يحدث في فرنسا • ولذا فقد قامت الثورة في مودينا وفر حاكمها المعين من قبـل مؤتمر فينا وأعلنت البلاد دولة حرة • كمـا قامت ثورات مماثلة في بعض الولايات البابوية • الا أن ميترنيخ وزيـر خارجيـة النمسا المعروف بعدائه للمبادىء الحرة لم يقبل بهذه الأحداث وخاصة انه كان يخشى امتدادها الى الولايات الايطالية الخاضعة لنفوذ العرش النمساوي فأرسل جيوشا قضت على الثورات وأعادت الحكـام الشرعيين الى عروشهم •

٥ ـ حوادث سويسرا وانكلترا :

لم تمر أحداث سنة ١٨٣٠ في أوروبـا دون أن تخلف آثـارا في سويسرا وانكلترا • انما أحداث البلدين تمت ضمن اطار الشرعية وبعيدا عن العنف والثـورة •

ففي سويسرا تأثر الشعب الى حد كبير بأحداث فرنسـا المجاورة وأخذ الناس يطالبون بجعل الأنظمة الدستوريـة أكثر تحررا ومرونـة فقدمت العرائض واللوائح الى الحكومة السويسرية التي بادرت الـى اجراء اصلاحـات هامة تلافيـا لوقوع أحداث داميـة وأهم هـــذه الاصلاحـات :

ـ الاعتراف بمبدأ السيادة للقوميات المختلفة في سويسرا •

ـ المساواة بين المواطنين دون النظـر الى أوضاعهم الاجتماعية أو الاقتصادية أو الدينية •

ـ اعطاء مزيد من الضمانات لاحترام حرية الرأي والصحافة •

أما في انكلترا : فهدف طلاب الاصلاح كان تعديل الأنظمة الانتخابية • فقد قامت الجماهير بمظاهرات وحركات شعبية بتأثير نجاح الثورة في باريس • كان الانكليز يريدون تعديل قوانينهم الانتخابية القديمة التي باتت لا تتناسب مع تطور حركة السكان في القرن التاسع عشر • ففي الوقت الذي كانت فيه بعض القرى الصغيرة ترسل أكثر من نائب الى البرلمان كانت مدن صناعية كبيرة ترسل عددا من النواب أقل مما يحق لها بالنسبة لعدد سكانها أو قد لا ترسل على الاطلاق • ذلك أن قانون الانتخاب المعمول به آنذاك كان قد وضع قبل نشوء المدن الصناعية ونموها ، وفي وقت كان أكبر قسم من السكان يقيمون في الريف • فسقطت حكومة ولينغتون تحت ضغط الشارع والبرلمان وترأس الحكومة مكانه اللورد غراي (Crey) في كانون أول سنة ١٨٣٠ الذي عدل قانون الانتخاب واعطى المدن الكبيرة نصيبها من التمثيل النيابي كما أعطى حق الانتخاب لمزيد من المواطنين فارتفع عدد الناخبين من نصف مليون الى ثمانماية الف • ويعتبر هذا التعديل انتصارا كبيرا للبورجوازية ذلك أن هذه الطبقة كانت هي صاحبة السيادة في المدن الكبرى • وهكذا تمت التغيرات التي أرادها المواطنون في انكلترا ضمن اطار الشرعية الدستورية •

انتهاء حركات سنة ١٨٣٠ :

أحداث سنة ١٨٣٠ اظهرت الاختلاف الجذري في مصالح الدول الكبرى وفي نظرتها الى القضايا الاوروبية • فانكلترا التي عملت على القضاء على سياسة المؤتمرات التي نص عليها التحالف الرباعي بعد سنة ١٨١٥ نراها بعد سنة ١٨٣٠ تتبع سياسة أكثر معارضة لمبادىء التحالف المذكور • فقد أخذت تقف بصورة علنية موقف المعارض لمبدأ تدخل الدول الكبرى في الشؤون الداخلية لدول أوروبا أيا كانت مبررات هذا التدخل • وحين عقدت الدول الكبرى : النمسا وروسيا وبروسيا مؤتمرا في سنة ١٨٣٣ لبحث الأوضاع في أوروبا قاطعت انكلترا هذا المؤتمر •

ومع هذا فقد أصدر المؤتمرون الثلاثة بيانا اعلنوا فيه أن كل ملك أوروبي يهدد بخطر خارجي أو داخلي يمكنه أن يستنجد بأحد الملوك الثلاثة وكل دولة تعارض مثل هذا التدخل تعتبر عدوة للدول الثلاثة .

وقد أثار هذا البيان سخط الانكليز وهزئهم، وكذلك بادرت فرنسا للاعتراض عليـه معلنة رفضها لأي تدخل في شؤون بلجيكا وسويسرا والبيامون وانهـا في معارضتها هذه مستعدة حتى للحرب .

وهكذا ورغم أن الأحوال قد هدأت في أوروبا بعد سنة ١٨٣٤ وعاد اليها الاستقرار والهدوء الا أنه بات من الواضح أن الدول الكبرى قـد انقسمت الى معسكرين تتعارض مصالحهما تعارضا أساسيا وهما : معسكر الدول الثلاث : روسيا وبروسيا والنمسا ومعسكر الدول الغربية ويضم فرنسا وانكلترا تؤيدهما البرتغال واسبانيا .

ثورات سنة ١٨٤٨

اذا نحن ألقينا نظرة على خريطة أوروبا السياسية في سنة ١٨٤٨ نجد أنها لا تزال كما رسمت في مؤتمر فينا سنة ١٨١٥ ما عدا التعديلات التي طرأت نتيجة لاستقلال اليونان وبلجيكا • وهذا يعتبر نصرا كبيرا لدعاة الرجعية والمحافظة على الاوضاع القديمة في أوروبا وفي مقدمتهم ميترنيخ وزير خارجية النمسا وقيصر الروسيا • الا أنه في العام ١٨٤٨ وبفضل بروز فكرة القومية بشكل قوي والتغيرات التي طرأت على أوضاع الدول خلال هذه الفترة الطويلة بات لا بد من حدوث التغيير حتى ولو كان ذلك عن طريق الثورة • وقبل أن نتحدث عن احداث سنة ١٨٤٨ سنعرض أوضاع الدول كما كانت عليه سنة ١٨٤٨ •

١ ــ انكلترا : ارتفع عدد سكان الجزر البريطانية في سنة ١٨٤٨ الى ستة وعشرين مليونا بفضل الازدهار الاقتصادي الذي عم البلاد في القرن التاسع عشر • وبات للانكليز امبراطورية واسعة غنية تضم ممتلكات في أمريكا (كندا) وفي آسيا (الهند وسيلان) كما أنها باتت تسيطر على أهم المناطق الستراتيجية في العالم : مالطه ، جبل طارق ، رأس الرجاء الصالح ، سنغافورة ، هذه الامبراطورية المتسعة جعلت لانكلترا مصالح سياسية واقتصادية خارج القارة الاوروبية وبالتالي فقد كان عليها أن تقلل من التزاماتها في اوروبا كما أن الاستعمار من جهة ثانية قد جعل منها اغنى دولة في العالم ومن صناعتها اكثر الصناعات تطورا وازدهارا وهذا مما أخذ يفرض عليها أحداث تغييرات جذرية في سياستها العامة ذلك انه صار للاعتبارات الاقتصادية والتجارية دور هام في حياتها وسياستها • ثم ان وضعها المالي قد تحسن كثيرا وباتت لندن

أول مركز مالي في العالم • كما أن المصارف الانكليزية أخذت تمول المشاريع الكبرى في جميع انحاء العالم مما كان يعطي السياسة البريطانية قدرة أكبر على التدخل السياسي •

٢ ـ فرنسا : تطورت في هذه الفترة الصناعة الفرنسية انما بقيت متخلفة بالنسبة لصناعة انكلترا • اما مستعمراتها فكانت قليلة وعديمة الأهمية اذا استثنينا : بلاد الجزائر • أما على الصعيد السياسي فان أوضاع فرنسا كانت في تدهور متزايد • ذلك أن لوي فيليب الذي ارتقى العرش كمرشح للاحرار اخذ يميل في السنوات الاخيرة من حكمه نحو الملكية المستبدة مبعدا عناصر الاحرار والدستوريين •

٣ ـ بروسيا : كانت بروسيا أقوى دولة بين دول الاتحاد الالماني الثمانية والثلاثين • فكان عدد سكانها احد عشر مليونا • اما صناعاتها فكانت أقل تطورا من الصناعات الفرنسية ، ولم يكن الاتحاد الالماني موحد الكلمة فكانت تفرق حكامه الخلافات الداخلية والقضايا الدينية •

٤ ـ النمسا : كانت الامبراطورية النمساوية تتألف من ستة وثلاثين مليونا من السكان موزعين الى قوميات عديدة أهمها : الالمان ويشكلون عشرين بالمئة من السكان ثم السلافيون والتشيك والمجريون والبولونيون والرومانيون والايطاليون •• وكانت الرابطة الوحيدة بين هذه الشعوب هي رابطة الولاء لامبراطور فينا ، وهي على كل حال رابطة واهية خاصة بعد بروز فكرة القوميات وانتشارها في أوروبا • ولعل هذا الواقع هو الذي جعل ميترنيخ وزير خارجية النمسا يتشدد بين سنتي ١٨١٥ ـ ١٨٤٨ في رجعيته ويحارب كل فكر ثوري أو حركة قومية في أوروبا مخافة أن تؤثر على أوضاع الامبراطورية النمساوية الداخلية •

٥ ـ روسيا : أكبر دول أوروبا مساحة وسكانا ، فهي تضم ٦٥ مليون مواطن • والمشكلة الكبرى لهذه الدولة هي أنها كانت بحاجة

الى مرفأ على احد البحار الدافئة لتتصل بواسطته وبحريا مع بلدان العالم • ولما كانت الامبراطورية العثمانية تحول دون وصول روسيا الى المتوسط بفضل سيطرتها على المضائق فقد ظل العداء الروسي ــ العثماني محور السياسة الروسية في أوروبا الشرقية طيلة القرن التاسع عشر • أما على صعيد أنظمة الحكم فان أفكار الثورة الفرنسية لم تكن قد وصلت بعد الى جماهير روسيا وبالتالي فان العرش الروسي لم يكن يعاني أية مشكلة من هذا النوع •

هكذا كانت أوضاع أوروبا عامة في مطلع سنة ١٨٤٨ وبالتالي قبل اندلاع الثورات التي أشعلها بروز الفكرة القومية في أوروبا ورغبة كل شعب في أن يحكم نفسه بنفسه بواسطة أجهزة حكم ديموقراطية دستورية• وسنعرض هنا بايجاز أهم أحداث أوروبا هذا العام وانعكاسات هذه الثورات على الوضع العام في أوروبا والعالم •

أولا ــ الثورة في فرنسا :

اعتلى لوي فيليب عرشه كما نعلم كمرشح عن الاحرار وعلى أساس اعترافه بالدستور واحترامه له الا أن مصلحته الخاصة ورغبته في المحافظة على التاج جعلته يضطر في بعض الأحيان لأن يخرج عن القواعد الدستورية لمقاومة عوامل التغيير الداخلي وهذا ما كان يثير سخط الشعب واشمئزازه •

ثم أن لوي فيليب قد واجه منذ بدء حكمه معارضة قوية من حزبين منظمين :

١ ــ انصار الملكية الشرعية : وهؤلاء لم يقبلوا به أصلا كملك ؛ لأنه من عائلة أورليان احدى فروع عائلة بوربون وكانوا يريدون ابقاء العرش في فرع لويس الثامن عشر أي في عائلة بوربون الأصلية •

٢ ــ الجمهوريون : وكانوا يعتبرون ملكية يوليو سنة ١٨٣٠ غير شرعية لأنها لم تقم على اساس استفتاء شعبي •

لهذه الاسباب رای من المناسب له ان يعتمد علــى حزب الملكيين الدستوريين الذي رشحه وساعده في الوصول الى العرش • وكان الحزب المذكور يمثل ابناء الطبقة المتوسطة من الفرنسيين • لذا فقد عدل قانــون الانتخاب بشكل كفل له السيطرة على المجالس التمثيلية لأبناء الطبقــة المتوسطة كما أنه نظم الجيش بحيث اصبح عدد كبير من ابناء هذه الطبقة من بين ضباطه الكبار • هذه السياسة وما فيها من تحيز ومحاباة لحزب واحد وطبقة واحدة جعلت الأحزاب الاخرى تتطرف في معارضة حكمه • كما أن أكثر من مؤآمرة دبرت لاغتياله في السنوات الاخيرة من حكمه ، وهذا ما جعله يقيد حرية الصحافــة ويلاحق أخصامه مــن الجمهوريين والملكيين على السواء •

وقد أخذت تظهر في فرنسا زمن لوي فيليب حركة اشتراكية قويــة نتيجة للازمــة الاقتصاديــة التي عمت فرنســا عقب سقوط نابوليون وللانقلاب الصناعي الذي تسبب بانتشار البطالة وتدني الاجور • وأبرز رجالات هذه الحركة : سان سيمون الذي كان ينادي بالوفاق والاخاء بين العمال وأصحاب العمل انما دون أن يضع خطة عملية لذلك • ولــذا فقد تحول العمال الى نظريات داعية اشتراكي آخر هو لويس بلان • وكان ينادي بحق كل فرد في العمل وبان واجب الدولة يدعوها ان تنشيء هي مصانع أهلية يتولى العمال بأنفسهم ادارتها ويقتسمون ارباحها على أن يدفعوا للدولة نصيبهــا مقابل ما دفعته من رأس المــال • لاقت هــذه النظريات قبولا واسعا عند جماهير الفرنسيين مما جعل الجميع يشعرون وكأنهم على ابواب ثورة اجتماعية واقتصادية •

وأمام عجز حكومات لوي فيليب المتعاقبة عن ايجاد حل لمشاكــل البلاد المتزايدة وتدخل الملك المتزايد في شؤون الحكم وتقييده للحريات العامة ومحاربته لأخصامه أخذت ترتفع الاصوات من كل جانب مطالبــة بالاصلاح وبالقضاء على الرشوة والفساد • وكان من ابرز رجــالات الاصلاح في هذا العهد الشاعر الفرنسي لامارتين •

ولم يلبث أن ظهر تحالف للقوى المعارضة للملك ولنظامه يضم الاشتراكيين والاحرار والملكيين الشرعيين • وقد ركز هؤلاء مطاليبهم حول ضرورة تعديل قانون الانتخاب بحيث يأتي التمثيل البرلماني شاملا جميع طبقات المجتمع الفرنسي بشكل عادل • وقد سلك هؤلاء أول الأمر الأساليب الشرعية فعقدوا الاجتماعات الشعبية في كل أنحاء البلاد وقدموا العرائض للملك مطالبين بالاصلاح • الا أن الدولة لم تسكت عن هذا النشاط المتزايد وبادرت لقمعه بالقوة فمنعت الاجتماعات السياسية في مطلع سنة ١٨٤٨ • وقد أدى هذا الى وقوع الاضطرابات وحصل اصطدام بين الجنود والشعب في ٢٣ شباط سنة ١٨٤٨ وسقط العديد من القتلى • وامام تدهور الوضع في البلاد وافق الملك على اعطاء الشعب مطاليبه ، الا أن تصرفه هذا جاء متأخرا فتنازل عن العرش لحفيده ولكن رجال الاصلاح لم يقبلوا بذلك وعمدوا الى تأليف حكومة مؤقتة كان من اعضائها لويس بلان ولامارتين وأحد العمال • أما الملك فقد رحل مع عائلته الى انكلترا •

وفي ٢٥ شباط (فبراير) سنة ١٨٤٨ اعلنت الحكومة المؤقتة الجمهورية الفرنسية وأباحت حرية الصحافة ودعت لانتخاب مجلس نيابي عن طريق الاقتراع العام لوضع دستور للجمهورية الجديدة (الجمهورية الثانية في تاريخ فرنسا) •

وقد جاء المجلس الجديد يضم أغلبية من الجمهوريين المعتدلين ذلك أن الشعب الفرنسي وبصورة خاصة رجال المال والاعمال عملوا على ابعاد الاشتراكيين بسبب خوفهم منهم ولأن تجربة المصانع الأهلية التي قام بها لويس بلان زمن الحكومة المؤقتة قد فشلت •

عمل المجلس الجديد على وضع دستور جديد للبلاد فوضع السلطة التشريعية في يد مجلس تمثيلي واحد يضم ٧٥٠ عضوا وينتخب لأربع سنوات بالاقتراع العام • لما جرت انتخابات رئاسة الجمهورية في ديسمبر سنة ١٨٤٨ نال لويس نابوليون ابن شقيق نابوليون بونابرت

خمسة ملايين ونصف مليون صوت من أصل سبعة ملايين صوت • وقد رشح نفسه كما قال من أجل « تثبيت دعائم المجتمع الذي زعزعته الحوادث واعادة الأمن والسلام الى نصابهما » •

وفي ٢ كانون أول سنة ١٨٥٢ وافق الشعب الفرنسي على تعيينه امبراطورا على فرنسا وذلك بناء لتوصية المجالس التشريعية •

وأخيرا لا بد من التساؤل عن موقف اوروبا وجماعة الحلف المقدس من ثورة فبراير سنة ١٨٤٨ في فرنسا • لقد بادرت انكلترا منذ البداية الى الاعتراف بالجمهورية الفرنسية الجديدة (الجمهورية الثانية) وكأنها تريد بذلك ان تظهر معارضتها لأي تدخل من جانب الدول الأخرى في شؤون فرنسا • أما الحلف المقدس فقد أبدى بعض النشاط وربما لآخر مرة قبل اختفائه نهائيا • فقد طلبت النمسا من فرنسا أن تعلن احترامها للاتفاقيات القائمة وتقصد بذلك مقررات مؤتمر فينا •

الا أن الثورات لم تلبث أن انتشرت في كل انحاء أوروبا مما جعل كل واحدة من دول الحلف المقدس تهتم بمشاكلها الخاصة وبصيانة مصالحها مكتفية بتصريح لامارتين وزير خارجية فرنسا الذي أعلن فيه ولو بشكل غامض انه ليس في نية فرنسا أن تعود عن الاعتراف باتفاقيات سنة ١٨١٥ •

ثانيا ـ الثورة في النمسا :

لقد كان أثر ثورة فبراير الفرنسية في الأمبراطورية النمساوية قويا لدرجة انه أشاع موجة من الشغب والاضطرابات في ١٣ مايو (أيار) سنة ١٨٤٨ ، تزعمها الطلبة وأساتذة الجامعات أدت الى سقوط حكم ميترنيخ وهربه من البلاد وتسلمت الحكم في البلاد لجنة مركزية للدفاع عن حقوق الشعب لقيت تأييدا عارما من جميع فئات الشعب • والواقع أن هذا السقوط السريع لنظام الحكم المستبد المحافظ الذي فرضه مترنيخ وزير الخارجية على الامبراطورية لم يكن مستغربا • ذلك أن هذا النظام لم يعد قوي الدعائم في سنواته الأخيرة حتى أن مترنيخ نفسه كان يصرح

بأنه يسند نظاما متهدما • ولم تلبث الموجة الثورية أن هبت على كـل المدن الكبرى وعواصم القوميات في الامبراطورية باعثة الرغبة والأمل في اقامة حكم دستوري يكفل للمواطنين الحريات العامة ويضع حدا للمظالم التي كان يشكو منها الفلاحون وللامتيازات الواسعة التي كان يتمتـع بها النبلاء وخاصة في مجال الاعفاء من الخدمة العسكرية وعدم دفـــع الضرائب واحتكار المراكز الكبرى في الدولة • الا أن النزاع بين مختلف عناصر السكان لم يلبث أن ظهر بشكل عنيف وأخذ يحول دون القيـام باصلاحات جذرية في كيان الدولة •

ففي حزيران سنة ١٨٤٨ عقد في مدينـة براغ مؤتمر عام يضـم الشعوب السلافية في الامبراطورية مثل السلوفين والتشيك والروتين . وكان هدف المؤتمرين النظر في امكانية قيام اتحاد لهذه الشعوب • ونظرا لما كان في مثل هذا الاتحاد من تهديد لكيان الامبراطورية ولما كان يكنه النمساويون والألمان من احتقار للجنس السلافي فقد أرسلت فينا جيشا نمسويا للعاصمة براغ • وفي ١٧ حزيران (يوليو) سنـة ١٨٤٨ صبت المدفعية قنابلها على المدينة فقضت على محاولة السلاف التحررية وتأخر بذلك استقلال بلدهم الى ما بعد الحرب العالمية الأولى •

أما المجريون الذين كانوا ينزعون بقوة نحو الاستقلال والحرية فقد أخذت حكومة فينا تحرض ضدهم الشعوب المجاورة لهـم وخاصـة الكرواتيين المعروفين بشدتهم وصلابتهم وبكرههم أيضـا لجيرانهم مـن المجريين • كما أرسلت جيشا نمسويا لاخضاع هذا الشعب الثائر • الا أن انشغال النمسويين في الثورات التي قامت في ايطاليا في سنة ١٨٤٨ حال دون اخضاع المجريين بسرعة مما جعل الفئات الديموقراطية بزعامـة قوسوط Kossuth تقبض على زمام الامـور وتعلن في سنة ١٨٤٩ (ابريل) حكومة مستقلة على أسس ديموقراطية وجمهورية • كما تألف جيش قوي يدافع عن الجمهورية لم تلبث أن انضمت اليه فئآت الاحرار من جميع انحاء الامبراطورية •

أمام هذه التطورات وظهور النزعات الانفصالية عند شعوب الامبراطورية انحسر المد الثوري عن العاصمة فينا واخمدت فيها الحركة الديموقراطية ووضع حد لمحاولات وضع دستور ديموقراطي للامبراطورية . وتسلم الحكم في هذه الفترة الحرجة الكونت شوارتزنبرغ schwartzenberg الذي تمكن بفضل شدته وحزمه من تثبيت دعائم الحكم في فينا على أسس مركزية وأن يؤمن سلامة الامبراطورية ، وأن يجبر الامبراطور فرديناند الضعيف على التنازل عن العرش لابن شقيقه فرانسوا جوزيف . وأمام تفاقم الحركة الاستقلالية في المجر ، وعجز النمسا عن اخضاع المتمردين لم يتردد في الاستعانة بجنود القيصر الروسي الذي بادر فورا لارسال جيش من ماية وخمسين الف جندي قضى على الثائرين في شهر اغسطس (آب) سنة ١٨٤٩ وفرض عليهم عقوبات مروعة . وبذا احتفظت النمسا ولو مؤقتا بوحدتها السياسية وبسيطرتها على كل أراضيها وعلى من فيها من شعوب مختلفة .

ثالثا ـ الثورات في ايطاليا :

انباء قيام الثورة في فينا وهرب مترنيخ بعد انهيار نظامه الاستبدادي أشعل الأمل في صدور احرار الولايتين الايطاليتين ، اللومبارديا والبندقية، في أمكانية التحرر من النير النمسوي . تألفت في كل منهما حكومة وطنية أعلنت الانفصال عن الامبراطورية النمسوية وطردت الجيش النمسوي من البلاد . ولما كانت الولايتان تدركان ان النمسا لن تقبل هذا التصرف فقد طلبتا العون من الملك شارل البرت ملك البيامون الذي ارسل جيشا الى الشمال وأعلن الحرب على النمسا في ٢٥ مارس سنة ١٨٤٨ . وكذلك أرسل ملك نابولي جيوشه لنجدة الولايتين وبذلك اتخذت الحرب طابع التحرر الوطني من الاستعمار الاجنبي . الا أن الجيوش النمساوية بقيادة الجنرال رادتسكي لم تلبث أن حققت نصرا كبيرا على الجيوش الايطالية في معركة كوستوزا Custozza في شهر أغسطس سنة ١٨٤٨ وأرغمت الملك شارل ألبرت على قبول الهدنة . الا أنه اضطر تحت ضغط الرأي

العام الايطالي المناهض للنمسويين لانتهاز فرصة انتصارات جزئية أحرزها المجريون على جيوش النمسا فخرق الهدنة وعاد للقتال في شهر مارس سنة ١٨٤٩ . غير أن الجيوش النمساوية تمكنت بعد عشرة أيام فقط من احراز نصر على الايطاليين في معركة نوفار . عندئذ تنازل الملك شارل ألبرت عن العرش لابنه فيكتور عمانوئيل الثاني الذي وقع معاهدة صلح مع النمسا أعادت الوضع في لومبارديا والبندقيةوشمال ايطاليا الى ما كان عليه قبل الحرب .

وكذلك قامت حركات ثورية في الاملاك البابوية وتشكلت حكومة ثورية في العاصمة روما بقيادة الزعيم الوطني مازيني بعد فرار البابا منها. وقد استنجد البابا بالدول الكاثوليكية فرنسا والنمسا واسبانيا طالبا منها مساعدته لاستعادة املاكه . ولما كانت اسبانيا آنذاك في حالة من الضعف تجعلها عاجزة عن القيام بدور ايجابي خارج بلادها وكانت النمسا منشغلة في مشاكلها مع الثوار المجريين فقد بات بامكان فرنسا وحدها مساعدة البابا . وكان لويس نابوليون يرغب في تقديم ذلك العون لارضاء الحزب الكاثوليكي الفرنسي الذي يؤيد حكمه . ولذا جهزت فرنسا جيشا ارسلته الى ايطاليا فاحتل مدينة روما في ٣٠ يونيو سنة ١٨٤٨ وأعاد البابا الى عرشه بعد أن طرده منها الجمهوريون .

رابعا ـ الثورة في المانيا :

في سنة ١٨٤٧ واجهت فريدريك وليم الرابع ملك بروسيا مطالب عنيفة من قبل رعاياه بتحقيق ما وعد به في السابق من اصلاحات دستورية ذلك أن هذا الملك كان حين ترقى العرش سنة ١٨٤٠ من المؤمنين بالمبادىء الحرة الا أنه لم يحقق بعد ذلك شيئا مما كان يؤمن به أو من الوعود التي اطلقها للالمان . وقد اضطر تحت ضغط الرأي العام لعقد أول برلمان لبروسيا في شهر فبراير (شباط) . ولما حاول البرلمان المذكور أن يحتكر لنفسه حق سن القوانين ومراقبة مالية الدولة بادر الى حله في شهر يونيو ففقد الكثير من سمعته الاصلاحية .

وما أن وصلت أخبار ثورة باريس سنة ١٨٤٨ حتى اجتاحت مدينة برلين في شهر (آذار) مارس فتنة خطيرة هدرت فيها الدماء مما اضطر الملك البروسي للرضوخ ، فوعد باعادة البرلمان المنحل كما أعلن تأييده للحركة الحرة للوحدة الالمانية وذلك في محاولة لكسب تأييد الجماهير .

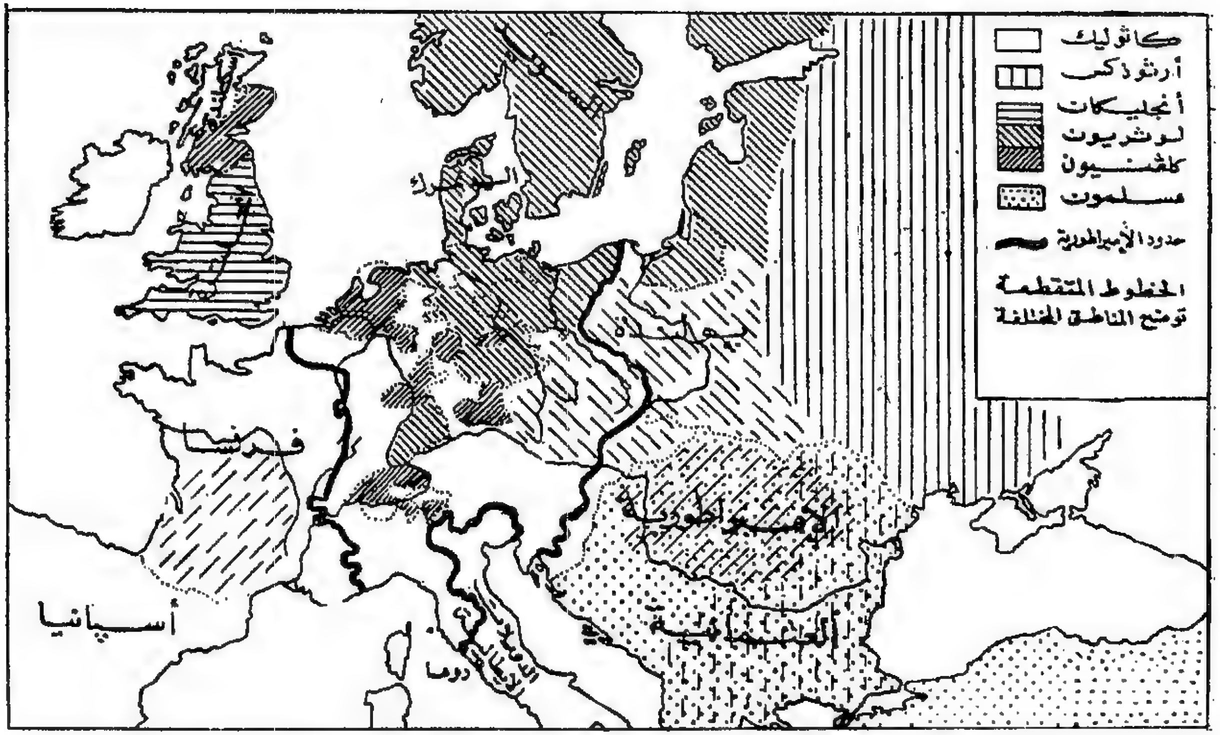
أما في باقي المناطق الالمانية فقد اتخذت الثورة في الارجح طابع العمل في سبيل الحرية والوحدة الالمانية . لقد شجعت ثورة فرنسا ورياح الحرية التي هبت على أوروبا سنة ١٨٤٨ زعماء الالمان الاحرار على دعوة برلمان تحضيري يمثل كل المانيا للاجتماع في ١٨ مايو في مدينة فرانكفورت . وكان هدف المؤتمرين الذين يمثلون أحسن ما في المانيا من عقول نيرة ورجال وطنية وفكر اعطاء المانيا الموحدة دستورا ديموقراطيا . وبعبارة أصح كان على المؤتمرين أن يعملوا على توحيد المانيا ثم على اعطائها دستورا حرا . وبعد مداولات كثيرة عرض المؤتمرون تاج الاتحاد الالماني المزمع انشاؤه على ملك بروسيا واعتبروه مسؤولا عن توحيد المانيا . الا أن الملك البروسي تحت تأثير النزعة الاستبدادية التي كانت تظهر عنده أحيانا رفض هذا العرض باعتباره صادرا عن سلطة شعبية . فالشعب لا يملك حق تعديل الألقاب والسلطة الشعبية هي سلطة غير شرعية .

وتتيجة لموقف ملك بروسيا هذا تأزم الوضع وتفرق أكثر أعضاء البرلمان دون ضجة الا أن فئة من الوطنيين المتطرفين رفضت التفرق فتدخل الجيش البروسي وفرقها بالقوة وبذلك قضى الملك البروسي على تلك الآمال التي أثارها عند الاحرار الالمان انعقاد مؤتمر فرانكفورت اذ رأى فيه الطريق نحو ايجاد أمة المانية موحدة سياسيا .

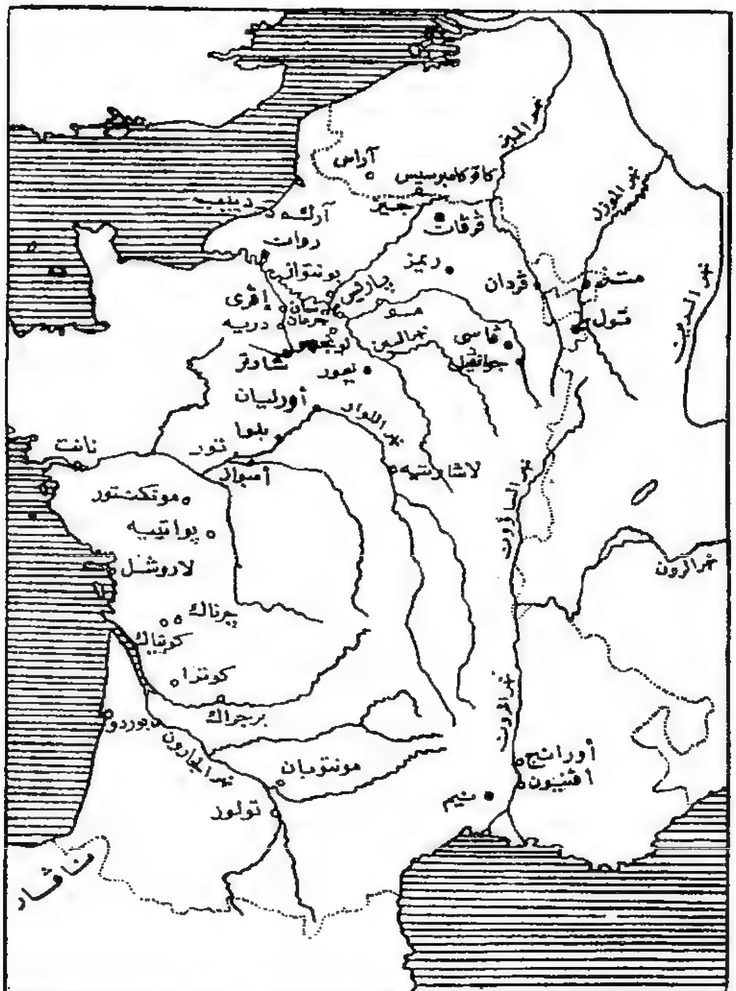
فهرس



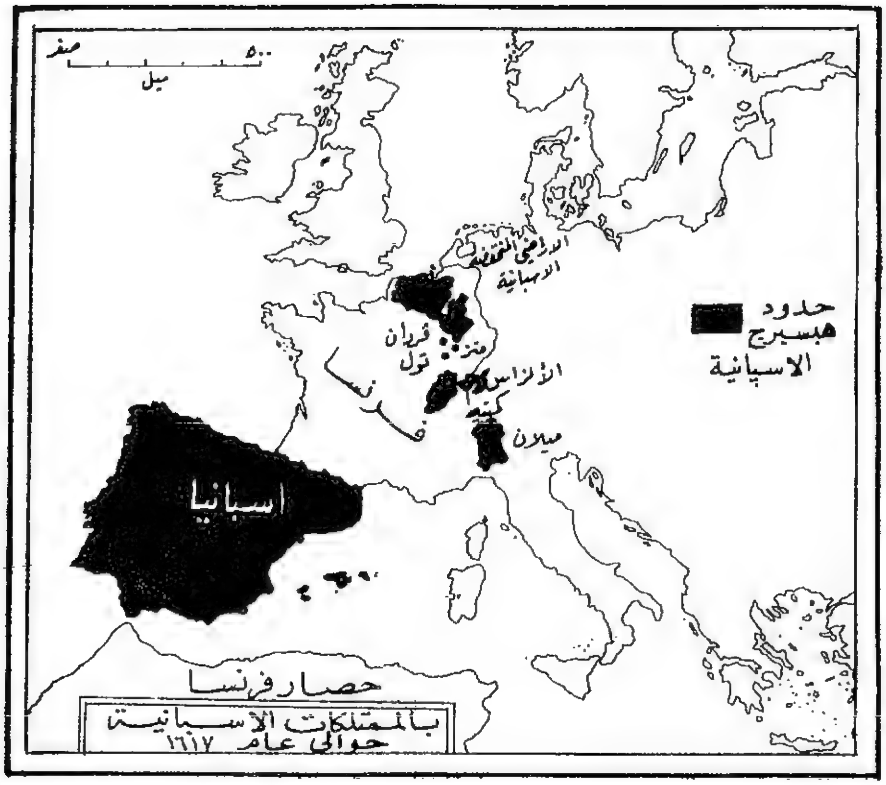
إمبراطورية شارل الخامس فى عام ١٥٢٥



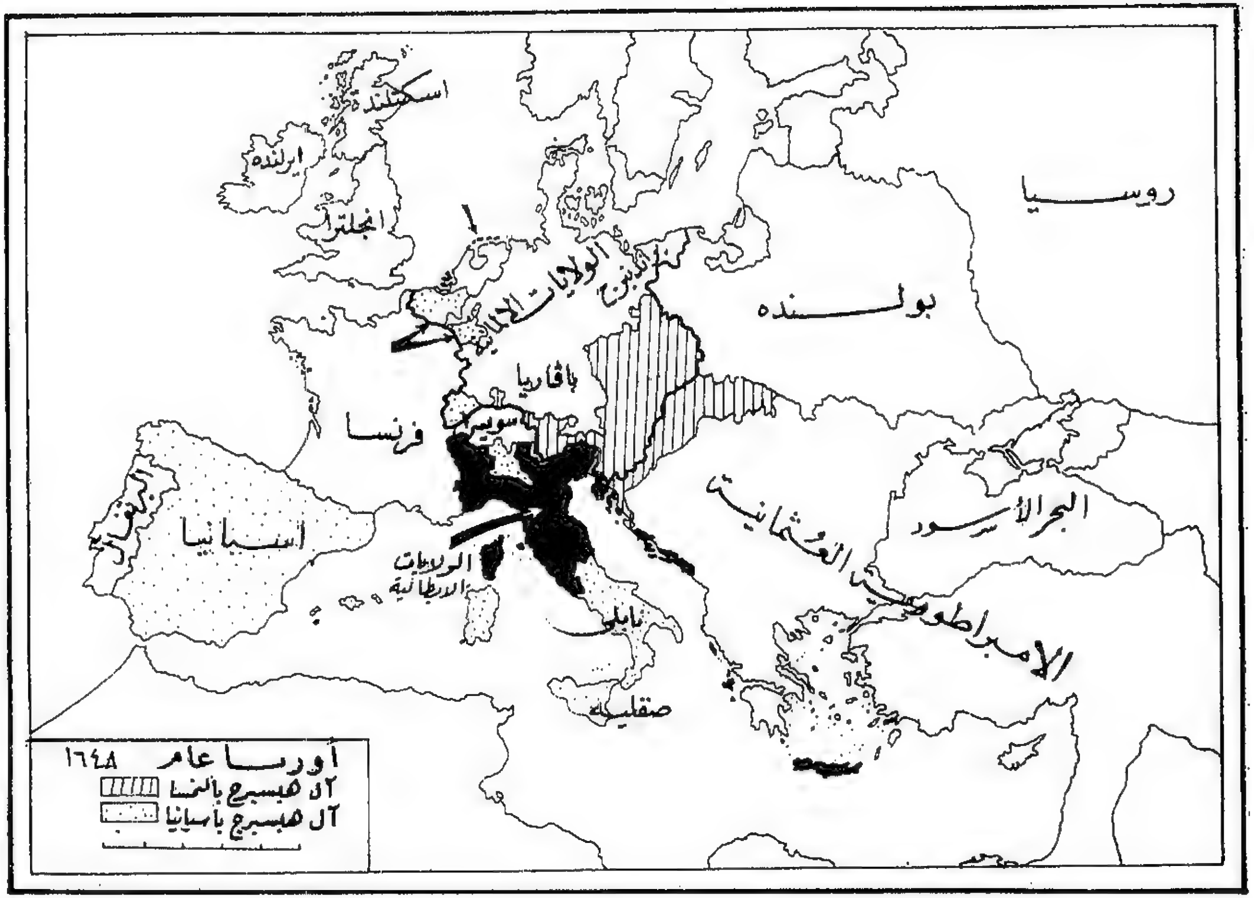
توزيع الكاثوليك والبروتستانت فى أوروبا فى عام ١٦١٠



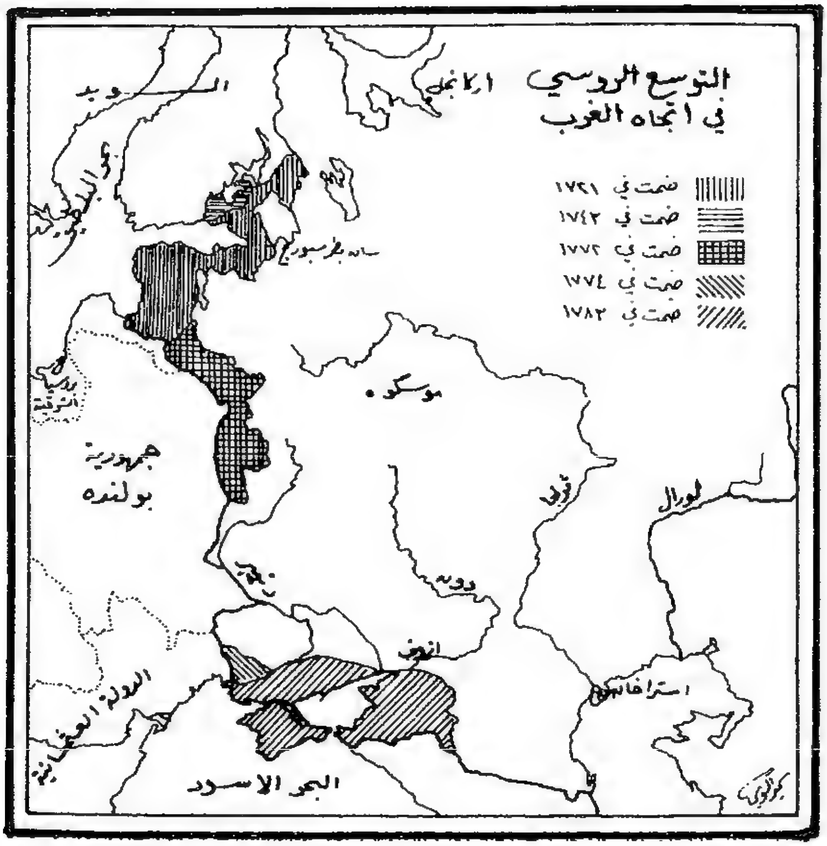
فرنسا أثناء الحروب الدينية

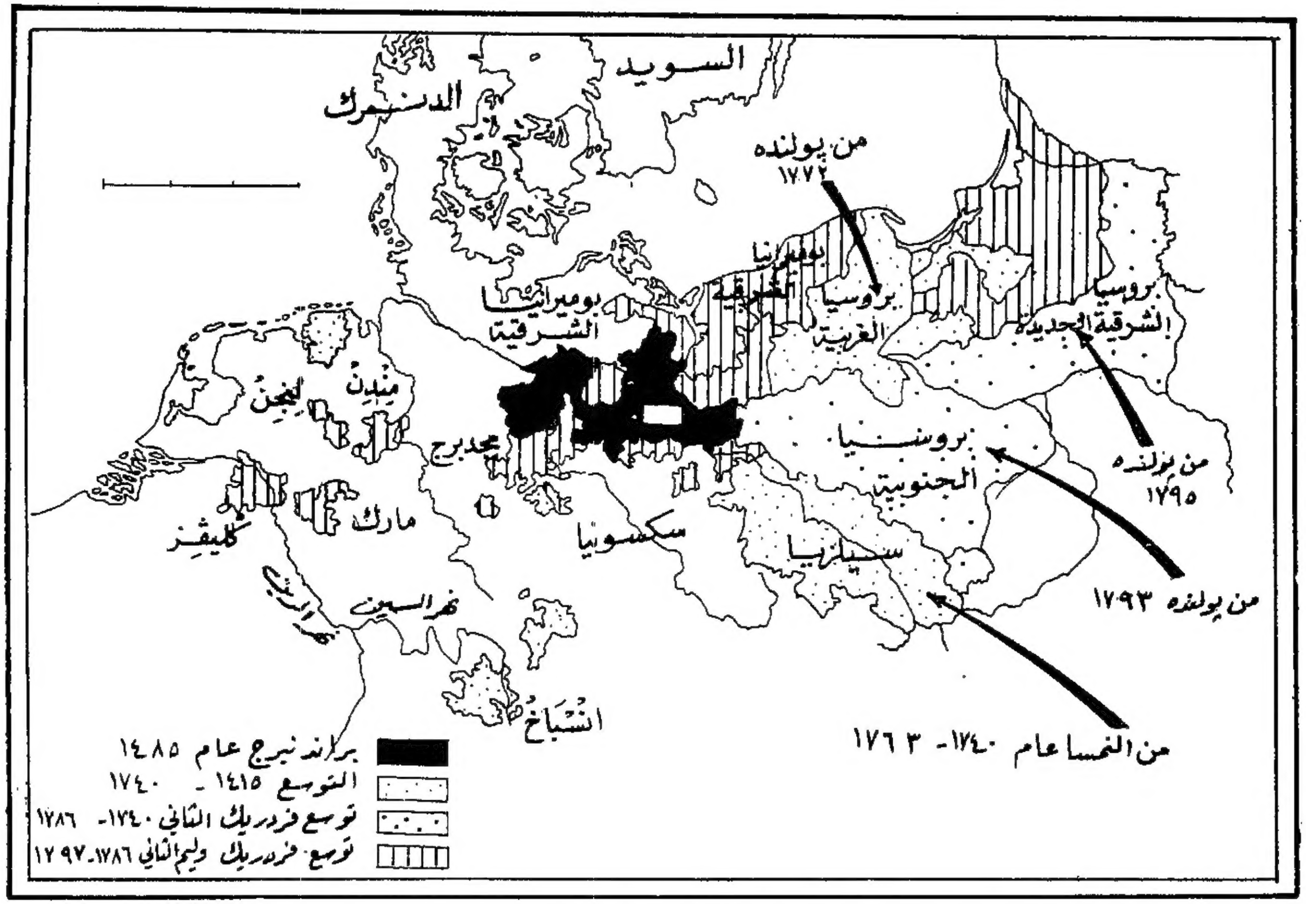


حصار فرنسا بالممتلكات الاسبانية حوالي عام ١٦١٧

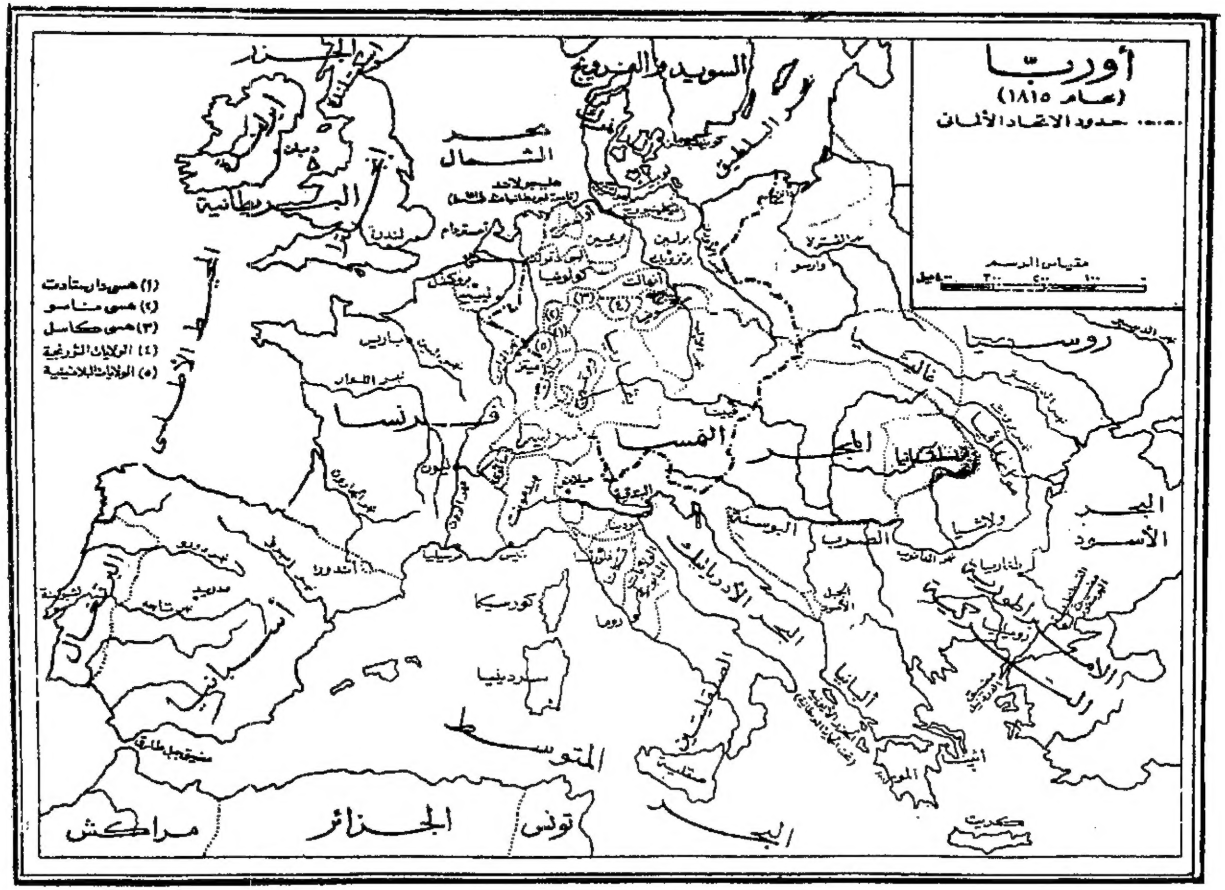


أوربا عام ١٦٤٨
آل هبسبرج بالنمسا
آل هبسبرج باسبانيا
روسيا
بولنده
اسكتلنده
ايرلنده
انجلترا
فرنسا
بافاريا
سويسرا
اسبانيا
البرتغال
الولايات البابوية
نابلي
صقلية
البحر الأسود
الإمبراطورية العثمانية


التوسع الروسي
في اتجاه الغرب
ضمت في ١٧٢١
ضمت في ١٧٤٣
ضمت في ١٧٧٢
ضمت في ١٧٧٤
ضمت في ١٧٨٣
اركانجل
موسكو
جمهورية
بولنده
دونيه
ازوف
استراخان
البحر الاسود



السويد
الدنمرك
من بولنده
١٧٧٢
بوميرانيا
الشرقية
بروسيا
الغربية
بروسيا
الشرقية الجديدة
منِدن
ابخن
مجدبرج
بروسيا
الجنوبية
من بولنده
١٧٩٥
مارك
كليفز
سكسونيا
سيليزيا
من بولنده ١٧٩٣
نهر السين
انسباخ
من النمسا عام ١٧٤٠ - ١٧٦٣
براندنبرج عام ١٤٨٥
التوسع ١٤١٥ - ١٧٤٠
توسع فردريك الثاني ١٧٤٠ - ١٧٨٦
توسع فردريك وليم الثاني ١٧٨٦ - ١٧٩٧



أوروبا
(عام ١٨١٥)
حدود الاتحاد الألماني
مقياس الرسم
(١) هس دارمشتادت
(٢) هس ناسو
(٣) هس كاسل
(٤) الولايات الثورنجية
(٥) الولايات اللانشية
بحر الشمال
السويد والنرويج
البلطيق
روسيا
فرنسا
النمسا
المجر
البحر الأسود
البحر المتوسط
كورسيكا
سردينيا
البحر الأدرياتيك
الجزائر
تونس
مراكش
كريت
باريس
بروكسل
أمستردام
لندن
برلين
وارسو
ولاشيا
الصرب
البوسنة
ألبانيا

الفهرس في صفحة ٣٤٧